
موسوعة
جغرافية مصر وتاريخها
نوبليس

موسوعة

جغرافية مصر وتاريخها

(١٦)

عبد الرحمان الجبرتي

موسوعة

جغرافية مصر وتاريخها

المجلّد السادس عشر

عجائب الآثار في التراجم والأخبار - ٤ -

الجزء الرابع: الغزوة الفرنسية - ٥ -

صدمة الغرب

إعداد وتحقيق

عبد العزيز جمال الدين

دار نوبليس

اسم الموسوعة: **موسوعة جغرافية مصر وتاريخها**

اسم الكتــــاب: عجائب الآثار في التراجم والأخبار - ٤ -
الجزء الرابع: الغزوة الفرنسية - ٥ -
صدمة الغرب

المؤلـــــــف: عبد الرحمان الجبرتي

إعداد وتحقيق: عبد العزيز جمال الدين

قيـاس الكتـاب: ١٧ × ٢٤

عدد الصفحـات: ٢٨٠

عدد صفحات الموسوعة: ٥٧٨٤

مكـان النشـر: بيروت

دار النشر والتوزيع: دار نوبِليس

تلفاكس: ٧٥ ٣٤ ٥٨ (١) ٩٦١

هاتــف: ٢١ ١١ ٥٨ (١) ٩٦١ - ٢١ ١١ ٥٨ (٣) ٩٦١

صندوق بريـد: ٧٠ ٦٩ ١٦ بيروت لبنان

بريد إلكتروني: info@nobilis-int.com

الطبعة الأولى: ٢٠١٢

EAN 9786144031353

ISBN 978-614-403-135-3

واستهل شهر رجب الفرد سنة ١٢١٦

واستهل شهر رجب الفرد سنة ١٢١٦

فكان أوله يوم الأحد فى ثانيه سافر سليمان أغا تابع صالح أغا إلى إسلامبول وفيه أمر الوزير الأمرا المحبوسين بأن يكتبوا كتابا إلى الإنكليز* بأنهم أتباع السلطان وتحت طاعته وأمره إن شاء أبقاهم فى إمارتهم، وإن شاء قلدهم مناصب فى ولايات أخرى، وإن شا طلبهم يذهبون إليه، فلا دخل لكم بيننا وبينه وكلام فى معنى ذلك، فأرسلوا [أى الإنجليز] يقولون إن هذا الكلام لا عبرة به فإنهم مسجونون وتحت أمركم ومكتوب المقهور المكره لا يعمل به، فإن كان ولابد فأرسلوهم إلينا لنخاطبهم ونعلم ضميرهم وحقيقة حالهم.

* تدخل الإنجليز للأفراج عن الأمرا المماليك.

فلما كان ليلة الاثنين تاسعه أحضر الوزير إبراهيم بك والأمرا وأعلمهم أن قصده إرسالهم إلى بر الجيزة عند الإنجليز ليتفسحوا ذلك اليوم ويخبروهم أنهم مطيعون للسلطان وتحت أوامره، وأن المراسلة التى أرسلوها عن طيب قلب منهم وليسوا مكروهين فى ذلك، فأظهر إبراهيم بك التمنع عن الذهاب وأنه لا غرض له فى الذهاب إلى مخالفى الدين فجزم عليه ووعده خيراً وعاهدهم وحلفهم.

فنزلوا وركبوا من عنده فى الصباح وما صدقوا بالخلاص، وعدوا إلى الجيزة وذهبوا إلى عند الإنجليز فتبعهم أتباعهم ومماليكهم يرمحون إليهم ويلحقون بهم فأقاموا هناك ولم يرجعوا فانتظر الوزير رجوعهم خمسة أيام وأرسل إليهم يدعوهم إلى الرجوع حكم عهدهم، فامتنع إبراهيم بك وتكلم بما فى ضميره من قهره من الوزير وخيانته له.

وفى يوم السبت عملوا جمعية ببيت الشيخ السادات واجتمع المشايخ والوجاقلية وذلك بأمر من الوزير، وأرسل إليهم مكاتبة وفى ضمنها النصيحة والرجوع إلى الطاعة فأرسلوا فى جواب الرسالة يقولون إنهم ليسوا مخالفين ولا عاصين وأنهم مطيعون لأمر الدولة وإنما تأخرهم بسبب خوفهم وخصوصاً ما وقع لإخوانهم بإسكندرية وأنهم لم يذهبوا إلى عند الإنجليز إلا لعلمهم أنهم عسكر السلطان ومن المساعدين له على أعدايه ومتى ظهر لهم أمر يرتاحون فيه رجعوا إلى الطاعة ونحو ذلك من الكلام.

وفى يوم الجمعة سابع عشرينه حضر عابدى بك نسيب مولانا الوزير فخرج إليه غالب أعيان العثمانية والجاويشية وطاهر باشا وعسكر الأرنؤد وتلقوه ودخل بحموله فى موكب جليل، وكان حضرة الوزير حاصلا عنده توعك وغالب أوقاته محتجب عن ملاقاة الناس.

وفيه ورد الخبر بسفر قبطان باشا من ساحل أبى قير إلى الديار الرومية فى منتصف الشهر، وأما محمد باشا [خسروا] الوالى على مصر فإنه لم يزل مقيما بأبى قير وحضر خازنداره وسكن ببيت البكرى بالأزبكية.

واستهل شهر شعبان بيوم الثلاثا سنة ١٢١٦

فيه حضر يوسف أفندى وبيده مرسوم بولايته على نقابة الأشراف* فبات ببولاق وأرسل ناسا يعلمون بحضوره فلم يخرج لملاقاته أحد، ثم إن بعض الناس أحضر إليه فرسا فركبه فى ثانى يوم وحضر إلى مصر، وأشاع أنه متولى نقابة الإشراف ومشيخة المدرسة الجبانية.

* قصة التركى الذى حاول أن يكون نقيبا للأشراف فى مصر.

وخبر ذلك الإنسان أنه كان يبيع الخردة واليميش بحانوت بخان الخليلى، وهو من متصوفة الأتراك الذين يتعاطون الوعظ والإقرا باللغة التركية، فمات شيخ رواق الأروام بالأزهر، فاشتاقت نفسه للمشيخة على الرواق المذكور فتولاها بمعونة بعض سفهاهم، فنقم عليه الطايفة أموراً واختلاسات من الوقف فتعصبوا عليه وعزلوه وولوا مكانه السيد حسين أفندى المولى الآن، فحنق من ذلك وداخله قهر عظيم وحقد على حسين أفندى المذكور وأضمر له فى نفسه المكروه فدعاه يوما إلى داره ودس له سما فى شرابه فنجاه الله من ذلك، شربت ابنة يوسف أفندى الداعى تلك الكاسة المسمومة غلطا وماتت وشاع ذلك وتواترت حكايته بين الناس ورجع كيده عليه وذاق وبال أمره كما قيل:

ومن يحتفر بيرا ليوقع غيره
سيوقع بالبير الذى هو حافر

ثم إنه سافر إلى إسلامبول وأقام هناك مدة إقامة الفرنسيس بمصر، ولم يزل يتحيل ويتداخل فى بعض حواشى الدولة، وأعرض بطلب النقابة ومشيخة الحبانية* فأعطوه ذلك لعدم علمهم بشأنه وظنهم أنه أهل لذلك بقوله لهم إنه كان شيخا على الأزهر ومعرفته بالعلم.

فلما حصل بمصر وظهر أمره تجمعت أعيان الأشراف وقالوا لا يكون هذا حاكما ولا نقيبا علينا أبدا، وتنوقل خبره وظهر حاله لأكابر الدولة وحضرة الصدر الأعظم فلم يصغوا إليه ولم يسعفوه وأهمل أمره، وهكذا شأن ريسا الدولة أدام الله بقاهم، إذا تبين لهم الصواب فى قضية لا يعدلون إلى خلافه.

* هى فى الاساس تكية اقامها السلطان محمود ابن السلطان مصطفى سنة ١١٦٤ للدراويش الاتراك تحتوى على غرف لهم ومطبخ ومكتبة.
وبخصوص هذه الواقعة فإنه بعد أن أهمل أمر يوسف أفندى عاد الباشا وعينه فى ذات المنصب. انظر وقائع يوم الأربعاء ٢٩ رمضان.
وهكذا كان مدح الجبرتى فى الفقرة التالية فى غير محله.

وفيه من الحوادث أنه تقيد بأبواب القاهرة بعض من نصارى القبط ومعهم بعض من العسكر فصاروا يأخذون دراهم من كل من وجدوا معهم شيًا سوا كان داخلا أو خارجا بحسب اجتهادهم وكذلك ما يجلب من الأرياف وزاد تعديهم فعم الضرر وعظم الخطب وغلت الأسعار وكل من ورد بشي يبيعه يشتط فى ثمنه ويحتج بأنه دفع عليه كذا وكذا من دراهم المكس فلا يسع المشترى إلا التسليم لقوله والتصديق له وقبول عذره.

والسبب فى ذلك أن الذين تقيدوا بديوان العشور بساحل بولاق دس عليهم بعض المتقيدين معهم من الأقباط أن كثيرا من المتاجر التى يؤخذ عليها العشور يذهب بها أربابها من طريق البر ويدخلون بها فى أوقات الغفلة تحاشيا عن دفع ما عليها، وبذلك لا يجتمع المال المقرر بالديوان من ذلك، فأذن كبرا الديوان بذلك فانفتح لهم بذلك الباب فولجوه ولم يحسبوا للعاقبة من حساب وزادوا فى الجور والفضايح وأظهروا ما فى نفوسهم من القبايح، فساءت الظنون واستغاث المستغيثون، وأكثر سخاف الأحلام بما لا طايل تحته من الكلام كما قيل فى هذا المعنى.

وكنا نستطب إذا مرضنا
فصار الداء من قبل الطبيب

إلى أن زاد التشكي وأنهى الأمر إلى الوزير فأمر بإبطال ذلك وانجلت تلك الغمة.

وفيه أيضا أعرض طايفة القبانية وتشكوا مما رتب عليهم من الجمرك السنوى فأطلق لهم الأمر برفعه عنهم.

وفيه قبضوا على رجل من المفسدين بإقليم المنوفية يقال له راضى النجار وأحضروه إلى مصر وقطعت رأسه بالرميلة.

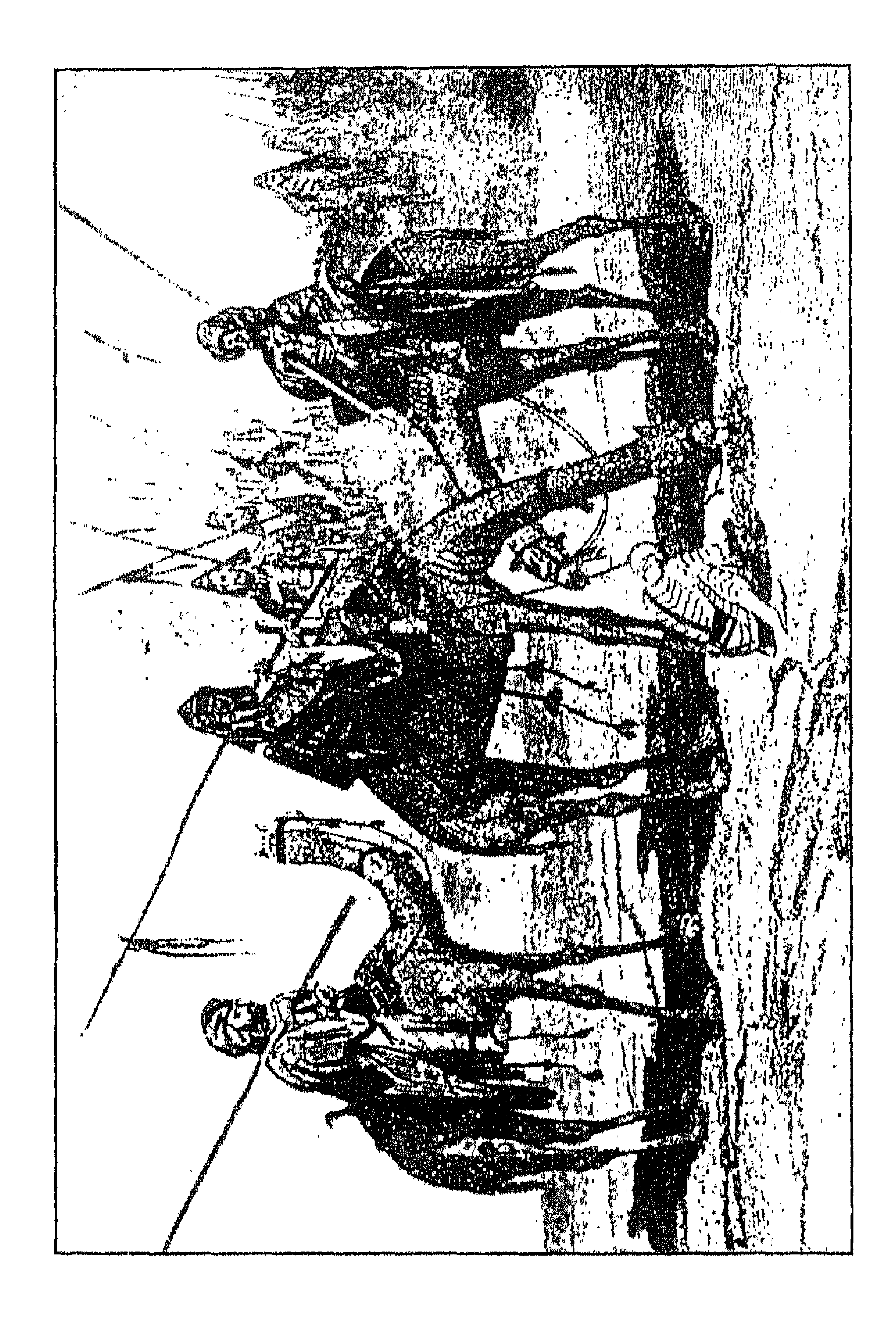
* فرمان سلطانى إلى البدو العرب فى مصر.

وفيه كتب فرمان* إلى ناحية البحرية وصورته:

صدر الفرمان العالى السلطانى وأمرنا الجليل الخاقانى إلى قدوة النواب المتشرعين نايب البحيرة زيد علمه وإلى كامل المشايخ من عربان الهنادى والافراد والجمعيات والبهجة وبنى عونة عموما زيد فى عشيرتهم، بعد وصول التوقيع الرفيع الهمايونى الحكمى، تحيطون علما أنكم أنهيتم إلى ديواننا الهمايونى أنكم من قديم الزمان منازلكم أبا عن جد فى فيافى البحيرة وفدافدها* وأنكم تحت قدم الطاعة والمحافظة للرعايا والطرقات الواقعة بناحية البحيرة، والتمستم من عواطف مراحم سلطنتنا السنية ودولتنا الخاقانية استقراركم فى منازلكم القديمة كما كنتم حكم السنين الخوالى فحيث أنه جرت العادة أن قبايل العربان فى الديار المصرية كل قبيلة لها منزلة مخصوصة بهم لا ينازعهم فيها غيرهم. ومنزلة البحيرة من قديم الزمان منزلكم فبحسب التماسكم من مراحم دولتنا العلية قد أقررناكم فى منازلكم المزبورة* كما كنتم قديما نازلين بها من غير منازع لكم بالشروط التى تعهدتهم بها وقبلتموها فى حضور صدرنا الأعظم، وكتبتم بها سندا عليكم، وهى أن توفوا بعدم التعدى وإيصال الرزية والمضرة ولو مقدار ذرة إلى الرعايا وديعة خالق البرايا والمحافظة على الطرقات وعدم إتلاف شى من مزروغات أهل البلاد وإضاعة مواشيهم.

* فدافدها: مفردها فَدْفد: الفلاة.

* المزبورة: المبنية بالحجارة.



وأن لا تسكنوا عندكم شقيا من اللصوص وقطاع الطريق ونهب أموالى الناس وقتل النفوس بغير حق شرعى.

وقد نذرتم على أنفسكم أنه متى اختل شرط من هذه الشروط المذكورة تقومون بدفع مايتى ألف قرش إلى خزينة مصر.

فبنا على ذلكَ أصدرنا فرماننا الشريف وأمرنا العالى المنيف ليكون معلومكم أنه من قاعدة الديار المصرية كل قبيلة من العربان لها منزلة تنزلها مخصوصة بها.

وقد أقررناكم فى منازلكم القديمة فى فيافى البحيرة وفدافدها بالشروط السابقة الذكر التى التزمتموها، والنذور التى قبلتموها وتعهدتم بها وكتبتم على أنفسكم سندا أنه متى اختل شرط من الشروط المذكورة بعد بيان دفعكم المايتى ألف قرش يكون إخراجكم من البحيرة وبلادها وفيافيها والطلوع من حقكم.

فاعلموا بموجب مضمون أمرنا الشريف كما هو مشروح وتجنبوا خلاف ما هو مسطور وموضوح اعلموه واعتمدوه غاية الاعتماد والحذر ثم الحذر من المخالفة.

وكتب بمضمونه حجة وأمضى عليها قاضى العسكر وقيدت بالسجل. وهى من إنشا صاحبنا اللبيب الأديب النظام الناثر جامع فضايل المآثر السيد إسماعيل الشهير بالخشاب ونصه:

لما ورد الفرمان الشريف الواجب القبول والإجلال والإعظام والتشاريف اليانعة أزاهر رياض فصاحته، المحلاة بعقود

البلاغة أجياد معانى عبارته، المشتمل على فصول من الترغيب والترهيب التى يعجز كل بليغ لبيب عن سلوك أسلوبها العجيب.

من حضرة مولانا الصدر الأعظم والمشير المفخم عضد الدولة العلية ولسانها وحسامها الماضى وسنانها، من انجلى عنا ظلام الشرك بصباح غرته السنية، وأشرق ضيا حسن سيرته المرضية، مولانا الوزير يوسف باشا بلغه الله من المرادات ماشا.

خطابا إلى ساير الحكام والمتشرعين والنواب وسكان إقليم البحيرة من قبايل الأعراب، ومن التحق بهم من الأبنا والذرارى والعشاير المنجمعين معهم فى تلك الفدافد والبرارى وماتضمنه من تأمينهم فى منازلهم وأوطانهم وعشيرتهم وجيرانهم، والنظر إليهم بعين الإحسان والرعاية وإدخالهم سرادق الحفظ والوقاية بشرط أن يكونوا على قدم الطاعة، وأن يسلكوا سبيل السنة والجماعة، وأن يتجنبوا الخلاف ويعاملوا من يمر بهم بالإكرام والإعزاز والإنصاف واردين مشرب الوفاق بالاتفاق غير مثيرين للفتن والنزاع والشقاق، وأن لا يتجمعوا على الضلال ويتحزبوا ولا يقطعوا الطريق على من يمر بهم ويتعصبوا «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادًا أن يقتلوا أو يصلبوا».

وأقطع حضرة مولانا الصدر الأعظم المشار إليه خلد الله جزيل نعمه وفضله عليه كل قبيلة منهم منازلهم المخصوصة بهم المعهودة وأظلهم بظلال زمانه الظليلة الممدودة حين

التمسوا ذلك من مراحم دولته وعوارف عواطف رأفته، بعد التزامهم بما سلف من الشروط على الوجه المشروح المحرر المضبوط، وعلى أنهم إن عصوا أمره وخالفوه ونسوا ما تلى عليهم أو نسخوه أو قطعوا الطريق ونهبوا الأموال أو آووا شقيا ممن يفعل ذلك بحال من الأحوال أخذتهم صاعقة العذاب الهون وحل بهم من العذاب ما لا يطيقون ، ووقعوا من غضب هذه الدولة العلية عليهم فى العذاب الشديد، ذلك بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد، بعد أن تسلب أموالهم ويتلاشى حالهم حتى يصيروا لاعين ولا أثر، ولا مخبر ولا خبر، ولا معالم ولا معاهد، ولامشارع ولا موارد، جزا بما أسلفوا، وعقابا على ما اقترفوا إذا خالفوا. وعاهد ريساهم حضرة مولانا الصدر الأعظم المشار إليه على ما تقدم ذكره، وكتب لهم بذلك التوقيع السلطانى والأمر الخاقانى المتضمن لما تقدم من المعانى، المتوج بالعلامة الشريفة والطرة السلطانية المنيفة المبدا بذكره، المؤرخ بتاريخه، وحضر به إلى حضرة مولانا شيخ الإسلام المومى إليه أعلاه كل من فلان وفلان، وهم مشايخ عربان البحيرة المرقومون.

ولما تأمل فيه فأحاط علمه الكريم ببديع معانيه ونزه طرفه فى رياض فصوله ورآه جاريا على قواعد الشرع وأصوله، والتمس منه الجماعة المذكورون كتابة حجة متضمنة لفحواه، مؤكدة له مقوية لمعناه، أمر بكتابة هذا المرسوم على الوجه المشروح المرقوم، وقيد ذلك بالسجل المحفوظ ليراجع عند الاحتياج إليه والاحتجاج به، انتهى.

وفى خامسه نزل محمد باشا توسون* والى جدة من القلعة فى موكب وتوجه إلى العادلية قاصدا السفر إلى جدة.

* توفى توسون بجدة فى ١٣ محرم ١٢١٧هـ.

وفى يوم الأربعا تاسعه قبضوا على ثلاثة من النصارى الأروام المتزيين بزى العساكر الانكشارية ويعملون القبايح بالرعية، فرموا رقابهم أحدهم بالدرب الأحمر والثانى بسوق السلاح عند الرفاعى والثالث بالرميلة.

وفى يوم الخميس عاشره، أيضا قطعوا راس على جلبى تابع حسين أغاشنن بباب الخرق بين المفارق بأمر من الوزير، والسبب فى ذلك أن المرحوم يوسف باشا المذكور الكبير المتوفى بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام كان أودع عنده حسين أغا شنن وديعة فلما ملك الفرنسيس مصر وجرى ما جرى من ورود العرضى والصلح ونقضه، فاعتقد قصار العقول أن الأمر انتهى للفرنسيس، فتجاوزوا الحد وأغروابعضهم وتتبعوا العورات، وكشفوا عن المستورات، ودلوا الفرنسيس على المخبآت، وتقربوا إليهم بكل ما وصلت إليه همتهم، وراجت به سلعتهم والمسكين المقتول مد يده إلى بعض ودايع سيده فاختلس منها وتوسع فى نفسه وركب الخيول واتخذ له خدما وتداخل مع الفرنسيس وحواشيهم، فاستخفوا عقله واستفسروا منه فأخبرهم بالودايع والخبايا فاستخرجوها ونقلوها، وكانت شيا كثيرا جدا وأظهر أن ذلك لم يكن بواسطته ليوارى ما اختلسه لنفسه، ليكون له عذر فى ذلك، فلما حضر له سيده صحبة العرضى ذهب إليه وتملق وربط فى رقبته منديلا، فأهمل أمره إلى هذا الوقت حتى أطمأن خاطره، ثم

إنه أخبر بقصته الوزير لعلمه أنه سيطالب بوديعة يوسف باشا، فأمره بأن يرفع قصته إلى القاضى ويثبت تلك الدعوى لتبرأ ساحته عند الدولة ففعل، ثم أمر الوزير بقتل على جلبى المذكور فقتل وترك مرميا ثلاثة أيام بلياليها.

شهر رمضان المعظم سنة ١٢١٦

استهل بيوم الأربعا ولم يعمل فيه شنك الرؤيا* على العادة خوفا من عربدة العساكر، والمحتسب كان غايبا، فركب كتخداه بدلا عنه بموكبه فقط، ولم يركب معه مشايخ الحرف فذهب إلى المحكمة وثبت الهلال تلك الليلة ونودى بالصوم من الغد.

* رؤية هلال رمضان.

وفيه أمر الوزير محمد باشا العربى بالسفر إلى البلاد الشامية فبرز خيامة إلى خارج باب النصر، وخرج هو فى ثالثه وسافر وأشيع سفر الوزير أيضا، وذلك بعد أن حضرت أجوبة من الباب الأعلى.

وفى ثالثه : ارتحل محمد باشا المذكور.

وفى خامسه انتقل ريس أفندى من بيت الألفى وسكن فى بيت إسماعيل بك وشرعوا فى تعميره وإصلاحه لسكن والى مصر.

وفى ثانى عشره وصل محمد باشا [خسرو] والى مصر إلى شلقان.

وفى ثالث عشره ضربت عدة مدافع من الجيزة صباحا ومسا، فقيل إنه حضر ستة قناصل [الجليز] إلى الجيزة.

وفى خامس عشره حضر القناصل المذكورون إلى بيت الوزير وقابلوه فخلع عليهم خلعا ورجعوا إلى أماكنهم بالجيزة.

وفى ذلك اليوم وصل محمد باشا [خسرو] والى مصر إلى جهة بولاق ونصب وطاقه بالقرب من المكان المعروف بالحلى، ثم انتقل إلى جهة قبة النصر فلما كان يوم الجمعة سابع عشره وصل إلى المدينة من باب النصر فى موكبه وطوايفه على غير الهيئة المعتادة، ولم يلبس الطلخان تأدبا مع الوزير لحصوله بمصر، فتوجه إلى بيت الوزير وأفطر معه.

وفى تلك الليلة عزل خليل أفندى الرجائى من دفتردارية الدولة وقلد عوضه حسن أفندى باش محاسب، وسببه أن الوزير طلب خلعا ليخلعها على والى مصر وقناصل الإنكليز فتأخر حضورها فحنق، وسأل عن سبب تأخير المطلوب فقال الرسول إن الخازندار قال حتى استأذن الدفتردار، فحنق الوزير وأمر بحبس الخازندار وعزل الدفتردار وهرب السفير الذى كان بينهما.

وفيه انتقل الأمرا المصرلية المرادية من الجيزة إلى جزيرة الذهب ونصبوا وطاقهم بها، وأرسلوا ما كان عندهم من الحريم إلى دورهم بمصر، واستمر إبراهيم بك وعثمان بك الحسينى ومحمد بك المبدول وقاسم بك أبو سيف بالجيزة ولم يعلم حقيقةحالهم، ثم فى ثانى يوم لحق إبراهيم بك وباقى الجماعة بالآخرين، وخرج إليهم طلبهم ومتاعهم وأغراضهم.

فلما كان ليلة الاثنين تاسع عشره ركبوا ليلا بأجمعهم إلى الصعيد من الجهة الغربية وتخلف عنهم قاسم بك أبو سيف لمرضه، وكذلك تخلف عنهم محمد أغا أغات المتفرقة وآخرون.

وفي عشرينه نودى بالأمان على المماللك وأتباعهم ومن تخلف عنهم أو انقطع منهم وكذلك في ثانى يوم، وفيه قلد محمد باشا والى مصر حسن أغا وألبسه على جرجا.

وفي ثامن عشرينه عزل الباشا محمد أغا المعروف بالزربة من الكتخدايه وهو من المصرلية وولاه كشوفية الغربية وتقلد عوضه في الكتخدايه يوسف أغا أمين الضربخانة سابقا وتقلد كشوفية المنوفية وتقلد كشوفية القليوبية.

وفي ليلة الأربعا تاسع عشرينه ذهب يوسف أفندى* إلى عند والى مصر فقلده نقابة الأشراف وألبسه فروة بعد أن كان أهمل أمره.

* كان اشراف مصر قد رفضوه نقيباً عليهم ولكن خسرو باشا اعاده نقيباً عليهم رغم أنفهم. انظر وقائع أول شعبان ولكن سخط الاشراف عليه أدى في النهاية إلى عزله بعد شهرين ونصف في ١٥ ذى الحجة وتولى بدله السيد عمر مكرم.

وفيه عزل أغات الانكشارية وتولى آخر عوضه من العثمانية، ونزل المعزول إلى بولاق ليسافر إلى جهة الصعيد.

شهر شوال سنة ١٢١٦

استهل بيوم الخميس في ثالثه يوم السبت خرج جاليش الوزير إلى قبة النصر ونودى بخروج العساكر ويكون آخر خروجهم يوم الاثنين، فشرعوا في الخروج بأجمالهم ودوابهم، فلما كان يوم الاثنين خامسه خرج الوزير على حين غفلة إلى قبة النصر، وتتابع خروج الأثقال والأحمال والعساكر وحصل منهم في الناس عربدة وأذية.

وأخذ بعضهم من عطارين [بين] القصرين ثلاثة أرطال بن ثمنها ماية وعشرون نصفا فرمى له عشرين نصفا، فصرخ الرجل وقال اعطنى حقى فضربه وقتله، فأغلق الناس الحوانيت وانكفوا فى دورهم فاستمرت جميع حوانيت البلدة مغلوقة حتى سافرت العساكر وانتقلت من قبة النصر.

ولازم حضرة محمد باشا والى مصر وطاهر باشا على المرور والطواف بالشوارع بالتبديل وثياب التخفيف ليلا ونهاراً، ولولا ذلك لحصل من العسكر ما لا خير فيه.

وفيه كتبت فرمانات وألصقت بالشوارع ومفارق الطرق مضمونها بأن: لا أحد يتعرض بالأذية لغيره، وكل من كان له دعوة أو شكية فليرفع قصته إلى الباشا.

وكل إنسان يمشى فى زيه وقانونه القديم.

ويلازموا على الصلوات بالجماعة في المساجد ويوقدون قناديل ليلا على البيوت والمساجد والوكايل والخانات التى بالشوارع.

ولا يمر أحد من العسكر من بعد الغروب والذى يمشى بعد الغروب من أهل البلد يكون معه فانوس أو سراج.

ويبيعون ويشترون بالحظ والمصلحة، ولا أحد يخفى عنده أحدا من عسكر العرضى، والذى يبقى منهم بعد سفر الوزير من غير ورقة بيده يعاقب.

وإن القهاوى المحدثة جميعها تغلق ولا يفتح إلا القهاوى القديمة الكبار، ولا يبيت أحد من العسكر فى قهوة ولا

يبيعون المسكرات ولا يشترونها إلاالكفرة سراً وأمثال ذلك، فانسرت القلوب بتلك الفرمانات واستبشروا بالعدل.

وفيه خرجت عساكر وسافرت إلى جهة قبلى وعدتهم ستة الاف، وذلك بسبب الأمرا المصرلية الهربانين، وقرر لهم بأن من أتى برأس صنجق فله ألف دينار، أو كاشف فله ثلثماية، أو جندى أو مملوك فله ماية.

وفى يوم السبت ركب الوزير من قبة النصر وارتحل العرضى إلى الخانكة وعند ركوبه حضر إليه السيّد عمر أفندى [مكرم] النقيب وبعض المتعممين لوداعه، فأعطاهم صررا وقروا له الفاتحة.

وركب وخرج أيضاً فى ذلك اليوم بقية المشايخ وذهبوا إلى الخانكة أيضاً وودعوه ورجعوا.

وفى يوم الاثنين ثانى عشره أحضر الباشا محمد أغا الوالى وسليم أغا [أرنؤد] المحتسب وأمر برمى رقابهما فقطعوا رأس الوالى تحت بيت الباشا على الجسر والمحتسب عند باب الهوا وختم على دورهما فى تلك الساعة، وشاع الخبر فى البلد فارتاع الناس لذلك واستعظموه، وداخل الخوف أهل الحرف مثل الجزارين والخبازين وغيرهم، وعلقوا اللحم الكثير بحوانيتهم، وباعوه بتسعة أنصاف بعد أن كانوا يبيعونه بأحد عشر مع قلته واحتكاره، وكانوا نبهوا عليهم قبل ذلك فلم يستمعوا.

وفى صبحها يوم الثلاثا قلد على أغا الشعراوى الزعامة عوضا عن محمد أغا المقتول، وزين الفقار كتخدا أمين احتساب عوضا عن سليم أغا أرنؤد المقتول أيضاً.

واجتمعوا ببيت القاضى وحضر أرباب الحرف وعملوا قايمة تسعيرة* لجميع المبيعات من المأكولات وغيرها فعملوا اللحم الضانى بثمانية أنصاف، والماعز بسبعة، والجاموس بستة، وأن لا يباع فيه شى من السقط مثل الكبدة والقلب وغير ذلك، والسمن المسلى بماية وثمانين نصفا العشرة أرطال، بعد أن كانت بثلثماية وأربعين، والزبد العشرة بماية وستين بعد أن كانت بمايتين وأربعين، وجميع الخضراوات تباع بالرطل حتى الفجل والليمون والجبن الذى بخيره بثلاثة أنصاف بعد عشرة، والخبز رطل بنصف فضة وكذلك جميع الأشيا العطرية والأقمشة العشرة أحد عشر والراوية الما بعشرة أنصاف بعد عشرين وغير ذلك.

* تسعيرة جديدة (بالنصف فضة)
- اللحم الضانى / ٨
- الماعز/ ٧
- الجامس/ ٦
- السمن المسلى / ١٨٠ لكل عشرة أرطال.
- الزبد / ١٦٠ لكل عشرة أرطال
- الجبن / ٣ للرطل
- الخبز/ ٠,٥ للرطل.

ورسموا بأن الرطل فى الأوزان مطلقا يكون قبانى* اثنى عشر وقية وأبطلوا الرطل الزياتى* الذى يوزن به الأدهان والأجبان والخضراوات وهو أربعة عشر وقية فلم يستمر من هذه الأوامر بعد ذلك سوى نقص الأرطال.

* وكلمة قبانى معناها وبصفة خاصة الشخص الذى يستخدم الميزان (الرومانى). والرطل القبانى يزن ١٤٤ درهمًا يستخدم بصفة خاصة للسلع الصغيرة الوزن والحجم، وكان ميزانه غالباً يمسك باليد أو يعلق بحبل.

* أما الزياتى فلعله تحريفاً لكلمة الزياداتى أى الرطل المزيد حيث يساوى ١٦٨ درهما ويعتبر الفرق بينه وبين القبانى (٢٤ درهما) فرق وزن أو (طبة ميزان) من أجل تعويض حساب الأجولة أو الآنية والأغفلة التى توضع بها السلعة الموزونة. وهو يستخدم فى حالة السلع الكبيرة الوزن أو الحجم.

ولما برزت هذه الرسوم هرع الناس لشرا اللحم والمأكولات حتى فرغ الخبز من الأفران وشق المحتسب فقبض على جماعة من الخبازين وخزم آنافهم وعلق فيها الخبز كذلك الجزارون خزمهم وعلق فى آنافهم اللحم، وأكثر حضرة الباشا وعظما أتباعه من التجسس وتبديل الشكل والملبوس والمرور والمشى فى الأزقة والأسواق حتى أخافوا الناس وانكف العسكر عن الأذية ولزموا الأدب، ومشى كل أحد فى طريقته وأدبه ومشت النسا كعادتهن فى الأسواق لقضا

أشغالهن فلم يتعرض لهن أحد من العسكر كما كانوا يفعلون.

وفى يوم الخميس خامس عشره ارتحل الوزير من بلبيس.

وفى يوم السبت سابع عشره سافر خليل أفندى الرجائى الدفتردار المعزول فى البحر من طريق دمياط وانتقل شريف أفندى الدفتردار إلى الدار التى كان بها الأول وهى دار البارودى بباب الخرق.

وفى يوم الاثنين تاسع عشره كان موكب أمير الحاج عثمان بك وصحبته المحمل على العادة وخرج فى أبهة ورونق وانسرت القلوب فى ذلك اليوم إلى لقاه ونجزله جميع اللوازم مثل الصرة وعوايد العربان وغير ذلك، وكان المتقيد بتشهيل ذلك وبجميع اللوازم حضرة شريف محمد أفندى الدفتردار.

وفى يوم الثلاثا سابع عشرينه شنقوا* ثلاثة أنفار فى جهات مختلفة تزيوا بزى العسكر يقال إنهم من الفرنسيس افتقدوهم من العسكر المتوجه إلى الحج.

وفى ذلك اليوم عمل حضرة الباشا ديوانا وأرسل الجاويشية إلى جميع المشايخ والعلما وخلع عليهم خلعا سنية زيادة على العادة أكثر من سبعين خلعة، وكذلك على الوجاقلية والأفندية وجبر خاطر الجميع، وكانت العادة فى هذا التلبيس أن يكون عند قدومه، والسبب فى تأخيره لهذا الوقت تعويق حضور المراكب التى بها تلك الخلع.

* يلاحظ هنا أن الاعدام يتم بالشنق وليس بقطع الرقبة كما كانت العادة سابقا، اما بخصوص الفرنساوية الذين عملوا لدى الأمراء المماليك والجيش العثمانى فتذكر مجلة الهلال الصادرة فى أول نوفمبر عام ١٩٣٣ أن شارل جليار مؤسس متحف بونابرت بالقاهرة - والذى نقل بعد ذلك إلى فرنسا - أطلعها على وثائق تفيد - وأنه كثر فرار الجنود الفرنسيين من الجيش على أثر نزول الانجليز فى أبى قير فى ١٧ سبتمبر سنة ١٨٠١، وارسل القائد الفرنسى «مينو» إلى القائد الانجليزى

وفيه يوم الخميس تاسع عشرينه انتقل أمير الحاج بالركب من الحصوة إلى البركة.

وفيه ركب حضرة محمد باشا إلى الإمام الشافعي فزاره وأنعم على الخدمة [الخدم] بستين ألف فضة، وألبسهم خلعا وفرق دنانير ودراهم كثير في غير محلها. وكذلك يوم الجمعة ركب وتوجه إلى المشهد الحسيني فصلى الجمعة، وخلع على الإمام الراتب والخطيب وكبير الخدمة فراوى وفرق دراهم كثيرة في طريقة، ورجع من ناحية الجمالية وكان في موكب جليل على الغاية.

وفيه أمر المشار إليه بنصب عدة مشانق عند أبواب المدينة برسم الباعة والمتسببين والخبازين وغيرهم، وأكثر أرباب الدرك من المرور والتجسس والتخويف وعلقوا عدة أناس من الباعة على حوانيتهم وخزموهم من آنافهم، فرخص السعر وكثرت البضايع والمأكولات.

وحصل الأمن في الطرق وانكفت العربان وقطاع الطريق فحضرت الفلاحون من البلاد وكثر السمن والجبن والأغنام وكبر العيش وكثر وجوده، وانحط سعر السمن عن التسعيرة عشرين نصفا لكثرته، ولله الحمد.

وهاب الناس هذا الباشا وخافوه وصاروا يترنمون به في البلاد والأرياف ويغنون بذكره حتى الصبيان في الأسواق، ويقولون سيدى يامحمد باشا ياصاحب الذهب الأصفر وغير ذلك، وكان في مبتدأ أمره يظنه الظمآن ما.

يطلب منه تسليم أولئك الفارين، لكن القائد الانجليزى سهل لهم الفرار إلى المماليك. وبعد رحيل القوات الفرنسية وقعت الحادثة المذكورة هنا للفرنسيين الثلاثة، وكان بعض رفاقهم عازمين علي اللحاق بالمحمل للخروج من مصر لكن ما حل باخوانهم الثلاثة جعلهم يخافون على حياتهم فأختبأوا فى القاهرة وعلم الحاكم التركى محمد باشا بأن فريقا منهم موجود بالقاهرة فطلبهم وكلفهم بتدريب فرقة من السودانيين (التكرور]، اطلق عليها محمد باشا اسم «النظام الجديد».

وفى اثناء الصراع بين محمد باشا ومحمد على باشا فرّ محمد باشا بعد أن أنقذ حياته جنده من الفرنسيين وكان على رأسهم الكاتبن «كومب» «Combes»، وهو المعروف باليوزباشى «سليم». ومن أغرب الحوادث التى وقعت لليوزباشى سليم انه هاجم حامية طرابلسية بجند النظام الجديد وأسر قائدها الذى اكتشف انه كان زميلاً له فى الجيش الفرنسى فرّ إلى طرابلس الغرب بعد موقعة أبى قير وتسمى باسم «زيد عبد الله الطولونى».

وقد تقرب «سليم» إلى محمد على باشا عن طريق زميل له يدعى «دورو» كان من الهاربين كذلك من الجيش الفرنسى وتسمى باسم «عبد الله الدورى». وإلى جانب هؤلاء كان هناك حوالى العشرين فارساً من الفرنسيين ضمن قوات المماليك يحكى أن محمد على أنقذ حياتهم عندما قضى على المماليك فى مذبحته المشهورة وضمهم إلى جنوده.

شهر القعدة سنة ١٢١٦

استهل بيوم السبت فيه نهبت العربان قافلة التجارة الواصلة من السويس.

وفى ثانيه حضر السيد أحمد الزرو الخليلى التاجر* بوكالة الصابون بديوان الباشا وتداعى على جماعة من التجار وثبت له عليهم عشرة آلاف ريال فأمر الباشا بسجنهم.

* قصة التاجر أحمد الزرو وقتل الباشا له بعد أن أعطاه الأمان طمعاً فى امواله.

وفى رابعه يوم الثلاثا حضر السيد أحمد المذكور إلى بيت الباشا فأمر بقتله فقبض عليه جماعة من العسكر وقطعوا رأسه عند المشنقة حيث قنطرة المغربى على قارعة الطريق، وختموا على موجوده، وأخذ الباشا ما ثبت له على المحبوسين، والسبب فى ذلك أن بعضهم أوشى إلى الباشا أنه كان يحب الفرنسيس ويميل إليهم ويسالمهم وعند خروجهم هرب إلى الطور خوفا من العثمانية ثم حضر بأمان من الوزير.

وفى يوم الجمعة حضر المشار إليه إلى الجامع الأزهر بالموكب فصلى به الجمعة وخلع على الخطيب فروة سمور وفرق ونثر دراهم ودنانير على الناس فى ذهابه وإيابه وتقيد قبى كتخداه إسماعيل أفندى شقبون بتوزيع دراهم على الطلبة والمجاورين بالأروقة والعميان والفقرا ففرقوا فيهم نحو خمسة أكياس.

وفيه عمل الشيخ عبد الله الشرقاوى وليمة* لزواج ابنه ودعا حضرة المشار إليه فحضر فى يوم الأحد ثانيه وحضر أيضا شريف أفندى وعثمان كتخدا الدولة فتغدوا عنده،

* وليمة الشيخ الشرقاوى بمناسبة زواج ابنه.

وأنعم على ولد الشيخ بخمسة أكياس رومية وألبسه فروة سمور وفرق على الخدم والفراشين والقواء دنانير ودراهم بكثرة، وكذلك دفع عثمان كتخدا وشريف أفندى كل واحد منهم كيسا وانصرفوا.

وفى يوم الأربعا خامسه أحضر الباشا محمد أغا المعروف بالوسيع أغاة المغاربة وأمر بقتله فقطعوا راسه على الجسر ببركة الأزبكية قبالة بيت الباشا لأمور نقمها عليه وكتبت فى ورقة وضعت عند راسه.

وفى يوم الخميس سادسه توفى قاسم بك أبو سيف على فراشه.

وفى منتصفه وردت الأخبار من الجهة البحرية بضياع نحو الخمسين مركبا* حلت مراسيها من ثغر إسكندرية مشحونة بمتاجر وبضايع وكانت معوقة بكرنتيلة الإنكليز فلما أذنوا لهم بالسَّراح فما صدقوا بذلك فصادفتهم فرتونة خرجت عليهم فضاعوا بأجمعهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

* عاصفة بحرية تغرق نحو الخمسين مركبا بثغر الاسكندرية.

وفيه طلب الباشا المشايخ وتكلم معهم فى شأن الشيخ خليل البكرى وعزله* عن وظيفته وسأل رأيهم فى ذلك، فقالوا له الرأى لحضرتكم، فقال إن الشيخ خليل لا يصلح لسجادة الصديق وأريد عزله عنها من غير ضرر عليه بل أعطيه أقطاعا لنفقته، والقصد أن تروا رأيكم فيمن يصلح لذلك ومن يستحق، فطلبوا المهلة إلى غد وانحط الرأى بعد اختلاف كثير على تقليد ذلك لمحمد سعد من أولاد جلال

* الباشا يعزل الشيخ البكرى بموافقة المشايخ ويعين بدلاً منه محمد سعد على السجادة البكرية.

الدين، فلما حضروا فى اليوم الثانى أخبروه بذلك وأنه يستحقها إلا أنه فقير، فقال إن الفقر ليس بعيب، فأحضروه وألبسه فروة سمور وأركبه فرسا بعباءة مزركشة وأنعم عليه بثمانى ألف درهم، وكان من الفقرا المحتاجين للدرهم الفرد، ولما ذهب للسلام على الشيخ السادات خلع أيضًا فروة سمور عليه.

* وفاة الشيخ مصطفى الصاوى الشافعى. انظر ترجمته رقم ٦٢٨.

وفى يوم الاثنين رابع عشرينه توفى* إلى رحمة الله الشيخ مصطفى الصاوى الشافعى، وكان عالما نجيبا وشاعرا لبيبا وقد ناهز الستين.

وفيه جهزت عدة من العسكر إلى قبلى.

* خراج الفدان مایة وعشرون نصفا بعد أن كان أربعة آلاف نصف فضة.

وفيه نودى بأن خراج الفدان مایة وعشرون نصفا، وكذلك نودى برفع عوايد القاضى والأفندى التى كانت تؤخذ على إثبات الجامكية والجراية والرفق بعوايد تقاسيط الالتزام والأقطاع، وكتبوا بذلك أوراقا وألصقت بالأسواق وفى آخرها لا ظلم اليوم، أى مما تقرر إلا قبل اليوم.

فإن الفدان بلغ فى بعض القرى بمصاريفه ومغارمه أربعة آلاف نصف فضة، وأما بدعة القاضى وعوايد التقاسيط فزادت عن أيام الوزير وزاد على ذلك إهمال الأوراق ببيت الباشا لأجل العلامة شهرين وأربعة حتى يسأم صاحبها وتحفى أقدامه من كثرة الذهاب والمجى ومقاسات الذل من الخدم والأتباع ودفع البقشيش والرشوة على التعجيل أو يتركها وربما ضاعت بعد طول المدة فيحتاج إلى استيناف العمل.

شهر ذى الحجة الحرام سنة ١٢١٦

استهل بيوم الأحد فى رابعه حضر خمسة أشخاص من الكشاف القبالى من أتباع إبراهيم بك الوالى إلى مصر بأمان فقابلوا حضرة والى مصر وأنعم عليهم وألبسهم خلعا.

وفيه أنعم على خدامهم.

وفيه عمل الإنكليز كرنتيلة بالجيزة ومنعوا من يدخلها ومن يخرج منها، وذلك لتوهم وقوع الطاعون وورود الأخبار بكثرته فى جهة قبلى وبعض البلاد البحرية، وأما المدينة ففيها بعض تنقير*.

* تنقير: يقصد الجبرتى بالتنقير هنا انتشار محدود للطاعون.

وفى يوم الاثنين تاسعه كان يوم الوقوف بعرفة وعملوا فى ذلك اليوم شنكا ومدافع وحضرت أغنام وعجول كثيرة للأضحية حتى امتلت منها الطرقات وازدحمت الناس وأفراد العسكر على الشرا.

وغيمت السما فى ذلك اليوم وأمطرت مطرا كثيرا حتى توحلت الأزقة.

ونودى بفتح الحوانيت والقهاوى والمزينين ليلا وإظهار الفرح والسرو وإظهار بهجة العيد واستمر ضرب المدافع فى الأوقات الخمسة ونودى أيضًا بالمواظبة على الاجتماع للصلوات فى المساجد وحضور الجمعة من قبل الصلاة بنصف ساعة.

وأن يسقوا العطاش من الأسبلة ولا يبيعون ماها.

وأشيع سفر الإنكليز وسفر عثمان كتخدا الدولة وتشهيل الخزينة.

وفى خامس عشره حضر قاصد من الديار الرومية بمكاتبات وتقرير نقابة الأشراف للسيد [عمر أفندى مكرم] وعزل* يوسف أفندى، فلما كان فى صبحها يوم الأحد ركب السيد عمر المذكور وتوجه إلى عند الباشا فألبسه خلعة سمور ثم حضر إلى عند الدفتردار كذلك، وكانت مدة ولاية يوسف أفندى المعزول شهرين ونصفا.

* انظر تطور احداث نقابة الاشراف والصراع عليها بين التركى يوسف افندى وبين الاشراف فى وقائع أول شعبان ووقائع ٢٩ رمضان من هذه السنة (١٢١٦).

وفى يوم الأربعا ثامن عشره خرج أحمد أغا خورشيد أمير الإسكندرية إلى بولاق قاصدا السفر إلى منصبه وركب الباشا لوداعه فى عصريته، وضربوا عدة مدافع من بولاق وبر إنبابة.

ونودى فى ذلك اليوم بأن لا أحدا يوارى أحدا من الإنكليز أو يخبيه وكل من فعل ذلك عوقب.

وفى خامس عشرينه قبضوا على امرأة سرقت أمتعة من حمام وشنقوها عند باب زويلة.

(موجز أحداث هذا العام)

وانقضت هذه السنة وما تجدد بها من الحوادث التى من جملتها أن شريف أفندى الدفتردار أحدث على الرزق الأحباسية* المرصدة على الخيرات والمساجد وغيرها مال حماية على كل فدان عشرة أنصاف فضة وأقل وأكثر فى جميع الأراضى المصرية القبلية والبحرية، وحرروا بذلك

* فرض أموال على الرزق الأحباسية وزيادة جمع الأموال عن الاعتمادات الرسمية.

دفاتر فكل من كان تحت يده شى من ذلك قل أو كثر يكتب له عرضحال ويذهب به إلى ديوان الدفتردار فيعلم عليه علامته، وهى قوله «قيد» بمعنى أنه يطلب قيوده من محله التى تثبت دعواه ثم يذهب بذلك العرضحال* إلى كاتب الرزق فيكشف عليها فى الدفاتر المختصة بالإقليم الذى فيه الإرصاد بموجب الإذن بتلك العلامة، فيكتب له ذلك تحتها بعد أن يأخذ منه دراهم ويطيب خاطره بحسب كثرة الطين وقلته وحال الطالب، ويكتب تحته علامته فيرجع به إلى الدفتردار فيكتب تحته علامة غير الأولى فيذهب به إلى كاتب الميرى فيطالبه حينئذ بسنداته وحجج تصرفه ومن أين وصل إليه ذلك.

* الجبرتى يتتبع سلوك البيروقراطية فى ظل الاستبداد ويكشف عن فسادها.

فإن سهلت عليه الدنيا ودفع له ما أرضاه كتب له تحت ذلك عبارة بالتركى لثبوت ذلك وإلا تعنت على الطالب بضروب من العلل وكلفه بثبوت كل دقيقة يراها فى سنداته وعطل شغله فما يسع ذلك الشخص إلا بذل همته فى تتميم غرضه بأى وجه كان، إما أن يستدين أو يبيع ثيابه ويدفع ما لزمه.

فإن ترك ذلك وأهمله بعد اطلاعهم عليه حلوه عنه ورفعوه وكتبوه لمن يدفع حلوانه ثلاث سنوات أو أكثر وكتبوا له سندا جديدا يكون هو المعول عليه بعد. ويقيد بالدفاتر ويبطل اسم الأول وما بيده من الوقفيات والحجج والإفراجات القديمة، ولو كانت عن أسلافه.

ثم يرجع كذلك إلى الدفتردار فيكتب له علامة لكتابة الأعلام، فيذهب به إلى الإعلامجى فيكتب له عبارة أيضا

فى معنى ما تقدم، ويختم تحتها بختم كبير فيه اسم الدفتردار ويأخذ على ذلك دراهم أيضًا.

وبعد ذلك يرجع إلى الدفتردار فيقرر ما يقرره عليها من المال الذى يقال له «مال الحماية» ثم يذهب بها إلى بيت الباشا ليصحح عليها بعلامته.

ويطول عند ذلك انتظاره لذلك ويتفق إهمالها الشهرين والثلاثة عند الفرمانجى وصاحبها يغدو ويروح فى كل يوم حتى تحفى قدماه ولا يسهل به تركها بعد ما قاساه من التعب وصرفه من الدراهم.

فإذا تمت علامتها دفع أيضا المعتاد الذى على ذلك، ورجع بها إلى بيت الدفتردار فعند ذلك يطلبون منه ما تقرر عليها فدفعه عن تلك السنة.

ثم يكتبون له سندا جديدًا ويطالب بمصروفه أيضًا، وهو شي له صرة [نقود] أيضًا فلا يجد بدًا من دفعه ولا يزال كذلك يغدو ويروح مدة أيام حتى يتم له المراد.

* ومنها المعروف بالجامكية ومرتبات الغلال بالأنبار، وذلك أن من جملة الأسباب فى رواج حال أهل مصر المتوسطين* وغناهم ومدارحال معاشهم وإيرادهم فى السابق هذان الشيئان وهما الجامكية والغلال التى يقال لها الجرايات رتبها الملوك السالفة من الأموال الميرية للعساكر المنتسبة للوجاقات والمرابطين بالقلاع الكاينة حوالى الإقليم.

* أهل مصر المتوسطين وأحوالهم تعتمد على الجامكية والغلال (الجرايات).

الجبرتى/ سنة ١٢١٦م

ومنها ما هو للأيتام والمشايخ والمتقاعدين ونحوهم وكانت من أروج الإيراد لأهل مصر وخصوصاً أهل الطبقة الذين ليس له إقطاع ولا زراعات ولا تجارات كأهل العلم ومساتير أولاد البلد والأرامل ونحوهم، وثبت وتقرر إيرادها وصرفها فى كل ثلاثة أشهر من أول القرن العاشر إلى أواخر الثانى عشر بحيث تقرر فى الذهان عدم اختلالها أصلا.

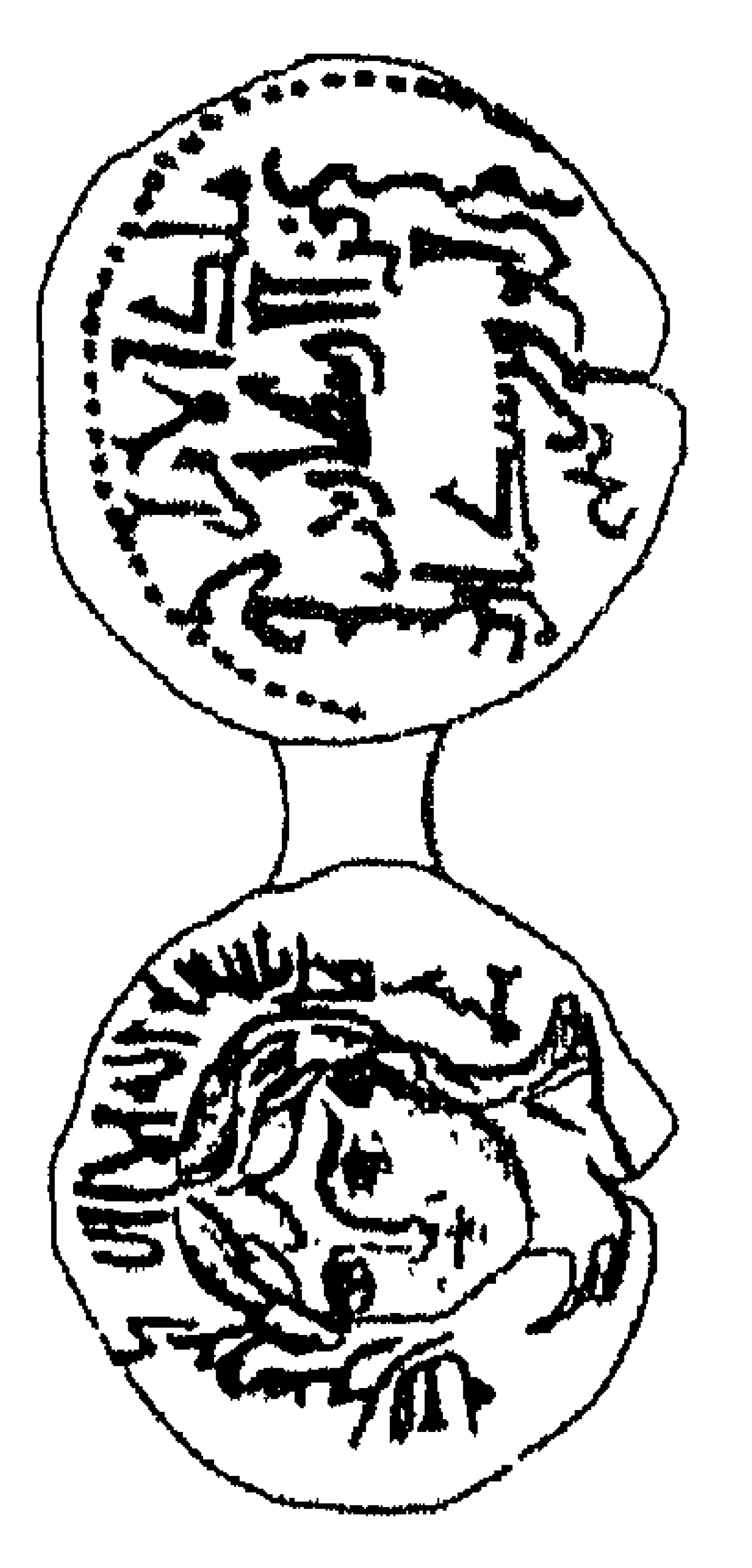
ولما صارت بهذه المثابة تناقلوها بالبيع والشرا والفراغ وتغالوا فى أثمانها ورغبوا فيها وخصوصاً لسلامتها من عوارض الهدم والبنا كما فى العقار وأوقفوها وأرصدوها ورتبوها على جهات الخيرات والصهاريج والمكاتب ومصالح المساجد ونفقات أهل الحرمين وبيت أهل المقدس.

وأفتى العلما بصحة وقفها لعلة عدم تطرق الخلل، فلما اختلت الأحوال وحدثت الفتن وطمع الحكام والولاة فى الأموال الميرية ضعف شأنها ورخص سعرها وانحط قدرها وافتقر أربابها، ولم تزل فى الانحطاط والتسفل حتى بيع الأصل والإيراد بالغبن الفاحش جداً وتعطل بسبب ذلك متعلقاتها.

ولم يزل حالها فى اضطراب إلى أن وصل هولا القادمون وجلس شريف أفندى الدفتردار المذكور، ورأى الناس فيه مخايل الخير لما شاهدوه فيه من البشاشة وإظهار الرفق والمكارم عرض الناس عليه شأن العلوفة المذكورة والغلال فلم يمانع فى ذلك.

وكتب الإذن على الأوراق كعادته وذهب بها إلى أربابها إلى ديوان الكتبة وكبيرهم يسمى حسن أفندى باش محاسب وهو من العثمانيين عارض فى حسابها، وقال إن العثمانى اسم لواحد الأقجة* وصرفه عندنا بالروم كل ثلاث أقجات بنصف فضة وما فى دفاتركم يزيد فى الحساب الثلث، فعورض وقيل له إن الأقجة المصرى كل اثنين بنصف بخلاف اصطلاح الروم وهذا أمر تداولنا عليه من قديم، ولم يزل حتى فقد ذلك المشروع ومشوا على فقد الثلاث ورضى الناس بذلك لظنهم رواج الباقى.

* التلاعب بأسعار العملة. (انظر مقدمة الجزء الأول).



* عملات من عهد الجبرتى.

وعند استقرار الأمر بذلك أخذوا يتعنتون على الناس فى الثبوت وقد كان الناس اصطلحوا فى أكثرها عند فراغها على عدم تغيير الأسما التى رقمت بها وخصوصا بعد ضعفها فيبيعها البايع ويأخذها المشترى بتمسك البيع فقط، ويترك سند الأصل بما فيه من الاسم القديم عنده أو تكون باسم الشخص ويموت وتبقى عند أولاده، فجعلوا معظمها بهذه الصورة وأخذوه لأنفسهم وأعطوا منهم لأغراضهم بعد رفع الثلث الأصل وثلث الإيراد، وضاعت على أربابها مع كونهم فقرا.

وكذلك فعلوا فى أوراق الغلال وجعلها بدراهم عن كل أردب خمسون نصفاً غلا أو رخص، وزادوا فى القيود التى تكتب على العرضحالات المصطلحين عليها بأن يكتب عليها أيضا قاضى العسكر بعد حسابهم مقدار العلوفة والغلال، ويأخذ على كل عثمانى نصفين أو أقل أو أكثر وعلى كل أردب قرشا روميا.



وكل ذلك حيلة على أخذ المال بطريق شيطانى وحرروا ما حرروه ودفعوا للناس ما دفعوه مقسطا على الجمع والشهور، ورضوا بذلك وفرحوا به لظنهم دوامه، واستعوضوا الله فيما ذهب لهم وختموا الدفتر على مقدار ما عرض عليهم، وما ظهر بعد ذلك لا يعمل به ويذهب فى المحلول.

ولما انقضت هذه السنة الأخرى وافتتح الناس الطلب قيل لهم إن الذى أخذتموه هو عن السنة القابلة وقد قبضتموها معجلة*، وعزل شريف أفندى الدفتردار فى إثرها، ووصل خليل أفندى الرجائى، واضطربت الأحوال ولم ينفع القيل والقال كما يأتى.

* وهكذا يكشف الجبرتى السبب فى كل الحيل البيروقراطيه السابقة الذكر والهدف منها.

وأما من مات فى هذه السنة

٦٢٨/ مصطفى الصاوى.

* فمات الشيخ العمدة الإمام خاتمة العلما الأعلام، ومسك ختام الجهابذة ذوى الأفهام، ومن افتخر به عصره على الأعصار [العصور] وصاح بلبل فصاحته فى الأمصار، يتيمة الدهر وشامة وجه أهل العصر، العالم المحقق والنحرير المدقق بديع الزمان والتاج المرصع على روس الأقران الناظم الناثر الفصيح الباهر الشيخ مصطفى بن أحمد المعروف بالصاوى، والده كان من أعيان التجار بمصر، وأصل مرباهم بالسويس بساحل القلزم، وصاوى نسبة إلى بلدة بشرقية بلبيس تسمى الصوة *وهى على غير القياس، وهى بلدة والده ثم انتقل منها إلى السويس وكان يبيع بها الما، وولد له بها المترجم فارتحل به إلى مصر وسكن بحارة الحسينية مدة، وأتى بولده المترجم إلى الجامع الأزهر واشتغل بالقراءة فحفظ القرآن والمتون واشتغل بالعلم وحضر دروس

* كان اسمها القديم سوق الشتا. وكانت تابعه لمركز الزقازيق فلما انشىء مركز أبو حماد فى ١٩٤٠ الحقت به.

الأشياخ، ولازم الشيخ عيسى البراوى وتخرج به ومهر، وأنجب وأقرا الدروس وختم الختوم وشهد له الفضلا، وكان لطيف الذات مليح الصفات رقيق حواشى الطبع مشارا إليه فى الأفراد والجمع مهذب الأخلاق جميل الأعراق، اللطف حشو إهابه، والفضل لا يلبس غير جلبابه.

لو مثل اللطف جسما
لكان للطف روحا

إذا نزل بنادٍ ارتحلت الهموم، وارتضع من أخلاف أخلاقه بنت الكروم، تقاريره عذبة رايقة، وتحاريره فايقة، ذهنه وقادة ونظمه مستجاد (فمن نظمه قوله):

أقبل الأنس يجتلى بسرور
وتولى الحزن الذى نحن فيه
وتناءت همومنا بعد قرب
وتناهت لذات ما نرتجيه
واجتمعنا بليلة هى تَزْرى
بالضحى إذ صحا وما قد يليه
ودت الشمس أن يكون لها
مثل ضيا حسنها فما ترتضيه
واجتلونا المدام أشهى مُدام
مع نديم ياحسن ما نجتليه
حيث كانت أكوابنا كنجوم
كلما قد شربتها قلت إيه*
واحتسينا كاساتها فطربنا
بشذاها وراق ما نحتسيه

* إيه : اسم فعل أمر بمعنى زدنى.

واجتنينا من نظم دُرِ حبيب

نشره رايق كخمرة فيه

فراعى الله ليلة قد تقضت

بالهنا والمُنا وعِزٍّ وتيه

وسقى الله عهدنا قَطر سُحب

رايقات تجلو المرابع تيه

مذ صفا ودنا برغم حسود

مع كيد العذول ذى التشويه

يالها ليلة حكت جنة الخلد

وفيها ما نفسنا تشتهيه

ليلة الأنس هل تعودى لصب

صبة الوجد دايما تعتريه

تجمعى شمله بأحمد من قد

حمد الله فعل ما يصطفيه

هاك تجلى إليك خود عروس

ثوبها العز والبها ترتديه

وهى تتلو عليك يا خير مولى

ليس مهرى سوى الرضا فاعطنيه

ولـه :

نزلنا بهذا القصر والنيل تحته

فلله قصر قد تعاظم بالمد

مع العالم النحرير أكرم ماجد

إمام همام جامع علم فرد

فأين ابن هانى من فصاحة نطقه

وأين أويس لا يضاهيه فى الزهد

تأمل فما أكثر كعين مشاهد
وأبصر فما قرب لديه كما البعد
وما هى إلا البحر لكنه حلا
وما هو إلا البر بالدين والعهد
وأعنى به شيخى البراوى من به
تحلى زمان العز فى الجيد بالعقد
أقول لمن رام الوصول لقدره
تمنيت أمرا مستحيلا بلا حد
فهذا مقام ليس يعطى لغيره
وحاشاه أن يحصى بسرد ولا عد
فيا أيها الملتاذ إن رمت علمه
تحدث عن البحر المحيط عن الجهد
ومن لى وقد قصرت فى مدح سيدى
ومعظم إسنادى وذى الحل والعقد
كذلك مولانا الشريف محمد
هو العلوى الأصل قد فاز بالسعد
وينسب للمختار أشرف مرسل
عليه صلاة الله طابت كما الند

ولـه :

لحاظك تزرى بالحسام المهند
وريقك لا يرويه غير المبرد
وطرفك ذا السفاك قد سفك الدما
وقَدُّك ذا السفاح فى الصب معتدى
فيا وجهه كم قد هديت لحسنه
ويا شعره كم قد أضليت مهتدى

ومالى لا أصبو بضوء جبينه
وثغر شهى باللآلى منضد
ولام عذاريه تدور بخده
كتمام آس مع بنفسجه الندى
وخضرة ريحان بعارضه الذى
يعارض قلبى فى هواه وأكبدى
يريك ربيعا بالبها بنانه
على ورد خديه الزهى المورد
أروم حياة وهو يطلب قتلتى
بسيف معد للقتال ومرصد
فيا حسن لولاك ما كان محسن
فأحسن لمضنى ساهرا لجفن مسهد
يبيت يعانى أعظم السقم دايما
سلوا ليلة واستشهدوا الشهب تشهد
ويسند إرسال السحاب لدمعه
مسلسل أحزان بوجد مجدد
يقول العذول ارجع فإنى ناصح
ورأيى لا يروى سوى عن مسدد
فقلت له دعنى فرأيك فاسد
وقولك بهتان بزور مفند

وله :

من لمضنى أحشاه تتلاهب
ما لغضا مثلها ولا يتقارب

جفنه ساهر وحزن جفا
مستمر ودمعه يتساكب
ياخليليه من حوادث دهر
حاربته فصار يدعى المحارب
لو رآه المتيمون لصاحوا
ما لهذا الصد ودود يعاقب
فرعاه الإله من مستهام
ما أراد الوصال إلا يراقب
وحبيب ممنع ذو جمال
وطبيب لمهجة الصب ما طب
حسن محسن بذات وفعل
كل حسن لذاته يتناسب
حيثما وجهه له حسنات
إن جنى الذنب فهو ليس يحاسب
يا غزالا رفقا بصب كئيب
قد نآه الزمان ممن يحابب
وخف الله فى محبيك وارحم
من تلظى وغير شكلك ما حب

ولما عمر الفقير [الجبرتى] جامع هذه الشوارد داره التى بالصنادقية بالقرب من الأزهر فى سنة إحدى وتسعين وماية وألف عمل المترجم أبياتا وتاريخا رقمت بطراز مجلس العقد الداخل وهى:

خليلى هذا الروض فاحت زهوره
ولاح على الأكوان حقا ظهوره

وزاد ثنا عبق الجو طيبه
فمنه عبير المسك طاب عبوره
سما في سما الكون فانتهج العلا
برفعته وازداد سرا سروره
ألم تر أجسام الوجود تراقصت
وجاء التهاني باسمات ثغوره
مكان على التقوى تأسس مجده
ومن سور التوفيق وأهدى سوره
وفردوس عدن فاح فوح نسيمه
وحفته ولدان النعيم وحوره
ومجلس أنس كل ما فيه مشرق
ومقعد صدق قد تسامى حبوره
بنا يروق العين حسن جماله
ورونقه يشفي الصدور صدوره
ومن مجد بانيه تزايد بهجة
وقلد من در المعالي نحوره
عزيز بنى بيت المكارم فانثنت
تغنى به حمدا ومدحا طيوره
وأحيا رسوم المجد والفخر والتقى
وزانت بأعلام الكمال سطوره
فلا زال فيه الفضل تسمو شموسه
وتنمو على كل البدور بدوره
ودام به سعد السعود مؤرخا
حمى العز بالمولى الجبرتي نوره*

* جمع هذا البيت سنة ٩٢ وليس سنة ٩١ كما ذكر الجبرتي قبل القصيدة.

(وله فى صيوان)

وصــيــوان حــوى عــزا وفــخــرا
علــيــه مــن الــبــهــا حــســن مــتــمــم
كسروض الأنـس فـيـه الـوُرْق* غـنـت
و بـلـبـال الـسـرور لـهـا تـرنـم
عـلـى الإيـوان يـزهـو بـارتـفـا ع
ويـهـزو بـالخـيـام وبـالخـيـم
فـتـحـسـبـه وذا الإشـراق فـيـه
سـمـا الجـود قـد ظـلـت مـكـرم
يـقـول الـسـعـد فـى تـاريـخـه بـى
عـلـى مـجـد الـوزيـر الـعـز خَـيَّـم

* الورق = الحمامة.

ومن نثره ما كتبه تقريظا على المولف الذى ألفه العلامة الشيخ محمد عبد اللطيف الطحلاوى الذى ضاها به عنوان الشرف للعلامة السيوطى قوله:

حمد المولى يضيق نطاق المنطق عن شكره، ويعجز لسان اللسن عن الإفصاح بذكره، يدنى لب الموحد إلى فهم مقامات التوحيد، ويعرفه سبل التهجد والتحميد، ويسعده بنهاية الوصول إلى مقاصد فقه الأصول، وصلاة وسلاما على المحمود بأكمل ثنا الممدوح بأجمل ضيا وسنا، وعلى آله وصحبه وأتباعه وأحبابه ما ألف كتاب وكللت تيجان الربى بلآلىء السحاب.

أما بعد قد سرحت طرفى فى رياض هذا التأليف الرايق، وفرحت بصرى بالمشاهدة لمحاسن هذا التصنيف الفايق،

واقتطفت بيدى ثمرات أوراقه واستضأت بأنوار إشراقه ، وحليت سمعي بدرر فوايده،وفكرى بغرر عوايده، وعرضت على فهمي لآلى جواهره، فلاحت لعينى بدور زواهره، فإذا هو عقد نظم من درر العلوم وتحلت به غوانى الفهوم، رشيق الألفاظ والمعانى، رقيق التراكيب والمبانى، لم ينسج ناسج على منواله، ولم يأت بليغ بمثاله، قد أفحم فصحا الرجال وألقت له البلغا العصى والحبال، وأعجز الفصحا كبيرا وصغير فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، يفوق بحسنه كل مولف ويروق برونقه على كل مصنف، جمع فيه من العلوم أشرفها وأشرقها، ومن المعارف أرقها وأروقها، فهو مجموع جامع مانع، وروض يافع يانع، فلا شك أنه صنعة قادر وصبغة لبيب ماهر، وكيف لا وهو العلامة الإمام الفهامة الهمام المحقق الفاضل المدقق الكامل، جامع شمل المعارف حايز أنواع اللطايف، وحيد الكمالات اللدنية ومزيد المحسن الخلقية والخلقية مولانا الشيخ محمد عبد اللطيف الطحلاوى قابل الله صنيعه بحسن القبول، وبلغه من خير الدارين كل مأمول، وأدام الكريم النفع بوجوده، وأقام لديه جزيل إحسانه وجوده، ماكرت الليالى ومرت الأيام وقطر غيث الغمام، والحمد لله وحده وصلى الله وسلم على من لا نبى بعده.

ومن نثره أيضا هذه المراسلة:

بسم الله الرحمن الرحيم نحمدك يا من أجريت المقادير على وفق الإرادة، وجعلت المطالب سببا للإفادة والاستفادة ونشكرك على ما أوليتنا من سوابغ الإحسان ومنحتنا من

سوابق الفضل والامتنان، ونصلي ونسلم على نبيك سيد ولد عدنان، إلى آخره.

وأيضا أن أحلى ما تحلت به تيجان الرسايل وأعلى ما تجلت به مظاهر المقاصد والوسايل، وأبهى ما رقمه البنان من بديع المعاني والبيان وأشهر ما فاهت به الأقلام وفاحت به نوافح مسك الختام، إهداء تسليم تفوح فوايح المسك من طيب نشره، وتلوح لوايح الإقبال من وجوه بشره، وتبتسم ثغور الأماني من شمايل شموله، وتتنسم نسمات التهاني من إقباله وقبوله، وإسداء تحيات يعبق شذاها ويشرق نورها وضياها، تفوق الشموس نورا وتروق الخواطر منها سرورا، نقدم ذلك ونهديه ونظهره ونبديه، لحضرة ذوى المهابة والفخار والعلو والاقتدار، الجامعين بين المتاجر والمفاخر، الحايزين لجمال الأول والآخر، القاطنين بخير البلاد القايمين بمصالح العباد، مصابيح الدنيا وبهجتها، وكواكب البلاد وتحفتها حماة حرم يجبى إليه الثمرات، وزينة محل تقضى به الحاجات، عين أعيان المكاسب والتجارة، وزين أبنا المطالب والإشارة، نعنى بذلك فلانا وفلانا أسبغ الله عليهم سوابغ الإنعام، وأسبل عليهم حلل الجود والإكرام، وأصلح لهم الأحوال،وبلغهم الأماني والآمال، وبسط لهم الأرزاق، وحباهم بلطفه الخلاق.

أما بعد بسط كف الرجا، ومد سواعد القصد والالتجا بدعوات مقرونة بالإنابة، ليس لها حاجب عن أبواب الإجابة، فمما يعرض عليكم وينهى بعد السلام إليكم، أنه قد وصل إلينا رقيمكم المكنون، المحتوى على الدر المصون،

فَشَمَمْنا منه نفحات مكية حرمية، ونسيمات سحرية بهية. فتعطرنا بطيب مسكها الأذفر، وتطيبنا بعبير عنبرها الأزهر، ذكرتم أنكم بذلتم المجهود فى طلب المقصود، إلى آخره.

وله غير ذلك كثير، وحاله وفضله شهير، ولم يزل يملى ويفيد، ويقرر ويعيد، حتى قطفت يد الأجل نواره، وأطفأت رياح المنية أنواره، وذلك يوم الاثنين رابع عشرين شهر القعدة من السنة.

ورثاه الشيخ إسماعيل الزرقانى بقوله:

تداولت الأيام بالعسر واليسر
وتلك شئون الحق فى مطلق الدهر
فكيف أرى قلبى على فقد إلفه
حزينا ودمع العين من فيضه يجرى
فقال لنا فى سيد الخلق أسوة
فقد دمعت عيناه حزنا كما تدرى
وهذا الذى أمسى حليف ضريحه
إلى فضله تصبو الأنام مدى العمر
إمام له فضل الرواية والحجا
فمن نقله يملى ومن عقله يقرى
قوى فهمه صارت بنور معيدها
ترى من مبادى الحال عاقبة الأمر
عتبت على الأيام فى نثر عقدها
وقد غاب من أثنائه معدن الدر
فقالت ومالى ذاك حبر موفق
أحب لقا الله أسرع للأجر

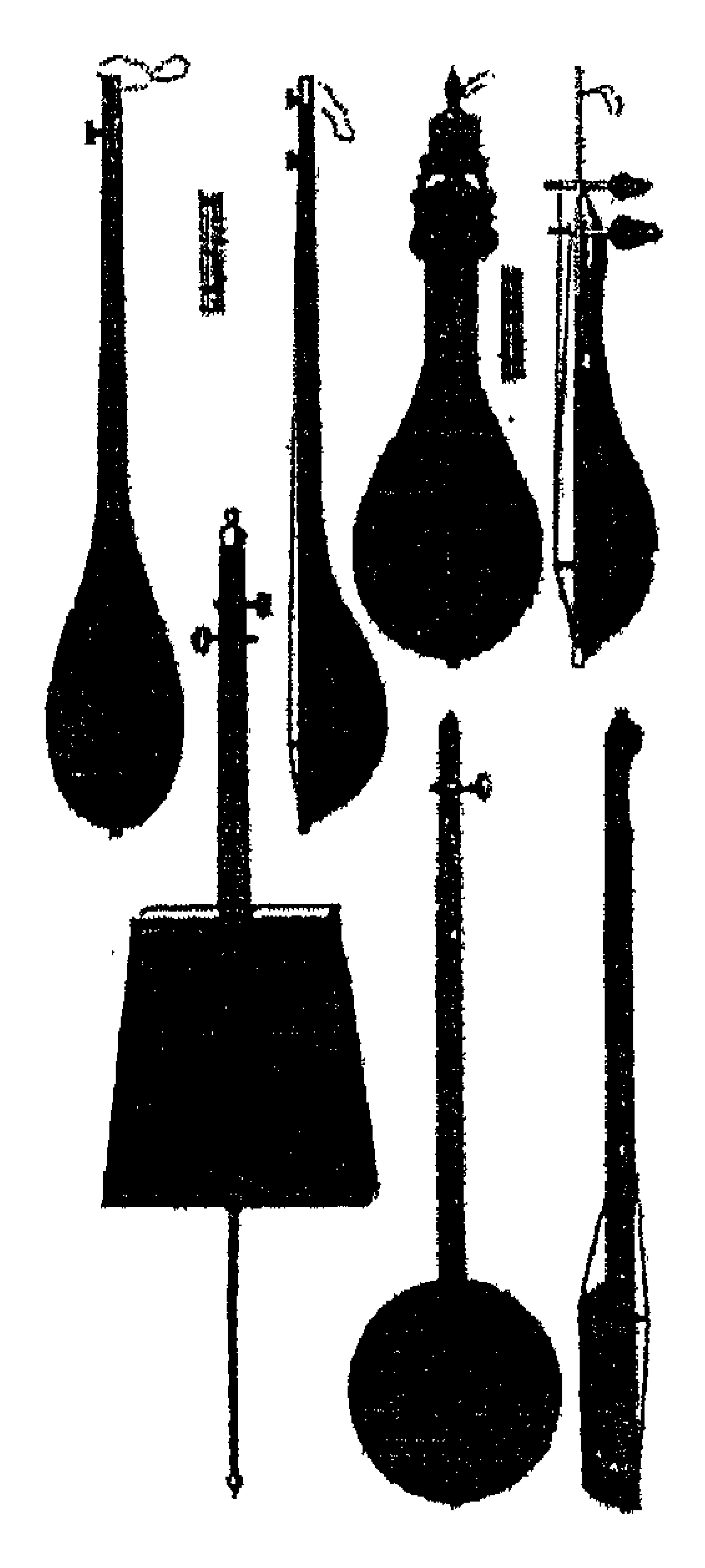
تـلـقـتـه أمـلاك الـنـعـيـم تحـفـه
وتـنـقـلـه مـن ورد نـهـر إلـى قـصـر
إلـى أن يـرى وجـه الـعـزيـز مـكـانـه
ويبقى حميدا فى الترقى مع البشر
بمـقـعـد صـدق صـار عـنـد مـلـيـكـه
فـيـا مـصـطـفـاه فـزت مـرتـفـع الـقـدر

٦٢٩/ عثمان بك الأشقر.

[ومات*] الأمير عثمان بك الأشقر الإبراهيمى، وهو من مماليك إبراهيم بك الكبير الموجود الآن، اشتراه ورباه وأعتقه وجعله خازنداره مدة، ثم قلده الإمارة والصنجقية فى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف، وعرف بالأشقر لشقرته.

ولما انتقل أستاذه إلى بيت سيده ومحمد بك بعطفة قوصون سكن مكانه بدرب الجماميز، وصار له مماليك وأتباع، وانتظم فى عداد الأمرا.

وخرج مع سيده فى الحوادث وتغرب معه فى البلاد القبلية، وطلع أمير بالحج فى سنة عشر ومايتين وألف، وعاد فى أمن وأمان.



* آلات وترية.

ولما حصلت حادثة الفرنسيس كان هو مع من كان بالبر الغربى وذهب إلى الصعيد، ثم مر من خلف الجبل ولحق بأستاذه ببر الشام، ولم يزل حتى رجع مع أستاذه والأمرا بصحبة عرضى الوزير فى المرة الثانية.

ثم سافر مع حسين باشا القبودان فقتل مع من قتل بأبى قير، ودفن بالإسكندرية، وكان ذا حشمة وسكون وحسن عشرة مع ما فيه من الشح.

* آلة الطنبور

٦٣٠/ عثمان بك الجوخدار [الطنبورجى].

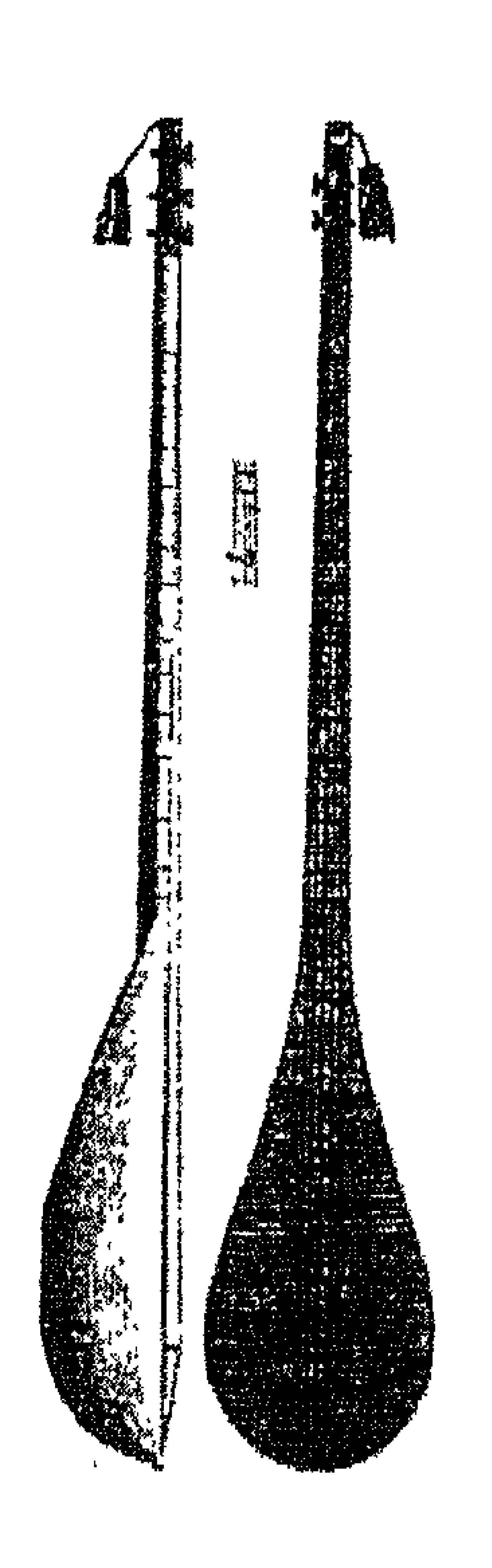
[ومات*] الأميرعثمان بك الجوخدار المعروف بالطنبرجى المرادى، وهو من مماليك مراد بك، اشتراه ورباه ورقاه وقلده الإمارة والصنجقية فى سنة سبع وتسعين ومابة وألف.

ولما وصل حسن باشا الجزايرلى إلى مصر وخرج مع سيده وباقى الأمرا من مصر على الصورة المتقدمة، ووقع بينهم ما وقع من الحروب والمهادنة، حضر هو وحسين بك المعروف بشفت [اليهودى] وعبد الرحمن بك الإبراهيمى إلى مصر رهاين.



* آلة الطنبور كما ظهرت على جدران احد المقابر المصرية.

ولما سافر حسن باشا إلى الروم أخذهم صحبته بإغرا إسماعيل بك فأقاموا هناك، ثم نفوهم إلى ليميا فاستمروا بها، ومات بها حسين بك خشداشه المذكور.



ثم رجع المترجم وعبد الرحمن بك بعد وقوع الطاعون وموت إسماعيل بك وأتباعهما إلى مصر، فلم يزالوا حتى حصل ما حصل من ورود الفرنسيس وموت مراد بك فى أخريات أيامهم، فوقع اختيار المرادية على تأميره عوضا عن سيده بإشارة خشداشه محمد بك الألفى، وانتقل بعشيرته إلى الجهة البحرية وانضموا إلى عرضى الوزير ووصلوا إلى مصر.

فكان هو وإبراهيم بك الألفى ثانى اثنين يركبان معا وينزلان معا ولم يزل حتى سافر القبودان بعد ما مكر مكره مع الوزير سرا على خيانة المصريين، فأرسل يستدعيه هو وعثمان بك البرديسى، فسافرا امتثالا للأمر فأوقع بهما ما تقدم، وقتل المترجم ونجى البرديسى ودفن بالإسكندرية.

وكان أميرا لا بأس به وجيه الشكل عظيم اللحية ساكن الجأش فيه تؤدة وعقل، وسبب تلقبه بالطنبرجى أنه كان فى عنفوان أمره مولعا بسماع الآلات وضرب الطنبور، وربما باشر ضربه بيديه مع الإتقان لذلك، فغلبت عليه الشهر بذلك.

٦٣١/ مراد بك الصغير.

* [ومات] الأمير مراد بك المعروف بالصغير، وهو من مماليك محمد بك أبى الذهب وانتمى إلى سليمان بك الأغا، واستمر ملازما له ومنسوبا إليه مدة أعوام، وكان يعرف بمراد كاشف وله إيراد واسع ومماليك.

تقلد الإمارة والصنجقية فى سنة ست ومايتين وألف، فزادت وجاهته، ولم يزل كذلك حتى سافر مع عثمان بك الأشقر وأحمد بك الحسنى مع القبودان وقتل كذلك بأبى قير ودفن بالإسكندرية.

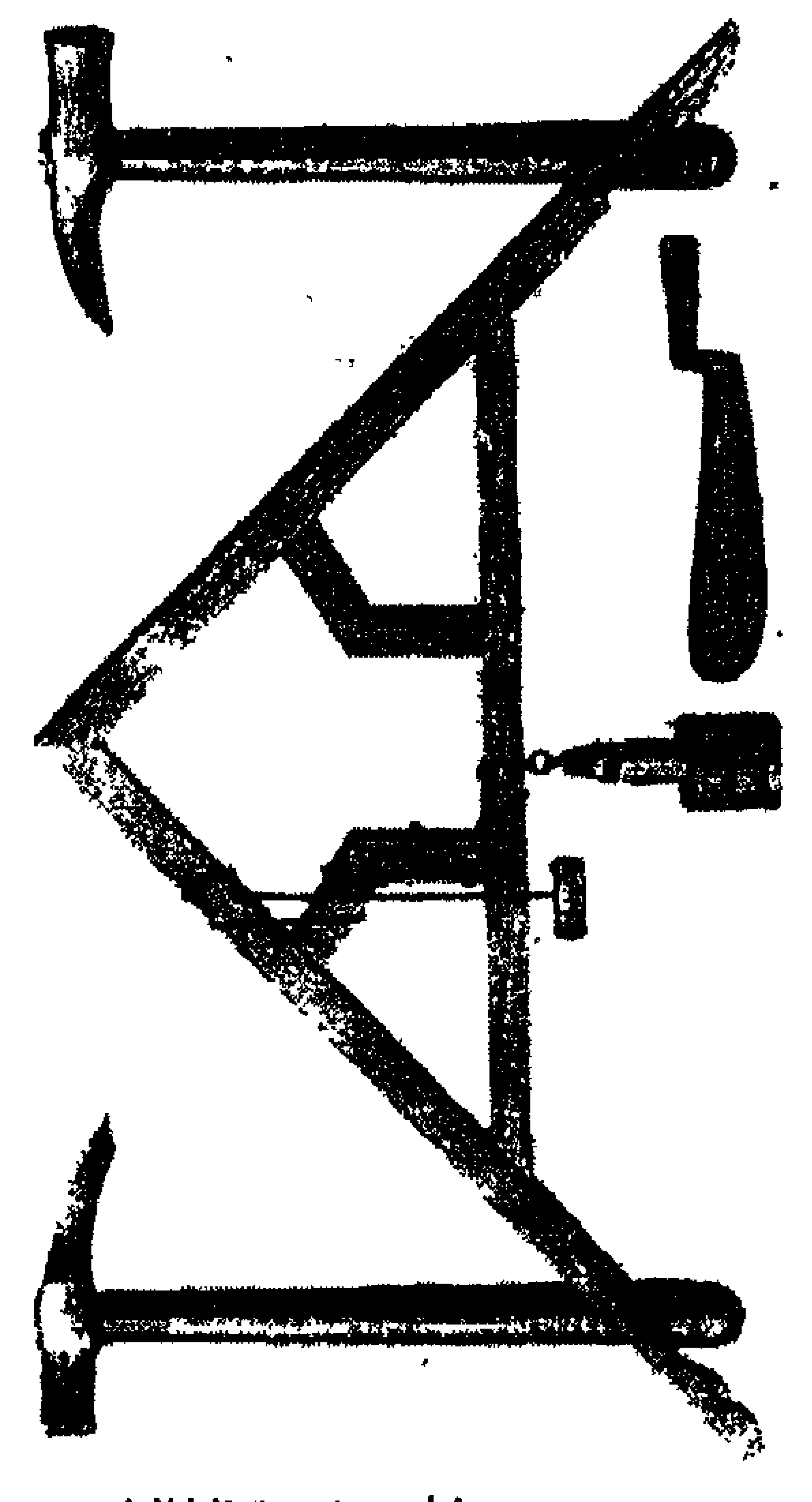
٦٣٢ / قاسم بك أبو سيف.
أشهر من اسس الحدايق العامة بالقاهرة

*[ومات] الأمير قاسم بك أبو سيف وهو مملوك عثمان بك أبى سيف، الذى سافر بالخزينة، ومات بالروم وذلك سنة ثمانين ومائة وألف ، وهى آخر خزينة رأيناها سافرت إلى إسلامبول على الوضع القديم.

وعثمان بك هذا مملوك عثمان بك أبى سيف الذى كان من جملة القاتلين لعلى بك الدمياطى وخليل بك قطامش ومحمد بك قطامش فى ولاية راغب باشا كما تقدم، وخدم المترجم مراد بك وكان يعرف بقاسم كاشف أبى سيف.

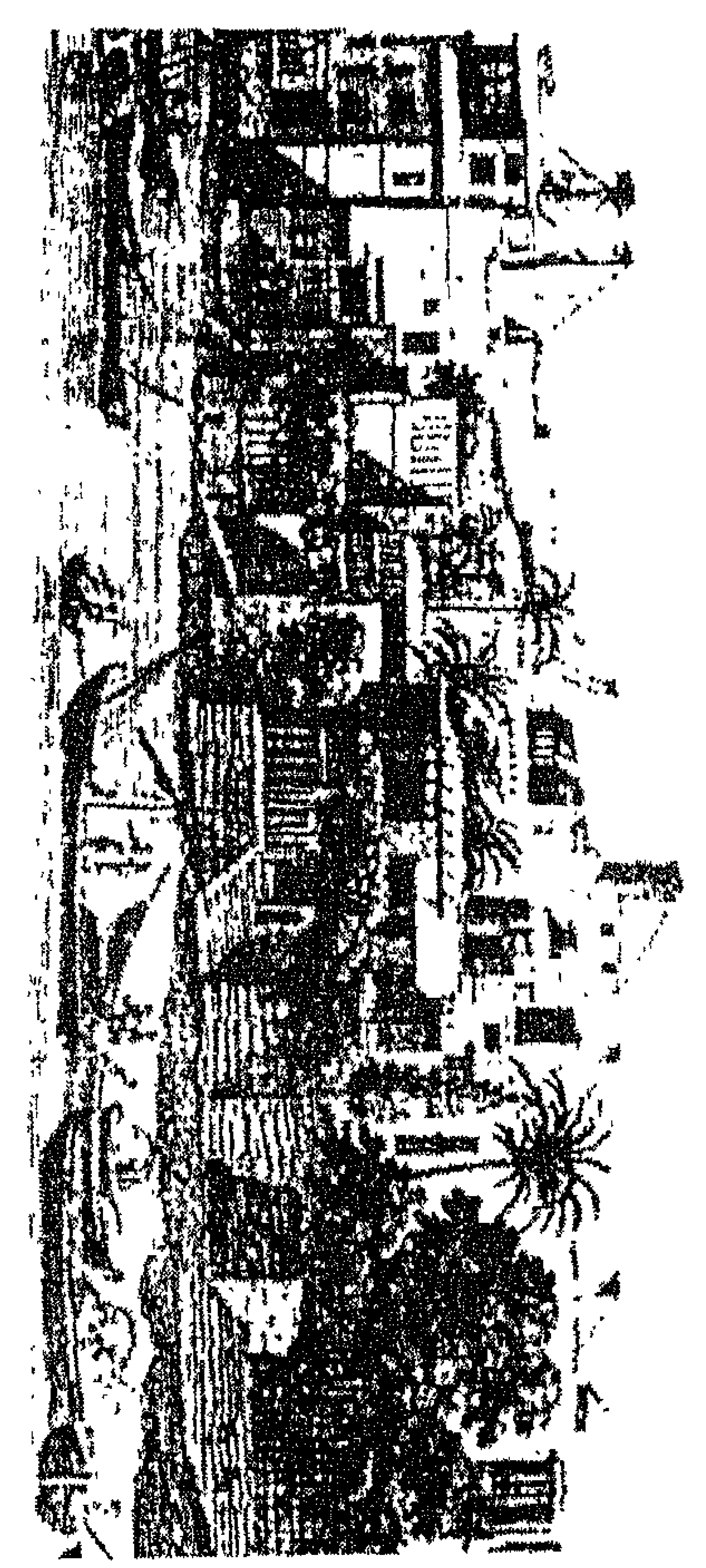
وكان له أقطاع والتزام وإيراد، واشتهر ذكره فى أيام مراد بك،وبنى داره التى بالناصرية وأنفق عليها أموالا جمة.

* أدوات المعمار وهندسة البناء.



وكان له ملكة وفكرة فى هندسة البنا، واستأجر قطعة عظيمة من أراضى البركة الناصرية تجاه داره من وقف المولوية، وسورها بالبنا وبنى فى داخلها قصراً مزخرفا برحبة متسعة، وقسم تلك الأرض بتقاسيم المزارع وحولها طرق ممهدة مستطيلة ومجارى للمياه التى تصل إليها أيام النيل ومجار أخرى عالية مبنية بالمون والخافقى من داخلها تجرى فيها المياه من السواقى، ويحيط بذلك جميعه أشجار الصفصاف المتدانية القطاف، وبداخل تلك البركة المنقسمة النخيل والأشجار ومزارع المقاثى والبرسيم والغلة وغيرها يسرح فيها النظر من ساير جهاتها، وتنشرح النفوس فى أرجاها ومساحاتها، وجعل السواقى فى ناحية تجتمع مياهها فى حوض وبأسفله أنابيب تتدفق منها المياه إلى حوض أسفل منه.

الجبرتى/ سنة ١٢١٦م



* استخدام الكراسي للجلوس.

وعنده مجلس ومساطب للجلوس وتجرى منه المياه إلى المجارى المخفقة المرتفعة، ومنها تنصب من مصبات من حجر إلى أحواض أسفل منها صغار، وتجرى إلى مساقى المزارع وعند كل مصب منها محل للجلوس وعليه أشجار تظله وبوسطه أيضاً ساقية بفوهتين تجرى منها المياه أيضاً، والقصر يشرف على ذلك كله وحول رحبة القصر وطرق المشاة كروم العنب والتكاعيب.

وأباح للناس الدخول إليها والتنزه في رياضها والتفسح في غياضها والسروح في خلالها والتفيوء في ظلالها، وسماها «حديقة الصفصاف والآس لمن يريد الحظ والايناس» ، ونقش ذلك في لوح من الرخام وسمّره في أصل شجرة يقراها الداخلون إليها، فأقبل الناس على الذهاب إليها للنزهة ووردوا عليها من كل جهة وعملوا فيها قهاوى ومساقى ومفارش وأنخاخا يفرشها القهوجية للعامة وقللا وأباريق.

واجتمع بها الخاص والعام وصار بها مغان وآلات وغوانى ومطربات، والكل يرى بعضهم بعضا وجعل بها كراسى للجلوس* وكنيفات لقضا الحاجة، وجعل للقصر فرشا ومساند ولوازم ومخادع لنفسه، ولمن يأتى إليه بقصد النزاهة من أعيان الأمرا والأكابر فيبيتون به الليالى ولا يحتاجون لسوى الطعام، فيأتى إليهم من دورهم.

وزاد بها الحال حتى امتنع من الدخول إليها أهل الحيا والحشمة. وأنشا تجاهها أيضاً على يسار السالك إلى طريق الخلا بستانا آخرعلى خلاف وضعها. وأخبرنى المترجم أيضاً من لفظه أنه أنشا بستانا بناحية قبلى أعجب وأغرب من ذلك.

ولما حضر حسن باشا الجزايرلى إلى مصر وخرج منها أمراها تخلف المترجم عن مخدومه واستقر بمصر فقلدوه الإمارة والصنجقية فى سنة إحدى ومايتين وألف فعظمت إمرته وزادت شهرته، وتقلد إمارة الحج مرتين.

ولما أوقع العثمانية بالأمرا المصرلية ما أوقعوه وانفصلوا من حبس الوزير وانضموا إلى الإنكليز بالجيزة، ثم انتقلوا إلى جزيرة الذهب وارتحلوا منها إلى قبلى تخلف عنهم المترجم لمرض اعتراه. وحضر إلى مصر ولازم الفراش ولم يزل حتى مات فى يوم الخميس سادس القعدة من السنة، وكان يخضب لحيته بالسواد مدة سنين رحمه الله.

٦٢٣/ إبراهيم كتخدا السنارى.

*[ومات] إبراهيم كتخدا السنارى الأسود وأصله من برابرة دنقلة، وكان بوابا فى مدينة المنصورة وفيه نباهة فتداخل فى الغز القاطنين هناك مثل الشابورى وغيره بكتابة الرقى وضرب الرمل ونحو ذلك، ولبس ثيابا بيضا، ثم تعاشر مع بعضهم وركب فرسا وانتقل إلى الصعيد مع من اختلط بهم، وتداخل فى أتباع مصطفى بك الكبير.

ولم يزل حتى اعتشر بالأمير المذكور وتعلم اللغة التركية، فاستعمله فى مراسلاته وقضاياه فنقل فتنة ونميمة بين الأمرا، فأراد مراد بك قتله فالتجا إلى حسين بك وخدمه مدة، ثم تحيل والتجا إلى مراد بك وعاشره وأحبه ولازمه فى الغربة والأسفار.

واشتهر ذكره وكثر ماله وصار له التزام وإيراد، وبنى داره التى بالناصرية وصرف عليها أموالا، واشترى المماليك

الحسان والسرارى البيض وتداخل فى القضايا والمهمات العظيمة والأمور الجسيمة، وصار من أعظم الأعيان المشار إليهم بمصر، ونما ذكره وعظم شانه وباشر بنفسه الأمور من غير مشورة الأمرا، فكان يحل ما يعقده الأمر الكبار.

ولما تحجب مخدومه بقصر الجيزة كان المترجم لسان حاله فى الأمر والنهى، وبيده مقاليد الأشيا الكلية والجزئية ولا يحجب عن ملاقاة مخدومه فى أى وقت شا، فينهى إليه ما يريد تنفيذه بحسب غرضه، واتخذ له أتباعا وخدما يقضون القضايا ويسعون فى المهمات، ويتوسطون لأرباب الحاجات ويصانعهم الناس حتى الأكابر ويسعون إلى دورهم وصاروا من أرباب الوجاهات والثروات.

ولم يزل ظاهر الأمر نامى الذكر حتى وقعت الحوادث وسافر الفرنساوية ودخل العثمانية ورجع قبودان باشا إلى أبى قير، فأرسل يطلبه فى جملة من استدعاهم إليه وقتل مع من قتل ودفن بالإسكندرية.



* وجوه مصرية من النوبة

ملحق رقم (٣٥)

اخبار الفرنساوية وما حدث من الوقايع فى الديار المصرية لنقولا الترك

بسم الله الحيّ القيوم، الابدىّ الازلىّ، الدايم السرمدىّ، الواحد الاحد، الفرد الصمد. الذى لا ربّ غيره، وسواه لا يُعبد. من خلق السماوات وزيّنها بالكواكب السايرة والنجوم الساهرة، وبسط الارض واتقنها بحكمته الباهرة وقدرته القادرة. وصنع الانسان وولاّه على ساير ما ابدع فى دنياه، وجمّله فى العقل الفايق والذهن الرايق، وامره بالسير على الحقّ وحفظ السنن، وخلوص الودّ وترك الفتن. نحمده سبحانه وجلّ شانه حمداً يليق بعزتّه ذات الجلالة، ما بزغ بدر واشرقت غزالة [الشمس].

امّا بعد، فيقول العبد الضعيف صاحب هذا التاليف انه، اذ قد جرت عادة الاوايل بتاليف الكتب والرسايل، وذكر ما يمّر عليهم من الحادثات الكونية والحركات الكليّة، كقيام دولة على دولة، وانتشار الحروب المهولة، وما يتعلق بها من المواقع المريعة والامور الفظيعة، فحقّ لنا ان نؤرخ فى هذا الكتاب، لانتفاع الطّلاب، ما حدث من التغيير والانقلاب ممّا اجرته يد الاقدار فى هذه الامصار، وممّا اذنت به العزة الالهية بظهور المشيخة [الجمهورية] الفرنساوية، وما تكوّن بسببها من الفتن فى البلاد الافرنجيّة وديار الروميّة وقتل سلطانهم وخراب بلدانهم وانتشار شانهم، وربحهم من بعد خسرانهم، وذلك بظهور فرد افرادهم وقايد اجنادهم، الليث الشديد والبطل الصنديد، امير الجيوش الامير بونابرته. وذكر الحروب التى ثارت بتلك الممالك، وحدوث الشرور والمهالك، وقهر البلاد التى اتصلوا اليها، والانتصارات العظيمة التى حصلوا عليها، وانتقالهم الغريب من الغرب إلى الشرق، ومرورهم العجيب اسرع من البرق، ونزولهم على جزيرة مالطة كالصواعق الهابطة، وفتوحهم ثغر الاسكندرية واستيلائهم على الاقطار المصرية، وذكر ماتمّ لهم من التمليك فى حروبهم مع جملة الغزّ والمماليك، ومسيرهم على الاقطار الشاميّة، ومحاصرتهم لمدينة عكّا القويّة، مسكن ذاك الوزير الجبّار المعروف باحمد باشا الجزّار، ورجوعهم الى ارض مصر وما تمّ لهم فى ذلك العصر، وكفاحهم مع الدولتين العظيمتين الدولة العثمانية والدولة الانكليزيّة، ومصادمتهم للعساكر البّريّة والبحريّة، وخروجهم من مصر القاهرة بتسليم من بعد حروب وافرة وهول عظيم، وذلك فى مدّة ثلثة اعوام فى التمام، وابتداءها شهر محرّم الحرام افتتاح عام الف ومايتين وثلثة عشر هجرية (١)، وآخرها شهر ربيع الثانى عام الف ومايتين وستّة عشر بالهجرة الاسلامية يبدأ شهر ربيع الثاني عام ١٢١٦ هـ بتاريخ ١١ أغسطس عام ١٨٠١م. ثم يتلوه ذكر تملّك الدولة العثمانية والدولة الانكليزية من بعد خروج الدولة الفرنساوية. وذكر ما تمّ لهم مع زمرة الغزّ والمماليك المحمّدية [نسبة لمحمد بك أبو الذهب] من بعد فتوحهم مصر الكنانة، وبالله القوّة والاعانة.

---

* نشر، محققا ضمن كتاب «لبنان فى عصر الامراء الشهابيين للأمير حيدر أحمد الشهابى د. اسد رستم وفؤاد افرام البستانى [القسم الثانى] بيروت ١٩٣٣. كما حققه العميد الركن الدكتور ياسين سويد، دار الفارابى - بيروت/ ١٩٩٠.

[ذكر الثورة الفرنسية] (٢)

انّه في سنة ١٧٩٣ مسيحية الموافقة لسنة ١٢٠٧ هجرية، حدث في مدينة باريز بلبلة عظيمة، إذ هاج شعب هذه المملكة هياجاً عظيماً، وتظاهر ظهوراً جسيما ضدّ السلطان(٣) والامرا والاشراف، في يوم كان شديد الارتجاف، وابرزوا . الكمين منذ اعوام وسنين، وطلبوا نظامات جديدة وترتيبات حديثة، وادّعوا أن وجود السلطان بصوت منفرد [مستبد] احدث خراباً عظيماً في المملكة، وان اشرافها يتنعّمون في خيراتها وباقي شعوبها يكابدون اتعابها ومشقّاتها. فلاجل ذلك نهضوا جميعهم سويةً، تلك الشعوب الفرنساوية، ودخلوا إلى سراية الملك فخاف منهم خوفاً عظيماً مع ارباب دولته، وسألهم عن مرامهم والسبب الداعي إلي قيامهم، فاعلموه انه، من الآن وصاعداً، لا يبرز الملك امراً ويبثّ رأياً من تلقا[ء] ذاته، بل يكون بثّ الاحكام والترتيب والنظام بموجب ديوان عظيم ومحفل جسيم [برلمان] ، ويكون الملك له الصوت الأوّل، ثم من بعده مشايخ الشعب الذين عليهم المعوّل، فبذلك يهون الصعب ويرتفع الظلم عن الشعب.

فلمّا فهم الملك لويس [السادس عشر] قيام هذا الشعب المذكور وما ابدوه من تلك الامور اجابهم: وايضاً انا اودّ عمار هذه المملكة وخيرها، واطيع لما تروه مناسباً لرفع ضرّها وضيرّها. فقالوا له : ان كنت كما زعمت ، اختم لنا الشروط التى تلائم اصطلاح هذه المملكة وقيام المشيخة. فقبل ذلك خوفاً من الشعب، وختم لهم الشروط التى قدموها.

ثم بعد أيّام جهز الملك نفسه للهرب، وخرج ليلاً من مدينة باريز وصحبته اخوه وبعض اصحابه، قاصداً الامبراطور مَلك النمسا لأنه كان نسيبه، شقيق زوجته. وعند ما بلغ مشايخ الشعب خروج هذا الملك جدّوا في طلبه، فوجدوه في إحدى اللوسطاريات [فندق] التى في الطريق، فقبضوا عليه ورجعوا به إلى المدينة، ووضعوه في السجن مع امرأته وولده، وامّا اخوه فإنه نجى منهم وسار إلى بلاد النمسا. وبدأ جميع الشعب يصيح صارخاً: فليقتل الملك بموجب ا لشريعة، لانه نكث في عهده مع شعبه، وقد هرب لكي يلتجى إلى ملك النمسا الذى هو اخو زوجته التى قد تسبّب لنا هذا الخراب بسببها. ثم ان بعد ما سجنوا الملك اربعة اشهر احضروه امام الشعب في يوم الاثنين في الحادى والعشرين من كانون الثاني [يناير]، وقد ابرزوا عليه الحكم بالموت، فطلب الملك لويس ان يخاطب عيلته والمتوكلون عليه احضروا له امراته وبنته وشقيقته واستمروا معه في المكان الذى كان ياكل فيه نحو ساعتين ونصف. وخاطب ابنته مريم انطونينا (٤) قائلاً لها: تعلمى من مصايب والدك ولا تجزعى من موتي. وطلبت عيلته منه أن ينظروه عند الصباح فلم يُجبهم الى ذلك الصباح. وفي الصباح اعلموا المتوكلون عليه ان الجمهور قد حكم عليه بالموت، فطلب الملك لويس دقيقة لكى يتكلّم مع معلّم اعترافه فاذنوا له بذلك، ثم اعرض مغلفاً على احد المتوكّلين وتوسّل اليه أن يرسله إلى مجمع الجمهور، فاجابه: اننى لا استطيع هذا الامر لكونى متفوض ان ارافقك إلى منقع الدم ثم اعطى ذلك المغلف إلى شخص آخر واوعده انه يوصله إلى الجمعية [الوطنية] وكان المغلف وصيته.

[وهذه هى و صيته]

باسم الثالوث الاقدس الاب والابن والروح القُدس. انا لويس السادس عشر، باسم ملك فرنسا، في اليوم الذى هو الخامس والعشرون من ديسمبر في سنة ١٧٩٣ ، اذا كان لى اربعة اشهر مسجوناً فى الحصن المسمّى طَمْبل[٥] فى باريز، ففعل هؤلاء الذين كانوا خاضعين لى، [وكنت] ممنوعاً عن كلّ اشتراك حتى مع عيلتى نفسها منذ أحد عشر من هذا الشهر، ومشتغلاً فى فحص لا يمكن يُعرف نهايته بسبب الألام البشرية التى لا يوجد لها اعتذار ولا مثال فى شريعة من الشرايع.

واذ لم يكن شاهد آخرَ لافكارى ولا من التجى إليه سوا الله تعالى وحده، فاوضح لدى حضرته الالهية إرادتى الأخير، وانى تارك نفسى لله سيدّى وخالقى، واتوسل بان يقبلها برحمته ولا يحاسبها حسب استحقاقها سيدّى يسوع المسيح، الذى قدّم ذاته لابيه السماوى لاجل خلاص كلّ البشر الذى انا اوّلهم، ولو كنت غير مستحق لذلك[٦] ، بل اننى اموت بالاتّحاد مع الكنيسة الكاتوليكية الرسولية الرومانية، التى اقتبلت سلطانتها بتسلسُل متّصل من القدس بطرس الرسول مستودعة له من السيّد المسيح نفسه. واننى اؤمن ايماناً ثابتاً، واعترف بكلمّا هو متضمّن فى قانون الايمان، وفى وصايا الله وكنيسته، وفى الاسرار كما تعلمه الكنيسة الجامعة واننى قد علمت دايماً بانى لم ادّع اصلاً فى اننى اقيم ذاتى قاضياً فى انواع تفسير الاعتقادات المختلفة التى تمزق كنيسة السيّد المسيح، بل انى قد تصرفت وساتصرّف دايماً، إن منحنى الله الحيوة، مسلماً للتحذيرات التى تُعطى لى من رؤساء الكنايس المتّحدين مع الكنيسة الجامعة المقدسّة الرسولية، والمتّفقين معها من اتيان سيّدنا يسوع المسيح. وانى اندب، من كلّ قلبى، اوليك الذين يوجدون فى الضلال، انما لا ادينهم بل احبهم سويةً بسيدى يسوع المسيح كما ترشدنى المحبة المسيحية، واتوسّل لله تعالى أن يغفر لى كل خطاياى، لأننى قد اجتهدت بالفحص المدقق عنها لكى اعرفها وامقتها، واتضرّع امام عزّته تعالى بأن، اذ لم يمكنّى احصل على كاهن كاتوليكى، فاسأل الله ان يقبل اعترافى وندامتى الخالصة، لكونى وضعت اسمى (وكان ضدّ إرادتى) فى بعض قضايا مضاداً الاعتقاد بالكنيسة الكاتوليكية وتهزيبها، وانما قد استمريت دايماً متّحداً معها بخلاصة قلبى. واتوسّل لله تعالى أن يقبل قصدى الثابت ان استخدم كاهناً كاتوليكياً، حال ما يمكنّى، ان منحنى الحيوة لكى اعترف بكل خطاياى واقبل من يده سر التوبة. واننى اتضرّع لكل اولئك الذين قد امكن أن أكون اغضبتهم، بعد الانتباه، لم يبكّتنى ضميرى اننى سببت لاحد ادنى اهانة. والذين قد امكن ان اكون قد اعطيتهم مثلاً ردياً أو شكوكاً، فاتوسّل إليهم ان يسامحونى بالبشرّ الذى يظنّون اننى سببّته لهم. واننى ايضاً اتوسّل لكلّ اوليك المحبيّن ان يصنعوا تضرّعاتهم مع تضرعاتى لكى انال من الله مغفرة اثامى، واننى اغفر من كلّ قلبى لاوليك الذين قد اعلنوا ذواتهم اعداء لى من دون ان يسبق لهم منّى ادنى سبب يوجب ذلك، واسأل الله ان يسامحهم ويغفر لهم ولاوليك الذين قد صنعوا معى شراً عظيماً، أمّا من قبل غيره كاذبة ام من قبل جهل.

واننى استودع لله امرأتى وبنّى وشقيقتى واخوتى وعماتى، وكلّ اوليك المرتبطين معى

بارتباط الدم أو بنوع آخر. واتوسل لله أن ينعطف برحمته نحوهم، وأن يقويّهم بنعمته، على افتراض فقدهم ايّاى كلّ الزمان الذى يستمرونه فى هذا وادى الدموع.

واننى استودع بنّى لامراتى ولا ارتاب اصلاً بحنوها الشفوق نحوهم . واوصيّها بالخصوص أن تهذّبهم تهذيب المسيحيين الكاملين، وأن تصيّرهم بان يعتبروا عظمة هذا العالم كخيرات خطرة قابلة الفقد والانقلاب. وأن يرفعوا الحاظهم نحو المجد الثابت الحقيقى. واننى اتضرّع إلى شقيقتى ان تستمّر ملاحظة بنى بحنوها المعتاد، وأن تقوم مقام والدتهم ان حصلوا على فقدها من قبل التعس. واننى اسأل امراتى بان تسامحنى بكلّ الشرور التى احتملتها بسببى، وبكلّ غيظ قد يمكن ان اكون سببّته لها فى مدة اقتراننا، وليكن محققاً عندها اننى لست بواجد عليها شيئاً من الأشياء.

واننى اوصّى بنيّ بكل حرارة انهم، من بعد أن يتقواالله، اذ كان تعالى واجب أن يتقدّم اكرامُه علي كلّ شيء، ويكونوا متفقين دايماً مع بعضهما بعض، وخاضعين لوالدتهما وحافظين نحوها كلّ معروف، وان يعتبروا شقيقتى كوالدة ثانية. واننى اوصىّ ابنى، على افتراض انه اذا ما حصل على التعس، اى اضحى سلطاناً، ان يفتكر بانه يلتزم أن يوجّه كلّ اهتمامه نحو سعادة اهل بلاده، وانه يلتزم أن ينسى كلّ بغض وضرر خاصةً لاوليك الذى سببّوا إلىّ ما انا محتمله الان، وانه لا يستطيع ان يصيّر الشعوب سعداء ان لم يحكم حسب الشرايع.

واننى اوصىّ ولدى ان يهتّم بكلّ اوليك الاشخاص الذين كانوا متعلّقين بى. وان يفتكر بانى قد حصلت على التزام مقدّس نحو اولاد واقرباء اوليك الذين ماتوا لاجلى، والذين قد حصلوا على التعاسة بسببى. وانى عالم انه كان يوجد اشخاص كثيرون من كانوا متعلّقين بى ولم يسلكوا معى بحسب التزامهم، بل اظهروا عدم المعروف معى، فانا اسامحهم من كلّ قلبى، واسأل ولدى انه اذا تقدّمت له الفرصة لا يفتكر سوا بسعادتهم والخير لهم.

واننى اودّ أن اظهر معروفى نحو اوليك الذين قد حفظوا تعلقاً حقيقاً نحوى من دون نفعهم الخاصّ. كما اننى قد شعرت بالم من قلبى [بسبب] رداوة بعض اشخاص لم يظهر منى نحوهم ونحو اولادهم واصداقائهم الاّ كلّ جودة وخير. وهكذا قد شعرت بتعزية بنظرى ما قد ظهر من تعلّق حقيقى من كثيرين نحوى. ثم اسألهم ان يقبلوا شكرى لافضالهم، اذ كنت فى هذه الحال لا استطيع ان ابدو فى المعروف نحوهم ، انما اوصىّ ولدى ان يستقصى الفرصة الملايمة إلى مكافاتهم. واننى اظنّ انى قلّلت اعتبارى للطايفة الفرنساوية ان كنت لا اوصىّ صريحاً ولدى باوليك الذين انعطافهم الخاصّ نحوى قد جذبهم لينحبسوا معى ويطوّحوا ذواتهم بخطر الموت لاجلى.

واوصّى ولدى بكلرى[٧] الذى ليس لى سبيل عادل ان لا امدح اهتمامه وخدمته نحوى منذ وجد معى، ولم يزل مستمراً الان والى النهاية. واسأل اسياد الجمهور أن يسلموه كتبى وساعتى وكيس خرجيتى والاشياء المختصّة بى التى هى مودوعة عند مجمع الجمهور.

واننى اسامح اوليك الذين كانوا يحرسونى، واصفح عن مقتلاتهم الردية والمضايقات التى

ضايقوني بها. وقد وجد بعض انفس شفوقة فليتمتع هولاء بالراحة التي تحصل لهم (٨)، وان يقبلوا شكري لافضالهم ورغبتي بالمعروف نحو كلّ سعيهم ومهماتهم التي فعلوها لاجلي.

وانني انهي وصيتي موضحاً امام الله، اذا كنت قريباً امتثل بازآء حضرته الالهية، ان ضميري لا يبكتني على ذنب من الذنوب المنسوبة لي.

وقد حرّرت هذه الوصية نسختين في حصن الطمْبل في خامس عشر كانون الاوّل سنة ١٧٩٣

المحرر اسمه لويس السادس عشر

من ملوك فرنسا

الشاهد به بياد

احد اصحاب الوظايف.

وفي الساعتين ونصف بعد منتصف الليل صعد القايد العامّ نحو الملك لويس وعرّفه انه يزمع ان يذهب الى الموت، فاجابه الملك. انني مستعد لذلك، واذ خرج من مكانه وصعد الى الكرسي حيث كان معلّم اعترافه، قد اصطفت العساكر في التبيعة حيث كان مكان الموت، وقد كان صمت كلي. واما الملك لويس، بعد ما قرأ صلوة المنازعين، تعرّا من ثيابه بشجاعة فريدة وقلب غير مرتجف، وصرخ بصوت عال: ايّها الفرنساويّون انني اموت بريًّا واغفر لكل اعدائي وارغب ان موتي يكون مفيدا للشعب. ثم امر القايد العامّ إلى الجلاّد ان يتمّم وظيفته. وفي الحال قطع راسه، وكان حزناً عظيماً عند الذين كانوا من حزب الملك، وأما الشعب فكان عنده سرور عظيم، وصنعوا في مثل ذلك اليوم عيداً في كل سنة تذكاراً لقتل الملك وانتصار الشعب، وكان ذلك في مبادي شهر سبتمبر في سنة ١٧٩ وجعلوه بدو سنتهم. ولقّبوه تاريخاً للمشيخة (٩) وغيروا الاشهر النصرانية ورتبوها اشهر [اً] جديدة وسمّوها اسامي مختلفة وابقوها ثلثين يوماً على خلاف عدتها الاولى وفي ذلك الوقت رفضوا الديانة واقفلوا الكنايس والاديرة الرهبانية، وقتلوا الرهبان والراهبات وعدّة من الاساقفة، ورموا الايقونات وكسروا الصلبان. وكان خر[ا]ب عظيم في تلك المملكة، واهوال متلفة مهلكة. وحدث عدّة مواقع بينهم وبين حزب السلطان [الملك]: ولا زالت تزداد وتنمو الاحقاد، وتتجنّد الاجناد، وتهلك العباد، حتّي ضعف حزب السلطان، وقويت شوكة المشيخة قوةً عظيمة. وبعد ان اعتدل ميزانها، ووطدت اركانها، وأهلكوا اخصامها، فانفذوا كتابات لساير الملوك يعرّفونهم عن تأييد مشيختهم وهذا ما تضمنته كتاباتهم:

ان كلّ من يقرّ بمشيختنا فهو حبيب لنا ومن لم يقرّ بمشيختنا فهو عدوّ لنا ويستعدّ إلى محاربتنا لاننا قد استعدينا ان نحارب المسكونة باسرها. ثم كتبوا مثل ذلك الى الدولة العثمانية، وقد كانت هذه الدولة المذكورة من قيامها متّحدة مع الدولة الفرنساوية دايماً: فقبلت كتابتهم وقرّت بمشيختهم. وامّا الملوك الافرنجية، حين وصلتهم كتابة الفرنساوية، نهضوا جميعاً باتّفاق على قدم وساق، وعزموا على حرب ذلك الشعب الخارج عن الاسلوب، ليّلاً تتشبّه به بقية الشعوب. فاوّل من اشهر عليهم الحروب ملك النمسا الانبراطور، لانهم قد قتلوا شقيقته زوجة ملكهم ثم نهضت ضدّهم دولة الانكليز، ثم سلطان اسبانيا، ثم بسلطان

ايطاليا، ثم البابا سلطان مدينة رومية العظيمة وباقي سلاطين بلاد أوروبا. ولكون أن شعب هذه المملكة وهو اوفر عدداً من ساير الشعوب، فاعتصبوا جميعهم عصبة واحدة، واستعدّوا لحرب جميع مضاديهم ، وخرجوا من مدينة باريز إلى قتال اعداهم الواردين عليهم من كل ناحية ، وابتدوا يحاصروا مدينة بعد مدينة ومملكة بعد مملكة، وهم فى عساكر كالبحار الزاخرة بالات الحرب الوافرة والقوات القادرة، التى ان اشتهر بأسهم واقتدارهم، وانتشر تملكهم وانتصارهم، وتملكوا حصوناً وقلع وبلدان وضيع، واستولوا على ممالك بلاد ايطاليا وكانت تحكم احد عشر سلطاناً، وامتلكوا عدة قلع من بلاد النمسا. وكان ذلك الانتصار والتملّك عن يد ذلك الليث الظاهر والاسد الكاسر، الفرد الفريد والبطل الصنديد، امير الجيوش بونابارته. وكان هذا من بعض كبار المشيخة الفرنساوية. وكان قصير القامة رقيق الجسم اصفر اللون، باعه اليمين اطول من اليسار، مملواً من الحكمة مشمولاً بالسعد والنعمة، يبلغ من العمر ثمانية وعشرين سنة، وهو اطليانى الاصل من جزيرة كورسيكا – وتربيته فى مدينة باريز كرسّى دولة الفرنساوية. وعند ما اقتربت تلك الجيوش الفرنساوية كرسى [فينا] مملكة الانبراطور اى ملك النمسا، عقد امير الجيوش بونابارته صلحاً مع الملك الانبراطور على شروط مكتومة غير ظاهرة، ونهض من هناك سايراً إلى مملكة البندقية ودخل دخولاً عجيباً، لأن مدينة البندقية هى بكر الابكار لكون انها من حين ما بنيت وقامت مشيختها،قطّ مادخلها دال ولا سطا عليها عدّو. واستولى على جميع مدنها وجزايرها، وتملك على كنوزها وذخايرها. ثم انّه سلّم مدينة البندقة إلى ملك النمسا، وابقى جزيرة كورفو[١٠] له، ووضع بها ستة الاف صلدات [جندى]، ومن هناك سار بالجيوش إلى مدينة رومية العُظما، وبعد حروب شديدة وآيام عديدة مع عساكر البابا، تملك رومية وهزم الباب، واستولى على كنوزه وذخايره، وسلب اموال اهل الجزيرة، وخرب نظام تلك المدينة الجليلة، واهان طغمة الاكلركلين والرهبان، وازدرى بالذخاير والصلبان، وكان اضطهاد عظيم على المسيحيين. وكثير من اهل رومية تبعوا رأى الفرنساوية. ومكث مدّة فى رومية واتى إلى مدينة باريز. وكان مدة حروبهم فى البلاد الافرنجية ستّة سنوات، وطاعتهم غالب البلاد المذكورة. وقد كانت الفرنساوية جهّزت عمارة [اسطول] عظيمة فى طولون، وكان عدتها اربعماية وخمسين مركباً، وعدة عساكرها ستّين الفاً ورؤساء العساكر ستّة وعشرون رجلا معروفين بالشجاعة والقوة والبراعة، وعَدة الصلد الحربية ستّة وثلثون الفاً،وباقى العساكر فيسالية [١١]واصحاب صنايع ونوتية. وحين تمت العمارة ركب بها وصار طالباً جزيرة مالطة، وعندما وصل اليها حاصرها مدة قليلة، وافتتحها فى شهر مايو[١٢] المطابق إلى شهر ذى القعدة سنة ١٢١٢ هجرية، بعد قيام تلك المشيخة بخمسة سنين. وقيل أن ذلك كان بولس الكوليريه[١٣] الفرنساوين الذين كانوا موجودين بها.

وبعد توليتهم على مدينة مالطة، رفعوا منها الحكام الكوليريه الذين كانوا من قبل ساير الملوك الافرنجية، واطلقوا المأسورين بها من الاسلام وارسلوهم الى بلدانهم بالسلام، واوعدوهم بان ما

عاد يسير استئسار على الاسلام من المالطية على الدوام، ثم امرهم ان يبشّروا بذلك فى جميع بلدان المسلمين ويشكروا بذلك فضل الفرنساوية، وبعد ذلك وضع فى مدينة مالطة ستّة الاف مقاتل من الفرنساويين، واخذ عوضها من المالطيين، وصار فى تلك النية قاصداً مدينة الاسكندرية.

ذكر مسير بونابرت إلى مصر

هذا ما كان من امير الجيوش بونابارته، وامّا الانكليز لما بلغهم خروج هذه العمارة العظيمة، وظنّوا انهم قاصدون بلدانهم، فحصنّوا ثغورهم ومكاناتهم. ولما حقّقوا انهم قصدوا الديار المصرية، جهزوا اربعة عشر مركباً بكلك[١٤] كبار وصاروا إلى محاربتهم، لانه كان بين الانكليز والفرنساوية عداوة عظيمة وحقود قديمة، وقد تسلّموا بعض بلدان فى الهند كانت للفرنساويين. وبهذا السبب كان مسير الفرنساويين إلى الديار المصرية، مؤملين انه، بعد تملكّم الامصار المصرية، يستسيرون فى بحر السويس إلى بلاد الهند، لان المسافة قريبة. وحين دخلت مراكب الانكليز ثغر الاسكندرية، ارسلوا قارباً يطلبون حاكم المدينة، فتوجّه إلى مقابلتهم كمركجى الاسكندرية،السيّد محمد كريم الذى كان متروّسا [ريسا] من قبل الامير مراد بيك وبعد وصوله للمراكب سألهم عن سبب قدومهم فاخبروه انهم طالبون عمارة الفرنساوية لكى يصدّوها عن الدخول إلى ثغر الاسكندرية. فارتاب السيّد محمد كريم وقال فى نفسه: ما هذا الاّ خداع عظيم، واجابهم: ان الفرنساوية غير ممكن انهم يحضروا لبلادنا، ولا لهم فى ارضنا شغل، ولا بيننا وبينهم عداوة، ولا جلبنا عليهم رداوة. وهذا كلام غير ممكن أن نصدّقه، وان حضروا كما تزعمون فنصدّهم عن الدخول وليس لهم الينا وصول. وامّا انتم فليس لكم الاقامة بهذه الديار وانما اذا جئتم تاخذون شياً من الماء والماكل فلكم الاختيار. فاجابوه الانكليز: انتم لستم فى هذا الحين كفوا لصدّ الفرنساويين،و لكن سوف تندمون على عدم قبلوكم ايّانا وعلى ما يحّل بكم تتحسّرون. وفى الحال اقلعوا من مقابل الاسكندرية وكان ذلك فى ثلثة عشر من شهر محّرم افتتاح سنة ١٢٢٣[١٥]. فرجع السّيد محمد كريم وهو حاير من ذلك البلاء العظيم. وفى الحال اعرض ذلك الأمر إلى مراد بيك والى مصر. وفى ثالث الايّام من بعد قيام مراكب الانكليز من ثغر الاسكندرية عند العصر، نفذ مركب عظيم فى البحر، ولما قرب إلى البوغاظ ارسل قارباً إلى اسكلة [ميناء] الاسكندرية يطلب قنصل الفرنساوية. ولما بلغ اهل المدينة خافوا خوفاً عظيماً وعقدوا ديوانا، واتّفق رأيهم على عدم توجّه القنصل. وكان يوميذٍ مركب الريالة[١٦] فى البوغاظ وقبطانه فى المدينة، فامرهم ان يطلقوا القنصل وقال لهم: وان حصل سؤال عن ذلك فعلى الجواب. وسار فى القارب إلى المركب. ثم ما اغربت الشمس الاّ واقبلت العمارة العظيمة التى ليس لها عدد، فسقط على اهل الاسكندرية خوف عظيم وهم جسيم حين نظروا وجه البحر تغطى من المركب، وحرر السيد محمد كريم يعلم مراد بيك عن قدوم تلك العمارة فى هذه الالفاظ:

سيّدى ان العمارة التى حضرت مراكب عديدة ما لها اوّل يعرف ولا آخر يوصف . لله ورسوله داركونا [ادركونا] بالرجال. وفى تلك الليلة ارسل ثلثة عشر ساعياً بلا خلاف، وقد ايقنوا بالموت والتلاف.

واما الفرنساوية بقوا تلك الليلة ينقلون العساكر من المراكب الى البرّ بالقوارب إلى مكان يقال له العجمى(١٧) بعيداً عن مدينة الاسكندرية مسافة ساعتين. وعند الصبح نظرت اهالى البلد الى العساكر فى البرّ ليس لهم عدد ولا لهم على حربهم جلد. فتأهّبت الاسلام الى الحصار ومحاربة تلك الكفّار، واطلقوا المناداة: اليوم يوم المغازاة. ولكن اذ كانت المدينة غير مأمنة من تلك الحوادث وغير مستعدة لمثل هذه النواكس، فما وجد فى قلع هذه المدينة الا قليل من البارود واكثره كالتراب من طولة الآيام، وعند طلوع الشمس هجمت عليهم تلك العساكر كالبحار الزواخر والاسود الكواسر. فما مضى نحو ساعتين من النهار حتّى تملكّت الافرنج الاسوار، ودخلت المدينة قوّةً واقتدارً. وكان ذلك فى ١٥ محرّم سنة ١٢١٣ الموافق لشهر يونيو سنة ١٧٩٨. وطلبت الامان الرعية من العساكر الفرنساوية، فاعطاهم امير الجيوش الامان وعدم المعارضة والعدوان. وكان قد قُتل فى ذلك النهار من المسلمين ماية قتيل ومن الفرنساوية شيء قليل. وانجرح جرحاً كبيراً الجنرال كلبير [كليبر].

ثم حضرت قدّام امير الجيوش اعيان البلد، فتوسّلوا اليه فترحّب بهم وامّنهم، واختار منهم سبعة انفار من الاعيان الكبار وهم: الاستاذ الفاضل والحاذق العاقل الشيخ محمد المسيرى العالم العلاّمة والمشهور بالفضل والمكرمة، ثم السيّد محمد كريم عين الاعيان ورئيس الديوان، ومعهم خمسة انفار من اهالى الاسكندرية الاخيار، وقلّدهم زمام الاحكام وما يحتاج اليه البلد من النظام، وان كلّ يوم يعملوا ديوان مشهور – ويحكموا بما بينهم من الامور، وقال لهم انه على مقتضى الحرية يجب ان تتقلد الاحكام عقلاء الرعية، لأن الخلق عند الله كلّ بالسوية، وليس يتفضل أحد على الآخر إلا بالعقل والنيّة. وبعد ذلك امرّ باحضار المطابع التى احضرها معه من مدينة رومية، وكانت تطبع فى اللغة الفرنساوية ولغة اللاتينية واليونانية والسريانية والعربية، وكتب فرمانات وطبعها فى العربية، ووزّعها على الديار المصرية، وهذه صورتها حرفاً فحرفاً:

بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلاّ الله لا ولد له ولا شريك بملكه

من طرف الجمهور الفرنساوى المبنى على اساس الحرّية، والسر عسكر الكبير بونابارته امير الجيوش الفرنساوية، نعّرف اهالى مصر جميعهم ان من زمان مديد السناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يعاملون بالذلّ والاحتقار فى حقّ الملّة الفرنساوية، ويظلمون تجّارهم بانواع البلص والتعدّى، فحضرت الآن ساعة عقوبتهم، وخسرت(١٨) من مدّة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من جبال الاباذا، والكرجستان(١٩) يُفسدوا فى الاقاليم الاحسن ما يوجد مثله فى كرّة الارض كلّها. فاما ربّ العالمين القادر على كلّ شيء قد حتم فى انقضاء دولتهم. يا آيها المصريون، قد يقولوا لكم اننى ما نزلت فى هذا الطرف الا بقصد إزالة دينكم، وذلك كذب صريح فلا تصدّقوه، وقولوا للمفترين اننى ما

قدمت اليكم الاّ لكيما اخلص حقكم من يد الظالمين. وانني، اكثر من المماليك، اعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيّه محمد والقرآن العظيم.

وقولوا لهم ايضاً ان جميع الناس متساويّن عند الله ، وان الشيء الذى يفرقهم عن بعضهم بعض فهو العقل والفضايل والعلوم فقط. وبين المماليك والعقل والفضل والمعرفة تضارب، فماذا تميزهم عن الآخرين، وتستوجب ان يتملكوا وحدهم كلّما تحلو به حيوة الدنيا، حيثما يوجد ارض مخصبة فهى للماليك، والجوار[ى] الجمال والحلل الحسان والمساكن الاشهى(٢٠) ، فهذه كلّها لهم خاصة. فان كانت الارض المصرية التزام للماليك فليوردوا الحجّة التى كتبها لهم الله ربّ العالمين، هو رأوف وعادل على البشر . بعونه تعالى من اليوم وصاعداً لا يُستثنى [أحد] من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية. فالعقلاء والفضلاء والعلماء بينهم سيدبّروا الامور، وبذلك يصلح حال الامّة كلّها. سابقاً فى الديار المصرية كانت المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر، وما زال ذلك الاّ لطمع وظلم المماليك.

ايّها القضاة والمشايخ والائيمة، ويا ايّها الشورباجية واعيان البلد، قولوا لأمّتكم ان الفرنساوية ايضاً مسلمين خالصين. واثباتاً لذلك قد نزلوا فى رومية الكبرى، وخرّبوا بها كرسى البابا الذى كان دايماً يحثّ النصارى على محاربة الاسلام. ثم قصدوا جزيرة مالطة [وطردوا] منها الكولريه [فرسان مالطة] الذين كانوا يزعمون ان الله يطلب منهم مقاتلة المسلمين. ومع ذلك الفرنساوية فى كلّ وقت كانوا محبّين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى وأعدا أعداه ومع ذلك إن المماليك غير ممتثلين الى امره، فما طاعوا اصلاً الاّ لطمع نفوسهم.

طوبى ثم الطوبى إلى اهل مصر الذين يتّفقون معنا بلا تاخير، وينصلح حالهم وتعلا مراتبهم طوبى ايضاً للذين يقعدون فى مساكنهم غير مبالين لاحد من الفريقين المحاربين، ان يعرفونا بالاكثر يسرعون الينا بكلّ قلب. لكن الويل ثم الويل للذين يتّحدوا مع اوليك المماليك ويساعدوهم فى الحرب علينا فما يجدوا طريق الخلاص ولا يبقى لهم اثار.

المادة الأولى :جميع القرى القريبة ثلث(٢١) ساعات عن المواضع التى يمرّ بها العسكر الفرنساوى، ترسل للسارى عسكر بعض وكلاء لكيما يعرّفوا المشار اليه انهم اطاعوا ونصبوا السنجق الفرنساوى الذى هو ابيض وكحلى واحمر.

المادة الثانية : كلّ قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تُحرق بالنار.

المادة الثالثة : كلّ قرية تطيع الفرنساوى الواجب عليهم نصب السنجق الفرنساوى وايضاً نصب سنجق السلطان العثمانى محبّنا ادام الله بقاه.

المادة الرابعة : المشايخ فى كلّ بلد يختموا حالاً جميع الارزاق والبيوت والاملاك متاع المماليك وعليهم الاجتهاد الزايد لكى لا يضيع ادنى شيء منها.

المادة الخامسة : الواجب على المشايخ والقضاة والايمة ان يلازموا وظايفهم، وعلى كلّ من اهل

البلدان يبقى فى مسكنه مطمأناً. وكذلك تكون الصلوة قائمة فى الجامع عل العادة. والمصريون باجمعهم يشكروا فضل الله سبحانه وتعالى لانقراض دولة المماليك، قائلين بصوت عال: ادام الله تعالي اجلال السلطان العثماني. ادام الله اجلال العسكر الفرنساوى. لعن الله المماليك، واصلح الله حال الامّة المصرية.

تحريراً فى معسكر اسكندرية، فى ثلثه عشر من شهر مسيدور[٢٢] سنة ستّ من اقامة الجمهور الفرنساوى اعنى اواخر شهر محرّم سنة ١٢١٣ هجرية.

ثم انه توجهت تلك الفرمانات الى الديار المصرية. وفى ثانى الايّام ارسل امير الجيوش بونابارته العساكر من الاسكندرية الى دمنهور وبندر رشيد. وعندما بلغ اهالى رشيد قدوم الفرنساوية خرج الى لقاهم علماء واعيان البلد. فسلّموهم البندر خوفاً من الضرر، وتسلّم بندر رشيد الجنرال منو حاكماً به وهذا الجنرال كان بطلاً من الابطال الكبار.

ذكر الحرب بين بونابرت والمصريين واحتلال بونابرت لمصر

وكنّا ذكرنا ان السيّد محمد كريم قد اخبر مراد بيك بذلك البلاء العظيم والخطاب الجسيم. ولما وصلت النجاية الى مصر واخبروا مراد بيك بقدوم الفرنساوية الى مدينة الاسكندرية ، طرح الكتاب من يده وصاح على عساكره وجنده ، واحمرت عيناه واضطرمت النار فى احشائه، وامر باحضار الخيل للركوب، وسار الى منزل ابراهيم بيك على ذلك الاسلوب. وشاع الخبر واضطربت البشر،

وهاجت تلك الأمم على ساق وقدم، وحلّ فى القوم الاسف والندم، واجتمعت الكشاف والامرا والاشراف لقصر ابراهيم بيك بلا خلاف، وحضر باكير باشا من القلعة السلطانية المعنية، وحضروا جميع السناجق والاعيان مثل: ابراهيم بيك الكبير ومراد بيك الكبير ومصطفى بيك الكبير وايوب بيك الكبير وابراهيم بيك الكبير ومراد بيك الصغير وسليمان ابو دياب وعثمان بيك الشرقاوى ومحمد بيك الالفى ومحمد بيك المنوفى وعثمان بيك البرديسى وعثمان بيك الطبجى وقاسم بيك المسكوبى وقاسم بيك ابو سيف وقاسم بيك امين البحر والامير مرزوق ابن ابراهيم بيك الكبير وعثمان بيك الطويل وشروان بيك. وحضر من العلماء : الشيخ محمد السادة [السادات] والشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ محمد المهدى والشيخ خليل محمد الجوهرى واما العلماء الصغار فلا نقدر نعدهم لكثرتهم فهؤلاء السناجق المذكورين مع العلماء المشهورين، والوزير السلطانى باكير باشا العثمانى، عقدوا الديوان وحضرت السبع اوجاقات وعدّة من الاغوات وجملة من العوام ارباب الصوت والكلام.

وبدوا يتداولون بامر الفرنساوية ودخولهم الى الاسكندرية، ويستغربون من هذا الخطب المهول والامر المجهول. فامير اللواء مراد بيك بما انه عارف ان خاطر الدولة العلية متغيّر عليه، فالتفت الى الوزير وقال له: ان هؤلاء الفرنساوية ما دخلوا على هذه الديار الاّ باذن الدولة العثمانية، ولا بدّ الوزير عنده علم بتلك النيّة، لكن القدرة تساعدنا عليكم وعليهم. فاجابه الوزير : لا يجب عليك أيّها الامير

أن تتكلم بهذا الكلام العظيم ، ولا يمكن ان دولة بنى عثمان تسمح بدخول الفرنساوية على بلاد الاسلامية، فدعوا عنكم ذلك المقال وانهضوا نهوض الابطال واستعدّوا للحروب والقتال. ثم اتفق رأيهم أن يسجنوا القناصل والتجّار الموجودين من الفرنساوية فى مصر القاهرة، خوفا من الخون والمخامرة ، وسجنوهم جميعاً فى قلعة الجبل. وبعد ذلك اتفق الجميع، الكبير منهم والوضيع، على القتال والصدام. وان مراد بيك يسير فى العساكر المصرية لملاقاة الفرنساوية عند دمنهور، وابراهيم بيك الكبير وباكير باشا الوزير مع بقية العساكر والقواد والدساكر يقيمون فى المدينة.

وكان قد هاج اكثر العلماء والاعيان وقالوا: لا بد نقتل بالسيف جميع النصارى قبل ان نخرج [الى] حرب الكفّار. وقال الوزير وشيخ البلد ابراهيم بيك: غير ممكن اننا نُسلم الى هذا الغرم والرأى، لان هولاء رعيّة مولانا السلطان صاحب النصر والشان. وامّا النصارى فوقع عليهم وهم عظيم وخوف جسيم، وبدوا الاسلام يتهدّدوهم بالقتل والسلب ويقولوا لهم اليوم يومكم، قد حلّ قتلكم ونهبكم وسلبكم. وكانت مدّة مهولة مرعبه، ونار ثايرة ملهبة. ولكن بالمراحم المولى عزّ شانه. اذ انه قد عطف وحنّن عايهم قلب الوزير وشيخ البلد، وكانوا فى كّل يوم يرسلوا اليهم سليم اغا، اغة الانشكارية، حالاً يطمّنوهم على ارواحهم واموالهم، ويطلق المناداة فى كل البلد على حفظ الرعايا وعدم المعارضة لهم.

فلنرجع الى ما كنّا فى صدده، وهو ان مراد بيك جمع الفرسان والغزّ والعربان واهل تلك الاطراف، ما ينوف عن عشرين الف مقاتل من كل فارس وراجل، وسار فى العساكر كالبحور الزواخر، نهار الجمعة، الى ارض الرحمانية، وهى بلاد بالقرب من رشيد. وكان قد ارسل الجبخانات والذخاير مع عسكر كريد [كريت] فى بحر النيل، وكان صحبتهم عليّ باشا الجزام الذى كان مطروداً من جزاير الغرب[٢٣] ومقيمًا فى مدينة مصر، وناصيف باشا ابن سعد الدين باشا العظم مطروداً من الدولة. فهولاء كانوا ملتجيين الى مراد بيك فى ذلك الوقت، فارسلهم مع الذخاير والجبخانات، وسار مراد بيك مع العساكر على شاطى النيل امامهم. وعندما وصلوا الى اراضى الرحمانية، فقابلوا الجيوش الفرنساوية قادمين كالسيل القاطر، وكانت غلايطهم[٢٤] سايرة تجاههم بحراً. وعندما نظروا الغلايط الى تلك المراكب التى بها الذخيرة فتجاروا اليهم، ووقع الكون [القتال] بينهم، وارموا بعضهم بالمدافع والقنابر، فسقطت احدى القنابر على المركب الذى كانت به الجبخانة، فطار البارود واحترق المركب والذى بقربه من المراكب، وكانت الناس تتطاير بالجوّ كالطيور، ووصلت الى الجبخانة التى على البرّ فشعلت فيها، وانوعرت [ذعرت] العساكر لما شاهدت تلك النار، واستفولوا [تشاءموا] من الانكسار، وايقنوا بالعدم والدمار. وفى ذلك الوقت دهمتهم العساكر الفرنساوية وانزلت بهم البلية، فولت العساكر المصرية مُدْبرين، والى النجاة طالبين، ولا زالوا راجعين وفى مسيرهم مُجدّين، الى ان وصلوا الى محلّ يقال له الجسر الاسود [بالجيزة]، واقاموا هناك فى غاية الذلّ والنكد. فهذا ما كان من مراد بيك. وذلك التدبير وما اصابه عسكره من الزلّ [الذل] والتدمير.

وامّا ما كان من باكير باشا وابراهيم بيك الكبير فانهم، بعد مسير مراد بيك، نزلوا الى بولاق ونصبوا الخيام والوطاق، وابتدوا يبنوا المتاريس على شاطئ النيل. وعندما اتتهم الاخبار بما قد حصل بعساكر مراد بيك من الدمار والانكسار من الاعداء الكفّار الفرنساوية الاشرار، فتقطعت ظهورهم وحاروا في امورهم. ووصلت الاخبار الى مصر فكان يوماً مهولاً، وقامت اهالي البلد بالسلاح والعدد، وتهدّدوا النصارى وصاحوا: اليوم قد حلّ قتلكم يا ملاعين، وصرتم غنيمةً للمسلمين. ثم ارسل ابراهيم بيك الى مراد بيك ان يحضر الى إمبابة تجاه بولاق، ويبنوا المتاريس على شاطئ البحر [النيل] ويضعوا المدافع، ويبقى ابراهيم بيك وعسكره في بولاق ومراد بيك وعسكره في إمبابة تجاه بعضهما، والبحر بين الجهتين، احتساباً بان الفرنساوية اذا اتوا بحراً يتلقاهم ابراهيم بيك، واذا اتوا براً يتلقّاهم مراد بيك. وفي نهار الجمعة سادس عشر يوم من شهر صفر [٣٠ يوليو ١٧٩٨]، صعدت علماء مصر وعامة الناس الى القلعة السلطانية، واحضروا البيرق[٢٥] النبوى بضجيج عظيم واحتفال جسيم، واتوا به الى مدينة بولاق وهم يموجون كالبحر الدفاق، وجميع تلك الاقاليم في الوجل العظيم، ويضجون بالدعا المستديم الى الربّ الكريم، وقد صعدوا الى المنابر وفتحوا المصاحف وهم في غاية المخاوف. ونهار السبت سابع عشر صفر [٣١ يوليو ١٧٩٨]، اقبلت الجيوش الفرنساوية برّاً وبحراً، وتقدّمت العساكر المصرية، واستعدّوا لحرب الفرنساوية، وقرعوا طبول الحرب، ووطدوا نفوسهم على الطعن والضرب. وتقدّم الى المحاربة الجبّار العنيد والمُعدّ في الحروب بالف صنديد، الجنرال دُبوى[٢٦]، فتلاطما العسكران وتصادما الجيشان وتهاجمت الشجعان، وفرّ الجبان وبان القوى من الجبان وجاءت العربان، وتقدّموا الى الضرب والطعان، وتجارت الفرسان الى حومة الميدان، وعجّت بالمناداة: اليوم يوم المغازاة. ثم انقضّت السناجق كانقضاض البواشق، بالسيوق البوارق والرماح الخوارق والخيول السوابق، واطلقوا المدافع كصواعق. وثار العجاج وزاد الهياج. وقد هجم في ذلك الوقت البطل المغوار والاسد الهدّار ايوب بيك الدفتردار، وقحم بحصانه وسط الغبار، وصاح في الاعداء: ويلكم يا لئام، ساقكم الغرور لفتح هذه الثغور. اليوم نملى منكم القبور، ونجعله عليكم يوماً مشهور. وفي مثل هذا الاوان، تبان الشجعان، وتبلغ المنازل العالية الفرسان، وتكسب الحمد والثناء فمن مات منّا احتوى بالجنان، ومن عاش ربح من دون خسران، وكان بدنياه سعيد ومن مات راح بالله شهيد

ولما طال الحرب واشتد البلا والكرب، ودام الطعن والضرب، فعند ذلك الوقت قرعت الفرنساوية الطبول النحاسية، وهجم ذلك البطل الذى ذكره تقدّم، الجنرال دبوى المعظّم، ولا زالوا يلتقون الكلل في صدورهم، ويدوسون مجروحهم ومقتولوهم، حتّى ملكوا المتاريس وكان ذلك على الغزّ انكيس. وبدوا يطلقون المدافع على الاسلام ويُورثوهم مواريث الاعدام. وجادت الافرنج في القتال لما ملك دبوى المتاريس. وكانت الافرنج ثلاثين الف مقاتل ما بين فارس وراجل، وكان كلّ من هولاء الصلدات في كلّ دقيقة يطلق الرصاص سبع دفعات. فعند ذلك صاحت الغز: الفرار الفرار من حرب هولاء الكفّار. وولت العربان وانهزمت

الشجعان. واذ ضاق عليهم ذلك السبيل القوا ارواحهم فى بحر النيل، فما سلم منهم الاّ القليل. وكان قد سقط قتيل وداسته الخيل ذلك الجبّار والاسد المغوار ايوب بيك الدفتردار، ولم يبان له علائم ولا اثار، بعد ان قتل جمعاً غفير وثبت قدّام تلك الجماهير.

وامّا مراد بيك [فقد] فرّ فى رجاله وابطاله [و] طالب النجاة لنفسه العزيزة ودخل الى الجيزة. وقد احرق مركبه الكبير الذى كان انشاه، خوفاً ليلاً تكسبه اعدائه، ثم سار نحو الصعيد.

وكان باكير باشا وابراهيم بيك، [قد] انهزموا من بولاق وقلوبهم بنار الاحتراق، ودمعهم ينحدر من الاماق، وقلوبهم مغترمات بالحسرات، وهم يتأسّفون على ما فات. ثم اخدوا عيالهم ورجالهم، وخرجوا من المدينة من باب النصر قاصدين البرّية والديار الشامية. وبقيت بقية اهل القاهرة تلك الليلة بمخاوف وافرة.

وعند الصباح اجتمع القاضى والاعيان وقالوا: ان الحكام ولت واحوالهم إضمحلت، فالتسليم لنا اصلح وحقن دماء الاسلام اوفق واربح. وقد كنّا ذكرنا ان القنصل والتجّار الفرنساوية تحت اليَسَق فى قلعة الجبل، فاحضروهم وطلبوا منهم ان يسيروا معهم الى بولاق وياخدوا لهم الامان. فاشار عليهم القنصل ان يتوجّه اثنان من التجّار ومحمد كتخدا ابراهيم بيك، وساروا إلى برامبابة وفى وصولهم تقدموا إلى مقابلة الجنرال دبوى وترحب بهم وسألهم عن احوال [الـ] مدينة وما هو مراد اهلها. فقالوا له: ان الحكّام ولّت والرعيّة ذلت، وقد اتينا من قبل علماء البلد والاعيان نطلب لهم الامان. فاجابهم الجنرال دبوى: من القى سلاحه حُرم قتاله، فلهم منى الامان ومن امير الجيوش ومن كلّ من فى هذا المكان. وانما يلزمكم فى هذه الليلة ترسلوا المعادى والقوارب لننقل بهم العساكر، لان مرادى فى هذه الليلة ادخل البلد. ثم رجعوا محمد كتخدا والتجّار واعلموا العلماء بتلك الاخبار، فامرت العلماء والحكّام البلد حالاً بمسير القوارب والمعادى الى بّر إمبابة، ونزل الجنرال دبوى بماية وخمسين صلدات الى بولاق حيث كانت العلماء بذلك الاتفاق وحين تقابلوا اعطاهم الامان، وساروا قدّامه بالمشاعيل الى ان دخلوا المدينة والمنادية تنادى امامه بالامان على الرعيّة والاعيان.

وجلس الجنرال دبوى فى منزل ابراهيم بيك الصغير، وارسل بعض الصلدات تسلّمت قلعة السلطان. واتقدت تلك الليلة النار بمنزل مراد بيك، وكان ذلك من الذين ينهبون وهم من اولاد البلد، فنهض الجنرال دبوى واطفا تلك النار. وعند الصباح، فى تاسع [٢٧] صفر نهار الاثنين، ابتدأت تنتقل العساكر من بّر الجيزة وامبابة الى مصر، فعندها قدم امير الجيوش بونابارته، فخرجت العلماء والاعيان والنصارى والاسلام لملتقاه، وكان يترحّب بهم ويلتقيهم بالبشاشة والاكرام، ويوعدهم بالخير والنظام. ثم امر ان يفرشوا له منزل بقرب النيل، ففرشوا له منزل محمد بيك الالفى الكاين على شاطى بركة اليزبكية، ونزل كبير الاقباط المتسلّمين الاقاليم المصرية، وهو جرجس الجوهرى، وباشر بفرش المنزل. وفى يوم الثلاثة دخل امير الجيوش ونزل بذلك المنزل، ودخلت جميع تلك العساكر التى ليس لها اوّل من آخر. وامر امير الجيوش ان جميع اهالى مصر يضعوا على رؤسهم او صدورهم

علامة المشيخة، وهذا النشان هو من الحرير الابيض والكحلي والاحمر قدر زهرة الورد. وقد وضعتها جميع الناس من الرجال والنساء، واطلق المنادة ان كلمن دخل من دون علامة يجب له القصاص. وحين دخلت العساكر الفرنساوية كانوا ينهبون من بيوت الغزّ والمماليك، فامر امير الجيوش برفع النهب. وكانت الغزّ قد دفنت اموالها تحت الارض ولم يبق سوا الفرش والامتعة، وقد نهبت اهالي المدينة منهم شيء كثير. وفي ١٢ (٢٨) ارتفع النهب واطمأنت الناس في اماكنها فهذا ما كان من دخول الفرنساوية.

وامّا ابراهيم بيك وباكير باشا فانهم، بعد خروجهم من مصر، ساروا الى مدينة بلبيس وهم في الذل والتعكيس. وامّا مراد بيك فسار الى اراضي الصعيد. وفارقت الغزّ الكنانة وبليوا بالذل والاهانة. وقد وقعوا بالشتات والخبال. وانتهبت اموالهم وسبيت اعيالهم، وناحوا على فراق مصر وتفرقهم في كل قطر. وارموا من رؤوسهم القواوين(٢٩) الصفرآء، ولم يبق للقووق الاصفر في مملكة مصر اثار. وداقوا من الغربة امرّ كاس وبقوا كعامة الناس.

وكان امير الجيوش بونابارته، بعد دخوله الى ارض مصر، احضر تجّار ديوان البهار المعروف بديوان البنّ الوارد من الاقطار، وطلب منهم الف وستّماية كيس. وطلب من الاقباط المباشرين الدواوين الف وستّماية كيس. ومن تجّار النصارى ثمانماية كيس. وتسلّم تلك الاربعة الاف كيس في ستة ايام، واوعدهم بوفائها عندما يروق الحال ويتسع المجال وبعد ذلك ابتدأ في النظامات في مدينة مصر كما ياتي ذكره، فاحضر اولاً خمسة انفار من العلماء الكبار وهم: الشيخ عبدالله الشرقاوي والشيخ خليل البكري والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ محمد المهدي والشيخ سليمان الفيومي، واحضر معهم اثنين من الاوجاقات وواحد من التجّار وهم: علي كتخدا باشي ويوسف شاوش باشي والسيّد احمد المحروقي، وافرز إلى هولاء محلاً معينا، وعين لهم علايف [رواتب] شهرية واقامهم رؤساء في ديوان خصوصي وكانوا في كلّ يوم يجتمعون. واقام معهم رجلاً فرنساوياً مترجّماً من اللغة الفرنساوية الى اللغة العربية. ثم ان امير الجيوش بونابارته رتّب ديواناً ثانياً سبعة انفار من التجّار، ومعهم رجلاً فرنساوياً مترجماً، وذلك ليكون ديوان البحر، وافرز لهم محلاّت معلومة لاستماع دعاوى التجّار والمتسبّبين.

واحضر امير الجيوش محمد كتخدا المسلماني، فهذا كان اصله ارمنياً واسلم، وترقى في زمان المماليك الى ان صار كتخدا ابراهيم بيك الصغير الذى غرق في النيل يوم الحرب، فجعل هذا الرجل اغا وجعله واليّا على البلد.

ثم امر امير الجيوش بان تُفرز محلات معيّنة لاجل المطابع التى احضرها معه من رومية، وهي تطبع بجميع اللغات كما قدّمنا ذكره. وجعل لذلك محلاّت على شاطى اليزبكية [الازبكية].

ثم ان امير الجيوش قسم البلد خطوطاً وجعل لكل خطّ حاكماً فرنساوياً. وكانت الوُلاة من الفرنساوية واقفين على باب المدينة ليلاً ونهاراً وخارجاً الى حدود بولاق والى حدود الجيزة. وانقطعت جنس اللصوص والخطافين والعربان والسرّاقين. وكانت حكّام الخطوط في كلّ سبة

[يوم سبت] يطلقون المنادات على الرعايا بكناسة الطرقات والشوارع ورش الماء لاجل النضافة ونظام الطرقات، ورسموا ان على كلّ باب بيت او باب وكالة يكون قنديلاً شاعلاً كلّ الليل. وكانت حكّام الخطوط تدور فى الليل، فكلّ باب لم يجدوا عليه قنديلاً فكانوا يضربون عليه مسماراً، وفى الغد يقع على صاحبه القصاص، وكانت المدينة تضئ فى الليل كالنهار.

ثم أن امير الجيوش احضر مصطفى اغا كتخدا باكير باشا وآمنه والبسه فرواً، وجعله امير الحاجّ. وامره ان يباشر لوازم الحاجّ وما يحتاج اليه. وقال: لماذا الوزير فرّ هارباً مع المماليك، ألم يعلم اننا متحدّين مع الدولة العثمانية، ونحن ما حضرنا الى هذه الامصار الا بالاذن من السلطان سليم والاختيار [أى موافقته]. ثم امر الى مصطفى اغا ان يحرّر الى باكير باشا ان يرجع الى القلعة كما كان وله الكرامة والامان. ورجع مصطفى اغا من امامه وهو منشرح الصدر مستغرباً هذا الامر.

ثم ان امير الجيوش شغل الضر بخانة فى القلعة كما كانت، وامر ان يضع اسم السلطان سليم حسب العادة. وامر ايضاً امير الجيوش ان يفرزوا محلات للمرضى والمجروحين المعروف بالاسبستار وافرزوا لذلك قصر المعنى [العينى] الذى على شاطى النيل بين القاهرة ومصر القديمة. فجعلوا اماكن لاجل صنع الادوية. واقام هناك ريساً للاطبّاء وريساً للجرايحية.

وبعد ذلك امر امير الجيوش بونابارته بتفريق الجنراليات على الاقاليم المصرية. فاقام الجنرال ديزه[٣٠] على اقليم بلاد الصعيد، وكان هذا الجنرال برج مشيد وبطل عنيد. ثم اقام الجنرال مورا،[٣١] وكان من الابطال الشداد، وقلّده احكام اقليم القلوبية [القليوبيه]، وكان شابًا بالسن بديعاً بالحسن. ثم اقام الجنرال لانوس[٣٢]، الرجل الوديع المانوس، وكان خبيراً بالحروب ومقداما على الشدايد والخطوب وقلده اقليم المنوفية من الجهة الغربية. ثم احضر الجنرال دُكا، الحسن السورة صاحب الوقايع المشهورة، وقلّده احكام المنصورة، وهى بلد مشهورة، واقليمها واسع وبرّها شاسع. ثم احضر الجنرال ويال[٣٣] وكان حميد الخصال وبطل من الابطال، وارسله الى مدينة دمياط وصحبته ثلثماية نفر صلدات، وسار بسرعة ونشاط الى ان دخل البلد، فالتقوه العلماء والاعيان واعطاهم الامان، ثم نظم اقليم دمياط أحسان ممّا كان. امّا ذاك البطل العنيد والليث الصنديد، صاحب العزّ والنصر المشيد، الذى كان بين تلك الجيوش فريد، الجنرال دبوى، فان امير الجيوش اقامه شيخ البلد مكاناً ابراهيم بيك، لان ذاك الانتصار وفتح تلك الامصار كان عن يد هذا الجبّار.

ثم ان امير الجيوش احضر احد الكوميسارية الكبار المسمّى بوسلنج [بوسليج]، وقلّده مُعاطاة الاقلام الميرية وضبط مداخل الاقاليم المصرية، واقامه فى بيت الشيخ البكرى الكاين فى بركة اليزبكية، وكان المصريون يدعونه الوزير اى وزير المشيخة الفرنساوية. وارتقى هذا الى رتبة عليه، وكان عالماً بعلم الحسابات كاملاً بجميع الصفات. ولفظة كوميسارية هم الذين لا يتعلّقون بامور الحرب بل فى مُعاطاة الكتابة والحسابات والصنايع وما ماثل ذلك. ثم ان بونابارته اقام خزندار الى المشيخة احد الكوميسارية المدعو استيفو، وهو كان عالماً بعلم الحسابات وجميع الامور تصل اليه.

ثم امر امير الجيوش ان العلماء الفرنساويين والفلاسفة يسكنون فى البيوت التى الى قاسم بيك وحسن بيك وما حولهم من بيوت الكشّاف التى هى فى باب الناصرية النافذة الى مصر العتيقة. ثم ان امير الجيوش بونابارته امر ان يفرزوا محلاّت معيّنة خارجاً من المدينة بحفظ الكرنتينا، كذلك فى مدينة الاسكندرية، ثم فى مدينة رشيد، ثم لمدينة مصر تكون الكرنتينا فى بولاق، ثم لمدينة دمياط فتبنى الكرنتينا فى المدينة القريبة. وشرعوا فى بناية المحلاّت المعلومة وذلك لمنع ريحة الطعون المسمومة كما جرت العادة فى بلادهم.

ثم ان امير الجيوش، من بعد ما رتّب الترتيب المقدمّ ذكره، اخذ جانب من العساكر وسار بهم قاصد مدينة بلبيس لمحاربة الوزير باكير باشا وابراهيم بيك وخرج فى شهر سفر. وحين قارب مدينة بلبيس بلغه ان الباشا وابراهيم بيك هربوا الى الصالحية فتبع اثرهم، وهناك التقت بهم خيالة الافرنج وهجمت عليهم فى تلك المرج. وابتدأ الحرب واشتد البلاء والكرب. واذا كانت الفرنساوية على الخيل لايستطيعون مقاومة الغز المصريين، فرجعوا عنهم مكسورين، فمات منهم جملة مقتولين. ولما وصل الخبر الى امير الجيوش فسار فى الحال، وحين بلغ الغز قدومه فولوا منهزمين، ولم يزالوا سارين الى ان وصلوا لمدينة غزة، ورجعت العساكر الفرنساوية الى مصر وهم مأيدين بالسعد والنصر. وبعد ذلك ابتدأ ابراهيم بيك يحرّر الى الاقاليم المصرية ويحثّهم على القيام على الفرنساوية، ويستخرج لهم البيورلديات من الجزّار وباكير باشا.

وكان جميع الغزّ يهيجون العربان والفلاّحين على العصاوة والقيام ضدّ الفرنساوية، فاحضر امير الجيوش بونابارته امراء الديوان وهم المقدّم ذكرهم، وشرح لهم السبب الداعى الى حضورهم لتلك الديار - وان ذلك باتفاق مع الدولة العثمانية. وان الدولة الفرنساوية مساعدة الى الدولة العثمانية على قهر الدولة المسكوبية وصدّها عن مطلوبها المبين، واسترجاع ما تولوا عليه بالتغلب من بلاد المسلمين. وكتب لهم صورة كتابات ان يطبعوها بالعربية ويرسلوها الى الاقاليم المصرية. ففعلوا ما امرهم به من المأمورية. وهذه صورة كتابات من العلماء والاعيان الى الاقاليم والى البلدان:

نخبّركم يا اهل المداين والامصار، وسكّان الرياف والعربان، كباراً وصغاراً، ان ابراهيم بيك ومراد بيك وبقية دولة المماليك، ارسلوا عدّة مكاتبات ومخاطبات الى ساير الاقاليم المصرية، لاجل تحريك الفتن بين المخلوقات. ويدّعوا انها من حضرة مولانا السلطان ومن بعض وزرائه. وذلك كله كذب وبهتان. وسبب ذلك ان حصل لهم شدّة الغمّ والكرب والهم، واغتاظوا غيظاً شديداً من علماء مصر ورعاياهم، حيث ما وافقوهم على الخروج معهم وترك أعيالهم واوطانهم، وارادوا ان يُوقعوا الفتن والشر بين الرعية والفرنساوية لاجل خراب البلاد وهلاك كلّ الرعية والعباد، وذلك لشدّة ما حصل لهم من الكرب الزايد بذهاب دولتهم وحرمانهم من مملكة مصر المحمية. ولو كانوا فى هذه الاوراق صادقين، وانها من حضرة سلطان السلاطين، لكان ارسلها جهاراً مع اغاوات من طرفه معيّنين. ونخبّركم ان الطايفة الفرنساوية، بالخصوص عن بقية الطوايف الافرنجية، دايماً

يحبّون المسلمين وملتهم، ويبغضون المشركين وطبيعتهم. وهم احباب لمولانا السلطان، قائمين بنصرته، واصدقاء له ملازمين لمودّته ومعونته، ويحبّون من ولاه ويبغضون من عاده. وكذلك بين الفرنساوية والمسكوب غاية العداوة الشديدة، لاجل عداوة المسكوب للاسلام واهل الموحّدين. واعلمهم ان المسكوب يتمنّى الاخذ لاسلامبول المحروسة، ويعمل انواع الحيل والدسايس المعكوسة فى اخذ ساير الممالك العثمانية الاسلامية، لكنّه لا يحصل على ذلك بسبب اتّحاد الفرنساوية وحبهم واعانتهم إلى الدولة العلية. ويريدون يستولون على اياصوفية وبقية المساجد الاسلامية، ويقلّبوها كنايس للعبادة الفاسدة والديانة القبيحة الردية. والطايفه الفرنساوية يُعينون حضرة مولانا السلطان على اخذ بلادهم ان شاء الله، ولا يبقون منهم بقية. ونصحكم يا ايّها سكّان الاقاليم المصرية انكم لاتحرّكوا الفتن ولا الشرّ بين البريّة. وايّاكم [أن] تعارضوا العساكر الفرنساوية بشيء من انواع الاذية، فيحصل لكم الضرر والبلية. فاذاً، لا تسمعوا كلام المفسدين، ولا تطيعوا كلام المصرفين [المسرفين] بالفساد فى الارض الغير مصلحين، فتصبحون على ما فعلتم نادمين. وانما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكلّ الملتزمين، لتكونوا فى اوطانكم سالمين وعلى اعيالكم واموالكم آمنين. لان حضرة السر عسكر الكبير امير الجيوش بونابارته اتفق معنا انه: لا ينزاع احداً على دين الاسلام، ولا يعارضنا فيما شُرع من الاحكام، ويرفع عن ساير الرعية الظلم، ويقتصر عن اخذ الخراج، ويزيل ما ابدعته الظلمه من المغارم. ولا تعلقوا امالكم بابراهيم ومراد، وارجعوا الى مالك الممالك وخالق العباد، فقد قال نبيّه ورسوله الاكرم: الفتنة نائمة لعن الله من ايقظها بين الأمم عليه افضل الصلوة والسلام.

الداعى لكم الفقير

السيد خليل البكرى

نقيب الاشراف عفى عنه

الداعى لكم الفقير

مصطفى الصاوى

عفى عنه

الداعى لكم الفقير

محمد الامير مفتى المالكى

عفى عنه

الداعى لكم الفقير

سليمان الفيومى المالكى

عفى عنه

الداعى لكم الفقير

موسى السرسى الشافعى

عفى عنه

الداعى لكم الفقير

عبدالله الشرقاوى

عفى عنه

الداعى لكم الفقير

محمد المهدى الحفناوى

الشافعى عفى عنه

الداعى لكم الفقير

احمد العريشى

عفى عنه

الداعى لكم الفقير

محمد الدواخلى الشافعى

عفى عنه

الداعي لكم السيد

مصطفى الدمنهورى

عفى الله عنه

ثم ان امير الجيوش، بعد طرد ابراهيم بيك وباكير باشا في شهر سفر [١٢١٣]، ورجع الى مصر، احضر القنصل كارلو(٣٤) وامره ان يتوجه الى مراد بيك فى الصعيد، ويتكلم معه ان يُقدم الطاعة الى امير الجيوش، ويكون عضواً من اعضاء المشيخة، ويتقلد احكام مدينة جرجة واعمال الصعيد، ويكتسب راحته وراحة البلاد والعباد، ويكون له الامان. فسار القنصل الى مراد بيك بذلك الخطاب، وفى وصوله ترحّب به مراد بيك غاية الترحيب، وقابله مقابلة الحبيب، لان كان هذا القنصل له مدة مستطيلة فى مصر، وكان محبوباً من ساير السناجق، ولا سيما من مراد بيك، وكان له عنده مبلغ من المال. ثم ان مراد بيك سأله مستخبراً عن احوال مصر، فاخبره القنصل بكلما دبّره امير الجيوش، ثم قال له: ان بونابرته ارسلنى اليك لاجل الاعتماد على اجراء الحبّ والوداد، وان تحقن دماء العبلو، وتكتسب راحة البلاد. فقال مراد بيك إلى القنصل: ارجع وقل له يجمع عساكره ويرجع الى الاسكندرية، ويأخذ منا مصروف عسكره عشرة آلاف كيس، ويكسب دما اجناده، ويُريحنا من كفاحه وجلاده. فرجع القنصل الى مصر، واخبر بونابرته بما سمعه من مراد بيك، فغضب امير الجيوش من ذلك، وفى الحال أمر الجنرال ديزه، المعّين على اقليم الصعيد، بان يسير بالعساكر الى حرب مراد بيك، فاخذ الجنرال اربعة الاف مقاتل وسار بها الى الصعيد.

فنرجع ان امير الجيوش بونابرته، فى ابتداء قدومه، اخرج العساكر من المراكب الى البريّة فى ثغر الاسكندرية، وامر الى سر عسكر البحر انه يبقى مقيماً فى البوغاظ لحماية الحصون، لانه قد احتسب ان لم يتوفق له فتوح مصر فيحتاجوا الى العمارة. واوصاه ان لايلقى مراسية فى المينا [ء]، بل دايماً يطوف امام اسكندرية وهو مُشرّع القلوع.

ثم، بعد ان امير الجيوش فتح مصر، ارسل الى السر عسكر نجاباً يامره بالقيام، وقيل ان ذلك النجاب مات فى الطريق. ثم ارسل له نجاباً ثانيا فلم يصله من العربان. وكان السر عسكر ارمى مراسيه في مينة بوقير واطمأن، وكانت مراكبه الكبار الحربية ثلثة وعشرين مركباً، ومنهم مركب عظيم وهو المدعو بنصف الدنيا. وكان محموله ماية وثمانون مدفعاً وفيه الف من العساكر. وكان فيه اموال جزيلة وذخاير ثمينة أسلبوها من تلك الممالك التى تملكوها كما قدمنا ذكرها.

وعندما كانت تلك العمارة رابطة فى البوغاظ، وغافلة عن الايقاظ، فدهمتهم مراكب الانكليز على بغته، وبدوا يطلقون عليهم القنابر والمدافع، واشتدّ عليهم الحرب يوماً وليلةً فاحترق من تلك العمارة العظيمة اربع مراكب كبار، ومن هم تلك السفينة العظيمة والقلعة الجسيمة المسمّاة بنصف الدنيا. واستمرّت تتقد فى البحر اربعة ايام. ومات من فيها من العسكر وسر عسكرها الذى بسوء تدبيره قد هلك واهلك معه نفوساً كثيرة واحتوت الانكليز على اكثر تلك المراكب، واستأسرت من فيها العساكر، واكثرهم هلكوا من ضرب المدافع والقنابر. ولما وصل ذلك الخبر المريع والخطب الشنيع الى امير الجيوش، فصار كالمدهوش، وصفق بكفه ودب برجليه واحمرّت مُقلتاه، وتسخط على ذلك الجنرال لعدم اطاعته والامتثال، وقال: جزاه ما حلّ به من الوبال. وصاحت الفرنساوية: يا لها من بلية، لقد خابت الامال وهلكت الرجال، وذهب الحال والمال. لقد امتنع عنّا الامداد، وحرمت علينا البلاد، وشمتت بنا الاعداء والحساد، وطمعت بنا الاسلام وزاد عليه الخصام، وكان ذلك بدو الانكيس واوّل التعكيس.

وقد ايقنت الفرنساوية بالتهلكة بعد كسب المملكة، لحجز الامداد عنهم ونفور الاسلام منهم. لان الفرنساوية قد استعملت احتيالات كثيرة، وسلكوا مسالك غزيرة لاجل الضرورة، كاشتهارهم بالاسلامية ونكراتهم النصرانية، واظهارهم للحرّية واقراهم بالاتّحاد مع الدولة العثمانية. وانهم باذنهم دخلوا الديار المصرية، وانهم مع الاسلام على اخلص طويه واصلح نية، ويرغبون راحتهم ويحبّون ديانتهم.

وكان الفرنساوية مؤانستهم غريبة وطول اناتهم عجيبة. وكانوا احسن سلوكاً من ساير الجنوس. واشهروا بالامن وطولة البال وطيبة النفوس. ونشروا العدل وحسن الاحكام. وقد احتووا الشرايع الحقيقية على التمام. ومع كل ذلك قلوب الاسلام غير آمنة والاحقاد فى ضمايرهم كامنة. ويشتهون لهم المهالك والوقوع فى اضيق المسالك. فهذا ما الجاء امير الجيوش إلى المخافة، فبدأ الاحتيال بحسن الرقّة واللطافة، لجذب القلوب وتحصيل المطلوب. وكان هذا الامير المشتهر اسد من الاسود، ونادراً فى الوجود. رهط من الارهاط العظام، حكيماً عليماً بمكايد الايام.

ذكر ما صنعه امير الجيوش فى جريان النيل

انه، من بعد دخول الفرنساوية الى القاهرة بمدة قليلة، جبر(٣٥) النيل السعيد، فاحضر امير الجيوش علماء الديوان، وسألهم عن العوايد فى جريان النيل والقوانين وحرّرها عنده. ثم امر باخراج العساكر من المدينة الى خارج البلد، وان يصطفّوا صفوفاً فى مراتبها. واحضر لديه اعيان المدينة وعلماءها والحكام والتجار من النصارى والاسلام. وركب من منزله الكاين على البركة اليزبكية، وركبوا جميعهم معه، وخرجت اهالى مدينة القاهرة من ساير المِلَل، وكان موكباً عظيماً ومحفلاً يُذكر جيلاً فجيلاً، وفرق مالاً غزيراً. وضُربت فى ذلك النهار مدافع كثيرة من ساير الاماكن ومن القلعة الكبيرة. وصنعت الفرنساوية فى تلك الليلة حراقات عظيمة لم تكن صارت فى المدن القديمة. وكان [الامان] شاملاً لكلّ النّاس.

وتخرج النساء والرجال من دون باس. وصنع امير الجيوش وليمةً عظيمةً لساير الاعيان والعلماء، واهل الديوان والجنرالية والفيسالية، وحكّام الخطوط المصرية. وقد اعجبت اهل القاهرة تلك الاحوال الباهرة والامور الصايرة.

ذكر ما صنعه امير الجيوش في مولد النبى الواقع فى ١٢ ربيع اول سنة ١٢١٣ [٢٤ اغسطس ١٧٩٨].

ان امير الجيوش، بعد تملكه القاهرة، فى اثنى عشر ربيع اوّل كان مولد النبى محمد. فصنع، فى ذلك الاوان، مولداً عظيماً على بركة اليزبكية كعادة اهل القاهرة. وكانت ليلة عظيمة، لانه صف جميع العساكر الموجودة داخل القاهرة صفوفاً، بطبولهم والآلات الموسيقية، وامر بحراقات عظيمة، وضرب المدافع كثيرة. وكان احتفالاً عظيماً ومولداً فخيماً وحضر فى الوليمة بمنزل الشيخ خليل البكرى، لان هذا المولد مختص بالسادات البكرية، وذلك مع كامل الجنرالات والفيسالية والعلماء والاعيان واصحاب الديوان. ثم اولى الشيخ خليل البكرى منصب النقابة عوضاً عن السيد عمر مكرّم نقيب الاشراف، لانه قد كان هرب مع الغز الى الشام. وقد كان الشيخ خليل البكرى محباً لجمهور الفرنساوية، فلاجل ذلك بغضته الاسلام المصرية.

ذكر العيد الذى صنعه امير الجيوش للمشيخة فى ربيع ثانى سنة ١٢١٣ سبتمبر ١٧٩٨

انه، حين دخل شهر ربيع الثانى، صنعت الفرنساوية عيداً عظيماً للمشيخة فى البركة اليزبكية، وذلك انهم اصطنعوا عاموداً طويلاً مرصّعاً وغرسوه فى البركة اليزبكية، وصوّروا عليه صورة سلطانهم وصورة زوجته اللذين قتلوهما فى مدينة باريز. ثم جعلوا من العامود الى البر اخشاب مثلثة الالوان، وصوروا عليهم صورة الموقعات التى حدثت فى بر امبابة وفتوح القاهرة، وصورة الاشخاص المحاربين من الفريقين، وصورة ايوب بيك المقتول فى هذه المعركة، ومن مات من الغز وانهزامهم، وكلما تّم فى هذه المعركة. وكانوا يقولون ان هذه شجرة الحرية. واما اهالى مصر كانوا يقولون ان هذه اشارة الخازق الذى ادخلوه فينا واستيلاهم على مملكتنا. واستمرّ هذا العامود نحو عشرة اشهر. وحينما رفعوه استبشرت اهل مصر وابتهجت بالفرح. وكانت الفرنساوية تصنع هذا العيد اينما وجدوا بفرح عظيم فى كل سنة.

ذكر امير الحج لما خرج قبل دخول الفرنساوية

انه فى سنة ١٢١٢ خرج الحجّ الشريف من مدينة مصر. وكان صالح بيك امير الحجّ. وبعد رجوعه من الزيارة الشريفة فى الطريق، وصلت له الاخبار عن دخول الفرنساوية الى الديار المصرية وخروج الغزّ. فبكا صالح بيك على خراب اوطانه وتفرق خلانه، وذهاب ماله وسبى اعياله. وغاص فى بحر الافكار وخاف من رجوعه الى تلك الديار. وصار حايراً من تلك المصايب وفرقة الحبايب. وقطع رجاه والامل ولم يعرف كيف العمل. واخذ بالمشورة مع اصحابه وخلانه. فثبت رأيه ان يتوجّه الى القدس الشريف صحبته المحمل المنيف. ولم يزل سايراً بعزم ضعيف الى ان وصل الى القدس الشريف. فحينما شاهدوه اهالى المدينة بدوا

يشتمون ويقولون: لعنكم الله يا ملاعين، ويا اظلم الظالمين، سلمتم مدينة الاسلام الى الفرنساوية اللئام، وهربتم من وجه الكفار، وابتديتم تخربوا هذه الديار. فلما سمع صالح بك تلك الشتايم المغمة والالفاظ المسمة، فاتقدت بقلبه النيران وغاص فى البحران. ونزل فى منزله وهو مثل النشوان، ومرض جملة ايام من قهره ثم توارى فى قبره. وهكذا جرا الى ابراهيم بيك ولمن معه لما حضروا الى اراضى الشام، فكانوا يسمعون من الناس غليظ الكلام. وقد ذاقوا المشقة والاتعاب وقضوا الاهانة والعذاب، فى البرارى والقفار من الذل والاضرار. وكانوا اهالى الشام يعيرونهم فى الكلام، ويلومونهم وهم لايستحقون الملام. وما كانوا يدرون ما قاست الغز فى الحروب والصدام من الكفر الليئام. وكانوا يظنون ان الغز هربت من تلك البلدان من دون حرب ولا طعان، ولم يدروا ما جرى عليهم من اوليك الشجعان. فهذا ما كان من الغز بارض الشام.

واما ما كان من امير الجيوش فان، بعد قيام الفرنساوية بمدة طويلة فى مصر، علموا ان عدواتهم فى سراير الاسلام مستكنة. فلذلك لم تكن قلوبهم مطمأنة. وكانوا يخشون تسليم كتاباتهم للسعاة من اهل تلك البلاد. فامر امير الجيوش بابطال السعاة من مصر الى البنادر، وكانوا يرسلون المكاتيب فى المراكب. وكانوا يضعون فيها عدة من الصلدات، لان المراكب كانت لاهل تلك البلاد، والنوتية منهم. ومن كون ان اهل تلك البلاد عازمين على ضرر الفرنساوية، ومهمين على تلك النية، فكانوا يضعون كثيراً من الصلدات مع الذين يسافرون الى البنادر. فالتزم امير الجيوش ان يبطل ذلك، ورجع السعاة من اهل البلاد كالمعتاد.

وقد كنا ذكرنا ان امير الجيوش، حينما تسلم مدينة الاسكندرية، قلد السيد محمد كريم لتدبير امور البلد كعادته فى ايام مراد بيك. ففى ذلك الزمان وقع منه مكاتبة الى مراد بيك [فى يد الفرنساوية] يحثه على الحضور الى الاسكندرية لكى يسلمه البلد. فلما وصلت تلك المكاتب الى امير الجيوش وفهم ما فيهم. وفى الحال ارسل الى الجنرال الحاكم فى الاسكندرية بان يقبض على السيد محمد كريم ويرسله له. وحين حضر السيد محمد كريم قدام امير الجيوش سأله عن تلك الكتابات فانكر ذلك، فاخرج له اياهم وحين نظر كتاباته صار مذهولاً ولم يعلم ماذا يقول. فامر امير الجيوش بارسله الى شيخ البلد. وقد اتت العلماء والاعيان يترجّونه باطلاقه، فاجابهم ان قد عرض امره على الشريعة وحكمت عليه بالموت. ودفعوا عنه خمسين كيس فلم يقبل ذلك، وقال لهم: «ان شريعتنا لاتقبل الرشوة، ولا يقدر احد ان ينقذه من الموت، حتى ولا امير الجيوش. لان الشريعة اذا حكمت على احَد بالموت فلا بّد له من ذلك». ثم اعرض عليهم تلك الكتابات، واحضر السيد محمد كريم وقال له: هذا خطك [؟] قال: نعم. ثم رجّعه الى السجن الى ان انصرفت العلماء، وامر بان يمضوا بالسيد محمد كريم الى ساحة الرملة [ميدان الرميله] ويطلقوا عليه الرصاصة. وكان [أى محمد كريم] وهو ساير ينادى: يا امة محمد اليوم بى وغدا بكم. وحين قتل كان حزن عظيم عند المصريين، ومن ذلك الوقت تنافرت قلوبهم بالزيادة.

وقد كانت الانكليز، بعد تملكهم عمارة الفرنساوية، قد ربطت عليهم البواغيظ وحاصرتهم في الديار المصرية. فارسل سر عسكرهم واعلم ملكهم بذلك الاقتدار، فهاجت المملكة واستبشرت بالانتصار، وهيجوا معهم الدوَل الافرنجية، واستنهضوا لمحاربة الفرنساوية. ومن حيث ان الجمهور الفرنساوي قد قهر ساير الممالك الافرنجية، وظفر بهم وسلب اموالهم، وتملك منهم مُدُناً وقِلاعاً حصينةً، وذلك ببطش مقدّمهم وناشر اعلامهم، الفرد الظاهر والليث الظافر، امير جيوشهم بونابرته. وقد ترك في ساير الاقاليم الافرنجية مخافة قلبية، سيما بعد اطلاعهم على التملك في الديار المصرية. ولكن حين بلغهم ما فعلت بهم الانكليز، وان قدّ ربطت عليهم البواغيظ، فقويت قلوبهم واملوا بنيل مطلوبهم. فصمموا النية على طرد العساكر الفرنساوية التي قد كان تركها في الاقاليم الافرنجية. واشهر الحرب ملك النمسا، واستنهض معه ملك بروسا، ونهضت ممالك ايطاليا مع رومية الكبرى.

هذا ما كان وسياتي الكلام عنه في غير مكان. وقد ذكرنا ان الفرنساوية، حين تملكوا مالطة، ابقوا بها ستة الاف من العسكر واصحبوا عوضها. وفي هذا الايّام توجّهت الانكليز الى تلك البواغيظ، وحاصرت مدينة مالطه اشد حصار، الى ان اضرّ بهم الجوع وايقنوا بالفجوع فتسلموا الانكليز المدينة بالامان، وقويت شوكة الانكليز، فاشتد باسهم في تملك مالطه، لانها بالقرب من الاسكندرية.

ذكر ما تم في ممالك الدولة العثمانية

انه عندما شاعت الاخبار بان الفرنساوية تملك الديار المصرية، هاجت جميع ممالك الاسلام لمحاربة الفرنساوية الليئام، وصاحوا يا غيرة الدين وحماية المؤمنين. واستنهضت الدولة العلية والسدة الملوكية لاستخلاص الديار المصرية. وابرزت الاوامر والاحكام وساير الباشاوات والحكام تستنهضهم للمغازاة عن دين الاسلام. وقد حضرت الاوامر الشريفة الى احمد باشا الجزار بالمغازاة على هولاء الكفار ويكون سردار العسكر.

وكان امير الجيوش بونابرته، حين بلغه استنهاض الاسلام الى تلك الديار، فاستدرك الامر بكتابات الى الجزار، واستدعا باحد الكوميسارية وارسله الى دمياط لكي يسير في مركب الى عكا، وكتب كتاباً الى الجزار على هذه الصورة بعد الترجمة:

انه من المعلوم عندكم اتحاد الدولة الفرنساوية مع الدولة العثمانية بالحب والصدوقية مُنْذ اعوام عديدة. ثم لاخفاكم عداوتنا مع دولة الانكليز، وسطاها على بلداننا التي في اراضي الهند. فاضطرنا إلى الحضور الى هذه الاقطار المصرية، وذلك باذن الدولة العثمانية وبارادتها الكلّية، أولاً: لقطع شجرة المماليك العُصاة على الدولة العلية. ثانياً: لكي، بعد قطع هولاء الظالمين وتمهيد المملكة وخلاصها من يد القوم الفاجرين، فنسير الى الاقطار الهندية لتخليص بلادنا وارضنا من الدولة الانكليزية. وها نحن مباشرين في قرض المماليك العصاة على السلطان. وما اتينا الا اننا

نحامى عن المسلمين ونرفع شرايع الدين، ونسير محمل الحج الشريف الى المقام المنيف، ونبقى السكة والخطبة باسم حضرة محبنا السلطان سليم دام بالعز والتنعيم. فبنا[ء] على ذلك اصدرنا لكم هذا الكتاب، لتعلموا منا حقيقة السبب الداعى لهذا الاياب، وتكونوا من قبلنا فى حيز الامان وغاية الاطماءن، وتفتحوا البنادر وتسيروا المتاجر لعمار البلاد وراحة العباد، والسلام.

ثم توجه ذلك الكوميسارية المدعو باظان (٣٦) من مصر الى دمياط، ومن هناك توجه في مركب احمد باشا الجزار الذى كان رابطاً فى الميناء، واصحب معه ترجماناً واثنين من التجار. ولما وصل الى اسكلة عكا، فكتب الكوميسارية باظان الى الجزار يعلمه عن قدومه من طرف امير الجيوش بونابرته. ونزل القبطان الى عكا، وحينما دخل امام الجزار فسأله عن مصر وعن احوالها، وعن سبب خلاصه من مدينة دمياط، فاجابه القبطان: ان الفرنساوية اطلقوا سبيلى، وحضر معى كوميسارية من طرف سر عسكرهم بكتابة، وهو الان معى فى المركب، ثم اعطاه كتاب الكوميسارية باظان. فلما فهم الجزار ذلك الخطاب اشتد به الغيظ والغضب، وقال للقبطان: وجّه هذا الكافر ودعه يسافر. وان لم يرجع فى الحال من هذه الديار احرقته بالنار. ثم سأله من الذى اتى معه، فقال له القبطان: ليس معه سوى ترجمانه واثنين من التجّار، وهم نصارى من ابناء العرب. فقال الجزارّ: اخرج التجّار بارزاقهم الى البلد، ودع الكافر حالاً يسافر. ورجع القبطان الى المركب واعلم الكوميسارية بما سمع من الجزّار. وفى الحال احضر له مركباً صغيراً ورجع الى دمياط من غير تأخير، وقبض الجزار على تلك التجّار.

وكان بين الجزار وبين الفرنساوية عداوة قديمة وبغضة جسيمة من طرد قناصلهم من بلاده، فلهذا السبب ما كان يود منهم اماناً. ثم ان الجزار ابتدا يحرر الى ساير الاقاليم المصرية، ويستنهضهم على القيام على الفرنساوية. وكانوا الغز الذين حضروا الى بر الشام تهيج الفلاحين والعربان لذلك المرام، ويكتبوا لهم على النهوض والقيام. وقد تظاهرت المصريون فى العصاوة والاسية على الطايفة الفرنساوية. وقامت الاربع اقاليم المصرية القبلية والبحرية والغربية والشرقية. وكان فى كل وقت يقع الخصام بينهم وبين الجنرالية من الاربع الجهات المصرية، وتحرق البلاد وتهلك العباد، الى ان هلك عربان كثيرة العدد ومن فلاحين البلد. واما ذلك الكوميسارية الذى رجع من عند الجزار، فانه وصل الى دمياط، وفى الغد سار الى مصر واخبر امير الجيوش بما تم له من الجزار، فاشتد بالغضب من ذلك السبب، وبدأ من ذلك الحين يباشر بتجهيز السفر وما يحتاج اليه من الاستحضار.

وقد كنا ذكرنا ان فى المنصورة اقام من الفرنساوية ما ينيف عن ماية وثلاثين صلدات، وفى ذلك الوقت بدت اهالى البلد يتشاورون على قتلهم، واذ كانت هذه البلدة بعيدة عن مدينة مصر، وبرها متّسع وعربانها كثيرة. وقد كان فى كل جمعة، نهار الخميس، يصير السوق، ويجتمع فيه كثير من الناس لاجل البيع والشرا احد الايام قامت اهالى المدينة وكبسوا اوليك الصلدات الفرنساوية وانتشب الحرب بينهم. واذ تضايقت الفرنساوية وكاد يخلص ما عندهم من البارود،

فخرجوا الى البر ونزلوا فى احدى المراكب، فتكاثرت عليهم اوليك العوالم المجتمعة فى يوم الخمس، وقد كان ذلك الوقت ايّام جبر النيل فلم تسير معهم المراكب، والتزموا بالرجوع الى البر وقصدوا يسيروا برّاً الي مصر فلم تمكنهم اوليك الامم، واورثوهم مواريث العدم. ولم يزالو يكافحون وعن ارواحهم يدافعون الى ان قُتلوا عن اخرهم، ولم يبق بقية من اوليك الصلدات الفرنساوية. وحين وصلت الاخبار فاشتد بامير الجيوش الغيظ والغضب وامر الجنرال دوكا بان يتوجه الى المنصورة ويُحرقها ويقتل كل من بها. فسار الجنرال بثلثة الاف صلدات، وحينما بلغ اهالى المنصورة قدومه فهربوا منه ولم يبق الا القليل. وحين وصوله رأى البلد خرباً، وتقدّم اليه اوليك الباقون وابتدوا يعتذرون له بقوله: ان اهالى المدينة ليس لهم ذنب بذلك الصنيع، وانما صدر ذلك من الفلاحين والعربان لكثرتهم فى ذلك الميعاد من كلّ البلاد. وان اهل المدينة، حيث تحققوا ان ليس لهم اقتدار عن منع اوليك الاقذار، فروّا هاربين خوفاً من الفرنساويين. فلمّا سمع الجنرال دوكا صنع ديواناً وقال لهم: اننى مامور من امير الجيوش بان أحرق هذه المدينة واقتل كل من وجد بها، ولكننى قد قبلت عذركم وصفحت عن ذنبكم. ولكن من حيث ان قبل ما تقع هذه الشرور ما اعرضتم عنما انتم مُطّلعين عليه من حقائق الامور، مع انكم تعرفون رداوة اهل البلاد وما هى عليه من العناد، فيلزمكم ان تدفعوا جريمة قصاصكم اربعة الاف كيس فدًا دماكم. فقبلت الرعية ذلك المقال، وفى مدّة قليلة اوردوه المال. وبعد ذلك ارسل الجنرال دوكا وعرض على امير الجيوش ما تدبّر، فرجع له الجواب بان يامر اهل تلك الاقاليم ان يرفعوا بيراق الفرنساوية على رؤس المؤاذن وكلّ بلد لاترفع ذلك السنجاق حالاً تُحرق.

وقد كنّا ذكرنا انه، حين دخل امير الجيوش الى القاهرة ورتّب امورها. وقلّد الجنرالية الاحكام فى الديار المصرية، وارسل الجنرال ويال الى مدينة دمياط. فهذا الجنرال كان ذا مكر واحتيال، وبطل من الابطال. فلمّا استقرّ فى مدينة دمياط، احضر اليه سبعة انفار من التّجار الكبار، واقامهم لتدبير البلد وتلك الديار. ثم رتّب اغا انكشارية، واقام والياً للبلد ومحتسباً للديوان، ورتب الترتيب القديم. واحضر شيخ قرية الشعرا وهى بالقرب من مدينة دمياط، والبسه فروا وقلده سيفا، واحضر لديه شيخ اقليم المنزلة المعروف بالشيخ حسن طوبار، وقلّده سيفاً مذهباً. وهذا الشيخ المذكور كانت اهالى تلك الأقاليم تمتثل رأيه وتقتدى به. وبعد ما تقلد ذلك الالتزام، اتت اليه الكتابات من احمد باشا الجزار ومن ابراهيم بيك، وبها يحثوه ان لا يقبل الفرنساويين فى ارضهم، وان يستنهض اهالى الاقاليم ضدّهم، ويكون مجاهداً فى حربهم. وكانوا فى كتاباتهم له يوعدوه بسرعة وصولهم اليه بالعساكر الوافرة. ومن ذلك السبب تشاهر هذا الشيخ المذكور فى خبث النية ضد الفرنساوية، وقد استنهض اهل تلك القرايا الذين حوله. وعمدوا رأيهم ان يجتمعوا فى قرية الشعرا، بالقرب من دمياط، يكبسوا الفرنساوية ليلاً. واوصلوا العلم مع اهالى دمياط، واتفقوا جميعاً على ذلك الرباط. وفى شهر ربيع الثانى [سبتمبر ١٧٩٨] كبست الرجال البلد ليلاً، وقد كان مسكن الفرنساوية فى الوكايل التى على البحر. وهجموا بضجيج عظيم

وعجيج جسيم، وهم ينادون: اليوم يوم المغازاة من هولاء الكفار ومن يتبعهم من النصارى اليوم ننصر الدين ونقتل هؤلاء الملاعين . فانتبهت الفرنساوية من المنام، واستعدّوا للحرب والصدام. والتقوا فى تلك الأمم، واورثوهم مورث العدم. واصطفوا صفوف وضربوهم بالرصاص والسيوف، ومنعوهم عن الدخول. وكانت ليلة مرعبة ونار ملهبة. فلله درّهم من الرجال، ما اشدّهم بالحرب والقتال. لان كانت تلك الامم قدرهم اضعاف، فكسروهم بلا خلاف واوردوهم موارد التلاف. وقبل ان يطلع النهار اخرجوهم من البلد قوةً واقتدارا الى البرّ والقفار. ورجعوا الى قرية الشعرا خاسرين وفى امورهم حايرين.

وكان قد وصلت الاخبار عند طلوع الشمس الى اهالى العزبة وهى القرية صغيرة عند بوغاظ البحر المالح، ان المسلمين كبست دمياط وقتلوا اوليك الكفار، ولم يبقوا منهم اثار. وقتلوا جميع نصارى البلد ولم يبقوا منهم احد. وكان فى قرية [العزبة] خمسة انفار من الافرنج، فهجموا عليهم وقتلوهم وقدم مركب فيه ثلثة انفار فقتلوهم. ثم هجموا على قلعة [العزبة] وكان بها عشرين من الفرنساويين، فاغلقوا الابواب وارموهم بالرصاص فرجعوا عنهم خاسرين.

وعند نصف النهار، تحققت الاخبار بان الرجال المسلمين رجعوا منكسرين، والفرنساوية فى دمياط مقيمين. فندم اهل العزبة على تلك الفعال وخافوا على الحريم والعيال وفى ساعة الحال جمعوا اموالهم واخذوا عيالهم فى المراكب هاربين. والى نواحي عكا قاصدين. ووصل الخبر الى دمياط بما صار فى العزبة من الاختباط، فركب الجنرال ويال الى العزبة فلم يجد بها احداً، فنهبوا ما وجدوه واحرقوها بالنار، ورجع الى دمياط، وابتدات الافرنج تبنى فى العزبة حصوناً للعساكر.

ثم، بعد رجوع الجنرال ويال الى دمياط، بلغه ان لم تزل اهل تلك البلاد مجتمعين، وفى قرية الشعرا مقيمين. فعزم الجنرال ويال على المسير اليهم والقدوم عليهم، وامر بان المجاريح والمرضى من الافرنج ينزلوا الى المراكب خوفاً من مسلمين البلد وممّا يتجدّد. وحين شاهدت النصارى ان الفرنساوية عازمين على تخليه البندر، فساروا الى ذلك السر عسكر وقالوا له: ما يحل لك ايّها الجنرال ان تذهب وتلقينا بايدى هؤلاء الاشرار، لاننا قد سمعنا منهم امراراً قايلين: اقتلوا النصارى قبل الفرنساوية لأنهم متّحدين معهم سوية.

فلمّا نظر الجنرال ويال ما حل بالنصارى من الخوف والوبال، انثنى عزمه عن القتال، وكتب الى الجنرال دوكا حاكم مدينة المنصورة يطلب منه الاسعاف، فوجّه له مايه وخمسين صلدات. وحين حضروا سار بهم الى قرية الشعرا بعد ما ترك اجناده فى دمياط. وحين وصل الى الشعرا انهزمت منه تلك الجموع، فاحرق البلد، وقتل من وجد بها ورجع الى دمياط بقوة ونشاط. وصنع شنلك عظيم، ونشر البيارق علامة الانتصار، ونكس البيراق العثمانى الذى كان ناشره سابقا، حيث كان قد امر امير الجيوش ان فى كلّ مكان توجد الفرنساوية فلينشروا بسنجاق الدولة العثمانية.

وبعد ايّام يسيرة حضر الجنرال دوكا الى دمياط، وعقد المشورة مع الجنرال ويال على اخذ الجيزة وبلد المنزلة.

ثم رجع الجنرال دوكا الى المنصورة، ومن هناك سار بالعساكر الى البحر الصغير (٣٧) قاصداً اقليم المنزلة، فخرجت له عربان ذلك البّر فى محلّة يقال لها الجملة. والتقى فى جماعة وفيّة وفرسان قويّة. فصادمهم هذا الشجاع والقرم [الفحل] المنّاع، وشتّت عسكر هم وافنى اكثرهم، واحرق تلك البلدة، ثم سار الى المنزلة. فحين بلغ الشيخ حسن [طوبار] قدوم ذلك الاسد المغوار، فارتج رجةً عظيمة وطلب الهزيمة، وفرّ من ساعته الى الاقطار الشامية. وعندما وصل الجنرال دوكا الى بلدة المنزلة، التقته اهلها وقدّموا له الطاعة، واخبروه بانهزام الشيخ حسن طوبار، فاعطاهم الامان، واحضر اخا الشيخ حسن طوبار، واقامه شيخاً على تلك الديار، وضبط القوارب التى كانوا يسيرون بها من المنزلة الى دمياط فى البحيرة المالحة [المنزلة]، وارسل تلك القوارب الى دمياط، وكانت كثيرة فى العدد تنوف عن خمسة الاف.

وقد امنت الافرنج فى دمياط من نواحى اقليم المنزلة، لان قد كان حسن طوبار منتظراً قدوم عساكر الجزار ليركب بتلك القوارب وياتى بها الى مدينة دمياط.

وبعد ايّام يسيرة، رجع الجنرال دوكا الى المنصورة، من بعد ما حارب فى طريقه عرباناً كثيرة، الذين كانوا يقصدون حربه ويقفون فى دربه، واستمر اقليم المنزلة وبرّ دمياط طايعاً للفرنساوية، والعداوة فى ضمايرهم مخفية.

وقدمنا الشرح فى تحكم الجنرالات الفرنساوية فى الاقاليم المصرية، فكان الجنرال ميراد [مورا] قد قلّده امير الجيوش احكام اقليم القليوبية، وكان هذا الجنرال ذا شجاعة فى القتال قوىّ البطش فى الحرب والجدال. وحين سار فى العساكر القوية الى اقليم القليوبية، وكان هذا اقليم اصعب الاقاليم، لكثرة عربانه العُتاة وقومه العُصاة، وبراريه الواسعة ووديانه الشاسعة. فهذا البطل الشجاع اطاعته آل تلك البقاع والاصقاع، من بعد ما اذاقهم حروب شديدة واحرق بلدان واهلك عربان. وبحروب كثيرة افني قبايل غزيرة. وكان شيخ هذا الاقليم يدعى الشيخ الشواربى، وكان يجمع خلقاً وافراً وبلده كان بعيد يوماً عن القاهرة. وكان من القوم الجبابرة وعربان اقليمه فاجرة فالتزم ان ينكس هاماً ويطيع قهراً وارغاماً.

ثم ان هذا الجنرال، من بعد ما تملك هذا الاقليم، جمع الاموال الميرية والترتيبات السلطانية، ورجع الى مدينة مصر بكلّ عزّ ونصر.

واما الجنرال لانوس [لانس] حاكم الاقليم المنوفية والجهات الغربية، فهذا الجنرال سار الى مدينة منوف ومكث بها، وجمع الاموال منها ومن القُرى والجبال، وفرّق عساكره على بلدانها، واطاعته جميع سكّانها. وهذا الاقليم كان الين الاقاليم واهونها، واجملها واحسنها. ولم يحتاج هذا الجنرال النبيل الا لحرب قليل. لان كان اغلب اهالى الارض المصرية هابت شجاعة الفرنساوية، ورجفت قلوبهم من شدة حروبهم.

لان الفرنساوية، من بعد دخولهم الى الديار المصرية، وحريق عمارتهم على بوغاظ الاسكندرية، انقطع امالهم من الامداد، مع ما شاهدوه من الكره من اهالى البلاد، وما لهم من قلوبهم من البغض والاحقاط. فكانوا يتنقّسون الصُعداء من

صميم الفواد، ويهجمون ولا يهابون كثرة العدد، ويحاربون بامور حكمية وفنون علمية وقلوب صخرية، غير هايبين الموت ولا خاشيين الفوت [الخسارة].

ومكث هذا الجنرال فى اقليم المنوفية مدة وفية، وجمع الاموال الميرية، ومهد البلاد وطمّن العباد، ورجع الى مدينة مصر بعز ونصر. وقد ترك فى مدينة منوف وكيلاً عوضاً عنه.

وقد ذكرنا ايضاً ان الجنرال ديزه تقلد من امير الجيوش بونابرته اقليم الصعيد، وقد تعين بالعساكر لحرب مراد بيك. وبعد ما فر مراد بيك الى الصعيد، وقد ذكرنا عن توجه القنصل لعنده من امير الجيوش فى الخطاب، وما كان من الجواب. فامر امير الجيوش الجنرال ديزه بالمسير بالعساكر اليه، وكانت اربعة الاف مقاتل. وكان مراد بيك قد تجمع عنده الجيوش من الهوارا والفلاحين والعربان الى المنية، وكانت مسافة ثلاثة ايام عن القاهرة. واجتمع اليه ما ينيف عن عشرين الفاً. وكان فى بر الصعيد عدة من المماليك الهاربين، فحضروا لعنده. وحضر ايضاً: حسن بيك الجداوى وعثمان بيك مماليك على بيك الكبير، وهولا كانوا مطرودين من الغز. وعندما تقابلوا مع مراد بيك تصافحوا، واخلصوا الوداد وتركوا الاحقاط، وغفروا السيئات وصفحوا عنما فات، وقراوا الفواتح على المغازاة فى سبيل الله، وصاحو: يا غيرة الدين ونصرة المسلمين الله اكبر على هولاء الكفارين. واستعدوا غاية الاستعداد لملاقاة الاعداء والاضداد. وكانت الغزا افرس الفرسان فى ركوب الخيل والحرب والطعان. وكان الجنرال ديزه ساير اليهم فى العساكر وهو غير فاكر، الى ان وصل اليهم وكشف عليهم، فوجدهم جيوش كثيرة وطموش غزيرة فصف عسكره صفوف بالترتيب الموصوف، وقرع الطبول النحاسية، وتقدم بالعساكر الفرنساوية، واطلق مدفعاً واحداً للتنبيه، ثم امر باطلاق ثانية، فنهضت الغز والعربان نهوض الاسود والشجعان، بالسيوف الهندية والرماح السمهرية، على ظهور الخيل العربية وانقضت انقضاض الغربان الى حومة الميدان، وصرخوا: اليوم يوم المغازاة وترك النفوس والمعادة. وحملت العربان والغز والفرسان، واندفقت على الفرنساوية اندفاق البحور العرمرمية، وتساقطت من الجبال سقوط الصواعق العلوية، حتى خيل للناظرين ان الجبال تزعزعت، والتلال تمزقت. انتشب الحرب والقتال، وابتداء ذلك الجنرال يروغ روغ المحتال، حتى تملك فى المجال، ودهمهم بالقنابر والكلل والرصاص الغير المحتمل، وبدأ يريهم فنون الحرب وانواع الاهوال العجيبة، التى لم تدركها العربان، ولا تعرفها الغز والفرسان. وصاح بهم صيحة الاسد الغضبان فى تلك الجبال والوديان، حتى لم يعدوا يقدروا على الثبوت تجاه ذلك البهموت [الشيطان]. وزحمتهم اوليك الاسود حتّي ملكوا متاريسهم، واشهروا تنكيسهم وشتاتهم فى الجبال والتلال، بشدة الحرب والقتال، وملكوا مدافعهم واعلامهم ومضاربهم وخيامهم، وكسروا تلك الجماهير بقوة العزيز القدير.

وذهب مراد بيك مع عزوته الى اعلا الصعيد، وهو متحيّر من صلابة هولا الصناديد، وقوّة قلبهم الشديد، وفنونهم العجيبة وشجاعتهم الغريبة.

ودخل الجنرال ديزه الى مدينة المنية، واقام بها وحصن قلاعها وابراجها، وبدأ يسير ورا مراد بيك

مرحلة بعد مرحلة، الى محل يقال له اللاهون [بالفيوم]، وهناك حدثت بينهم وقعة عظيمة. وكان قد تجمّع مع مراد بيك جموع كثيرة وطموش غزيرة، فشتتهم ذلك الجنرال فى البرارى والقفار. ولم يزل ذلك الجنرال يقاتل فى اقليم الصعيد، حتى اطاعه الشيخ والوليد، وهابته الاسياد والعبيد. وهرب منه مراد بيك الى مدينة اصوان، ثم الى بريم. ومن هناك رجع الجنرال ديزه الى الصعيد، ودبّر الاقليم المذكور برأيه السديد، وأمر فى بنيان الحصون الرفيعة فى جميع تلك المدن المنيعة. ثم انه جبى الاموال الميرية والمعاليم السلطانية. ورتّب الصعيد ومهّد ذلك الاقليم غاية التمهيد. وكل مراد بيك من حروب الفرنساويين، من بعد حروب عديدة واهوال شديدة.

حركة الشيخ محمد الجيلانى

وكان حينما بلغ اهالى الحجاز دخول الفرنساوية الى الديار المصرية، فارتجت سكّان تلك الارض وماجت، واضطربت وهاجت، فتحرك من الاشراف السيد محمد الجيلانى، وقد جمع سبعة الاف اماجيد ، وحضر بهم الى الصعيد، واجتمع اليه العربان من اهل تلك البلدان، عشرة الاف من غير خلاف، وظهر امره واشتهر خبره. فبلغ الجنرال ديزه قدوم ذلك العسكر، فما هابه ولا تفكر، بل انه كبس عليهم بالليل بكل قوة وشدة وحيل، فما سلم منهم غير القليل، والذى سلم تشتت فى البرارى والقفار، وبليوا بالذل والدمار. ومات فى تلك الوقعة السيد محمد الجيلانى، اذ كان هو على نفسه جانى، لانه كان يزعم انه يحدف الرمال والغبار فى وجوه الكفّار، ويُعمى منهم الابصار، ويقبض عليهم باليد، فخاب منه الكد والجد.

ثم بعد مدّة تجمّع الذين سلموا ورجعوا يُفسدون فى البلاد ويستنهضون بالعباد، فارسل عليهم الجنرال ديزه شر ذمة من العسكر، فهزموهم فى البر الاقفر. وبعد ذلك راق الصعيد من محاربين الفرنساوية، واطمأن حال الرعية واحبّوا الجنرال ديزه محبة عظيمة، لاجل سلوكه واحكامه المستقيمة. وكان يحب العماير الملاح، كريم بالعطاء والسماح. وكان رهطاً من الارهاط العظام، ونظم اقليم الصعيد احسن نظام.

وقد كان عنده من الاقباط المباشرين: يعقوب الصعيدى وهو رجل شديد البطش، مشهوراً بالفروسية والهمة القوية، وهو الذى عند سليمان بيك. وكان الذين خدموا من النصارى اوّلهم الرجل السافرلى المدعو باترو، وهذا الذى كان يدعونه اهل مصر فريد الزمان، لما عنده من العلوم والفصاحة والقوة والشجاعة. وكان يعرف فى جميع اللغات، وفاق بالحسن عن حد الصفات. وكان قد خدم عند الفرنساوية، وانقاد اليه جماعة من الغزّ المماليك واحتموا به. ثم الرجل الرومى المدعو نقولا قبودان، فهذا المذكور كان خادماً عند مراد بيك، ومتروّساً على عدّة عساكر ومراكب فى بلدة الجيزة، وكان شاباً موصوفاً بالشجاعة. وهذا المذكور كان متسلّم المتاريس فى عسكر الاروام حين دخلت الفرنساوية الى برّ امبابة وامتلكوا القاهرة. ولما امتلكت الافرنج المتاريس القى نفسه فى بحر النيل وطلع الى مصر، ثم خدم المشيخة واما الذين خدموا الفرنساوية من الاسلام فهم كثيرون فى العدد كالمقدّمين والقواصة والمترجّمين.

ذكر ما حدث بمصر
[ثورة القاهرة الاولى]

انه، من بعد ان مكث الفرنساوية فى المملكة المصرية مقدار ثلاثة اشهر، فكان المسلمون يظنّون ان تورد لهم الاوامر من الدولة العثمانية بتقريرهم على المملكة، حسبما كانوا يشيعون انهم حضروا الى مصر بارادة السلطان سليم، وكانوا يوعدونهم فى وزير الى القلعة السلطانية من طرف الدولة العثمانية. وقد كان يخبّر امير الجيوش بقدوم عبدالله باشا العظم من الشام الى مصر، واعد له منزلاً لينزل به، وامر بتدبيره وفرشه. واذ مضت المدة المعيّنة ولم يحضر احد، فتسبّب من قبل ذلك اسباب كثيرة للنفور وابداع الفتن والشرور، من قتل السيد محمد كريم لانه كان احد الاشراف، ومن ورود المكاتيب من الامرا المصريين بالاستنهاض الى اهل تلك الاقاليم، وكتابات احمد باشا الجزار الى البلدان المصرية. واستنهاضهم على الفرنساوية، وان قادم عليهم العساكر العثمانية. ثم قيام اهالى برّ دمياط والحوادث التى بدتها العرب والفلاحين، وعفو الفرنساوية عنهم وعدم القصاص لهم وقد كان الفرنساوية يُخرجون النساء والبنات المسلمات مكشوفات الوجوه فى الطرقات. ثم اشتهار شرب الخمر وبيعه الى العسكر. ثم هدم جوامع ومنارات فى بركة اليزبكية لاجل توسيع الطرقات لمشى العربات.

وكان المسلمون يتنفسون الصُعداء من صميم القلوب ويستعظمون هذه الخطوب، وصاحوا: لقد آن اوان القيام على هولا اللئام، فهذا وقت الانتصار الى الاسلام. فشعر امير الجيوش بما فى ضمايرهم وما اكتموه فى سرايرهم، فابرز امراً لساير حكّام الخطوط بان كلاً منهم يامر بخلع الابواب المركّبة فى الشوارع. وفى يوم واحد خلُعت تلك الابواب العظام، وبعضها أحرقت بالنيران. فركب امير الجيوش واخذ معه المهندسين، ومنهم الجنرال كفرال [كفاريللى] الملقب ابو خشبة، لان كانت رجله الواحدة مقطوعة من ساقه ومصطنع له رجل من خشب، فهذا الجنرال كان اعظم المهندسين فى مملكة الفرنساوية. وبدأ امير الجيوش يجول بهذا الجنرال على ساير الاماكن التى حول دايرة مصر، وغرس على راس كل مكان بيرقاً اشارة لبناية القلع شاهدت الاسلام هذا الاهتمام تحركّت للقيام، وبدوا ينادون متبادرين إلى الجامع الاكبر المعروف بجامع الأزهر. وهناك عقدوا المشهورة [المشورة] وابرزوا ما بالضماير المضمرة، وارسلوا احد الفقهاء فى شوارع مصر ينبّه المسلمين بالمبادرة الى الجامع الازهر حيث اجتمع العسكر. وبدأ ذلك الشيخ المذكور يدور وينادى بالجمهور: كل من كان موحّداً ياتى لجامع الازهر، لان اليوم اليوم المغازاة بالكفار، ونزيل عنا هذا العار، وناخذ منهم الثار. فبادر المسلمون، واقفلت الحوانيت والوكايل لما سمعت صوت القايل.

ووصلت الاخبار الى دبوى الجنرال بان قامت اهالى البلد من الشيخ الى الولد. وكان ذلك فى عشرة جماد الأول نهار الاحد[٣٨]. فنهض الجنرال المومى اليه والشرار تتطاير من عينيه، ظاناً ان هذا القيام عليه، وان هذا القتال لاجل ما طلب منهم من المال. وسار بثمانية انفار ليطمّن اهل تلك الديار. ويفرق تلك الجماهير، ويسكن روع الكبير والصغير. ولم يعرف ان ليس ذلك علة المال فقط،

بل هى علل كثيرة الشطط وغزيرة النمط، واحقاد كامنة فى جوارح القلوب، وعداوة لايدركها سوى ربّ الغيوب.

وفيما هوساير فى سوق النحّاسينً فبرز اليه احد الاتراك وضربه بخشبة على خاصرته، فسقط عن ظهر جواده مغشياً، فحملوه اصحابه ورجعوا به الى جنينة الافرنج القديمة، وفى وصوله مات هناك، وشرب كاس الهلاك. وكانت العساكر الفرنساوية متفرقين فى المدينة، ولعدم معرفتهم باللغة العربية، ما يكونوا يدرون ما هى الحادثة فى المدينة. فهجمت عليهم تلك الجماهير من كل ناحية، وكانوا يقتلون كل من وجدوه فى طرقهم من الافرنج الفرنساوية والملة النصرانية، من المعلمين والرعية. وكان يوماً مهولاً عظيماً وخطباً جسيماً.

ثم هجمت جماهير الاسلام على طور سينا [دير الطين] فقتلوا البعض من الرجال، ونهبوا بيوت النصارى، واخذوا ما احبوا من الحاجات، وضعوا النساء والبنات، واحتموا بقوة الرجال داخل دير الطور. وكان يوماً مشهور [أ]، وكان اوليك الامم هايجين هيجات وحشية، فتهاربت الفرنساوية الى البركة اليزبكية.

وكان فى ذلك الوقت امير الجيوش فى مدينة الجيزة، فحضر لما بلغه تلك الهيجة. وفى دخوله التقى مع ذلك الجمهور فولوا من امامه، ووصل الى بركة اليزبكية وفرق العساكر حول البلد، وامر ان تضرب من القلعة المدافع والقنابر. وكانت جماهير الاسلام فى باب النصر والنحاسية وخان الخليل وخط الازهر والغورية والفحامين وخط المغاربة، وهذه المحلات داخل البلد. وكانت الاسلام قد بنت متاريس فى تلك الاماكن المذكورة، فسقط خوف عظيم على الفرنساوية وذعرهم هذا القيام، وداخلتهم الاوهام لمعرفتهم بكثرة الخلايق التى فى مصر لانها كانت تجمع مليوناً من الناس، ولا لكثرتهم قياس. وضربت الفرنساوية اوليك الجيوش الكثار بالقنابر والمدافع الكبار، فتضايقت الاسلام من كثرة الكلل والقنابر والرصاص المتكاثر. واستقام الحرب ثلاثة ايام، وفى اليوم الرابع كبست الفرنساوية على جامع الازهر، وسلبوا ما كان فيه من الودايع والذخاير. وابتدوا بعد ذلك يمتلكون مكاناً بعد مكان، الى ان تملكوا اكثر المدينة. واختفت الاسلام فى المنازل والجدران، والقوا سلاحهم وصاحوا الامان. وكانت الفرنساوية كل من يرونه بلا سلاح لا يعارضوه، والذى يكون متسلحاً يقتلوه.

وحينما نظرت علماء الاسلام ان جيوشهم انكسرت والفرنساوية انتصرت، فساروا الى امير الجيوش بعقل مدهوش وقلب مرعوش، واخذوا يترامو عليه بقيام العسكر من الجامع ورفع الحرب من كل مكان والمواضع. فبكتهم امير الجيوش بذلك الفعل الذميم والخطب العظيم، وكانوا يقسمون له بالله ان ليس عندهم من ذلك اثار، ولا علم ولا اخبار. بل علة الحال طلب المال، وما قام إلا اوباش الرجال. فابى امير الجيوش تصديقهم وانكرا تحقيقهم، ولم يسمح لهم يتخلية الجامع من العساكر، واحرف وجهه عنهم وهو متعكر الخاطر. فانصرفوا من امامه وهم باكين وعلى احوالهم نايحين، وتأسفوا على جامع الكنانة [الازهر] وخراب الديانة.

ثم فى ذلك النهار ارسلوا له الشيخ محمد الجوهرى، وكان فى كل حياته ما كان يقابل احداً من الحكام، ولا يعترض الى امور العوام. وفى دخوله قال له: ما قابلت حاكماً عادلاً كان ام ظالماً، والان قد اتيت متوسلاً اليك ان تامر باخراج العسكر من الجامع الازهر، وتغفر ذنب هولا القوم الفجر، واتخذ فى مدا العمر داعياً لك ناشراً فضلك. فانشرح امير الجيوش من ذلك الخطاب وانعطف، و[أ] جاب، قائلاً: إننى عفوت وصفحت عن احبابك لاجل خطابك. ثم امر امير الجيوش برفع العسكر من الجوامع، واطلق المناداة فى المدينة بالامان. وعقد الفحص عن الذين كانوا مجتمعين فى المشورة على قيام تلك الامور المفكرة، فقبض على شيخ العميان الشيخ سعيد(*)، والشيخ الذى نادى فى المدينة بجميع ذلك الجيش العديد، وعدة فقهاء واناس فلتيه. واخذوهم الى القلعة واذا قوهم كأوس المنية.

وقد كان مات بهذه الوقعة الفين صلدات، ومن اهالى المدينة ما ينيف عن خمسة الاف.

وقد خسرت الاسلام ولم تربح، بهذا القيام، سوا الذل والاهانة وافتضاح جامع الديانة [الازهر].

وكان عندما استعدت اهالى مصر على القيام ضد الفرنساوية،كتبوا الى الشيخ الشواربى شيخ الصعيد يستنجدوه الى اعانتهم، وعينوا له زماناً ليحضر به بعشاير العربان. وقد اتى فى الميعاد، اذ كانت الفرنساوية محيطة بالقاهرة. وحين نظروا العربان مقبلة ضربوهم بالمدافع والرصاص، فولوا منهزمين، لان الفلاحين والعربان لم يكونوا يستطيعوا على مقابلة النيران وحرب اولىك الشجعان، ورجعوا بالذل والخسران. وحين سكنت تلك الفتن سار الجنرال ميراد الى بلدة قيلوب [قليوب] وقبض على ذلك الشيخ، وحرق البلد، ثم ارسله الى امير الجيوش فقتله وولى اخاه مكانه.

ثم اننا قد ذكرنا عن الجنرال المهندس [كفاريللى] لاجل بناية القلع، وبعد ما سكنت تلك المفاسد من اهل مصر، امر امير الجيوش فى بناية اربع قلعات بالقاهرة على اربع جهات: فالواحدة فى كوم العقارب فوق الناصرية، وواحدة فى كوم الليمون فوق اليزبكية، وواحدة فى كوم الغريب فوق خط الازهر، وواحدة فوق جامع ابى برص خارجاً من باب النصر. وفى ايام قليلة تمت الاربع قلع، ونقل اليها جبخانة والمدافع والقنابر، وحصنّها بالعساكر.

وبنى فى القلعة الكبيرة [قلعة الجبل] ابراجاً، ونقل اليها مدافع كثيرة. وارسل اليها الزيت والمشاقة (٣٩) ليرى اهالى مصر ان اذا نهضوا مرةً ثانية يُتلف المدينة بالحراقة. وهكذا خبّر علماءهم ان يُخبروا الرعيّة.

ثم عيّن، فى بلد الجيزة من الفرنساوية، اصحاب الحرف والذين يسكبون المدافع والكلل، وابنى فى امبابة افراناً لاجل البقسماط، وعمّر طواحين فى الهوا فى الجيزة وفوق كوم الليمون، وكانوا يطحنون ما يكفيهم كل يوم. وامر بعمل البارود فى مصر، مع ان قد كان معه الجبخانة تكفيهم عشر سنوات اذا كانوا يحاربون كل يوم.

ثم ان، بعد نهاية تلك الحركات التى قد حدثت وقتل الجنرال دبوى شيخ البلد، احضر امير الجيوش الجنرال دوسطين. [دستنج] وولاّة شيخ البلد على مصر مكان الجنرال دبوى. وكان هذا عاقلاً فاضلاً. وفرحت اهل البلد بموت الجنرال دبوى، لانه كان صعب الاخلاق وبطل لايُطاق.

وكان حينما قامت الاسلام على الفرنساوية، هرب محمد اغة الانكشارية. وكان ذلك الرجل جباناً، وهذه الرتبة لا يوافقها ذلك، لانه يلزم ان يكون اغة الانكشارية بطلا شديداً فى الحرب والقراع، صاحب مكر وخداع، لان عليه ضبط البلد الليل والنهار، ولا يسأل عمّا يفعل. وبعد هذه الفتنة امر أمير الجيوش بعزلة، واقام عوضه مصطفى اغا جُربجى، وهو من مماليك عبد الرحمان اغا الذى كان قديما اغات الانكشارية فى زمان على بيك. وحين دخل مصطفى اغا على امير الجيوش، لبسه فروا فاخراً وقلده سيفاً، وولاّه منصب الاغاوية على الانكشارية، وقال له: قد بلغنى عن سيدك انه كان رئيساً فى الاحكام، خبيراً بالايّام، متدبّراً بالنظام، ومتقناً وظيفته على التمام، فأودَ ان تكون مثله وتقتفى اثره. فقبّل يده وانصرف من قدّامه مسروراً.

وبالحقيقة ان هذا المذكور اخلف سيّده فى احواله وافعاله، وكان صادقاً فى خدمته شديداً فى همتّه، وقيل انه قتل مماليك كثيرة كما كان يفعل سيّده فى حكمه. وكان ذلك الرجل يكره المماليك وزمرتهم كونهم قتلوا سيده. وكان حينما وجد مملوكاً مستخفياً فى المدينة يقتله سراً، لانه كثيرا [ما] كانت تدخل المماليك الى مصر مستخفين.

وبعد تلك الحوادث استكنت مصر وكلت أهلها من الحروب مع الفرنساوية، وطاعتهم الطاعة الرغمية، لما كبدوا من شدّة باسهم وقوّة مراسهم. وقد كان الفرنساويون قد جذبوا اكثر الناس بحسن احكامهم العادلة، وعدم ميلهم للمشاكلة، وحسن سياستهم وعدم خيانتهم، وحبّهم المفرط للمسلمين ورفع المظالم عن الفلاحين، وضبط عساكرهم وتواضع اكابرهم، وصدق كلامهم حسن زمامهم، وانطلاق الحرية لساير الرعيّة، واعطا الامان فى كل مكان، والتفاتهم العجيب لنظم البلاد، وودّهم الغريب لراحة العباد. وقد قطعوا اثار اللصوص والنهّابين والعربان الخطافين، واتقنوا الاحكام باحسن نظام، وتظاهروا بالكرم السخا ورخص القوت والرخا.

(ذكر الحملة على بلاد الشام)

وبدأ امير الجيوش يجهّز الركبة [الحملة] على الاقطار الشامية، وارسل القومانية [الذخيرة] والمدافع والجبخانات الى مدينة بلبيس والصالحية، ونبه على العساكر بتحضير ما يحتاجون من الات الاسفار. وقد شاعت الاخبار بقدوم ذلك الجيش الجرّار الى اراضى عكّا وتلك الديار. فاسرع احمد باشا الجزار بتدبير ما يحتاج اليه فى الحصار، خشيةً من هجوم الكفّار واستيلاهم على تلك الاقطار. وحصّن مدينة عكّا بالابرجه والاسوار، ووضع عليها القنابر والمدافع الكبار. وحصّن ايضاً مدينة حيفا، وارسل الى يافا العساكر وحصنّها بالمدافع والقنابر. وامتدّ الى مدينة غزّة بعساكره وعشايره، ووصلت جيوشه الى قلعة العريش واقاموا بها. واتّصل الايراد الى ساير البلاد. وتنبهت الغز للجهاد.

وفى شهر شعبان سنة ١٢١٣ (٤٠) خرجت العساكر الفرنساوية الى مدينة بلبيس والصالحية، وكتب الى الجنرال كليبر ان يتوجّه من دمياط فى البرّ على طريق قطية، ويكون قايد العساكر الفرنساوية.

ثم ان امير الجيوش بونابارته، من بعد ما سيّر العساكر، احضر علماء الديوان، ومصطفى كتخدا الذى جعله امير الحجّ، والاغا والوالى والمحتسب، وقال لهم:

ان الغز المماليك، الهاربين من سيفى فى الاقطار قد التجوا الى احمد باشا الجزار، المتولى بتلك الديار. فجمع لهم العساكر، وحضروا الى العريش، وعازمين على الحضور الى الديار المصرية، لاجل خراب البلاد وقتل العباد وهلاك الرعية. فلذلك اخذتنى الغيرة، واستخرت الله وهو نعم الخيرة. وعزمت اننى اسير اليهم بالعساكر، واخرجهم من قلعة العريش بقوة سيفى الباتر. وابدّرهم بتلك البرارى والقفار، واجعلهم عبرةً للناظر واقطع اثارهم من تلك الديار، بعون الواحد القهار، واريح منهم مصر وتلك الديار. وها قد وليّت نايباً عنى وقايمقام فى المدينة الجنرال دوكا، فكونوا له طايعين، والى كلامه سامعين وشيخ البلد عليكم الجنرال ضوصطين [دوستين]، فعليكم ايها الحكام والأعيان والتجّار، ان تنبّهوا على اهل هذه الديار برفع الاذاية والاضرار. وان تكون الرعيا مطمأنين وفى منازلهم آمنين. وان كان يبدأ، فى غيابنا، ادنى حركة من الحركات ضدّ العساكر والصلدات، فقد امرت القايمقام وشيخ البلد وحاكم القلعة ان يهدموا البلد بالمدافع والقنابل، ويقتلوا اهلها بحدّ السيف الباتر، فكونوا على حذر من القضاء والقدر.

فاجابوه اننا ضامنين وكافلين هدو الجمهور وعدم حدوث امر من الأمور. ثم امر إلى مصطفى كتخدا وعلماء الديوان أن يأخذوا الأهبة للمسير معه إلى العريش، فاجابوه بالسمع الطاعة.

وفى خامس يوم من شهر رمضان (٤١) ركب امير الجيوش بونابارته فى العساكر، وصحبته مصطفى كتخدا والعلماء، قاصدا مدينة بلبيس بالابطال الجبابرة والعساكر الوافرة.

وحين وصل الى الصالحية، هرب امير الحاجّ محمد كتخدا (الذى كان سابقا) الى مدينة غزّة. ومن هناك سار الى عكّا وحين دخل على الجزّار قال له: انت الذى كنت اغة الانكشارية [؟] قال: نعم، ولكننى هربت منهم واتيت اليك. فقال له الجزار: ما انت الاّ جاسوس. ثم امر بقتله. وكان العلما بعد وصولهم الى الصالحية اعرضوا الى امير الجيوش انهم لا يقدرون على الاسفار فى البرارى والقفار، فاذن لهم بالرجوع، وسار امير الجيوش بتلك الجموع.

وكان قد امر امير الجيوش كبار الديوان، الشيخ عبدالله الشرقاوى والشيخ محمد المهدى، الباقيين فى مدينة مصر، ان يرسلوا مكاتيب لساير الاقاليم، ويعرّفوهم عن مسيره الى الديار الشامية، فكتبوا كما امرهم، وطبعوها فى المطبعة، ووزّعوها على ساير الاقاليم وهذه هى صورتها:

(صورة الكتابة)

من محل ديوان مصر الخصوصى، الى جميع الاقاليم المصرية: نخبّركم ان امس، تاريخه خامس

شهر رمضان المعظم، توجه حضرة الدستور المكرم سر عسكر الكبير بونابارته، امير الجيوش الفرنساوية، مسافراً يغيب مقدار ثلثين يوماً، لاجل محاربة ابراهيم بيك الكبير وبقية المماليك المصرية، حتى يحصل الراحة الكلية للاقاليم المصرية من هولا الاعداء الظالمين، الذين لا راحة فيهم ولا رحمة فى دولتهم على احد من رعيتهم. وقد وصل الان مقدّمة الجيوش الفرنساوية الى العريش. وعن قريب ياتيكم خبر قطيعة ابراهيم بيك ومن معه من المماليك، نظير ما وقع قطيعة اخيه مراد بيك ومن معه فى اقليم الصعيد. فيقطع دابرهم من بّر الشام كما انقطع دابرهم من اقليم الصعيد بالتمام. ويبطل القيل والقال، وتذهب الكذابة التى تسمعونها من اوباش الرجال.

ونخبركم ان حضرة السر عسكر المشار اليه يتجدد له كل يوم نية الخير والرحمة، ويحدث فى تصميم الشفقة والرفاة. هذه هى نيته لكم فى كل الأقطار المصرية. ويحصل لهم النجاح والصلاح، ويكمل فى ساير اقطارها السرور والاصلاح. وتفرح اقاليمها على يد سلطانها بونابرته، بمشية الله الذى مكنه فيها، ونصره على من ظلم فيها من المماليك المفسدين. ولا يتم خلاصهم بالكلية وتتطهر من دولة الممالك الردية، الا ببذل همته ورأيه السديد فى تكميل نظامها بغنايمهم لسيوفه الباتره، وتكمل زروعها الفاخرة وانواع تجارتها الباهرة. ويحدث فيها برأيه وحسن تدبيره التحف من انواع الحرف والصنايع النفيسه. ويجدّد فيها ما اندثر من صنايع الحكما الاوّلين. ويرتاح فى دولته كل الفقرا والمساكين. فالتزموا يا اهل الارياف والفلاحين بحسن المعاملة والادب، واجتنبوا فى غيبته انواع الكذب والقبايح، حتى يراكم، حين يقرب بعد هذا الشهر، قد احسنتم المعاملة ومشيتم على الاستقامة. وينشرح صدره منكم ويرضى عليكم، وينظر اليكم بعين الشفقة. وان حصل منكم فى غيابه ادنى خلل ومخالفة، حل بكم الوبال والدمار، ولا ينفعكم الندم، ولا يقر لكم قرار. واعلموا ان اذهاب. دولة المماليك بقضاء الله وقدرته. ونصرة سلطانكم امير الجيوش عليهم بتقدير الله وامره. والعاقل يمتثل الى احكام الله ويرضى بمن ولاه. والله يوتى بملكه من يشاء والسلام عليكم ورحمة الله.

الداعى لكم الفقير عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان الخصوصى عفى الله عنه

الداعى لكم الفقير السيد محمد المهدى الحنفاوى كاتم السر وباش كاتب الديوان عفى الله عنه.

[ذكر حصار قلعة العريش واحتلالها]

وقد كنّا ذكرنا ان امير الجيوش ارسل الى الجنرال كليبر انه يسير بالعسكر الذى عنده فى دمياط. ولما وصله ذلك الامر سار من مدينة دمياط على طريق قطية. ومن هناك صار طالباً قلعة العريش، فتاه فى الطريق وسار ثلثة ايام من غير زاد. والجاهم الجوع حتى اكلوا لحم الخيل والجمال. ثم اهتدوا على الطريق. وعند وصولهم للعريش كانت بعض عساكر الجزار واردين بقومانية وذخيرة الى القلعة فعندما نظروا الفرنساوية مقبلين تركوا القومانية وهربوا. ووصلت الفرنساوية وقد فرحت بتلك الذخيرة واكتفوا بها ثلثة أيام.

ثم حضر امير الجيوش وباقى العساكر ونصب الوطاق امام القلعة. وكان فى قلعة العريش ثمانماية مقاتل، وكان بينهم احمد كاشف الكبير تابع عثمان بيك الاشقر، وابراهيم بيك كاشف الحبشى. وفى ثانى الايام، ارسل اليهم امير الجيوش ان يسلموا القلعة، فلم يرضوا بذلك.

فامر بضرب المدافع. وبقى الحصار على القلعة ثمانية ايّام. ثم فرغت مونتهم وبارودهم، فارسلوا يطلبون الامان. فاعطاهم الامان. وان يخرجوا من القلعة بغير سلاح، ويحصل الصلاح ويفوزوا بالنجاح، فلم يرضوا بذلك.

وبعد يومين حضر قاسم بيك المسكوبى بجملة عسكر وجبخانة، وبقى بعيد عن القلعة.

وكان قصده ان فى الليل يدخل بغتةً فبلغ امير الجيوش وصوله، وربطوا عليه الطريق، وكبسوه ليلاً وذبحوا عساكره، ولم يسلم منهم غير القليل. وقتل قاسم بيك وعدة من الكشاف والمماليك. واخذوا كل ما كان معهم.

وحينما بلغ ذلك الذين فى القلعة حاروا فى امرهم، وارسلوا يطلبون الامان بحيث يخرجون بسلاحهم. فامر لهم امير الجيوش بذلك، وخرجوا الى قدّامه فاطلق سبيلهم، وكل واحد منهم ذهب الى بلاده.

واحمد كاشف وابراهيم كاشف وجماعتهما طلبوا من امير الجيوش التوجه الى مصر الى منازلهم واعيالهم فاذن لهم بذلك، وارسلهم مع بعض من الصلدات لاجل حمايتهم فى الطريق. وساروا الى القاهرة وادخلوهم على قايمقام الجنرال دوكا وشاعت اخبارهم فى مصر، وحضرت خلايق كثيرة لاجل الفرجة عليهم. ودخلوا الى دار الكنانة بكل ذل واهانة، راكبين الحمير بملابس رثّة. ومن بعد مقابلة القايمقام وشيخ البلد توجّهوا الى بيوتهم. وبعد ثلاثة ايام مات احمد كاشف من قهره وتوارى فى قبره.

واما امير الجيوش، بعد تسلمه قلعة العريش، وضع بها جانب من العسكر. وقد ارسلوا الى علماء الديوان بان يوزعوا الكتابات كما جرت لهم العادة.

صورة كتابة علماء الديوان للديار المصرية

لا اله الا الله المالك الحق المبين، ومحمد رسول الله الصادق الواعد واليقين. نعرّف آل مصر وساير الاقاليم ان توجّهت الفرنساوية الى الديار الشامية، وحاصروا قلعة العريش من عشرة فى رمضان الى سبع عشر [سنة ١٢١٣هـ. أى من ١٥ إلى ٢٢ فبراير ١٧٩٩م]، ووقعت مقاتلة عظيمة خارج القلعة وكان فى القلعة نحو الف وخمسمائة نفر غير من قتل خارجها. فلما طال عليهم الحصار، وتهدمت اسوار القلعة من ضرب الفرنساوية بالمدافع عليها وتيقنوا بالهلاك، طلبوا الامان من حضرة السر عسكر الكبير، فاعطاهم الامان الكافي. وسافر منهم نحو ثمانماية من ناحية الشول(٤٢) الى بغداد. وانعم عليهم حضرة السر عسكر بالحيوة بعد ان تيقنوا بالهالك. وهكذا اصحاب المروّات هولا أعتقهم واطلق سبيلهم.

وبعض الكشاف والمماليك الذين كانوا فى القلعة، نحو ستة وثلاثين جندياً، طلبوا من حضرة السر عسكر ان ينعم عليهم برجوعهم الى مصر

الى عيالهم وبيوتهم، فاحسن اليهم وارسلهم الينا والى وكيله، ودخلوا عليه يوم الاحد فى ستة وعشرين رمضان معزوزين مكرومين وارسل السر عسكر ان يوتى باكرامهم ان داموا على عهدهم الذى حفلوا به بالعريش. وان خانوا وهانوا فيحصل لهم من يده الانتقام .

وامر فى الفرمان ان الجنرال دوكا يامر التجّار بالقوافل الى برّ الشام، لينتفعوا بالمكاسب اصحاب التجارة، وينتفع سكّان برّ الشام ببضايع مصر حسب العادة السابقة، ليحصل الامان بحلوله فى تلك الاراضى.

وكتب الى حضرة وزيره الجنرال اسكندر برتية(٤٣) فرمان يخبّرنا ويخبّر حضرة الوكيل بالحالة التى وقعت الى عساكر ابراهيم بيك وبعض من عسكر الجزّار المساعدين له. وان الفرنساوية وجدوا فى قلعة العريش مخازن رزّ وبقسماط وشعير، وثلثماية رأس من الخيل الجياد، وحمير كثيرة، وجمال غزيرة اكتسبته جميعة الفرنساوية. ومع ذلك عندهم الصفح عن خلاصهم عند قدرتهم عليهم. وهذا من صفات اصحاب المروّة من الرجال الابطال. فيا اخواننا لاتعارضوا الملك المتعال. واتركوا انفسكم من القيل والقال. واشتغلوا فى اصلاح دينكم والسعى فى معاش دنياكم. وارجعوا الى الله الذى خلقكم وسواكم. والسلام عليكم ختام.

الفقير عبد الله الشرقاوى ريس الديوان حالاً عفى الله عنه

الفقير محمد المهدى كاتم سرّ الديوان حالاً عفى الله عنه

الفقير السيد خليل البكرى نقيب السادات الاشراف عفى الله عنه

[ذكر الحرب بين بونابرت والجزار واحتلال غزة ويافا]

واما امير الجيوش فى تسعة عشر رمضان (٤٤) نهض بالعساكر من قلعة العريش الى خان يونس. وفى الغد صارت مقدمات العساكر على مدينة غزّة بنفوس معتزّة. واوّلهم الجنرال كليبر سر عسكر الجيش، والجنرال ميراد. وكانت عساكر الجزّار وعساكر الغزّ فى مدينة غزّة. فعندما شاهدوا عساكر الفرنساوية مقبلين ولوا منهزمين. فدهمهم الجنرال ميراد بالرجال الشداد على الخيول الجياد. واطلق عليهم الرصاص. فما مكثوا امامه برهةً يسيرةً حتى ولوا منهزمين، والى النجاة طالبين.

ولما كان الجنرال ميراد يحاربهم، دخل الجنرال كليبر الى البلد من غير قتال. وبات تلك الليلة فى غزة. وفى الغدّ سيّر العساكر على مدينة يافا.

وكانوا وجدوا فى غزّة حواصل ذخيرة من بقسماط وشعير، واربعماية قنطار بارود، واثنى عشر مدفعاً، وحاصلا كبيراً من الخيام، وكلل وقنابر عظام، فحازوا على الجميع.

ولم يزالوا سايرين حتّى وصلوا الى يافا، وبنوا المتاريس امام البلد ووضعوا المدافع عليها. ومن بعد اربعة ايام من وصولهم، وصل امير الجيوش واستخبر: كم فى البلد من العساكر [؟]، فقالوا له: نحو ثمانية الاف. فكتب لهم وزيره اسكندر ينصحهم ان يسلّموا البلد لسلامة انفسهم فلم يرضوا بالتسليم، بل قبضوا على الرسول فتركوه مقتول. فبلغ امير الجيوش ذلك فاغتاظ غيظاً

شديداً، وامر بضرب المدافع والقنابر على المدينة. وابتدا الحرب من اول النهار الى الساعة التاسعة، من ناحية حارة النصارى.

ثم امر امير الجيوش بان يهجموا على البلد هجمةً واحدة، ويشنوا الغارة الجامدة، ويظهر ما عندهم من المكافحة والمجالدة. فغارت اوليك الشجعان، وكانت ليلة عيد رمضان، فيالها من ساعة كانت من ساعات القيامة، وتبألها من ليلة لم يكن بها سلامة. وهجمت الفرنساوية هجم الاسود، واذ شاهدتهم عساكر الاسلام ايقنوا بالموت والعدم والخلود، وبقوا نادمين وفى امرهم حايرين. واذ لم يجدوا لهم سبيلاً للانهزام ولا منقذاً ينقذهم الى برّ السلام، فسلموا الى قضاء الله والأحكام، وطرحوا سلاحهم وسلموا ارواحهم.

فبدت الفرنساوية يزجرونهم زجر الغنم. ولم يزل هول الحرب فى امداد، والكرب فى اشتداد، وتتناثر الرؤس وتهلك النفوس، وتنهتك الاحرار وتنكشف الاسرار والاستار، وتقتل الرجال والنساء والاطفال. وفاق صوت البكاء والعويل على صوت البارود الجزيل. وكنت تنظر واحد يقتل [و] واحد جديل، واخر دمه يسيل، والاخر بالأسر ذليل، ولا من يقبل ولا من يزيل.

ولم يزل الجيش الفرنساوى فى قتل وفتك وسبى وهتك، ورنّ سلاح وهزّ صفاح واخذ ارواح، من اوّل الليل الى اخر الصباح.

وكان يوماً اليماً وحرباً عظيماً. وسلبوا كلما فى المدينة من المال والامتعة الغوال. ولم يزل يعمل الصارم البتار الى اخر النهار. وكان ذلك نهار العيد والخلق فى حزن شديد. وحلّ الانكيس فى نهار ذلك الخميس.

وفى ذلك الحين مات من العساكر ما ينيف عن الخمسة الاف، ومن اهال البلد الفين وقد هجمت الفرنساوية على المراكب التى فى المينا، واخذوا منها بضاعة ثمينة. واصبحت مدينة يافا لم يجد بها أحد معافاً (٤٥) ولا بها مستتر. وهى عبرة لمن اعتبر.

وفى ثانى الايام، احضر امير الجيوش الاسارى، واطلق سبيل من كان من الاقطار الشامية، وميز المصريين واكرمهم غاية الاكرام. وكان منهم السيّد عمر مكرمً نقيب الاشراف الذى كان هارباً واعطاه الامان، وامره ان يرجع الى الاوطان.

واما الهواره والارناوط امر بقتلهم جميعاً، لان كان البعض منهم فى قلعة العريش، وحين اطلقهم امرهم ان يذهبوا الى بلادهم سالمين، فاتوا الى مدينة يافا وحاصروا بها. فقتلهم جميعاً من دون بعض انفار من الاغاوات الكبار، وارسلهم اسرى مع هجانة الى قايمقام يعرّفه بالاخبار عن هذا الانتصار. وان يوزّع من الديوان الكتابات كما جرت لهم عادات. ويخبر المصريين فى انتصار الفرنساويين على مدينة يافا.

صورة الكتابات من علماء الديوان بمصر يعلموا الاقاليم بأخذ يافا.

بسم الله الرحمن الرحيم. سبحان مالك الملك يفعل فى ملكه ما يريد. سبحان الحاكم العادل الفاعل المختار ذو البطش الشديد. هذه صورة تمليك الله سبحانه وتعالى جمهور الفرنساوية لبندر يافا من الاقطار الشامية.

نعرف اهالى مصر واقاليمها من ساير البرية، ان العساكر الفرنساوية انتقلوا من غزّة ثالث

وعشرين(٤٦) شهر رمضان، ووصلوا الى الرملة فى خامس وعشرين منه فى امان واطمئنان. فشاهدوا عسكر باشا الجزار هاربين بسرعة قايلين: الفرار الفرار. ثم ان الفرنساوية وجدوا فى الرملة ومدينة اللُدّ مقدار كبير من مخازن البقسماط والشعير، ورأوا فيها الف وخمسماية قربة مجهّزة، قد جهزها الجزار ليسير بها الى اقليم مصرُ مسكن الفقراء والمساكين، ومراده يتوجّه اليها باشرار العربان من سفح الجبل. ولكن تقادير الله تُفسد الحِيَل قاصداً سفك دماء الناس مثل عوايده السابقة. وتجبّره وظلمهم، لانه من تربية المماليك الظلمة المصرية. ولم يعلم، من خسافة عقله وسوء تدبيره ان الامر لله وكل شيء بقضايه وتدبيره.

وفى سادس وعشرين من شهر رمضان، وصلت مقدّمات الفرنساوية الى بندر يافا من الاراضى الشامية، واحاطوا بها وحاصرها من الجهة الشرقية والغربية. وارسلوا الى حاكمها وكيل الجزار ان يسلمهم القلعة، قبل ان يحل بهم وبعسكرهم الدمار. فمن خساسة رأية وسوء تدبيره سعى فى هلاكه وتدميره، ولم يرد لهم جواب، وخالف قانون الحرب والصواب، وقتل الرسول النجاب.

وفى آخر ذلك اليوم السادس والعشرين، تكاملت العساكر الفرنساوية على محاصرة يافا، وصاروا كلهم مجتمعين. وانقسموا ثلثة طوابير: الطابور الأول توجه على طريق عكا بعيد [أ] عن يافا اربع ساعات.

وفى السابع والعشرين من الشهر المذكور امر حضرة السر عسكر الكبير بحفر خنادق حول السور، لا جل ان يعملوا متاريس امينة وحصاوات مُتقَنة حصينة. لانه وجد سور يافا ملاناً بالمدافع الكبيرة، ومشحونة بعساكر الجزار الغزيرة.

وفي تاسع وعشرين من الشهر المذكور، لما قرب حفر الخندق الى السور مقدار ماية وخمسين خطوة، أمر حضرة السر عسكر المشار إليه أن تنصب المدافع علي المتاريس، وأن يضعوا الهاون الكبير بأحكام وتأسيس، وأمر بنصب مدفع صيانة لعساكره الصاعدين والمشتغلين بخرق السور، وأمر بنصب مدفع آخر بجانب البحر يمنع الخارجين إليه من مراكب المينا، لأنه وجد فى المينا بعض مراكب أعدوهم عساكر الجزار إلى الهروب، ولا ينفع الهرب من المقدر المكتوب.

ولما رأت عساكر الجزار الكاينين بالقلعة ان عساكر الفرنساوية قلايل، فيرا [فيرى] الفين للناظرين لسبب اخفاء الفرنساوية فى الخنادق وخلف المتاريس، فغرهم الطمع وفتحوا مجالهم من القلعة مسرعين مهرولين، وظنوا أنهم يغلبوا الفرنساوى، فهجمت عليهم الفرنساوية وقتلوا منهم جملة كثيرة فى الوقعة، والزموهم والجوهم [الجأوهم] للدخول ثانياً إلى القلعة.

وفى يوم الخميس غاية شهر رمضان، حصلت عند السر عسكر شفقة قلبية على الرعية، وخاف على أهل يافا من عسكره إذا دخلوها بالقهر والإكراه، فأرسل إليهم مكتوباً مع رسول مضمونه:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له

بسم الله الرحمن الرحيم

من حضرة سر عسكر اسكندر كتخدا العسكر الفرنساوى، إلى حضرة حاكم يافا، نخبرك أن

حضرة سر عسكر الكبير بونابارته أمرنا نعرفك، فى هذا الكتاب، ان سبب حضوره إلى هذا الطرف إخراج عسكر الجزار فقط من هذا البلد، لأنه تعدى بإرسال عسكره للعريش ومرابطته فيها، والحال أنها من اقليم مصر التى أنعم الله بها علينا، فلا يناسبه بالإقامة بالعريش لأنها ليست من أراضيه، فقد تعدى على ملك غيره.

ونعرفكم يا أهل يافا ان بندركم حاصرناه من جميع أطرافه وجهاته، وربطناه بأنواع الحرب [والآلات] والمدافع الكثيرة والكلل والقنابر الغزيرة وفى مقدار ساعتين [يقلب] سوركم وتبطل الاتكم وحروبكم ثم نخبركم ان حضرة السر عسكر المشار اليه بونابارته، لمزيد رحمته وغزير شفقته خصوصاً بالضعفاء من الرعية، خاف عليكم من سطوة عسكره المحاربين، وإذا دخلوا إليكم بالقهر فأهلوكم أجمعين، فأمرنا أن نرسل إليكم هذا الخطاب أماناً كافياً لأهل البلد والأغراب، ولأجل ذلك أخر ضرب المدافع والقنابر ساعة واحدة. وانني لكم من الناصحين القلبية، والحال أنهم جعلوا الجواب قتل الرسول مخالفين للقوانين الحربية والشريعة المطهرة المحمدية.

وحالاً، فى الوقت والساعة، هاج السر عسكر واشتد غضبه على الجماعة، وأمر بابتدا ضرب المدافع والقنابر الموجبة التدمير، وبعد مضى زمان يسير، تعطلت مدافع يافا المقابلة لمدافع المتاريس، وانقلب عسكر الجزار فى وبال وتنكيس.

وفى الظهر من هذا اليوم، انخرق سور يافا وارتج له القوم، ونقب من الجهة التى ضرب فيها المدافع من شدة النار، ولا مرد لقضاء الله ولا مدافع، وفى الحال أمر حضرة السر عسكر بالهجوم عليهم، وفى أقل من ساعة ملكت الفرنساوية البندر والأبراج، ودار السيف فى المحاربين، واشتد بحر الحرب وهاج، وحصل النهب فيها تلك الليلة.

وفى ثانى يوم الجمعة غرة [٤٧] شوال، وقع الصفح الجميل من حضرة السر عسكر الجليل، ورق قلبه على أهل مصر من غنى وفقير ومتجبر وحقير، الذين كانوا فى يافا، وأعطاهم الأمان، وأمرهم بالرجوع إلى الأوطان مكرومين وكذلك أمر أهل دمشق برجوعهم إلى أوطانهم سالمين، لاجل [ان] يعرفوا مقدار شفقته ومزيد رأفته ورحمته، ويعفو عند المقدرة ويصفح وقت المعذرة، لكثرة تمكنه ومزيد اتقانه وتحصنه.

وقتل أكثر من أربعة آلاف من عسكر الجزار فى السيف والبندق، لما وقع منهم من الانحراف، وأما الفرنساوية لم يقتل منهم إلا القليل، والمجاريح منهم ليس بكثير، وسبب ذلك سلوكهم للقلعة من طريق أمينة خافية عن العيون، وأخذوا ذخاير كثيرة وأموال غزيرة، ومسكوا المراكب التى فى المينا، واكتسبوا أمتعة غالية ثمينة، ووجدوا فى القلعة أكثر من ثمانين مدفع، ولم يعلموا [انه]، مع مقادير الله، الة الحرب لا تنفع، فاستقيموا يا عباد الله وارضوا بقضاء الله، ولا تتعارضوا على احكام الله، وعليكم بتقوى الله، واعلموا ان الملك لله يؤتيه لمن يشاء والسلام عليكم ورحمه الله.

الفقير السيد خليل البكرى

نقيب الأشراف بمصر حالاً

عفا الله عنه

الفقير عبدالله الشرقاوى

رئيس الديوان بمصر حالاً

عفا الله عنه

الفقير محمد المهدى

كاتم سر الديوان بمصر حالاً

عفا الله عنه

طبع فى مطبعة الفرنساوية العربية بمصر المحروسة

[ذكر حصار عكا]

ثم ان أمير الجيوش سار بالعسكر قاصداً مدينة عكا على طريق الجبال، ولما وصلوا إلى أراضى قاقون، فكانت عساكر الجزار والنوابلسية مكمنين فى الوادى الذى هناك، وحينما بلغهم قدوم الفرنساوية أخرجوا منهم من فم الوادى خمسماية مقاتل، وبدوا يرمحون تجاه العسكر، وكان قصدهم أن يجروهم إلى ذلك الوادى.

فلما علم أمير الجيوش مرادهم، قسم عساكره ثلثة أقسام: فالقسم الأول سيره إلى فم الوادى، والقسمان اطلعهما إلى الجبل، وحين اقتربوا إلى الوادى ضربوا المدافع وأطلقوا الرصاص، فانحدرت إليهم الفرنساوية من أعلى الجبل، وانتشب بينهم القتال، وكثر القيل والقال، وقد قتل من عسكر الإسلام أربعمائة قتيل على التمام، وولى الباقون منهزمين، وإلى النجاة طالبين. ومن هناك صارت الفرنساوية مطمانين فى تلك الديار، وباتوا تلك الليلة على العيون الصغار، وفى الغد ساروا إلى أن وصلوا إلى وادى الملوك، وقد كان بلغ الجزار قدوم وقرب الفرنساوية إلى تلك الديار، فأرسل إلى حيفا أحضر الجبخانة والعسكر.

وعندما وصلت الفرنساوية الى اتجاه مدينة حيفا، خرجت اهالى البلد إلى مقابلتهم، وسلموا امير الجيوش مفاتيح البلد والقلعة، فأكرمهم وأعطاهم الأمان، ودخلت الفرنساوية مدينة حيفا، فوجدوا بها قارباً صغيرا فيه جماعة من مراكب الانكليز فأخذوهم أسارى.

وبعد ذلك أمير الجيوش انتقل بالعساكر الى اتجاه مدينة عكا، ونصبوا المضارب والخيام فى محل يقال له أبو عتبة، وبنو المتاريس الحصينة، ووضعوا فوقها المدافع المتينة، وشاعت الأخبار فى تلك الأقطار بقدوم البطل المغوار، فى ذلك العسكر الجرار الذى هو كالبحر الزخار، فخافت تلك الديار، وعزموا جميعهم بالتصميم على الطاعة والتسليم لذلك البطل العظيم، لما بلغهم من عظم سطوته وعلو همته وشدة صولته، وبقوا ينتظرون بما يحل بأحمد باشا الجزار، بعد ذلك الضيق والحصار، من الهلاك والبوار، وقالت المسلمين أجمعين: انا لله وانا إليه راجعون من شر هؤلاء الملاعين.

وكان أمير الجيوش كتب إلى ساير مشايخ البلد ليحضروا إلى مقابلته، ويحصلوا علي أمانه ورحمته، وبدت تأتى إليه أهل تلك البلاد ويأخذون منه الأمان، وسار الجنرال كليبر والجنرال منوا إلى مدينة الناصرة، وأرسل كومندا حاكما على شفا عمر.

ومن عند اتمام بناية المتاريس ابتدا فى الحرب على عكا خامس يوم من شهر شوال سنة

١٢١٣(٤٨)، وقامت الحرب أربعا وعشرين ساعة، وكان حربا شديدا مهولا لم يكن مثلها قط لأن كانت الفرنساوية تضرب المدافع والقنابر، وفى المدينة كذلك، المدافع والقنابر من الأبراج والقلاع والحصون والأسوار، وكانت المراكب العثمانية والمراكب الانكليزية تضرب كذلك المدافع والقنابر، حتى خيل للناظرين والسامعين ان مدينة عكا لم يبق منها حجر على حجر واقفين.

وارتج الجزار من ذلك رجة عظيمة، وكاد أن يخلو المدينة، وأحضر مراكبه للسفر والركوب، وهيا نفسه للذهاب والهروب، فمنعه الجنرال سر عسكر الانكليز(٤٩) الذى كان مقيما فى عساكره على البواغيظ وطمنه قايلا: اننى قد قطعت عزم اعدايك الفرنساوية، اذ قد اسرت منهم ثلثة مراكب جبخانية ومدافع قوية، فشجع فؤادك على محاربتهم، لاننى قد أضعفت قوتهم.

وكان الأمر كما ذكر، لأن أمير الجيوش، إذ كان لم يقدر على نقل الجبخانة والمدافع الكبار فى البر، فأمر أن يوسقوهم فى ثلثة مراكب ويرسلوها من دمياط، وحينما خرجت المراكب المذكورة اصطادتها مراكب الانكليز.

وكان سر عسكر الانجليز المسمى سند [سدنى] سميث لم يزل يطوف فى مراكبه على البواغيظ ليمنع الامداد على الفرنساوية، وحين وقع الحصار على مدينة عكا، حضر بمراكبه وأخرج منهم طبجية إلى القلع والأسوار.

ثم من بعد ذلك الحرب الشديد، قلت جبخانة الفرنساوية، وبلغ أمير الجيوش ان الانكليز استأسروا الثلاث مراكب التى اتت من دمياط فى الجبخانة، فاشتعل فيه الغضب، وأرسل احضر ما كان فى يافا من الجبخانة.

ثم حضر إلى الجزار مركبين من اسلامبول بهم الجبخانة، ولما أقبلوا إلى أسكلة (ميناء) يافا وشاهدوهم الفرنساوية الذين كانوا بقوا هناك، رفعوا لهم البيراق العثمانى، ودخلوا إلى الميناء بكل أمان، ناشرين الاعلام لظنهم ان المدينة بيد الإسلام، وبعد ما القوا المراسى، نزلت القباطين الى البلد، فقبضوا عليهم الفرنساوية، وضبطوا المراكب بكل ما فيها من المدافع والقنابر والجبخانة، وكان ستة وثلثين الف دينار مرسلة اسعافا للجزار فصار ذلك اسعافاً للفرنساوية.

[ذكر معارك بونابرت فى بلاد الشام]

وكنا قد ذكرنا أن أمير الجيوش، بعد حضوره الى اتجاه عكا، أرسل كتب إلى مشايخ البلد الذين بالقرب منه، فحضر إليه الشيخ عباس بن ضاهر العمر، وأعرض لديه أحواله، فترحب به وأعطاه السلاح والكسوة وعشرة أكياس، وكتب له أن يكون متوليا بلاد أبيه.

وحضر أيضا مشايخ بنى متوال(٥٠)فأعطاهم حكم بلادهم وصاروا من عند أمير الجيوش إلى مدينة صور وقدموا له الذخاير من البلاد وتسلموا القلعة التى كانت لابائهم.

ثم حضر أيضاً رجل من جبل شيخا(٥١)اسمه مصطفى بشير فاكرمه أمير الجيوش، ولما بلغ أهل البلد قدومه، طردوا عسكر الجزار وسلموه البلد، وكان ذلك الرجل أصله من صفد.

وقد ذكرنا عن توجه الجنرال كليبر والجنرال منوا إلى الناصرة ، وكان قد اجتمع من الشام عساكر الإسلام، من مغاربة وهوارا وعربان، والغز الذين حضروا مع إبراهيم بيك، إلى أن بلغ جمعهم ثلثين الف مقاتل ما بين راكب وراجل، وخرجت هذه العساكر العديدة بقوة شديدة، ووصلت إلى مرج ابن عامر، فلما بلغ كليبر قدوم ذلك العسكر، فسار إليهم بألف وخمسماية مقاتل، وحينما وصلوا وشاهدتهم تلك الجموع، انهزموا من قدامهم مكيدة منهم، ولم يزل الفرنساوية فى أثرهم إلى أن وصلوا إلى أطراف المرج، ومن هناك أحاطوا فى الفرنساوية من كل جانب، ولما نظرهم الجنرال كليبر قد أحاطوا بالعسكر، فقسم رجاله أربعة أقسام، مع كل قسمة منهم مدفع، واتصل الحرب بينهم.

فعندما شاهدت أهالى الناصرة كثرة جيوش الشام، وان الفرنساويين قليلون جداً، فبادروا حالاً وأخبروا أمير الجيوش، فأحضر حالاً الجنرال تركو(٥٢) وأمره بتحضير ثلثة آلاف صلدات، ومن بعد ساعة واحدة جهز العسكر المذكور، وأخذوا معهم أربعة مدافع، وأمر الجنرال بونابارته أن يسيروا على وادى عبلين(٥٣) ومن بعد مسيرهم بثلاث ساعات، ركب أمير الجيوش وسار طالباً أثرهم، وفى نصف الليل وصل بالعساكر إلى بير البدوية، وأرسل إلى بلدة قريبة منهم اسمها سافورا(٥٤) وطلب ما احتاجه من الذخيرة تلك الليلة.

وعند الصباح سار بالعسكر إلى أن نفذ الى مرج ابن عامر، وصعد الى تل عال فكشف ارض المرج. ونظر الى الجنرال كليبر فى وسط البيدا وعساكر الاسلام محتاطة به، والهجمة من كل ناحية، وليس لهم عليه استطاعة.

ثم نظر الى جبل بعيد وعليه المضارب والخيام، وكان هذا اوردى [معسكر] الغز، فنزل امير الجيوش وأفرز خمسماية مقاتل وأمرهم أن يسيروا على الجبل ويكبسوا على الأوردى، وقسم العسكر الذى بقى معه ثلثة أقسام: قسمان منهم ألف، والقسم الثالث خمسماية، فأخذ منهم قسما واحداً ومدفعاً واحداً وتوجه بذاته، والقسم الثانى تبعه من بعيد، والقسم الثالث الخمسماية، ومعهم مدفعان، أمرهم أن يسيروا إلى الحرب من الطرف الثانى، إلى أن تصير العساكر المحاربين فى وسطهم محتاطين بهم.

وحينما وصل أمير الجيوش إلى عندهم ضرب مدفعا واحدا، ثم ضرب القسم الثانى ثم الثالث، وحينما سمعوا العساكر المحاربين المدافع، ونظروا قدوم النجدة، وعلموا أنهم صاروا فى وسطهم فولوا منهزمين وللنجاة طالبين، وصاروا يتراكضون فى الجبال وكانت الفرنساوية يضحكون عليهم.

وعندما انقطع أثرهم اتى امير الجيوش الى عند الجنرال كليبر وتصافحا مع بعضهما البعض، وتعانقا وفرحا بانهزام الأعداء، وحينما كانا واقفين، واذ بالخمسماية صلدات الذين صاروا إلى الجبل راجعة بالغنايم الوافرة، لأنهم كبسوا على أوردى الغز، وكان فيه مقدار ماية مملوك فقط.

وأما باقى الغز فكانت تحارب فى ارض المرج بعيد عن أورديهم مقدار ساعتين، فعندما نظرت المماليك ان الفرنساوية مقبلين عليهم، تركوا الأوردى وولوا منهزمين، فكبسوا عليه الخمسماية

صلدات واغتنموه. وكان فيه خيرات كثيرة، وأخذوا الخيل والجمال والخيام والأمتعة والأسلحة والملبوس، وبات أمير الجيوش تلك الليلة فى أرض المرج، وحينما أصبح الصباح، ارسل خمسماية صلدات الى قرية جنين وأمرهم أن ينهبوها ويحرقوها، ففعلوا كما أمرهم.

ثم ان امير الجيوش احرق تلك القرايا التى فى جبل نابلوس، لأنهم ما طلبوا منه الأمان، ثم رجع الى الناصرة، وبعده حضر بالعسكر الى اتجاه عكا.

وقد كنا ذكرنا ان أمير الجيوش كان قد أرسل مصطفى بشير الصفدى الى صفد وملك قلعتها وصاروا الذين كانوا من قبل الجزار الى الشام، وجمع ابن عقيل عسكرا وحضر الى صفد فنهبوها وحاصروا القلعة ، ولعلمهم بقلة الرجال بها هجموا بقوة شديدة، وكانوا الذين فى القلعة يضربون عليهم بالرصاص، فهلك منهم عدة رجال، ثم ان رجلاً من القلعة سقط من شباك وهجم ورا عسكر الشام وضرب البيرقدار برصاص فقتله، وأخذ البيرق ورجع الى القلعة.

وحين بلغ امير الجيوش قدوم عسكر الشام الى صفد، أمر الجنرال ميراد أن يسير بخمسماية راكب، ولما بلغ عسكر الشام قدومه رحلوا الى جسر بنات يعقوب.

وحين دخل الجنرال ميراد صفد بلغه هروب عسكر الشام فتبعهم، ولما وصل الى الجسر فما وجد واحدا واعلموه انهم ساروا الى الشام.

واما مصطفى بشير حضر الى عند امير الجيوش فترحب به واكرمه، وقد أخبروه عن فعل ذلك الرجل فأعطاه ماية وخمسين غرش، وأمر مصطفى بشير أن يعين عسكراً من الفلاحين، ولكل انسان ثلثين فضة كل يوم، فتوجه المذكور وعين جماعة وسار بهم الى جسر بنات يعقوب لعند الجنرال ميراد، فتركهم الجنرال على الجسر محافظين ورجع الى عكا.

واما الجنرال منو كان لم يزل مع الجنرال كليبر فى الناصرة فبلغه ان فى مدينة طبرية عسكر الجزار، فأخذ ثلثماية راكب من الفرنساوية، والشيخ صالح والشيخ عباس أولاد ضاهر العمر(٥٥)، ولما قربوا من طبرية خرج عسكر الجزار إلى ملاقاتهم، وكانوا نحو ألفى مقاتل، وحين تقابلا العسكران وانتشبت بينهما الحرب، انكسر عسكر الجزار وولوا منهزمين وللنجاة طالبين.

ولحق هذا الشجاع رجل من العسكر وضربه بحسامه وارماه شطرين، وقتل منهم أوفر من مايتين، ورجع الجنرال ميراد الى طبرية، فوجد بها حواصل حنطة وشعير ودرا [ذرة] ما ينوف عن الفين غرارة فأرسل اعلم بها امير الجيوش، فرجع الجواب أن يطحنهم ويرسلهم الى العسكر.

وفى شهر شوال الموافق لشهر آذار [مارس] تباين الطاعون فى العساكر الفرنساوية، وكانت عليهم أعظم بلية، ومات منهم خلق وافر.

وكانت الحروب قايمة على مدينة عكا الليل والنهار، وهم يهجمون على الأسوار، والكلل والقنابر عليهم مثل سيل الأمطار وقد اهلكوا من العساكر الإسلامية والانكليزية خلقاً لا يحصى لما كانوا يخرجون إلى محاربتهم، وقد هدموا ابراج وأسوار عكا من ضرب المدافع والقنابر وهيجان العسكر.

ولما نظر الجزار هدم البروج والأسوار، فبدا يقيم حيطانها من الأزقة والشوارع، وخرق البيوت والمنازل الى بعضها بعض وجعل لها منافذ خوفاً من هجوم الفرنساوية، لما شاهد من جسارتهم القوية، وكانت الفرنساوية لم تكل عن الهجمات على الأسوار والوصول الى الجدار، ولم يبالوا بذلك العمار، ولا يخشو قصر الأعمار وهلاكهم في هذه الديار، بل هامين الى العز والانتصار، وقهر احمد باشا الجزار، وتملكهم على هذه الأقطار.

وإذ كان أعداؤهم الانكليز، الذين قد اهلكوا عمارتهم على البواغيظ، واسعف عليهم ذلك العزيز، والقاهم في تيار التغلب والتعجيز، فلذلك اظهرت الفرنساوية انواع العجايب، في هذه المعامع والمواقع، التي تذكر جيلا بعد جيل، اذ لم يكن لها مثيل.

وقد مات في هذه المواقع الجنرال كفريل [كفريللي] المهندس الكبير والعالم الخبير والشهم الشهير، لأن هذا البطل المهول قد تقرر عنه القول أنه كان برجل واحدة، والأخرى كان ملبسها خشب، وكانت أهل مصر تدعيه الجنرال أبو خشبة، فهذا المذكور اصابته كلة في كتفه، وأخذت الجرايحية يداونه فسألهم: هل الجرح يطول ليبرأ؟ فأجابوه: انه يحتاج إلى مدة طويلة، وأما إذا قطعت اليد من الكتف فبرؤه قريب، فأجابهم: اقطعوا يدى ودعونى أنهض الى تكميل خدمة المشيخة ثم قطعوا يده من كتفه، وإذا كان هذا الجنرال لا يمكنه الكنون والسكون حتى يختم جرحه، طفق يدور على المتاريس ليدبر الطبجية، ويدلهم على الأماكن التي تضرب عليها المدافع والقنابر، فمن الشمس والهوا ورم عليه جرحه ومات وعدمت المشيخة مهندسا عظيما ومدبرا عليما.

وفى هذه المواقع مات الجنرال بون فهذا البطل تعلق على السور وحدف البرنيطة الى داخل البلد، وكان من الشجعان الشداد، وقد ارتعشت عساكر عكا ذلك النهار من فعل ذلك البطل المغوار، وبقوا يضعون اللحُف بالزيت والقطران ويحدفوها على الأسوار والرصاص عليهم مثل سيل الأمطار، ويرموهم أيضاً من الأسطحة بالحجارة الكبار، وهذا الجنرال اصابته حجر فى رأسه وهو متعلق على السور، فسقط وحملوه العسكر ومات، وشرب شراب الآفات.

[ذكر تخلى بونابرت عن حصار عكا وعودته الى مصر]

ثم بعد هجمات كثيرة وحروب خطيرة، وتعب شديد وهول مكيد، عزم امير الجيوش على القيام عن مدينة عكا العسيرة، لعلة خطيرة وأسباب كثيرة، وهو أنه :

أولاً: أن ورد مركب صغير من بلاد خرسان(٥٦) الى الاسكندرية ، وفيه رجل من مدينة باريس، ومعه مكاتيب إلى بونابرته من بعض رؤساء المشيخة المحبين له، يخبرونه ان رؤساء المشيخة ارفاقه الكبار مخامرين عليه، وقد منعوا عنه الإمداد ليهلك فى هذه البلاد، وأيضاً ان الانكليز قد أخذت منهم كلما اكتسبوه من الأقاليم، وهيجوا ملوك الافرنج عليهم، وان لم يحضر إليهم سريع والا يذهب تعبهم ويضيع، فهذه المكاتيب التى حضرت من بعض رؤساء المشيخة.

وأيضاً اتتهم الأخبار ان العمارة العثمانية العظيمة قد تجهزت، وقريباً تصل الى الديار المصرية، وسر عسكرها مصطفى باشا كوسا.

وأيضاً اتتهم الأخبار ان العمارة المسكوبية حاصرت جزيرة كورفو من اعمال البندقية، وقد أخرجت منها الفرنساوية.

ولما علم أمير الجيوش بتلك الأخبار، وان العالم كله نهض ضده، وأنه صار مضطرا أن يحارب جميع المسكونة بهذا الجيش القليل، وقلب ذلك البطل الشديد أقوى من الحديد. فما أراعته الأهوال ولا اعتراه الانذهال، ولا تغيرت منه الأحوال، ولا التوى عنانه ولا تزعزع جنانه، بل أخفى الكمد وأظهر الجلد، ثم أرسل احضر الجنرال كليبر من الناصرة، وأمره أن يهجم الهجمة الآخرة، فعند ذلك نهض هذا البطل المذكور، وأظهر حربه المشهور، وقرع طبول الحرب، وتقدم الى الكون والضرب، وكان يوماً أعظم الأيام، وحرب يشيب منه رأس الغلام، وهاج ذلك الجنرال هيجان الأسد الأذرع [الأشجع]، الذى لا يهاب الموت ولا منه يفزع، واندفقت عليهم الكلل والقنابر، براً وبحراً على هؤلاء العساكر، اندفاق البحور الزواخر، واتقدت عليهم النيران، واظلم الجو من الدخان ، واستدت المسامع من صوت المدافع، واشتدت المعامع، وقفزت الفرنساوية الأسوار ودخلوا إلى الجامع ، وكانت ساعة من ساعات القيامة وحرباً لم يكن فيه سلامة، ويوم غريب الأحوال شديد الأهوال عظيم الوبال، تشيب من هوله الأطفال، وترتعب من ذكره صناديد الرجال، وتبادرت العساكر فى المدينة، والمراكب التى فى الميناء، بالحراقة والنيران، بالزيت والقطران، وجادوا بالكلل والرصاص والقنابر والقواص، وبالضجيج العظيم والصراخ الذميم، وارتدت الفرنساوية بحمية عن ذلك الشر والنكد، بعد ما كانوا دخلوا البلد المحمية، وخطفوا طاسات النحاس الأصفر فى سبيل الجامع المشتهر [جامع عكا]، وخرجوا من المدينة كاسبين، وبقى منهم فى الجامعماية وعشرين، وكانوا قد انشغلوا فى القتال إلى أن حالت عليهم الرجال، وبدأوا يحاربون عن أرواحهم يدافعون، فتراكمت عليهم العساكر كالبحور الزواخر، وقد أيقنوا بالموت والاقتناص، وفرغ بارودهم والرصاص.

وعند ذلك بادر اليهم الكومنضا سميت سارى عسكر الانكليز، وطفق يكلمهم بالفرنساوية كلام حريز، وأن المشيخة ما أرسلوا رئيسكم الى هذه الممالك إلا ليرموه فى بحر المهالك ، وها نحن رابطين عليكم البواغيط، ولاندع أن يجيكم لا كثير ولا وجيز، وقد بقيتم مسجونين فى هذه البلاد، وانقطع عنكم الإسعاف والامداد، وجميع الممالك ضدكم مجاهدين على عدمكم. فكفاكم تهلكون نفوسهم، وتطيعون هوى رئيسكم، فاطلبوا الإقالة من هذه الحروب ، والخلاص من هذه المصايب والخطوب، ونحن نضمن لكم الوصول بالسلام والأمان إلى أرضكم والأوطان، ولما سمعوا ذلك الكلام سلموا له وأخذهم بأمان.

واما امير الجيوش حين نظر ان ليس فى ذلك الحرب محصول، والدخول الى عكا بعيد الوصل. وقد فهم ان الصلدات صاروا ينفرون من الهجوم والمصادرة، ويطلبون الرجوع الى القاهرة. وان قد مات ثلاثة الاف وخمسماية صلدات على اسوار عكا. ومات فى الطاعون وعلى الطرقات ما ينيف

عن الف صلدات. ومع ذلك المخاوف التى قضوها والبلايا التى ذاقوها انهم لم يزالوا فى طاعة غريبة ومحبة عجيبة الى امير الجيوش. اذا كان عندهم كألاه يخضعون الى امره، ويصبرون على مره وحره. ملازمين على حمده وشكره.

وفى احد عشر يوم من ذى الحجة سنة ١٢١٣(٥٧) امر امير الجيوش بالقيام بجميع المضارب والخيام، وانتقل الى مدينة حيفا، وكان فيها عدة حواصل قطن الجزار، فامر بحرق الجميع. ومن هناك ساروا الى مدينة يافا، فاخذوا ما كان لهم من الامتعة والمدافع الكبار ودفنوها فى الارمال.

وقد كان اخذين من العساكر العثمانية اربعة الاف بندقية، فارموها فى البحر واحرقوا المراكب التى كانوا اخذوها من الاسلام. واخذوا الذين فيها اسارى، وكانوا نحو ثلثماية نفر. فامر امير الجيوش ان يصنعوا اخشاباً كالنعوش، ويضعوا عليها المجرّحين والمشوشين. وكل اربع انفار من هولاء الماسورين يحملوا على اكتافهم خشبة ويمشوا امام العسكر.

وقبضوا على السيد يحيى مفتى مدينة يافا، واربعة انفار من التجار، واخذهم صحبته. ونهض من مدينة يافا الى غزة، وكان الجنرال القايم بها قبض على خمسة انفار من التجار فى البلد، وطلب منهم جانب من المال.

ثم سار امير الجيوش الى قلعة العريش، وهناك وضع المشوشين والمجروحين. وامر الجنرال كليبر ان يسرى على قطية بعساكره الى مدينة دمياط. وسار امير الجيوش بباقى العسكر الى مدينة القاهرة، وامامه اوليك الاسرى ماشيين.

ووصل الى العادله [العادلية] بالقرب من مدينة بلبيس، وارسل اخبر القيمقام الجنرال دوكان بقدومه، فخرج المشار اليه مع شيخ البلد وساير الجنرالية، والعساكر وعلماء البلد والحكام والاعيان وارباب الديوان والاوجاقات، واقبلوا عليه وهنوه بقدومه.

وبعد الجلوس قال لهم: لقد بلغنى ان بعض المفسدين والاعداء الكاذبين قد اشاعوا عنى الاخبار اننى قد مت فى تلك الديار، فامعنوا النظر بى لتتحققوا الخبر. وانظروا هل ان بونابرته مات ام بعده فى الحياة، وقولوا للمفسدين [أن] لايتأملون بهذا الامل. [فإن] بونابرته قد جاء سالماً غانماً باذن المالك العزيز، ولم يمت حتى يدوس جميع المماليك. فاجابوه: لا باس على امير الجيوش. لقد كذب كل من قال [ذلك] اطال الله لنا بقاك، ولا شمت بك اعداءك، وجعلنا من الدنيا فداك. وبالحقيقة كانت شاعت عنه تلك الاخبار، وفرحت اهل تلك الديار.

ثم دخل مصر بموكب شهير، ورآه الكبير والصغير. ومشت امامه جميع العساكر الفرنساوية، وحكام واعيان وعلماء واغاوات مدينة مصر المحمية. ودخل من باب النصر، بالعزّ والنصر، نهار الجمعة عاشر يوم من شهر محرم الحرام افتتاح سنة ١٢١٤ (٥٨). وكان يوما عظيما، وموكباً جسيما.

وحينما ولج بمنزله الكاين على بركة اليزبكية، كتب فرماناً باللغة الفرنساوية، وارسله الى ديوان العلماء، وامرهم ان يترجموه الى اللغة العربية، خطاباً من علماء الديوان الى ساير الاقاليم المصرية. ويطبعوه فى اللغة العربية، ويعلقوه على

شوارع القاهرة، ويفرقوه على جميع الاقاليم العامرة.

وهذه هى صورة ذلك الفرمان

من محفل الديوان الخصو صى بمصر المحروسة، خطابا الى اقاليم مصر الشرقية والغربية والمنوفية والقليوبية والجيزة والبحرية.

النصيحة من الايمان، قال الله تعالى فى محكم القرآن. فلا تتبعوا خطوات الشيطان.

وقال تعالى: لا تطيعوا امر المسرفين الذين يفسدون فى الارض ولا يصلحون فعلى العاقل ان يدبر الامور قبل وقوع المحذور.،

نخبركم، يا معشر المؤمنين، انكم لاتسمعوا كلام الكذابين، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين. وقد حضر الى محروسة مصر المحمية، امير الجيوش الفرنساوية، حضرة بونابرته محب الملة المحمدية. ونزل بعسكره فى العادلية، سليماً من العطب والاسقام، شاكراً لله موحداً للملك العلام. ودخل الى مصر، من باب النصر، يوم الجمعة عاشر محرم سنة ١٢١٤ من هجرته عليه السلام، فى موكب كبير عظيم، بشنك جليل فخيم، وعسكر كثير جسيم، وصحبته العلما الازهرية، والسادات البكرية والعنانية، والدمرداشية والخضوية والاحمدية والرفاعية والقادرية، والاوجاقات السبعة السلطانية، وارباب الاقلام الديوانية، واعيان التجار المصرية.

وكان يوماً مشهوراً عظيماً لم يقع نظيره فى المواكب السابقة قديماً.

وخرجت سكان مصر جميعاً لملاقاته، فوجدوه هو الامير الاول بونابرته بذاته وصفاته. واظهر لهم ان الناس يكذبون عليه. وشرح الله صدره للاسلام ونظر الله بعين لطفه اليه. والذين اشاعوا عنه هذه الاخبار الكاذبة، العربان الفاجرة والغز الهاربة، ومرادهم بهذه الاشاعة هلاك الرعيّة، وتدمير أهل الملة الاسلامية، وتعطيل الامول الديوانية، ولا يحبون راحة العباد. قد ازال الله دولتهم من شدة ظلمهم.

وقد بلغنا ان الالفى توجه الى الشرقية مع بعض المجرمين من العربان والقبايل الفجرة المفسدين، يسعون فى الارض بالفساد وينهبون اموال المسلمين، ان ربك بالمرصاد. ويزوررون على الفلاحين مكاتيب كاذبة. ويدعون ان عساكر السلطان حاضرة. والحال ليس لها تحضير، فلا اصل لهذا الخبر، ولا صحة له ولا اثر. وانما مرادهم وقوع الناس فى الهلاك والضرر. مثلما كان يفعل ابراهيم بيك فى غزة، حين كان يرسل فرمانات بالكذب والبهتان، ويدعى انها من طرف السلطان. ويصدّقوه اهل الارياف خُسَفاء العقول، ولا يعتبرون بالعواقب فيقعون فى المصايب.

واهل الصعيد طردوا الغز من بلادهم خوفاً على انفسهم وهلاك اعيالهم واولادهم. فان المجرم يوخذ من الجيران. وقد غضب الله على الظلمة ونعوذ بالله من غضب الديان.

فكانوا اهل الصعيد احسن عقولاً من اهل البحرى، بسبب هذا الرأى السديد. ونخبركم ان احمد باشا الجزار سموه هذا الاسم لكثرة قتله الانفس، ولا يفرق بين الاخيار والاشرار. وقد جمع

طموش كثيرة من عساكر العثمانية، ومن الغز والعرب واسافل العريش. وكان مراده الاستيلاء على مصر واقليمها، واحبوا اجتماعهم عليه لاخذ اموالها وهتك حريمها. لكن لم تساعده الاقدار، والله يفعل ما يشاء ويختار. والطافه خفية والكلام على صفو النية.

وقد كان ارسل بعض هذه العساكر الى قلعة العريش، ومراده يصل الى قطية. فتوجه سارى عسكر امير الجيوش الفرنساوية بونابرته، وكسر عساكر الجزار الذين كانوا فى العريش، ونادوا الفرار الفرار، بعد ما حل باكثرهم القتل والدمار. وكانوا نحو ثلثين الف. وملك قلعة العريش، واخذوا ما فيها من ذخاير الجزار بلا خلاف.

ثم توجه السر عسكر الى غزة فهرب من كان فيها من عسكر الجزار، وفروا منه كما يفر من الهرة العصفور. ولما دخل قلعة غزة نادى فى رعيتها بالامان، وامر باقامة الشعائر الاسلامية، واكرام العلماء والتجار والاعيان.

ثم انتقل الي الرملة ، واخذ ما فيها من ذخاير الجزار من بقسماط ورز وشعير وقُرب، اكثر من الفين قربة عظام كبار، كان جهزها الجزار لذهابه الى مصر ولكن لم تساعده الاقدار.

ثم توجه الى يافا وحاصرها ثلثة ايام، ثم اخذها واخذ ما فيها من ذخاير الجزار بالتمام. ولنحوسه اهلها انهم لم يرضوا بامانه، ولم يدخلوا تحت طاعته وسلطانه وشموله احسانه فدور فيهم ضرب السيف من شدة غيظة وقوة سلطانه، وقتل منهم نحو اربعة الاف ويزيد بعد ماهدم سورها بفعل الله الذى يقولُ للشيء كن فيكون.

واكرم من كان فيها من اهالى مصر واطعمهم وكساهم، وانزلهم من المراكب، وغفرهم بعساكر خوفاً من العربان. واجزل عطاياه وكان فى يافا نحو خمسة الاف من عسكر الجزار فهلكوا جميعاً وبعضهم ما غاطاهم الا الفرار.

ثم توجه من يافا الى جبل نابلوس، فكسر من كان فيه من العساكر بمكان يقال له قاقون وحرق خمس قرايا من بلادها، وما قدره سبحانه فيكون. ثم اخرب سور عكا، وهدم قلعة الجزار التى كانت حصينة، ولم يبق فيها حجر على حجر. حتى انه كان قد بنا حصاراتها وشيد اسوارها فى نحو عشرين سنة، وظلم فى بنايها عباد الله، وكذا عاقبة الظالمين.

ولما توجهت اليه اهل بلاد الجزار من كل ناحية، كسرهم كسرة شنيعة، فهل ترى لهم من باقية. ونزل عليهم صاعقة من السماء، فان قال اهل الشام كما قلنا.

ثم توجه راجعا الى مصر المحروسة لاجل سببين:

الأول: انه اوعدنا برجوعه الينا باربعة اشهر والوعد عند الحر دين.

والسبب الثانى: انه بلغه ان بعض المفسدين من الغز والعربان يحركون فى غيابه الفتن والشرور فى بعض الاقاليم والبلدان.

فلما حضر سكنت الفتنة وزالت الشرور مثل زوال الغيم عند شروق الشمس وسط النهار. فان همته العلية واخلاقه المرضية متوجه، فى البكرة والعشية، لازالت [لإزالة] الفجور والشرور من

الرعيـة. [أ] وجد لمصر واقليمها شي عجيب، ورغبته فى الخير لاهلها ونيلها بفكره وتدبيره العجيب. يحب الخير لاهل الخير والطاعة، ويرغب ان يجعل فيها احسن التحف والصناعة.

ولما حضر من الشام احضر معه جملة اسارى من خاص وعام، وجملة مدافع وبيارق اغتنمها فى الحروب من الاعداء الاخصام.

فالويل ثم الويل لمن عاداه، والخير ثم الخير لمن والاه. فسلموا يا عباد الله لقضاء الله، وارضوا بتقدير الله، فان الارض لله. واقتبلوا احكام الله فان الملك لله يوتيه لمن يشاء من عباده. هذا هو الايمان بالله. ولا تسعوا فى سفك دماكم وهتك اعيالكم، ولا تسببوا فى قتل اولادكم ونهب اموالكم. ولا تقولوا ان الفتنة اعلا [ء] كلمة حاشا الله لم يكن فيها الا الخذلان وقتل الانفس وذل امة النبى عليه السلام. والغز والعربان يطغوكم ويغروكم لاجل ان ينهبوكم، اذا كانوا فى بلد وقدمت عليها الفرنساوية ففروا هاربين منهم كانهم جنود ابليس.

ولما حضر السارى عسكر الى مصر، أخبر اهل الديوان من خاص وعام انه يحب دين الاسلام، ويعظم النبى عليه السلام، ويحترم القرآن ويقرا به كل يوم باتقان. وامر باقامة شعاير المساجد الاسلامية، واجراء خيرات الاوقاف السلطانية، وسلم عوايد الا وجاقية، وسعى فى حصول اقوات الرعية. فانظروا هذه الالطاف والمزية، ببركة نبينا اشرف البراية. واوعدنا بامرين عظيمين فى الاسلام: انه يبنى لنا مسجداً عظيماً بمصر لا نظير له فى الاقطار، وانه يدخل فى دين النبى المختار عليه افضل الصلوة والسلام ختام.

السيد **خليل الكبرى** نقيب السادة الاشراف بمصر

الفقير **عبد الله الشرقاوى** ريس الديوان بمصر

الفقير **محمد المهدى** كاتم سر الديوان بمصر

الفقير **مصطفى الصاوى** خادم العلم بمصر

الفقير **سليمان الفيوى** خادم العلم بمصر

الفقير كتخدا باشا اختيار [مستحفظان] بمصر

يوسف باشا جاويش تفكجيان بمصر

السيد **احمد المحروقى**.

طبعت بمطبعة – الفرنساوية العربية. بمصر المحروسة.

وقد طبع هذا الفرمان ووزعه على الاقاليم المصرية. وكان ما ذكر فى هذا الفرمان عنه قصده لتهذيب اخلاقهم، وتليين اعناقهم، وترقيد الفتن والمشاجرات وعدم المناكرات. اذ كان عارفاً ما يورد عليهم من الحادثات. وانه مضطر الى الرحيل لما قد بلغه عن قيام الممالك. وانه سيترك الفرنساوية بمصر بكل ضيق وحصر. فلذلك كان يود المسلمين ويظهر لهم الحب اليقين، ويشهد لهم بحسن الدين، وانه واياهم على الحق المبين. وهم كانوا لهذا الكلام غير محققين. وان كل ذلك خداع ونفاق وابتداع، فكانوا غير مطمأنين.

هذه وهو غير فاتر عن مسالمتهم، وجذب قلوبهم ومؤانستهم. وكان يباحثهم بامور الدين، ويريهم انهم على الحق اليقين.

وكان مملوءاً من الحكمة والعلوم. وقيل انه كان يعلم بامور القلم الفلكي، اذ انه كان يتفوه بامور تحدث في ميقاتها قبل اوقاتها. ويقول هو المنصوص على ظهوره فلا ينتظروا احداً بعده. وهو الذى يملا الارض عدلاً وقد حدّق كثيرون منهم أنه هو المهدى. ولم تتغير عليه سوى الملابس الافرنجية، فلو جاء بالفرجية لامنت به الرعية.

وقد كنا ذكرنا كلما جرى للفرنساوية فى ابتداء دخولهم إلى الديار المصرية فى نصف شهر محرم افتتاح سنة ١٢١٤، وما قضوا من المكافحات والجهاد والشرور والفساد. وقد مات منهم جمع غفير، وكابدوا تعبا كثيراً. واعداءهم الانكليز رابطين عليهم البواغيظ. ونفور البلاد وعدم ميلهم عليهم، ووصول الاذية اليهم. لان اهالى البلاد قتلوا منهم اناسا كثيرين بالانفراد، وكانوا يدخولنهم الى منازلهم بالامان ويقتلونهم ويخفونهم. وكانت الفرنساوية قلوبهم مطمأنة من قبل الاسلام، ولا ينقلون السلاح الا فى وقت الحرب والكفاح. وكانت نساء مصر وخوارجها كثيرة، فكانوا ياخذون الفرنساوية الى منازلهم الزاماً، ويقتلونهم ويرمونهم فى الابيار، ويخفون منهم الاثار. وقد فقد منهم كثيرون بهذه الوسايط والانكاد، ووقع كثرة منهم فى علة الجذام من ذلك الفساد. وذلك المرض وجوده كثيرة فى تلك البلاد.

وقد مات من الفرنساوية، من ابتدا دخولهم الى الديار المصرية، الى حين رجوعهم من الديار الشامية، ما ينوف عن خمسة عشر الفاً. وقل عددهم ولكن لم يضعف جلدهم. وكانوا، مع كل تلك الاحوال والبلاء والنكال، ما ازدادوا إلا قوة وباس وصعوبة ومراس، وحسن الشيم والعطا والكرم.

وكثر فى زمانهم، فى تلك الاقاليم، الرخص والخير العميم، وعدم الظلم والعدوان، واظهار العدل والايمان.

وكان، بعد رجوع امير الجيوش الى مصر، قد هرب القاضى [التركى] وترك اعياله فى البلد، فامر ان يرفعوا ولده الى القلعة، ويختموا على جميع ارزاقه. فاجتمعت العلماء وارباب الديوان، وكتبوا عرض حال يترجوا امير الجيوش بذلك الحال، وطلق ولده من القلعة، ورفع الضبط عن المال والعيال، فقبل سؤالهم وارثى لحالهم، واطلق الولد بشرط ان لا يقيم البلد، وصرفه فى ماله واعياله. ثم انه احضر شيخ العريش [الشيخ العريشى]، والبسه فرواً فاخراً ثميناً، واقامه قاضياً اميناً.

وفى شهر محرم الحرام افتتاح سنة ١٢١٤(٥٩)، ظهر فى اراضى البحرية [البحيرة]، عند دمنهور، رجل مغربى، وقيل انه سلطان الغرب [المغرب] فجمع من المغاربة والهواره والعربان والفلاحين جمعاً غزيراً، وقطع الطرقات فبلغ خبره الى حاكم الاسكندرية، فارسل اليه شرذمة من عسكر الفرنساوية وكبسوا عليه. وانتشر بينهم القتال، فانهزم ذلك المغربى بعسكره فى البرارى والتلال، ولم تنزل الفرنساوية فى اثارهم حتى اهلكوا اكثرهم. وكان هذا الرجل يدعى النبوة، ويقول إنه حينما يلقى نظره على الكفار فيتلاشون

كالغبار. فكان الأمر [بضدّ] ذلك الاقرار. وقد جرّعوه كؤوس المهالك. وتشتت تلك الجموع، ورجعت الفرنساوية بالسكون والهجوع.

[ذكر الحرب بين بونابرت والعساكر العثمانية]

وفي اثنى عشر صفر ١٢١٤ هجرية(٦٠)، حضر هجان من الاسكندرية بكتابة الى امير الجيوش يخبره ان العمارة العثمانية ظهرت فى ثغر الاسكندرية، وعدتها ثمانون مركباً كباراً وصغاراً. وانهم لم يقدروا ان يستقبلوا البوغاظ من الكلل والقنابر الكثير فتعمّدوا [ذهبوا] الى قلعة ابو قير.

وكان وصول الهجان عند الغروب، وهو على صفرة الماكول والمشروب. فنهض بالحال كالمرعوب، وامر بحضور الخيل للمركوب، وفرق الاوامر على الجنرالية، وامرهم ان يتبعوه بالعساكر الى الرحمانية.

وكتب الى الجنرال كليبر ان يحضر من دمياط على طريق البر، ثم ركب من ذلك المحضر بعسكره الخاص الذى يلبس الجوخ الاخضر، وسار على تلك النية حتى وصل الى اراضى الرحمانية. فاتاه الخبر من الاسكندرية ان المراكب العثمانية ملكت قلعة ابو قير وهربت منها الفرنساوية.

وان العساكر جميعاً خرجت الى البريّة، وبنوا بمساعدة الانكليز متاريس عظيمة فى تلك الاقطار، ووضعوا فوقها المدافع الكبار، وفرقوا البيورلديات على جميع تلك الديار. واستنهضوا للقيام الفلاحين والعربان واهل تلك البلدان، ولبسوا من مصطفى باشا الاكراك(٦١)، وابتهجت الاسلام بورد عسكر الاتراك.

وخشى امير الجيوش من قيام العامة من مصر وغيرهم من البلدان، فكتب فرمان الى علماء مصر وارباب الديوان يخبرهم بورود المراكب وخروج عساكرها الى البر، وانهم مراكب النصارى، ولكن ربما معهم بعض مسلمين.

وتعريفه بذلك استنادا على الفرمان الذى ورد من الدولة العثمانية الى الجزار والاقطار الشامية، حيث يقول: قريباً تحضر لكم الضوننما(٦٢) الهمايونية، مع ضوننما دولة المسكوبية المتحدة مع دولتنا بالحب الصدوقية. ويحضر لكم ايضاً عشرين الفاً مقاتل فى البر من الدولة القوية، غير العساكر البحرية، لاجل طرد الملة الفرنساوية.

وهذا الفرمان قد حضرت صورته الى امير الجيوش، واطلع عليه العلماء والاعيان واهل تلك البلدان،

ولاجل ذلك حرر امير الجيوش لهم ذلك الفرمان، لاجل ترقيد الفتن والهرج، وان تلك المراكب من النصارى الافرنج.

وهذه صورة الفرمان نقلا عن المطبعة

من حضرة سارى عسكر امير الجيوش الكبير بونابرته، خطاباً الى ديوان مصر المحروسة. اوّله: لا اله الا الله محمد رسول الله. نخبر علماء الديوان بمصر، المنتخب من احسنهم واكملهم فى العقل والتدبير، عليهم سلام الله ورحمته وبركاته. بعد مزيد السلام عليكم وكثرة الاشواق اليكم، نخبركم، يا اهل الديوان المكرمين، اننا وضعنا جماعة من عسكرنا بجبل الطونا [الطرانه] وبعد ذلك سرنا الى اقليم بحيرية، لاجل ما نرد راحة

الرعاية المساكين، واقاصص اعداءنا المحاربين. وقد وصلنا في السلام الى الرحمانية، وعفونا عفواً عمومياً عن كل اهل البحرية. حتى صار اهل الاقاليم فى راحة تامة ونعمة عامة. وسكنت الفتنة واطمأنت. ثم نخبركم انه وصل ثمانون مركباً، صغاراً وكباراً، حتى ظهروا بثغر الاسكندرية، وقصدوا ان يدخولها فلم يمكنهم الدخول لكثرة كلل والمدافع النازلة عليهم. فرحلوا عنها وتوجهوا إلى ناحية ابوقير وابدتوا ينزلوا فى بر ابو قير. وانا الان تركتهم وقصدى انهم يتكاملوا الجميع فى البر، وانزل عليهم واقتل من لا يطيع، واخلى فى الحيوة الطايعين، اتيكم بهم محبوسين، لاجل ان يكون في ذلك شان عظيم فى مدينة مصر. والسبب فى مجى هذه العمارة الى هذا الطرف، العشم بالاجتماع على المماليك والعربان لاجل نهب البلاد وخراب الاقليم المصرى. وفى هذه العمارة خلق كثيرة من الموسكوب الافرنج الذين كراهتهم ظاهرة لكل من كان موحد الله، وعداوتهم واضحة لمن كان يؤمن برسول الله. يكرهون الاسلام ولا يحترمون القرآن. وهم، نظراً الى كفرهم فى معتقدهم، يجعلون الالهة ثلثة، وان الله ثالث تلك الثلاثة، تعالى الله عن الشرك. ولكن عن قريب يظهر لهم ان الثلثة لاتعطى القوة، وان كثرة الالهة لا تنفع لانها باطلة. بل ان الله الواحد هو الذى يعطى النصرة لمن يوحده، وهو الرحمن الرحيم المساعد الامين المعين، المقوى للعادلين الموحدين، المبعث الماحق رأى الفاسدين المشركين. وقد سبق، فى عمله القديم وقضاءه العظيم وتقديره المستقيم، انه اعطانى هذا الاقليم العظيم. وقدر وحكم بحضورى الى مصر لاجل تغيير الامور الفاسدة وانوع الظلم، وتبديل ذلك بالعدل والرحمة مع صلاح الحكم. وبرهان قدرته العظيمة، ووحدانيته المستقيمة، انه لم يقدر الذين يعتقدون ان الله ثلثة قوة مثل قوتنا، لانهم ما قدروا ان يعملوا الذى عملناه. ونحن المعتقدون بوحدانية الله، ونعرف انه العزيز القادر القوى القاهر المدبر الكاينات، المحيط علمه بالسماويات والارضيات، والقيام بامور المخلوقات. هذا ما فى الايات وبالكتب المنزلات. ونخبركم بالمسلمين إن كانوا صحبتهم يكونا من المغضوبين لمخالفتهم لوصية النبى عليه افضل السلام، بسبب اتفاقهم مع الخارجين الكفرة اللئام. لان اعداء الاسلام لا ينصرون الاسلام. ويا ويل لمن كانت نصرته فى اعداء الله يكون المنتصر كافر[اً] أو يكون مسلم [مسلما]، فهولاء ساقهم [سوء] التقدير الى الهلاك والتدمير، وكيف المسلم ان ينزل فى مركب تحت بيراق راية الصليب، ويسمع فى حق الله الواحد الاحد الفرد الصمد، من الكفار كل يوم، كلام تجديف واحتقار. ولا شك ان هذا المسلم فى هذا الحال اقبح من الكافر الاصلى فى الضلال.

منكم [عليكم] يا اهل الديوان ان تخبروا بهذا الخبر جميع القرايا والبلدان، لا جل ان يمتنع اهل الفساد من الفتنة بين الرعية، فى ساير الاقاليم المصرية. لان البلد الذى يحصل فيها الشر يحصل لهم الضرر والقصاص. وانصحوهم بحفظ انفسهم من الهلاك، خوفاً عليهم ان نفعل فيهم مثلما فعلنا في اهل دمنهور وغيره من البلاء والشرور، بسبب سلوكهم مسالك القبيحة قاصصناهم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تحريرا فى رحمانية يوم الاحد فى ١٥ صفر سنة ١٢١٤(٦٣) طبع بمطبعة الفرنساوية العربية.

ثم ان امير الجيوش، بعد ان تكامل عنده جيش الفرنساوية، سار من الرحمانية طالب قلعة ابو قير، وحرب ذلك الجمع الغفير والجيش الكثير. وحين فهم ان متاريسهم منيعة عالية، اخذ يدبر كيفية تملكها بحسن فطنته السامية. فاحضر الجنرال ميراد الذى كان من القوم الشداد وسارى عسكر الخيالة الجياد، وامره ان يهجم اولاً بالخيل، حتى اذا اطلقت الاعداء مدافعها فتصيب الخيل وتسلم الرجال، ثم تهجم طوابير المشاة، من اليمين واليسار، على المتاريس، ويملكوها فى الحال.

ثم اصطف الصفوف ودقت البوقات والطبول للحرب، [واستعد] الفريقان للطعن والضرب وبرز الجنرال ميراد بالخيل الشداد، وهجم على تلك العساكر بالفرسان الجواسر والليوث الكواسر.فضربت عليهم المدافع من متاريس الاتراك، فصابت الخيل وتساقطت من على ظهرها الرجال، واكثرهم بلى بالموت والنكال. والذى سلم ما خطر له الموت على بال، بل تقدم للحرب والقتال. وهجمت العساكر المشاة من اليمين والشمال. وعظمت الاهوال وكثر النكال. وذاقت الاسلام حرب لم يخطر لهم على بال. واخذهم الخوف والانذهال وايقنوا بالذل والوبال. وتملكت الفرنساوية المتاريس وابلوهم بالموت والتعكيس. وحاطوا بالاسلام من كل مكان، وابهتوهم بالضرب والطعان، والقطيعة والخذلان.

وحين رأت الاسلام ان ليس [لهم] نجاة، وايسوا من الحيوة، القوا السلاح طمعاً بسلام الارواح.

وطلبوا الامان واختاروا الاسر والهوان. وصارت الفرنساوية تقبض عليهم باليد وهم فى عنا [ء] وكد. ولم يخلص من تلك القبايل لا فارس ولا راجل. بل اخذتهم الفرنساوية عن اخرهم. فمنهم قتل ومنهم أسر، ومنهم مثخن بالجراح. وكثير اجساد بلا ارواح. والذى منهم كان هارب لم يقدر يصل الى المراكب.

وهجم احد الصلدات على صيوان الوزير مصطفى كوسا باشا وقبض عليه، واراد قتله، فعرفه بنفسه، بعد ان كان ضربه بالسيف وجرحه بيده، فعفى عنه، واحضره الى قدام امير الجيوش، فترحب به، واخرج من جيبه منديل ثمين، وربط يد مصطفى باشا فيه، واجلسه بالقرب منه واكرمه غاية الاكرام.

ثم قبضوا ايضاً على عثمان خواجا، [و] هذا كان متسلم بزمان الغز على مدينة رشيد، ولما حضروا الفرنساوية هرب الى القسطنطينية، وحضر صحبة مصطفى باشا وحين حضر الى قدام امير الجيوش وفهم امره امر بحفظه.

وكان دخلت شرذمة من عسكر العثمانى الى قلعة ابو قير، ومعهم ابن مصطفى باشا، فامر امير الجيوش ان يضربوا عليه الكلل والقنابر. وبعد اربعة ايام سلموا بالامان، وقبضوا على ابن مصطفى باشا واحضروه قدام امير الجيوش، فامر ان ياخذوه الى خيمة ابوه بكل اكرام.

وكان امر امير الجيوش الى المجروحين من تلك العساكر ان ينزلوا بثلاث مراكب ويسافروا الى بلادهم، ويخبروا بحالهم وما جرى عليهم وما نالهم. وابقى الاسارى السالمين تحت الاسر المهين.

وغنمت الفرنساوية بهولا العساكر. اذ لم يخلص منهم احد سوى الذين سافروا مجروحين في المراكب. وكانت هذه الوقعة في اربعة وعشرين شهر صفر سنة ١٢١٤(٦٤)، وجمعوا اوليك الاسرى، وكانوا نحو ثلثة آلاف عدا عن تلك المجاريح الذين منّ عليهم امير الجيوش بخلاصهم، وسيرهم الى اعيالهم. وباقي تلك العساكر افتنهم الفرنساوية بالسيف الباتر والرصاص المتواتر.

وكان قد انجرح ميراد [Murat] جرحاً بليغاً بحنكه من رصاص اصابه، فاغتاظ لاجله امير الجيوش غيظاً عظيماً. وقُتل الجنرال تركو [Leturcl] مع مقدار ثلثماية صلدات.

وحين وقعت النصر على الاسلام، ارسل امير الجيوش يخبر القيمقام في الذى صار وما وقع من الانتصار، فعمل في مصر فرحة عظيمة ثلثة ايام، وكتب الى علماء الديوان يخبرهم بهذه البشارة الجليلة الشان.

صورة مكتوب الجنرال دوكا [Dugua] قيمقام امير الجيوش.

من حضر سارى عسكر الجنرال دوكا، قيمقام امير الجيوش بمصر حالاً، الى الاسلام وكافة ارباب الديوان.

بعد السلام عليكم وكثرة الاشواق اليكم، لا يخفاكم انه وصلني خبر صحيح بان العساكر الفرنساوية ملكت قلعة ابو قير في ١٥ شهر ترميدور الموافق الى ٢٤ شهر صفر سنة ١٢١٤(٦٥)، وأنهم استاسروا فيها ثلثة الاف نفر، ومن الجملة مصطفى باشا. وغاية ما وقع ان العمارة التي نزلت في ابو قير كانت بها عساكر خمسة عشر الف لم يخلص منهم احد، بل الكل تلاشوا وهلكوا. ثم اخبركم، عن لسان حضرة السارى عسكر الكبير بونابرته، انكم، في الحال، تُظهِرون هذا الخبر بين الخاص والعام، وتشهروه في الاقاليم المصرية. فانه خبر فيه سرور وفرح. والزمكم انكم تعرفوني، في الحال، عن اشهار هذا الخبر الفاخر المعتبر. واخبركم ان حضرة السارى عسكر الكبير بونابرته يحضر اليكم عن قريب. والله تعالى يحفظكم. والسلام ختام.

تحريرا في ٢٢ شهر ترميدور سنة السابعة لمشيخة الفرنساوية الموافقة إلى ٢ ربيع الاول سنة ١٢١٤(٦٦) طبع بمطبعة الفرنساوية العربية بمصر حالا.

وامّا امير الجيوش بونابرته، [فقد] نهض بالجيوش من اراضي ابو قير الى الرحمانية، وارسل عثمان خوجا الى بندر رشيد، وامر بقتله هناك.

وحين تواردت الاخبار الى القاهرة بما جرى على العساكر العثمانية، فنزل على مسلمين مصر البلية، وخابت منهم تلك الاملية. وحزنوا حزناً عظيماً، [إذ] كان في املهم ان تملك الاسلام تلك الاقاليم.

وفي خامس شهر ربيع اول(٦٧) حضر امير الجيوش الى مصر، ودخل بالعز والنصر. وبليت اعداؤه بالذل والقهر. وصحبته مصطفى باشا وولده ماسورين مع جملة الاسارى.

وفي ثاني يوم من وصوله، حضرت لعنده جميع الحكام والعلماء والاعيان وارباب الديوان، وهنوه بُقدومه وانتصاره فنظر اليهم بعين فراسته واعتباره، وقد وجدهم في حزن عظيم.

وقد بلغه الهرج الذى حدث بغيابه، وعزمهم عليه في انقلابه، والكتابات التى اتت اليهم من مصطفى باشا وعثمان خوجا حين حضروا الى ابوقير، فقال لهم: قد اخذنى منكم العجب ايها العلماء والسادات، اذ اننى اراكم تغتمون وتحزنون من انتصارى. حتى الان ما عرفتم مقدارى. وقد خاطبتكم مراراً عديدة، واخبرتكم باقوال باننى انا مسلم موحد، واعظم النبى محمد واود المسلمين. وانتم الى الان غير مصدقين. وقد ظننتم ان خطابى هذا اليكم خشية منكم، مع انكم شاهدتم باعينكم وسمعتم باذنكم قوة بطشى واقتدارى، وحققتم فتوحاتى وانتصارى. فقولى لكم انى احب النبى محمد وذلك لانه بطل مثلى، وظهوره مثل ظهورى، بل وانا اعظم منه، اذ اننى غزوت اكثر منه. واما لى باقى غزوات غزيرة وانتصارات كثيرة، سوف تسمعونها باذانكم وتشاهدونها باعيانكم فلو كنتم عرفتمونى لكنتم عبدتمونى. وسوف ياتيكم زمان به تزلون، وعلى ما فعلتم تندمون، وعلى ايامنا تتحسرون وتبكون. فانا قد بغضت النصارى ولاشيت ديانتهم، وهدمت معابدهم وقتلت كهنتهم، وكسرت صلبانهم ورفضت ايمانهم. ومع ذلك اراهم يفرحون لفرحى ويحزنون لحزنى. فهل تريدون ان ارجع نصرانياً ثانياً [؟] فاذا رجعت فلا ترون فى رجوعى فايدة. فدعوا عنكم هذه الاحوال، واقتبلوا لامر الله المتعال، وكونوا فارحين مطمأنين ليحصل لكم النجاح والصلاح. وقد نبهتكم مراراً عديدة، ونصحتكم نصايح مفيدة. فان كنتم تعرفوها وتذكروها فتربحوا وتنجحوا، وان كنتم رفضتوها تخسرون وتندمون.

ثم انصرفت العلماء وهم منذهلين من هذا الخطاب، ومتعجبين كل الاعجاب. ولم يقدر أحد [أن] يرد له جواب. واسكن مصطفى باشا وولده وبعض اتباعه فى مسكن عظيم، وعين لهم المصاريف التى تلزم اليهم.

وابتدا يكاتب الدولة العثمانية عن يد مصطفى باشا، ويذكرهم صداقة الفرنساويين القديمة، واتحادهم مع الدولة العثمانية من اعوام عديدة وايام مديدة. ويحرصهم من باقى الدول الافرنجية، وان الاوفق لهم اقامة الفرنساوية فى مصر، وانه انسب من الغز، ويعاهدوا ان يكونوا طايعين والى اوامر الدولة سامعين، وتبقى الخطبة والسكة كما هى باسم الدولة العثمانية، ويمشى الحج كعادته القديمة، ويدفعوا الاموال المعتادة للخزينة.

وارسل مصطفى باشا هذا الخطاب مع احد اتباعه.

وابتدا امير الجيوش يدبر له امر النفوذ الى مدينة باريز، لان التهب فواده من تملك الانكليز.

وقد ذكرنا ان امير الجيوش بونابرته قد ارسل عثمان خوجا الى مدينة رشيد، وعندما وصل القوة فى السجن، وارسل الجنرال الموجود فى رشيد احضر عدة شهود اسلام، واستشهدهم قدام الديوان الخصوصى. فشهدوا له قدام القاضى والمفتى ان عثمان خوجا [كردلى] فى ايام مراد بيك، كان رجل ظالم، وهو الان مستوجب الموت. واخرج فتوى من جميع الاعيان، وامر ان يطوفوا به المدينة ويقتلوه. وارسل الفتوى الى جميع الاقاليم المصرية ليعلمهم بقتله.

وهذه هى صورة الفتوى، حكم الشرع الشريف، الذى صدر من محكمة رشيد، دام جلالها، على عثمان خوجا. خطاباً الى حضرة الجنرال الحاكم فى البلد المذكورة، مؤرخ باربعة وعشرين من شهر ترميدور. سنة السبعة من اقامة الجمهور الفرنساوية، يعنى فى الثامن من ربيع الأول سنة ١٢١٤(٦٨).

وصلنا مكاتيبكم بالامر اننا نستخبر ونكشف عن جميع الاعمال التى حدثت من طرف عثمان خوجا كردلى، وننظر إن كان حصل منه الشر اكثر من الخير. وبموجب هذا الامر، بحضور حضرة سيدنا شيخ الاسلام العالم المتورع الشريف احمد الخضارى مفتى حنفى، ونقيب الاشراف المكرم المحترم الشريف بدوى، وقدوة الاعيان الحاج احمد اغا السلحدار، والمكرم على شاوش كتخدا، وقدوة التجار احمد شحال، والمكرم سليم اغا، والمكرم ابراهيم الجمال، والشريف على الجمانى، والشيخ مصطفى ظاهر، والشريف ابراهيم سعيد، والمكرم محمد الخادم، والحاجى باشى سليمان، وبحضور جماعة المسلمين خلاف المذكورين اعلاه. ثم حضر رمضان حمودى، ومصطفى الجيار، واحمد شاوش، وعبدالله والحاج حسن ابو جوده، والحاج بدوى المقرالى، وعلى ابو زرازى، وبدوى، دياب، وحسن عزب. وثبت من اقرارهم ومن شهاداتهم، ان عثمان الخوجا المذكور كان ظلمهم ظلماً شديداً بالضرب والحبس من دون حق، ونهب املاكهم. وخلاف ذلك سئل، من جماعة المسلمين الحاضرين فى المجلس، إن كان حصل من طرف عثمان خوجا الشر اكثر من الخير، فكلهم قالوا بلسان واحد: ان حصل من طرف عثمان خوجا الشر اكثر من الخير.

وبسبب ذلك انقطع راس عثمان خوجا حاكم رشيد سابقاً. مطابق لاصله ومعناه باسم حاكم رشيد الان.

طبع بمطبعة الفرنساوية العربية بمصر المحروسة

[ذكر مغادرة بونابرت مصر خلسة الى باريس]

ومن بعد حضور امير الجيوش الى مصر فى ١٢ ربيع الاول(٦٩) صنع مولد النبى حسب السنة الماضية، وعمل محفلاً عظيماً، واحضر مصطفى باشا وجميع العلماء والاعيان، وصنع وليمة عظيمة لها قدر وقيمة. واحضر الات الطرب والموسيقة.

ثم، بعد اربعة ايام، ركب بعسكره الخاص، واظهر انه يريد [ان] يدور على الاقاليم المصرية، لاجل تطمين الرعية. واخذ معه الجنرال اسكندر، وثلثماية من العسكر، والجنرال ميراد. وقصد مدينة منوف. ومن هناك انتقل الى الاسكندرية.

وبعد ايام وجيزة، دبر امر السفر، وهيا له ثلثة مراكب. وارسل لهم ليلاً عدة صناديق مملوة بالجواهر الثمينة والاسلحة العظيمة، والامتعة والقماش، والامور التى كان اكتسبها، وعدة من المماليك الصغار كان استخدمهم عنده، وزخرف اطواقهم وكساءهم.

وبعد ذلك التدبير، صنع وليمة عظيمة الى الجنرال سميث سر عسكر الانكليز. وكان، حين ارتفع الحصار عن الجزار، توجه بمراكبه الى تجاه الاسكندرية. ومن عادة الافرنج ان، فى الايام التى لم يكن فيها حروب، فليس فيه امتناع عن بعضهم بعض.

وحين حضر الجنرال سميث سارى عسكر الانكليز، وقدم له امير الجيوش غاية الاكرام، واعطاه هدايا جزيلة الثمن، ثم طلب بان ياذن له ان يرسل ثلثة مراكب صغار الى بلاد فرنسا، فاذن له بذلك.

وبعد رجوع سارى عسكر الانكليز الى مراكبه فى تلك الليلة، نزل بونابرته فى تلك المراكب بمن معه من الرجال، وخرج من البوغاظ بريح عاصف.

وفى ثانى الايام بلغ خبر مسيره الى الجنرال سميث، فعظم عليه ذلك الامر، واقلع بمراكبه فى طلبه، فلم يجد له خبر ولا رأى له اثر. ونجى منهم بحسن خبرته ومزيد فطنته وسمو حكمته. وقد استغنم الفرص وفر منهم كما يفر العصفور من القفص. وبقوة المولى العزيز نجى من أعداه الانكليز، ووصل الى مدينة باريز وخلص حاله بتدبير ذلك الامر. وكان نفوذه من عجايب الدهر. واستغرب اهل ذلك العصر. وقالت الناس ما ذلك إلا من غرايب الامور، ودليل على سعده المقدور. وكانت اقامته فى الديار المصرية اربعة عشر شهرا.

[ذكر تكليف الجنرال كليبر قيادة الجيش الفرنسى بمصر]

وكان، قبل نزوله فى المراكب، كتب الى الجنرال كليبر يعلمه بذلك التدبير، ويوعده ان يرسل له الاسعاف والامداد بعد وصله لتلك البلاد. وانه يكون قايم عوضه امير الجيوش. وكان وقتيذ فى مدينة دمياط.

وكتب ايضاً الى الجنرال دوكا القيمقام انه يكون كما كان من ذلك الاهتمام. وان يعلم اهل الديوان ليوزعوا الاعلام على الرعية بكل البلدان، ويكونوا كما كانوا بامان واطمينان.

وكتب ايضاً الى جميع الجنرالية يعرفهم بذهابه، وكيف يتدبرون بعد غيابه. ويوصيهم بحفظ البلاد والسلوك مع العباد، ويوعدهم بالاسعاف والامداد، وانه قريباً يرجع اليهم بالعساكر الشداد والابطال الجياد. وجعل لهم الى رجوعه ميعاد، وهى اربعة اشهر تمام. واذا ابطئ عليهم بعد تلك الايّام، فلهم الاذن ان يسلموا المملكة للاسلام بالصلح، ويجعلوا الاتفاق عن يد الانكليز، ويذهبوا الى مدينة باريز.

وعندما شاعت الاخبار فى تلك الديار والاقطار المصرية عن ذهاب امير الجيوش، فرحت اهل مصر، فحزنت الفرنساوية [وامر] الجنرال دوكا اصحاب الديوان ان يكتبوا الى ساير البلدان ويخبروهم بذلك الشان.

صور الكتابات.

من محفل الديوان الخصوصى، خطاباً الى ساير الاقطار المصرية، من الاقاليم جهة القبلية والبحرية، وكامل الرعايا وفقهم الله.

نخبركم انه حضر الى الديوان مكتوب من حضرة الجنرال دوكا القيمقام، بان سارى عسكر بونابرته الكبير، امير الجيوش الفرنساوية، توجه الى البلاد الفرنساوية، لاجل حصول الراحة الكاملة الى الاقطار المصرية. وانه كان حضر له استعجال من الجمهور فى بلاده لطول غيابة واخبرنا السارى عسكر دوكا بان السر عسكر الكبير، قبل غيابه، اقام عوضه رجلاً كاملاً عاقلاً، فيه شفقة ورحمة عامة على الرعية، جعله اميراً على الجيوش

الفرنساوية. واخبرنا القيمقام اننا نكون فى غاية الامان والاطمئنان على ديننا ومتاجرنا واموالنا واسباب معاشنا، كما كنا فى زمان حضرة السر عسكر الكبير بونابرته. فننصحكم يا ايها الرعايا لا تطيعوا اهل الفساد، واتركوا الفتن والعناد، وامتثلوا امر خالق العباد. والسلام عليكم ختام.

الفقير السيد **خليل البكرى** نقيب الاشراف

الفقير **عبد الله الشرقاوى** رئيس الديوان

الفقير **محمد المهدى** كاتم سر الديوان

الفقير **مصطفى الصاوى** الشافعي

الفقير **سليمان الفيومى** المالكى

الفقير السيد **احمد المحروقى**

الفقير **على كتخدا مجرلى** باش اختيار

الفقير **يوسف باش شاوش** تفنكجيان

الفقير **لطف الله المصرى**

الفقير **يوسف فرحات**

الفقير **جبران سكروج**

الفقير **لومار**

الفقير **بودوف**

الفقير **ذو الفقار** كتخدار كوميسار الاسلام

نظر وعلم وكيل الفرنساوية **جلوتيه**

طبع بمطبعة الفرنساوية العربية بمصر المحروسة.

ثم حضر الجنرال كليبر من دمياط الى بولاق، والتقاه القيمقام الجنرال دوكا وشيخ البلد الجنرال دوسطين. ودخل الى مصر بالعز والنصر. ونزل الى منزل امير الجيوش وهو بيت محمد بيك الالفى الكاين على بركة اليزبكية.

وفى ثانى الايام حضر اليه ساير الجنرالية والحاكم الفرنساوية والكوميسارية والفسيالية وهنوه بقدومه وامرته. وحضر علماء الديوان والاغاوات والوالى والمحتسب والتجار والاعيان وهنوه بقدومه، فالتقاهم بوجه باش، وامنهم وطمنهم وامرهم يطمنوا الرعية. فشملهم الاندهاش من هيبته والانذهال من صولته، اذ كان هذا المقدم اسداً درغام، ذا قوام واعتدال، مهاباً بالرجال، حسناً بالجمال، له صورة ترعش الكبود. وترعب الاسود. فنزلوا من امامه وهم فى خشية من كلامه.

وبعد ذلك حضر مصطفى باشا وولده وهنّوه بقدومه، فالتقاهم واكرمهم وجلس امير الجيوش كليبر على تخت القاهرة. وكان من القوم الجبابرة. وفحص الكتابات التى ابقاها له بونابارته، واطلع على جميع الارتشاد الذى ارشده به، وفهم الكتابات التى توجهت الى الدولة العثمانية على يد مصطفى باشا. فابتدا امير الجيوش كليبر يتداول مع مصطفى باشا بامر الصلح.

وكان قد انتشر الخبر فى خروج صدر الاعظم يوسف باشا ضيا المعدنى من مدينة قسطنطينية، بالعساكر الهمايونية، لاستخلاص المملكة المصرية من يد الفرنساوية. فوصلت الكتابات للامير كليبر من الصدر الاعظم عن يد مصطفى باشا كوسا، وكان خروج وزير الختام [الصدر الاعظم] من القسططينية فى شهر ربيع الاول سنة ١٢١٤[٧٠]. وقد استكنت حركة مملكة مصر فى تمليك هذا الامير، وكان هو يحب الهدو والسكون، وعدم مقاتلة الناس. وميل الى التنعم

والتعظم وكانت الات الموسيقة تضرب امامه بكرة ومساءً. وكان جولانه قليلاً، وسقطت رعبته في قلوب المملكة. وابقى هذا الامير جميع ما كان نظمه بونابارته في الديار المصرية، من دون تغيير ولا تبديل.

وفي ايام جبر النيل، خرج امير الجيوش بمحفل عظيم مع ساير الجنود وقطان [سكان] القاهرة. وكانت ايام ظاهرة وافراح وافرة ومواكب فاخرة وامن عظيم وانس جسيم. وضرب في تلك الوقت مدافع ليس لها عدد.

وبعد حضور الامير كليبر من دمياط اقام مقامه حاكماً، الجنرال. ورديه [فردييه] ففي هذه المدة، حضر نحو خمسين مركب من مراكب الدولة العثمانية الى ثغر دمياط مشحونة بالعساكر. وبعض مراكب من مراكب الانكليز المقيمين على البواغيظ. وكانت هذه المراكب المذكورة هي التي اتت الى بوغاظ الاسكندرية صحبة مصطفى باشا كوسا وعساكره. ولما طلعت العساكر الى بر ابو قير وحصل لهم ذلك الانكسار والتدمير، فاقلعت المراكب في البحر، ورجعت جهزت جانب من العسكر، وحضرت الى بوغاظ دمياط. وعند وصولهم، اخرجوا العساكر من المراكب ليلاً الى العزبة.

فبلغ الجنرال ورديه [فردييه] بان عساكر المسلمين خرجت على البر وبنوا المتاريس، فنهض الجنرال المذكور وصار الى العزبة بخمساية صلدات. وقبل شروق الشمس اقبل عليهم، وقسم عساكره ثلثة اقسام، وهجم على عساكر الاسلام، وثارت نيران الحرب والقتال، وازدحمت الرجال والابطال، وحمى الضرب والطعان. وما مكثوا الا برهة من الزمان، حتى ذاقوا الموت اشكالا والوان. فارموا سلاحهم وطلبوا الامان. واكثرهم القوا انفسهم في البحر، خوفاً من الموت والقهر والذل والأسر. فمنهم من صعد الى المراكب، ومنهم من مات غريق. وكانوا ثلثة الاف، فأسروا منهم ثمانماية بلا خلاف. ورجع اعظم افتخار. وكان قد قبضوا على مقدم ذلك العسكر وهو الدرناجي باشي، وكان مجروحاً جرحاً بليغاً. واحضر له الجنرال ورديه الحكماء وامرهم بمداواته.

واخبر امير الجيوش الامير كليبر بذلك الانتصار على ذلك العسكر، فلامه على عجلته عليهم بسرعة القدوم اليهم، وانه كان واجب امهال الى حين تخرج الجميع من المراكب، ويليهم بالهلاك والمعاطب.

ثم من بعد اربعة ايام، مات الدرناجي باشي من ذلك الجرح الاليم والقهر العظيم، فامر الجنرال ورديه ان يصنعوا له ميتماً عظيماً واحتفالاً فخيما كعادة رؤساء العساكر. واحضر علماء المدينة وساير الاعيان، وقواد العساكر وارباب الديوان، وامرهم يمشون قدّام نعشه وبندقهم منكسة. والبس الخيل الحلل السود، ودفنه باكبر الجوامع وافخر المواضع.

وفي آخر شهر ربيع الاول سنة ١٢١٤[٧١]، قدم الوزير الاعظم والدستور الافخم الى اراضي الشام بالعز والانعام، بالعساكر الكثير والجيوش الغزيرة. وارتجت لقدومه الاقطار، وخشيت سطوته الكبار والصغار. وكان وزيرا عادلاً عاقلاً فاضلاً، وعن امور الشريعة مناضلاً. يبغض الظلم

والعدوان، ويحب العدل والامان فامتلأت الارض من العساكر والعشاير، والجيوش والدساكر. وبادرت الى حكمته الامراء والحكام، والخاص والعام، واصحاب المقاطعات والاقاليم بالتحية والتسليم. وقدموا له الهدايا الفخيمة والذخاير العظيمة. ثم انتقل الى غزة بالاكرام والعزة، وصحبته الجيوش العظام، والباشاوات الفخام، والغز المصريين الذين كانوا من الافرنج هاربين، وعن ديارهم مطرودين. ونشر العدل والامان فى جميع القرايا والبلدان. وطمن الرعية وان يكونوا فى غاية الحمية، حسب الخطوط الشريفة العثمانية والهبات السلطانية. وكان قد طلب الجزار الى المسير اليه بعساكره القوية، فاعتذر عن الحضور، وتباين بالعصاوة والنفور. وامتنع عن تقديم الذخاير وارسال العساكر، وخالف الامر الشريف الفاخر. وبعد وصول الصدر الاعظم الى غزة، ابتدأت المراسلات من امير الجيوش الفرنساوية بالصلح والاتفاق، ورفع الشر والنفاق. وكان متعاطى تلك الامور مصطفى باشا كوسا، الماسور الذى ذكره تقدم وسبق، وسنذكر ان شاء الله كلما تم واتفق.

[ذكر المفاوضات لجلاء الفرنسيين عن مصر]

وكنا قد شرحنا ان امير الجيوش الامير كليبر قد تدبر، حسب ارشاد سالفه بونابارته، بالمراسلات عن يد مصطفى باشا، باقامة الفرنساوية بمصر حسبما قدمنا. وابت الدولة العثمانية ذلك، وقدم الوزير الاعظم عقد الصلح بشروط حقيقية وعهودات ملوكية، وان يسلم مملكة مصر المحمية، ويخرج بالعساكر الفرنساوية على حمية [بحماية].

وحين تحقق امير الجيوش عدم قبول الدولة العثمانية الى اقامتهم بالديار المصرية، اجاب الى اذهابهم بشروط امينة وعهود متينة. وارسل احضر الجنرال ديزه من الصعيد، وكان هذا سامياً فى المقام، صاحب عقل وتدبير، ومقام خطر. واحضر غيره من الجنرالات الكبار. وعقد ديوان وقص لهم الخبر، فنظر ان الاكثر لهم ميل الى السفر، لعدم الامداد وكثرة الاخصام والاضطهاد.

وقد خلص [أ] لميعاد الذى وعد به بونابارته. وحضر [ت] كتابات من الوزير، تهديد وتوعيد بالوبال والدمار، ان لم يخرجوا من تلك الديار. ويدهمهم بالرجال والابطال كالرمال، والسيل اذا سال، بفرسان جبابرة وسيوف باترة. وان يسلموا البلاد ويربحوا دماهم ودما العباد. وان لم يسمعوا نصيحته ولا يخشوا سطوته، فيحل بهم العدم، ويندموا حيث لا ينفع الندم.

فردّ عليه الامير كليبر الجواب: امّا قولك ان عساكرك مثل نجوم السماء فهذا حقيق معلوم، الا انها بعيدة عن طاعتك كبعد الارض عن النجوم. واما قولك انها كالرمال هذا ليس فيه محال، فهم كثيرون فى العدد قليلون على الصبر والجلد. وقلوبهم اصغر من حبة الرمل، وقوتهم اضعف من قوة النمل. واما عساكرنا الشداد، فهى قليلة التعداد، ولكنها قوية البطش فى الجلاد، قريبة الينا ودايما طوّع لدينا. فان دفعناها الى الموت تندفع، وان أردنا رجوعها ترتجع، وان منعناها تمتنع. ونحن فى كل دقيقة من الزمان، مستعدين للحرب والطعان، وقهر الفرسان والشجعان، وقبول ما يقدر علينا العزيز الرحمان.

واستمرت الامور على هذا المنوال، والخوف منقسم بين الفريقين على كل حال. فلهذا جعل كل من الفريقين وسايط إلى الصلح والاصطلاح، وعدم النزاع والكفاح، وحقن دم العباد وعدم خراب البلاد. وكان وسيط بذلك مصطفى باشا كوسا، ما بين الامير كليبر وبين الوزير. ثم تقدم الى التوسط الجنرال سميث سر عسكر الانكليز القايم فى البحر ورابط البواغيظ.

وانعقد الاتفاق على ارسال شخصين من طرف الوزير الاعظم، وشخصين من طرف الامير كليبر، ان يتقابلا فى حدود العريش. وهناك تتواقع المفاوضات والمداولات، وتوضح الفرنساوية شروطاتها وربوطاتها [الشروط]. ثم توجه من طرف الوزير الاعظم مصطفى افندى الدفتردار ومصطفى افندى رئيس الديوان. وتوجه من طرف امير الجيوش الأمير كليبر الجنرال ديزه والكوميسار بوسلنج [Poussielgue]. وتقابلا الفريقان باراضى العريش، وابتدأت المداولة بين هولا الاربعة اشخاص، وقدمت الفرنساوية شروطها، وقدمت العثمانلى ربوطها. وكل من الفريقين يكتب ما يتوقع الى والى امره ويستنظر الجواب. والوزير فى ارض غزة.

[ذكر عملية قلعة العريش]

وكان حينما تم ذلك الايراد، وشاعت اخبار الصلح بين العباد، تقدمت بعض عساكر الاسلام الى اراضى العريش، ونصبوا الوطاق قريب من القلعة. واما عساكر الفرنساوية الذين فى القلعة كانوا ثلثماية صلدات، وسر عسكر الجنرال غزال [جزال Gazal]. وبقى البعض من العساكر يتقدّمون إلى القلعة، ويخاطبون العساكر الصلدات ويعرفوهم فى الصلح الذى توقع فيما بينهم، وصارت الصلدات الفرنساوية تنزل من القلعة ويختلطون فى عساكر الاسلام. ووقع الوداد بين الجنرال غزال وبين مصطفى باشا ارناووط، فدعا الجنرال المذكور مصطفى باشا الى القلعة وصنع له وليمة عظيمة.

وحضر الباشا الى القلعة باناس قليلين العدد، وارشد عساكره ان، بعد دخوله الى القلعة، يهجمون هجمة واحدة على الباب، ويملكون القلعة ويقتلون من بها.

وكان داير القلعة خندق، واما الباب فجسر من خشب. وكانوا الفرنساوية يرفعوه ويضعوه فى الحبال.

وكان، من بعد دخول مصطفى باشا من باب القلعة هجمت اوليك العساكر بضجيج عظيم على الباب، فلم يعد يمكن الفرنساوية أن يرفعوا الجسر عن الخندق، ودخلت العساكر الى القلعة، ودار السيف بينهم. وعندما نظرت الفرنساوية هذه الخيانة، سارع احد الصلدات الى جبخانة البرود والقى فيها النار، وطلعت الجبخانة والناس متزاحمة، وطارت تلك العوالم. ويا لها من ساعة كانت مهولة اذ قد احترق بها خلق ما له عدد من العساكر العثمانية والصلدات الفرنساوية. وسقط حيط القلعة الى ناحية الباب. ومات مصطفى باشا حريقاً بالنار. ولم يبق من الفرنساوية سوى نحو ماية نفر، فتراكمت العساكر وقبضوا عليهم.

وحضرت الاخبار الى امير الجيوش كليبر فيما جرى على الفرنساوية الذين فى قلعة العريش.

فاخذه العَجب واشتد به الغضب، ونبه على العسكر باخذ الاهبة للسفر. واحضر مصطفى باشا كوسا، واخبره بما جرى وتدبّر على عسكره من الموت والضرر. وشرح له غدر الاسلام وخيانتهم وعدم امانتهم. فتصاعب الامر عليه وكبر ذلك لديه، وقال له: على موجب هذا الاسلوب كيف تامن منا القلوب.

فبدا مصطفى باشا يقدم له الاعتذار ويطرد من قلبه النار، ويدعى جهل عساكرهم وعدم طاعتهم الى اكابرهم. ويلطف له الحادثة، ويتمناه ان لا يجعل الامور ناكثة. وكان امير الجيوش لم يزل مصراً على الركوب ومستعداً للحروب

وفى مبادى شهر شعبان سنة ١٢١٤ (٧٢) ركب من مدينة مصر الى مدينة بلبيس بالصالحية بعدة عساكر قوية.

وقبل خروجه من الكنانة احضر العلماء وارباب الديوان وباقى الحكام والاعيان، واوصاهم على الصيانة وعدم الخيانة، ورفع البلابل والقلاقل، وحفظ الديار من القوم الاشرار، ويوعدهم بالدمار والدثار إن كانوا يذكرون عوايدهم السابقة، ويتبعون الرأيات المنافقة والمشاقة. فتضمنت له العلماء والاعيان بهدؤ الرعايا وعدم الافتتان.

وسار من مدينة القاهرة وشرار الغضب فى فواده ظاهرة، وتنفسات الصعداء من احشائه طايرة.

[تقاعس العسكر الفرنسى عن المحاربة]

وعندما وصل الى ارض الصالحية، بدأ يختبر العساكر [الفرنساويه] بفطنته الذكية، فوجد قلوبهم منقسمة ووجوهم غير مبتسمة. ونفوسهم قلقانة ومن النفور ملانة. وقلوبهم الى السفر ظمأنة. ومتحسرين من نفور اهل الكنانة وخاشين من الخيانة.

وقد كان اخبره حاكم مدينة بلبيس انه طلب الصلدات الى المسير فامتنعوا.

ثم اخبروه ايضا ان الجنرال ڤرديه، حاكم مدينة دمياط، انه دقّ طبول المسير الى اراضى قطية حسب امر امير الجيوش، فامتنعت الصلدات وأبدت التنكير وابت عن المسير.

فقلق الجنرال قلقاً عظيماً، اذ كان ذلك ضد عوايد العساكر الفرنساوية.

ثم بلغه ايضاً، من حاكم مدينة الاسكندرية، ان الصلدات الفرنساوية نهضوا على بعض الكوميسارية المسافرين بامر امير الجيوش الى البلاد الافرنجية، ومنعوهم عن السفر بالكلية. وقالوا لهم: نحن نظيركم بالسوية وبالحرية، ومن المحال ان ندعكم تسيروا بهذه الاموال، ونحن نقاسى الوبال والنكال. إما اننا نسير سوية، وإما نمكث سوية.

وبلغه ايضاً ان احد الجنرالية، وهو جايز فى اراضى طنطه، مقام السيد البدوى عليه اشرف السلام المشهور فى اراضى مصر، خرجت عليه شرذمة من العربان والفلاحين، وكان صحبته ثلثة الاف صدات، فلم يرضوا يحاربوهم.

وحينما تواردت الاخبار الى امير الجيوش بذلك الديوان، وعلم ذلك الشان، واتضح لديه بان قلوب الفرنساوية غير مستوية، فكتم ذلك بسره، وعمل على الصلح والتسليم.

هذا ما كان من الفرنساوية. واما ما كان من صدر الدولة العثمانية، انه كان باذل جهده باخراج الفرنساوية من المملكة المصرية، من غير حرب ولا قتال، احتساباً مما يعلمه من بطشهم فى الجدال، وقوة باسهم وشدة مراسهم وعدم اكترائهم.

ومخافة على خراب البلاد وهلاك العباد وتلاف الاجناد. فلذلك ما سره اخذ قلعة العريش بالسيف، ومما حل بعسكره من الحيف، بذلك الحريق الفظيع والامر المريع. فكان يريهم الحرب والمصادمة، ويتهددهم بالاوامر الصارمة. واما قصده ومرامه بان يخرجوا بالسلام، وتستخلص دار الكنانة. وكان هذا هو الصواب، لان الفرنساوية من اصعب القوم الصعاب، وحربهم مر العذاب. وكانوا قد تمكنوا القلع المكينة والحصون المتينة والاقاليم والمدينة. ويعلم بان حروبهم كثيرة ومقاومتهم خطيرة. فلذلك كان يرغب امر الصلح.

وقد كان كل من الفريقين مقصوده الامن والنجاح، والتقريب والايلاف. وتدبير الامور من غير خلاف. ورفع الخصام وبلوغ المرام. فوجدت الوسايط بعقد الرباط، ورجعوا على ما كانوا عليه من الارتباط، وتوفيق الشروط وتمكين العقد المربوط.

وما زالوا يثبتوا اشياء وينكروا اشياء، ويقبلوا اشياء ويرفضوا اشياء، حتى تمت المواد وحصل المراد. واتفقت الامور على خروج العسكر الفرنساوى من مملكة مصر بالصلح والامان، وتسليم الديار المصرية لدولة آل عثمان، على شروط وثيقة وعقود حقيقية. وامضى عليها الامير كليبر ووزيره الجنرال داماس، ثم الجنرال ديزه، ثم بوسلنج مدبر الحدود. وامضى عليها الوزير الاعظم، والدفتردار رشيد، ومصطفى افندى رئيس الكتاب. وكل من الفريقين اخذ نسخة الشروط. وارسل الوزير الصورة إلى الدولة العلية، وارسل ايضاً الامير كليبر الصورة الى مدينة باريز الى المشيخة الفرنساوية. وهذه الصورة:

[ذكر شروط الصلح بين فرنسا والباب العالى]

ان الجيش الفرنساوى بمصر عندما قصد ان يوضح ما فى نفسه من الشوق لحقن الدما ورأى نهاية الخصام المضر الذى حصل ما بين المشيخة الفرنساوية والباب الاعلى، ارتضى ان يسلم الاقليم المصرى بحسب هذه الشروط الاتى ذكرها، بامل ان فى هذا التسليم يمكن ان يتجدد ذلك الصلح العام فى بلاد الغرب قاطبة:

الشرط الاول

ان الجيش الفرنساوى يلزمه ان يتنحى بالاسلحة والعزال والامتعة إلى الاسكندرية ورشيد وابوقير لاجل انه يتوجه وينتقل بالمراكب الى فرانسا ان كان ذلك فى مراكبهم الخاص أم فى تلك المراكب التى يقتضى للباب العالى ان يقدمها لهم قدر الكفاية ولاجل تجهيز المراكب المذكورة باقرب نوال وقد وقع الاتفاق ان من بعد مضى شهر واحد من تقرير هذه الشروط يتوجه الى قلعة الاسكندرية واحد من الباب العالى وصحبته خمسون نفراً.

الشرط الثانى

لابد عن المهلة وتوقيف الحرب بمدة ثلثة اشهر بالاقاليم المصرية، وذلك من عهد امضاء شروط هذا الاتفاق. وإذا صادف الامر ان هذه المهلة قد تمت من قبل ان المراكب الواجب تجهيزها من قبل الباب العالى تحضر مجهزة فى المهلة المذكورة، فيقضى مطاولتها إلى ان ينجز الرحيل على التمام والكمال. ولمن الواضح انه لا بد عن اصراف الوسايط الممكنة من قبل الفريقين، لكيلا يحصل

ما يمكن وقوعه من السجس. اذ كان ذلك الى الجيش ام لاهل البلاد، اذا كانت هذه المهلة قد حصل الاتفاق بها لاجل الراحة.

الشرط الثالث

فرحيل الجيش الفرنساوى يقتضى تدبيره بيد الوكلاء المنقامين لهذه الغاية من الباب الاعلى وسارى عسكر كليبر. واذا حصل خصام ما بين الوكلاء المذكورين بوقت الرحيل، بهذا الصدد ينتخب من قبل حضرة سميث، سارى عسكر الانكليز، رجل ينهى المخاصمات المذكورة بحسب قواعد السياسة الحربية السالكون عليها ببلاد الانكليز.

الشرط الرابع

فقطية والصالحية فلا بد عن خلوصهما من جيش الفرنساوية فى ثامن يوم، واعظم ما يكون فى عاشر يوم، من امضا الشروط والاتفاق. ومدينة المنصورة يكون خلوها من بعد خمسة عشر يوم. واما دمياط وبلبيس من بعد عشرين يوم. واما السويس فيكون خلوها بستة ايام قبل مدينة مصر. واما المحلة الكاينة فى الجهة الشرقية من بحر النيل فيكون خلوها فى اليوم العاشر. والضليطة [الدلتا] اى اقليم البحرية فيكون خلوها بخمسة عشر يوم بعد خلو مصر. والجهة الغربية [من النيل] لا بدّ انها تستمر بيد الفرنساوية الى ان يكون انحدر العسكر من جهة الصعيد فلهذا السبب جهة الغربية وتعلقاتها، كما ذكر، لا يتيسر خلوها الا من بعد انقضاء وقت المهلة المعينة، ان لم يمكن قبل الميعاد. والمحلات التى تترك من الجيش تسلم الى الباب الاعلى كما هى حالها الان.

الشرط الخامس

ان مدينة مصر، ان امكن ذلك، يكون خلوها باربعين يوماً، واكثر ما يكون مدة خمسة واربعين يوما من امضاء الشروط المذكورة.

الشرط السادس

انه لقد وقع الاتفاق صريحاً على ان الباب الاعلى يصرف كل اعتناه فى ان الجيش الفرنساوى الموجود فى الجهة الغربية من بحر النيل، عندما يقصد الذهاب بكامل ما له من السلاح والعزال نحو معسكرهم، لا تصير عليه مشقة ولا احداً يشوش عليه. ان كان ذلك مما يتعلق [بشخص] كل واحد منهم ام بامتعته أم باكرامه [كرامته]، وذلك إما من قبل اهل البلاد ام من جهة العسكر السلطانى العثمانى.

الشرط السابع

وحفظا لاتمام الشرط المذكور اعلاه، وملاحظة لمنع ما يمكن وقوعه من الخصام والمعاداة. فلا بد من استعمال الوسايط فى ان عسكر الاسلام يكون دايماً مبتعداً عن عسكر الفرنساوية.

الشرط الثامن

من بعد تقرير وامضاء هذه الشروط، فكلمن كان من الاسلام ام من باقى الطوايف، من رعايا الباب الاعلى بدون تمييز الاشخاص، اوليك الواقع عليهم الضبط ام الذين واقع عليهم الترسيم، فى بلاد فرانسا ام تحت امر الفرنساوية بمصر، يعطى لهم الاطلاق والعتق. وبمثل ذلك كل الفرنساويين فى كامل البلدان والاساكل

من مملكة العثمانية، وكل كامل اوليك الاشخاص من اى طايفة كانت. اوليك الذين كانوا فى تعلق خدمة المراسلات والقناصل الفرنساوية لا بد عن انعتاقهم.

الشرط التاسع

فترجع الاموال والاملاك المتعلقة بسكان البلاد والرعايا من الفريقين، ام مبلغ اثمانها، لاصحابها. فيكون الشرع به حالاً من بعد خلوص مصر. والتدبير فى ذلك يكون بيد الوكلاء فى اسلامبول، المقيمين من الفريقين لهذا القصد.

الشرط العاشر

فلا يحصل التشويش [لاحد] من سكان الاقاليم المصرية من اى ملة كانت، وذلك فى اشخاصهم ولا فى اموالهم. نظراً الى ما يمكن ما يكون قد حصل من الاتحاد ما بينهم وبين الفرنساوية بزمان اقامتهم بمصر.

الشرط الحادى عشر

لابد انه يُعطى للجيش الفرنساوى، ان كان من قبل الباب الاعلى او من قبل المملكتين المرتبطتين معه، اعنى به مملكة الانكليز والمملكة المسكوبية، فرمانات الاذن واوراق المحافظة بالطريق. وبمثل ذلك السفن اللازمة لرجوع الجيش المذكور بالامن والامان الى بلاد فرانسا.

الشرط الثانى عشر

عند نزول الجيش الفرنساوى الكاين بمصر الان، ان الباب الاعلى وباقى الممالك المتحدة معه، يعاهدون باجمعهم انه: من وقت ينزلون بالمراكب الى حين وصولهم الى اراضى فرانسا. لا يحصل عليهم شيء قط من الضرر. فحضرة الجنرال كليبر سارى عسكر العام يعاهد من قبله، وصحبته الجيش الفرانساوى الكاين بمصر بانه لا يصدر منهم ما يأول الى المعاداة على الاطلاق، ما دامت المدة المذكورة، وذلك لا ضد العمارة ولا ضد بلدة من بلدان الباب الاعلى وباقى الممالك المرتبطة معه. وكذلك ان السفن التى يسافر بها الجيش المشار اليه ليس لها ان ترسى فى حد من الحدود الا بتلك التى تختص باراضى فرانسا، اذا لم يكن ذلك فى حادث ضرورى.

الشرط الثالث عشر

ونتيجة ما توقع عليه من [الاعمال] المشروط اعلاه، بما يلاحظ خلو الاقاليم المصرية، والجهة التى وقع عليها هذا الاشتراط. فقد اتفق على انه، اذا حضر، فى بحر هذه المدة المذكورة، مركب من بلاد فرانسا بدون معرفة غلايين الممالك المتحدة، ودخل بميناء الاسكندرية. فلازم عن سفر حالاً، وذلك بعد ان يكون تحوج بالماء والزوادة اللازمة، ويرجع الى فرانسا وذلك بسندات واوراق الاذن من قبل الممالك المتحدة. واذا صادف الامر ان مركباً من هذه المراكب يحتاج الى الترقيع فهذا لاغير يباح له بالاقامة الى ان ينتهى اصلاحه وفى الحال من ثم يتوجه الى بلاد فرانسا، نظير الذين قد تقدم القول عنهم، عند اول ريح يوافقه.

الشرط الرابع عشر

وقد يستطيع حضرة الجنرال كليبر سر عسكر العام ان يرسل خبر الى ارباب الحكام الفرنساوية فى الحال. ومن يصحب هذا الخبر لا بد ان [يعطى] له اوراق الاذن بالانطلاق. كما يعتنى

ليسهل بهذه الواسطة وصول الخبر الى الحاكم بفرانسا.

الشرط الخامس عشر

واذ قد اتضح ان الجيش الفرنساوى يحتاج الى المعاش اليومى، ما دامت الثلثة اشهر المعينة نحو الاقليم المصرى، وكذلك لمعاش الثلثة الاشهر الاخيرة التى يكون مبتداها من اول نزولهم بالمراكب. فقد وقع الاتفاق على انه يقدم له مقدار ما يلزم من القمح واللحم والرز والشعير والتبن، وذلك بموجب القايمة التى تقدمت الان من وكلاء الجمهور الفرنساوى، ان كان ذلك مما يخص اقامتهم او ما يلاحظ سفرهم. والذى يكون قد اخذه الجيش المذكور مقدار ما كان، وذلك من بعد امضاء الشروط، فينحسم مما قد الزم ذاته بتقدمه الباب الاعلى.

الشرط السادس عشر

ثم ان الجيش الفرنساوى، منذ ابتداء وقوع امضاء هذه الشروط المذكورة، ليس له ان يفرض على البلاد فرضا [ضريبة] من الفرايض قطعاً بالاقاليم المصرية وبالعكس فانه يخلى للباب الاعلى كامل فرض المال وغيره، مما يكن [قد] قبضه، وذلك الى حين سفرهم. ومثل ذلك الجمال والهجن والجبخانة والمدافع، وغير ذلك مما يتعلق بهم ولا يريدوا ان يحملوه معهم. ونظير ذلك شون الغلال الواردة لهم من تحت المرى [مال الميرى]. واخيراً مخازن الخرج فهذه كلها لابد عن الفحص عنها وتسعيرها من، وكلاء موجهين من قبل الباب الاعلى لهذه الغاية، ومن الجنرال الانكليز، وايضاً من الوكلاء المتصرفين بأمر الجنرال كليبر سارى عسكر. وهذه الامتعة لابد عن قبولها من وكلاء المتقدم ذكرهم، بموجب ما وقع عليه الشرط، الى حد قدر مبلغ ثلاث الاف كيس التى تقتضى الى الجيش الفرنساوى المذكور، لسهولة انتقاله عاجلاً ونزوله بالمراكب. وان كانت الاسعار فى هذه الامتعة المذكورة لاتوازن المبلغ المرقوم اعلاه، [فان] الخسس والنقص فى ذلك لابد عن دفعه فى التمام من قبل الباب الاعلى على جهة السالفة التى يلتزم بوفايها ارباب الاحكام الفرنساوية باوراق التمسكات المدفوعة من الوكلاء المعينين من الجنرال كليبر سر عسكر العام لقبض واستيلاء المبلغ المذكور.

الشرط السابع عشر

ثم انه، اذ كان تقتضى الجيوش الفرنساوى ببعض المصاريف لخلوهم مصر، فلا بد ان يقبض ذلك، من بعد تقرير مسك الشروط المذكورة، القدر المحدود اعلاه بوجه الذى نذكره، اعنى: من بعد مضى خمسة عشر يوم خمسماية كيس. وفى غلاقة ثلثين يوم خمسماية كيس اخرى. وتمام الاربعين يوم ثلاثماية كيس اخرى. وعند كمال الخمسين يوم ثلاثماية كيس اخرى. وفى الستين ثلاثماية كيس اخرى. وفى السبعين يوم ثلاثماية كيس اخرى. وفى الثمانين يوم ثلاثماية كيس اخرى. وعند غلاقة التسعين يوم خمسماية كيس اخرى. وهذه كل الاكياس المذكورة هى عن كل كيس خمسماية قرش عثمنلى. ويكون قبضها من يد الوكلاء المعينين لهذه الغاية من قبل الباب الاعلى. ولكى يسهل اجراء العمل بما وقع الاعتماد، فالباب الاعلى، من بعد وضع الامضاء

بالنسختين من الفريقين، يوجه حالا: الوكلاء الى مدينة مصر وفى بقية البلاد المستمرة بها الجيوش.

الشرط الثامن عشر

ثم ان فرض المال الذى يكون قد قبضته الفرنساوية، من بعد تاريخ تحرير الشروط المذكورة، وقبل ان يكون قد اشتهر هذا الاتفاق فى الجهات المختلفة بالاقاليم المصرية، فقد تنحسم [تخصم] من قدر الثلاثة الاف كيس المقدم القول عنها.

الشرط التاسع عشر

ثم، لكى يسهل خلو المحلات سريعا، فالنزول للمراكب الفرنساوية المختصة بالحمولة الموجودة فى المين [الموانى] والاقاليم المصرية مباح به ما دامت الثلاثة اشهر المذكورة المعينة للمهلة، وذلك من دمياط ورشيد حتى الى الاسكندرية، ومن الاسكندرية حتى الى رشيد ودمياط.

الشرط العشرون

فمن حيث انه للاطمينان الكلى فى جهة البلاد الغربية [اوربا]، يقتضى الاحتراس الكلى لمنع الوبا والطاعون عن انه يتصل هناك فلا يباح ولا لشخص من المرضى، او من اوليك الذين مشكوك بهم ريحة من هذا الداء الطاعونى، ان ينزل بالمراكب. بل ان المرضى بعلة الطاعون او بعلة اخرى اينما كانت، التى بسببها لا يقتضى ان يسمح بصرفه بمدة خلو الاقاليم المصرية الواقع عليها الاتفاق، يستمرون فى بيمارستانات المرضى، حيث هم تحت امان جناب الوزير الاعظم. ويعالجونهم الاطباء من الفرنساويين، اوليك الذين يجاورونهم بالقرب منهم، الى ان يتم شفاهم، يسمح لهم بالرحيل. الشى الذى لابد منه اقتضا الاستعجال به باسرع ما يمكن. ويحصل لهم ويبدو نحوهم بما ذكر فى الشرطين الحادى عشر والثانى عشر فى هذا الاتفاق نظير ما يجرى على باقى الجيش. ثم أن أمير الجيوش الفرنساوى يبذل جهده فى إبراز الأوامر بأشد [صرامة] لرؤساء العساكر النازلة بالمراكب. بان لهم من رؤساء الاطباء. تلك المين التى يتيسر لهم بها ان يقضوا ايام الكارنتينا باوفر سهولة، من حيث انها من مجرا العادة ولا بد عنها.

الشرط الحادى والعشرون

وكلما يمكن حدوثه من المشاكل التى تكون مجهولة ولم يمكن الاطلاع عليها فى هذه الشروط، فلا بد عن انجازها بوجه الاستحباب ما بين الوكلاء المعينين لهذا القصد، من قبل جناب الوزير الاعظم وحضرة الجنرال كليبر سارى عسكر العام، بوجه يسهل ويحصل الاسراع بالخلو.

الشرط الثانى والعشرون

وهذه الشروط لاتعد صحيحة الا من بعد اقرار الفريقين وتبديل [تبادل] النسخ، وذلك ثمانية ايام. ومن بعد حصول هذا الاقرار، لابد من حفظ هذه الشروط وحفظ اليقين من الفريقين كليهما.

تم صح وتقرر بختوماتنا الخاصية بنا بالمعسكر، حيث وقعت المداولة بحد العريش، فى شهر بلويوز سنة الثامنة من اقامة المشيخة الفرنساوية، وفى رابع وعشرين شهر يناير سنة ١٨٠٠ المسيحية الواقع فى ثمانية وعشرين من شهر شعبان هلالى سنة ١٢١٤ للهجرة.

وهذه اسماء الوكلاء الممضين

مصطفى افندى ريس الكتاب

بوسلنج مدبر الحدود

الجنرال داماس

جناب مصطفى رشيد افندى دفتردار

ممضى الجنرال كليبر

صحح وجرى بمحل المعسكر العام بالصالحية.

[ذكر ما جرى بعد ذلك بين الانكليز والفرنسيين والعثمانيين]

ثم ان الجنرال كليبر، من بعدما امضى على الشروط المقدم ذكرها، نهض من ارض الصالحية ورجع الى القاهرة، وارسل صورة الشروط الى المطبعة الفرنساوية وطبعها فى العربية، وارسلها الى الديوان الخصوصى بمصر، وهو ديوان العلماء. وشاع خبرها فى ساير الاقاليم المصرية، وصار فرح عظيم عند الملة الاسلامية باستنقاذ مصر من يد الفرنساوية ورجوعها الى الدولة العثمانية. وبدا الامير كليبر امير الجيوش يجمع العساكر من الاقاليم ويرسلها الى بندر رشيد والى الاسكندرية.

وفى هذه الفترة، عزم على السفر الجنرال ديزه وبوسلنج مدبر الحدود. وسافر ايضاً عدة جنرالية وكوميسارية، والجنرال دوكا والجنرال ويال وغيرهم. وهولا جميعهم اتفقوا يبيعوا خيولهم واثقالهم، ويستحضرون لما يلزمهم فى الطريق.

واما ما كان من الوزير الاعظم، فانه، من بعد ما مضى الشروط المقدم ذكرها، ارسل فرمان الى مصطفى باشا كوسا انه يكون قيممقامه فى القاهرة الى ان يحل ركابه السعيد.

ثم ارسل فرماناً للتاجر المعروف بمصر باحمد المحروقى، وانه يكون مباشر مع مصطفى باشا امور مدينة مصر واقطارها.

ثم ارسل صورة الشروط الى الباب الاعلى، وطلب مراكب لسفر الفرنساوية من الاسكندرية حكم الشروط المحررة. وصار فى مدينة القسطنطينية فرحاً عظيماً، وامر السلطان سليم بزينة عظيمة، وضربت المدافع الكثيرة، وبدت تتجهز المراكب وتوسق البضايع من القسطنطينية وغيرها لمصر والى الاسكندرية، وسياتى عنها النص.

وشاع اخبار هذا الصلح فى ساير الاقطار وكامل الامصار، وكان فرح عظيم وسرور جسيم وانتشرت الاعلام فى اراضى الشام، وكان عند الاسلام الفرح التام.

وبدا الوزير الاعظم يتقدم بالجيوش والعساكر، وكلما اخلت الفرنساوية محلاً من البلاد يرسل له العساكر والاجناد.

ومازال الوزير يتسلم من الفرنساوية القلع والحصون والبلدان العامرة، الى ان صار بالقرب من القاهرة وحضر اليه الامير مراد بيك الذى كان مقيم فى اراضى الصعيد ومعه جملة من السناجق والكشاف، واكرمه الوزير واعطاه ولمن معه، وكان قد تضايق من طول الغربة. وترادفت العساكر العثمانية والجيوش السلطانية، وامتدوا الى مدينة بلبيس والى العادلية، وبقوا مسافة ثلاث ساعات عن القاهرة بالجيوش الوافرة والعساكر المتكاثرة. واجتمعت عليه العربان وسكان تلك البلدان. وبقت العساكر تنوف عنماية الف. وخرجت

أعيان مصر والعلماء والحكام وتجار وعوام الى مقابلة وزير الختام [الصدر الاعظم]. واندهش السمع والبصر من رويا ذلك العسكر والجيش المفتخر. وكادت القلوب ان تذوب من الفرح والسرور، من تغيير تلك الامور، وخلاص بلاد المسلمين من يد الكافرين.

وفى افضل الشهور [رمضان] واحسن السنين، تنكست اعلام الفرنساويين. وسافر اكثرهم الى الاسكندرية، وخليت منهم غالب اراضى المصرية. وجعل الوزير الاعظم يرسل الى مصطفى باشا ان يعلم السارى عسكر الامير كليبر انه يعجل بالخروج من مصر، ولو انه قبل الميعاد، ويقيم فى بلدة الجيزة، وهناك تكمل عدة الايام المعلومة.

واخبر مصطفى باشا الامير كليبر بذلك، فاغتاظ من ذلك وأجابه: إن الوزير أسرع بقدومه إلى أرض مصر، ولم يسر على حكم ما تقرر فى الشروط. لاجل ذلك، نخشى وقوع الخلل بين العساكر. اذ اننى ارى عساكركم مختلطين مع عساكرنا، وهذا ضد الشروط التى امضينا عليها. حتى الى الان لم أرى الذخاير تحضرت ولا المراكب تجهزت، وانا فلا يمكننى الخروج الى الجيزة قبل تمام الميعاد، وتتميم المدة المعينة الى الخروج دقيقة. واعرض مصطفى باشا على الوزير جواب الامير كليبر.

فلم يقنع الوزير من ذلك السبب، ولم يكل من الطلب من هرج الجماهير والغضب، وميل العساكر لبلوغ الارب. اذ كان عجيبهم من عجب ولا يسلم العجب من العطب. فكانوا يلجون الى الكنانة بقلوب من الاحقاد ملانة، وفى نفوسهم الغدر والخيانة. وهذا وعسكر الفرنساوية لم تزل على حال واحد مستوية، سايرين على ما بينهم، مأمنين من مكرهم.

وفى بعض الايام، جاز احد الصلدات فى احد الشوارع، فنهضوا عليه خمسة من الانكشارية، وضربه احدهم بالياتغان (٧٣) فقتله. وتراكضت الصلدات الفرنساوية واخبرت امير الجيوش، فامر العساكر ان تتجهز وتستعد للمصافقة. وصارت رجة عظيمة فى المدينة. فبلغ مصطفى باشا كوسا، فركب حالاً من منزله وحضر الى بيت السارى عسكر، فوجده فى حالة الغضب، مستعد للافتراس والعطب. وبدا يعاتب مصطفى باشا ويلوم الوزير على سرعة انتقاله وعدم ضبط رجاله. ويذكره ما تقرر فى الشروط من عدم اختلاط العساكر، خشية من مثل هذه المشاكل والمخاطر. فاخذ مصطفى باشا يسرر ذاته ويروق عكاره. ويوعده بمنع العساكر عن الدخول. وبقتل القاتلين الخمسة دية المقتل. ولم يزل يرطبه بلين الخطاب حتى نزع ما بقلبه من الاضطراب وانعم له واجاب. ثم نهض مصطفى باشا فى الحال، واعرض على الوزير ما حدث من التكدير، وانذره غاية التنذير. وحذره غاية التحذير، انه يكون على حذق بصير، ويُنبه على الكبير والصغير، ويمنع عن الدخول الى مصر القليل والكثير. ولا يترك احد يدخل الى مدينة القاهرة، خشية من وقوع الخاصمة والمشاجرة. فلما فهم الوزير الاعظم ما اعرضه مصطفى باشا، غضب غضباً شديداً ما عليه مزيد. وامر بامتناع العساكر عن الدخول الى القاهرة، وبقتل الخمسة انفار عوضاً عن المقتول. وقبض على الخمسة المذكورين، وارسل خَنَقَهم قدام بيت السارى عسكر فى بركة اليزبكية: ورقدت الفتنة واستكنت الفرنساوية. هذا

والوزير الاعظم لم يزل يطلب الدخول الى القاهرة قبل تمام الميعاد المعين في الشروط، من تقمقم العساكر عليه. وامير الجيوش لم يمكنه من ذلك حتى تتم الوعدة وتنقضى المدة. وكان الامير كليبر يجمع الجبخانة والعساكر من القلع والحصون ولم يبق سوى القلعة الكبيرة [قلعة الجبل] فقط.

ولما انتهى الميعاد الى التمام وفاض عليه خمسة ايام، ارسل الامير كليبر سر عسكر العام الى مصطفى باشا ان يتسلم القلعة الكبيرة، وكان ذلك نهار الاربعة الواقع في ثمانية من شهر شوال ذى المعامع والاهوال. فابى مصطفى باشا ان يتسلم القلعة نهار الاربعة، وذلك لما يعتقدون به من النحوسات والتنكيس، وترك التسليم الى الخميس، وكان به الخطا والتعكيس. وقد كان رحل اكثر الفرنساوية الى بر الجيزة، ولم يبق منهم سوى القليل، والسارى عسكر وشرذمة وجيزة.

وفي تلك ليلة الخميس الذى كان بدو التعكيس، اذ كانوا عزموا عند الصباح يتسلم مصطفى باشا القلعة الكبيرة، فحضر كتابةالى الامير كليبر من الجنرال سند سميت سارى عسكر الانكليز، وبه يقول: انه لقد حضرت لى كتابة جديدة من مملكة انكليتر، كرسى الدولة الانكليزية، اننى لا اسمح لكم بالخروج من مملكة مصر الا اسرا بيدنا، من بعدما تسلمونا جميع اموالكم وكامل سلاحكم، وتسيرون معنا الى مملكة انكليترا كرسى دولتنا واما عهودكم وشروطكم مع الدولة العثمانية على التسليم والذهاب الى مملكة باريز، كرسى المشيخة الفرنساوية، فهى صارت فاسدة وعلى غير قاعدة. واذ كنا نحن الوسيطين بذلك سابقاً وواضعين شهادتنا بها، فلزم اننا ننبه عليكم الان بانتقاضها من بروز الاوامر الجديدة. وذلك حكم القوانين الملوكية الدارجة بين الممالك الافرنجية. لكيلا يعود على دولتنا الغدر والخيانة فاعتمدوا تنبيهنا عليكم قبل تسليم الكنانة.

فلما وصل ذلك الكتاب الى امير الجيوش الفرنساوية، واطلع على تلك الالفاظ المنكية، فاتقدت به النار، وانشب من انفه الشرار. واحضر حالاً كامل الجنرالية وباقى رؤساء العساكر وساير الفيسالية، وعقد ديواناً فى منزله على شاطى بركة اليزبكية، وقرأ عليهم كتاب الجنرال سميت سر عسكر الانكليزية. فشملهم حزن عظيم وغم جسيم، وتحركت الاحقاد فى القلوب، وكادت ان تذوب منهم الكبود، وعظم عليهم ما فى ذلك المكتوب. ونادوا جميعهم بصوت واحد وقلب جامد: الدمار بهذه الديار، ولا الوقوع بهذا الاستئسار. فطفق امير الجيوش يعج عجيج الدهوش بصوت افظ من صوت الوحش. [ويذكرهم بافعالهم] وتغيير احوالهم، وعدم امتثالهم. وحنيتهم الى الاوطان، وترك الحرب والطعان. وانه لم يقبل الى هذا الصلح والتسليم، الا من بعد ان شاهد قلقهم العظيم ومللهم الجسيم. فاجابوه الجميع: اننا لا نخرج الا على موجب الشروط والوثاق المربوط. وبدون ذلك لا تتهيأ لنا المسالك. فنبّه على وزير الختام ان يرجع الى اراضى الشام، ويثبت لنا [شروطه] ويؤيد لنا خطوطه بكتابة من دولة الانكليز ويمضى عليها ملكهم لا من المقيم على البواغيظ باذهابنا الى مملكة باريز بامن حريز. وان كان لم يرتجع عن دربه فيلزمنا ان نتصدر لحربه

وتكون عهوده معنا غير صادقة، وقصده اخراجنا بالمخاتلة والمنافقة. ليُلقينا في يد اعدائنا، ويكونوا الجميع مترابطين على سفك دمانا.

فعندما نظر امير الجيوش تمكن قلوبهم، فاجابهم الى مطلوبهم، واوعدهم بصدهم وردّهم الى ان يبلغوا مرغوبهم.

وانتهى الديوان، وانصرف اوليك الاعيان. وبدا امير الجيوش يفرق الاعلام على العساكر، ويعرفهم بابطال السفر. وشاع الخبر وانتشر. وبدت العساكر ترجع الى منازلها. اذ كان خرج اكثرها الى بر الجيزة، ولم يبق منها الا شرذمة وجيزة. واحضر حالاً مصطفى باشا واخبره بالكتاب الذى ورد من الجنرال سميت، وان يخبر الوزير الاعظم ان يرجع بعساكره الى حدود العريش ويقيم هناك، بينما يخاطب دولة الانكليز ويستاذنهم باخراج الجمهور الفرنساوى من مملكة مصر، واذهابهم الى بلادهم والاوطان، حكم الاتفاق المقرر في الشروط على موجب العقد المربوط. فغاص مصطفى باشا فى تيار من الافكار ليس له قرار، وقال: لعمرى ان هذا الخطب خطير وامر عسير، فلا حول ولا قوة الا بالله العزيز القدير. لانه كان ذايقاً تلك الروعة وشارباً كاس اللوعة. فنزل من امام السر عسكر كليبر وهو فى هم وغم كثير، وصار الى منزله واعرض على الوزير ما سمعه من الجنرال كليبر، فاغتاظ الوزير غيظاً عظيماً وغضب غضباً جسيماً، وابتدوا يتداولون كيف انهم يحتالون على اخراج الفرنساوية من المدينة بطريقة امينة، وان لم يرتضوا يخرجوهم بقوة متينة.

وكتب الوزير الى السر عسكر كليبر يقول له: انه لقد بلغنا فحوى الكتاب الذى ورد اليكم من الجنرال سميت سارى عسكر الانكليز، وانه قد توعد لكم بالاستيئسار بعد خروجكم من هذه الديار. فكونوا امينين مطمأنين، ومن هذا القبيل غير خاشين. فالسارى عسكر المذكور لا يستطيع ان يتعرض لكم من بعد اشهار خاطر الدولة العلية عليكم. ونحن ان شاء الله نهيئ لكم كلما يأول الى راحتكم، ولا ندع الانكليز يعارضكم. وتسيروا فى مراكبنا الى ارضكم ومواطنكم بكل امان واطمينان، بدون ثقلة ولا هوان: وحاشا ان بعد الشفقة تبدا نحوكم القساوة. فالمراد ان تسلموا المدينة، واذهبوا الى بلدة الجيزة، و[أ] قيموا هناك بكرامة عزيزة، لبينما تتجهز لكم الذخاير والمراكب، وتسيروا على حسب الشروط المقررة والعهود المحررة. فقد تم وانتهى ميعاد اقامتكم فى مدينة مصر،، ولم نعد نسمح لكم بالاقامة بها ولا يوماً واحداً. لاننا بالحصر وعساكرنا وافرة وجيوشنا متكاثرة، وفرساننا جبابرة، ولم نكن قادرين على حجزهم عن الهجوم على القاهرة. ونخشى عليكم من التلاف والعدم، وتندمون حيث لا ينفعكم الندم. فقد نبّهنا عليكم بالخروج والسلام.

وارسل ذلك الفرمان ليد مصطفى باشا، واوصله المذكور إلى امير الجيوش الامير كليبر.

ولما وصل اليه كتاب الوزير الاعظم غضب وتقمقم، وردّ جواب الى الوزير وهو أن الشروط التى تعاهدنا عليها قد انتقضت وفسدت، لان سارى عسكر الانكليز ، من بعد اقراره بسفرنا إلى مملكة باريز، نكث بعهده وخفض بوعده، وقصد لحجزنا وتيهاً لأسرنا، امتثالاً لاوامر دولته وتكميل

وظيفته. وقد نبّه علينا بذلك واعلمنا بساير المسالك. . وما مهيّا لنا من المهالك حسب عوايد الممالك. فلاجل ذلك من المستحيل اننا نخرج من هذه المملكة على شروط مشركة، أو نسير بطريق غير مسلكة ونلقى نفوسنا بهذه المهلكة. فينبغى ان ترجعوا بعساكركم اقلما يكون الى مدينة بلبيس، وتقيموا هناك لحينما تُخرجوا لنا اوامر جديدة من دولة الانكليز، بسفرنا الى مملكة باريز، حكم الشروط والعقد المربوط. وهذا جوابنا والسلام.

ولما وصل ذلك الجواب الى وزير الختام اعتراه الهمّ والاغتمام، واخذه الاضطرام من ذلك الكلام، وتراكمت عليه الاوهام،، وصعب عليه القيام بهذا الجيش الملتأم. وقامت ضجة عظيمة بذلك العسكر، وصاحت الاسلام الله اكبر. وطلبوا الهجوم على مصر والمضاربة. وكانت امورهم غير صايبة. واما الوزير الاعظم كان من اعقل وزراء الدولة العثمانية، مشهوراً بالفطنة الذكية والاخلاق المرضية. وهو من الارهاط المستوية. فبقى حايراً فى هذه الامور الردية، وحدوث تلك الحركة القوية. وتاه فكره ما بين امرين مذهلين، ومشكلتين عظيمتين وخطرين جسيمين. وعظم الامر عليه كيف يرجع الى الوراء بعد ان كان عزم على دخول القاهرة بالمواكب واللواء الفاخرة. وهو الوالى على البلاد، وتحت امره جميع العباد. وجيشه كثير الاعداد وقريب المراد. وممالك مصر الحقيقة كانوا ينوفوا عن عشر ملايين خليقة. فلم يسعه ان يرجع على هذا المنوال، وبقى قلبه خايف من الحرب والقتال، خشيةً من الفشل وخيبة الامل. لما يعلم فى الفرنساوية من كامل الفروسية فى حربهم الشديد، وما عندهم من المراس وقوة الباس، وتملكهم للقلع والحصون، وانصبابهم على الموت والمنون.

ولكن غلبت عليه قوة النفس، وما امكنه يجاوب الاّ كجواب امس. وفرّق الاعلام على القبايل والعشاير، وبدا يضمّ لعنده الجيوش والعساكر.

وحينما وصل الجواب الثانى الى امير الجيوش الامير كليبر ووجد النصّ كالاوّل، وان الوزير عن ابواب مصر لا يتحوّل. فجاوب هوايضاً بعدم الذهاب والخروج، وبدا يحصن القلع والبروج. وكتب الى ساير العساكر الفرنساوية، التى كانت سايرة الى رشيد واسكندرية، ان يرجعوا الى مصر. وبدا يضعهم خارجاً عند باب النصر. ونصب المضارب والخيام على باب البلد من الجبل الجيوشى الى البحر. وتكامل عسكره على ثمانية آلاف مقاتل، من كل ليث مجادل وقرم مخاتل. واجتمعت العساكر العثمانية مع الطموش المصرية، على نحو مايه وستيّن الف، وامتلأت منهم تلك البوادى، من كل وادى ونادى، والمخاطبات كالمجاوبات على نص واحد، وزعم جامد، وقلب متباعد. وكل منهم بعيد التدانى، ولا يلين احدهما الى الثانى. واستقامت تلك المحاولات والمخاطبات على ذلك المرام سبعة ايّام، ثم طلب الوزير الاعظم واحد من المتقدّمين عند الامير كليبر لاجل المفاوضة بذلك الامر العسير، فارسل له الجنرال بوضوط [بودو] مع ترجمانه الخاصّ، فساروا الى العسكر العثمانى، وعند دخولهم على الوزير تحرّك بالغضب عليهما، ولعنهما وشتمهما، وامر بالقبض

على الجنرال بوضوط وطرد الترجمان. وقال له: اذهب الى مولاك الكافر وقل له: ان لم فى الغد يسافر والا دهمته بهذه العساكر، واطلقت فيكم النار ولا اعفى على كافر من هولا الكفار. ورجع الترجمان وهو مرعوب فزعان، ودمعه هتّان على ما حلّ بصاحبه من الذلّ والهوان. واخبر الامير كليبر بما سمع من الوزير. وكيف اسر الجنرال بوضوط وتركه فى القيود مربوط. وما توعّد به من الدمار والدثار ان لم يخرجوا من تلك الديار.

فلما سمع امير الجيوش ذلك الخبر طارت من عينيه الشرار، وكاد قلبه ينفطر، وقام وقعد وارغا وازبد. وفى الحال امر بخروج المدافع والجبخانة، واحضر مصطفى باشا كوسا الذى كان فى مصر مقيم عليه الترسيم [الحجز]. واحضر القنصل النمساوى وقبض عليه لان كان ملكه متحّد مع الدولة العثمانية. وفى تلك البلاد يحارب الفرنساوية. وسجن الاثنين فى منزله الكاين فى بركة اليزبكية. وكان ذلك نهار الخميس الواقع فى ستة وعشرين شوّال(٧٤) الذى به حال الارتحال، وبان تغيير الاحوال، ولاحت علامات الاهوال. وبات السارى عسكر تلك الليلة على نية الحرب والقتال ومصادمة الابطال. وارسل الاخبار الى رؤساء العساكر ان يكونوا على غاية الحذر. وان المسير قبل طلوع النهار، سبحان الله القهّار، القاهر الجبابرة الكبار وهو العزيز الجبّار ذو الجلالة والاقتدار.

[ذكر الحرب بين الفرنسيين والعثمانيين]

ولما كان نصف ذلك الليل، ركب امير الجيوش بالخيل، وسارت قدّامه تلك الابطال والفرسان، كانهم الجانّ أو عفاريت سيدنا سليمان. لا يهابون الموت ولا يخشون الفوت. فليس لهم عن الحرب عايق، ولا يخشون حلول البوايق. بهمّة اقوى من الجبال، وقلوب قد تعوّدت على لقاء الاهوال. وكان قد ترك فى منزله الجنرال درانطون [ديرناتو] مع ستّين نفر صلدات، لاجل حفظ المنزل من الافات. وفى القلاع قليل من الرجال، وعندهم المرضى والمشوّشين، من الحروب معطّلين، والكتّاب والنساء والذين لا يدخلون الحرب تركهم فى الجيزة. وطلب بذلك الجميع الغفير قتال عسكر الوزير، ويكبس على عسكر الاسلام فى حِندِس الظلام، والناس نيام، ويبلغ منهم المرام.

ومن قبل أن يصل اليهم ويهجم عليهم، اطلق مدفع التنبيه، ثم اطلق ثانية، فانتبهت عساكر الغزّ المصريين لانهم من ذلك معوّدين، وذاقوا حرب الفرنساويين. وركب مراد بيك جواده وقد ارتعد فواده، وارسل الى ناصيف باشا ابن الوزير الاعظم يقول له: الفرنسيس اقتربوا الينا والظاهر انهم كابسين علينا، فانهض بالعساكر ولا تكن غير فاكر. فاجابه ناصيف باشا بقلب فاتر: ان الفرنسيس الكافر لا يستطيع الهجوم على هولا العساكر

وفى تلك الساعة، اطلق امير الجيوش المدفع الثالث الكبير، وهو مجدّ بالمسير. فتحقّق ناصيف باشا قدوم الكفّار، وبقى فى رعب وافتكار، وايقن بالذلّ والاحتقار. وكان هو اوّل عسكر فى الانكشارية مع الغزّ المصرية.

وانتبهت عساكر الاسلام واستعدّوا للحرب والصدام، ومشوا بضجّة وهرج طالبين ملاقاة

الافرنج. هذا والفرنساويون قادمون عليهم بقلب غير هايم، وضرب البارود الدايم. ولما تقاربا الفريقان، وهجمت الاسلام بضجيج ارتعدت من الجبال، ولكن بقلوب مرتاعة من لقاء الاهوال.

فرجعت الى خلف الفرنساوية بمخاتلة ومكيدة، حتّي طمعت بهم تلك الجماهير المتشدّدة. فانقسمت الفرنساوية قسمين، اطلقوا عليهم مدفعين، ثم اطلقوا عليهم نار البارود، ودهمتهم تلك العساكر والجنود. فيا لها من سرعة يكلّ عن وصفها اللسان، وترتعد من ذكرها الابدان، وترتعب من سماعها الانس والجانّ. وتصادمت تلك الجيشان العظام تحت غسق الظلام. وماجت جيوش الاسلام، واكثرهم طلب الهرب والانهزام. وصدمتهم الافرنج اى الصدام، واورثتهم مواريث الاعدام وبدلت فيهم الحُسام تحت ستور الظلام، والتطمت العساكر كالبحور الزواخر. وارمت الفرنساوية عليهم الكلل والقنابر، كالسيل القاطر، وجادوا عليهم بضرب السيوف البواتر. وكثر الصياح وزاد النواح. وزهقت الارواح من ضرب السلاح. وطلبت الاسلام الهرب والرواح فى تلك البوادى والبطاح. وصاحوا: الفرار الفرار من وقوع الاقدار. وقد بليوا بالعدم والدمار والذلّ والانكسار. وتشتّتت تلك الجيوش فى البرارى والقفار. وهم يتعوّذون بالله الجبّار من شدّة باس الكفّار، الذين لم يكن لهم بالموت افتكار. وولاّ الوزير ومن معه هاربين وللنجاة طالبين. ولم يزالوا الفرنساوية في اثرهم سايرين.

وما طلع الصباح واشرقت الشمس على تلك الارض، الاّ وبقت القتلا مطروحين فى طولها والعرض. هذا وذلك الاسد المغوار والليث الهدّار كليبر الجنرال امير الجيوش يعّج عجيج الجمال ويحرّض ابطاله على الحرب والقتال، ويقول لهم : اجعلوها وقعة الانفصال، ولا تبقوا على احد من هولا الانذال. ولم يزالوا يرموهم بالبارود والنار والقتلا تتساقط مثل اوراق الاشجار، والسارى عسكر بجواده باوّل العسكر، كالاسد الكاسر والعُقاب الجاذر. الى ان دخلوا القوم مدينة بلبيس. ودخل الوزير الى المدينةِ بنفس حزينة، ووصلت الفرنساوية بذلك الاقتدار، ويتقدّمهم الاسد المغوار والليث الهدار، واحاطوا بالاسوار. وارسل الى الوزير ان يترك البلد ويخرج منها والاّ يحرقها بمن بها.

فردّ له جواب ان مدينة مصر قد امتلكوها ناصيف باشا والغزّ المصريون. وانتم الآن صرتم منها مطرودين. فاترك الحرب وارجع عن الطعن، ودعنا نعود لما كنّا عليه من الشروط والعهود. فقال الامير كليبر للرسول: ارجع الى صاحبك الوزير وقل له ان يخرجَ من هذه البلد، والاّ احرقها بالنار، ولا اتركه يقيم ساعةً من النهار. وان كان قصده يتّفق معنا اتفاقاً جديداً، فيذهب الى قلعة العريش، ومن هناك يخاطبنى بما يريد، وانا قد خاطبته امراراً ان يرجع الى بلبيس ويجاوبنى بما يقتضى، فما كان يقنع ولا يرتضى. واما الان لا يكمن اطاوعه على ذلك، بعدما سقيت عساكره كؤوس المهالك.

وبعد جملة المراسلات، تحقق الوزير ان لا يمكن يرجع عنه الان وهو فى ذلك المكان، فخرج من مدينة بلبيس وسار الى الصالحية والى قطية، ومن قطية الى العريش. ولم يزل سايراً الى مدينة غزّة.، وامير الجيوش ساير فى اثرهم على مهله الى ارض الصالحية. وقد تفرّقت تلك الجيوش فى البرارى والقفار، وحلّ بهم الموت والدمار، ومات

كثير على الطرقات من التعب والعطش والجوع والحرّ بتلك الفلوات. وكسبت الفرنساوية تلك الاموال والخيل والجمال، والعُدد الغوال، والمدافع والجبخانات.

وحينما وصل امير الجيوش الى الصالحية، ارسل الجنرال بليار(٧٥) على طريق البرّ الى حدّ دمياط، ووضع جانباً من الصلدات فى قلعة قطية، وقلاع بلبيس والصالحية. ولما وصل الجنرال بليار الى دمياط، فخرجت عليه اهلها والاتراك الذين بها. والقاهم ذلك الجنرال بالرجال والابطال قدّام المدينة، واطلق عليهم المدافع المتينة. فرجعوا من امامه مهزومين وللنجاة طالبين. واحتموا فى منازلهم والبيوت من شرّ ذلك البَهَموت. وخرجت العلما والاعيان وطلبوا منه الامان، ووضعوا المحارم فى اعناقهم اشارةَ الذلّ والهوان. ودخل الى المدينة وتسلّم الحصون المتينة، ورجع فى الحال الى مصر بكلّ عزّ ونصر.

واما ما كان امير الجيوش كليبر ذلك البطل الحضير فانه، حين كسر عسكر الاسلام، وفرقهم فى تلك الروابى والآكام، وهمّ فى مسيرة فى طلب الوزير، الى ان اشرف على مدينة بلبيس. فبعدما ابعد فى تلك الاراضى، تجمّع البعض من عساكر [الاسلام] عند ضحا النهار، فمنهم الغزّ وناصيف باشا العظيم، والبعض من الانكشارية والمصريين الذين فى تلك الاراضى خبيرين. واتوا الى مصر ودخلوا من باب النصر. وكتب ناصيف باشا الى الوزير يعرّفه انه قد دخل القاهرة بعساكر وافرة، وملكوا الكنانة ، لأنه لم يكن بها احد من الفرنساوية. وارسل الكتاب مع هجّان، ولم يدر ما حلّ ببقية عسكر الوزير من الذلّ. وحين دخل ناصيف باشا والغزّ الى مصر استبشرت اهلها بالعز والنصر، وكانوا قد خافوا من الفرنساوية لترجع اليهم، وتبذل سيوفها فيهم. فاستنهضوا مع الغزّ فى الحال، وعلّلوا ارواحهم بالمُحال. وهجموا على حارة الافرنج التجّار، فنهبوا الاموال وقتلوا الرجال، وسبوا الحريم وقتلوا الاطفال. وبدوا يتعصبّون عصباً ويهجمون على دور النصارى، فينهبون ويسبون ويصنعون القساوة والفساد. شى ما له تعداد. وهجموا على حارة الاقباط فقفلوا فى وجوههم الابواب. وكان بها ذلك القبطى [يعقوب] الذى كان مع الجنرال ديزه فى الصعيد، فردهم مع اصحابه فى الحرب العنيد والرصاص ا لشديد. واتت الغزّ الى حارة اليزبكية، وهجموا على بيت السارى عسكر. فضربتهم الصلدات بالرصاص والنار، ومنعوهم عن دخول الدار، وكان لهم يوم يذكر جيلاً بعد جيل، لما به من الهول الجزيل، والخوف العظيم والهمّ الجسيم، والعذاب الاليم. وقد تيقنت النصارى بالهلاك والدمار، وهتك الحريم وخراب الديار.

وقام [أقام] عثمان بيك كتخدا الدولة العلية فى [وكالة] ذو الفقار، ومعه الامرا المصرية. واتت اليه المشايخ والعلما الاسلامية، وجميع التجّار مع التاجر المشهور السيّد احمد المحروقى، المعلوم عند الوزير بالمعرفة والتدبير، وناصيف باشا نزل عند بركة اليزبكية بالانكشارية. واما مراد بيك لم يدخل البلد احتساباً مما يتجدد، وبقى يجول فى برّ الجيزة فى شرذمة وجيزة، بفطنته الحريزة.

وكان عثمان بيك كتخدا الدولة العلية ذو نفس عتية واخلاق مرضية، وفطنة ذكية. فاخذته الشفقة والرحمة على الرعية، واطلق المناداة برفع

الاذاة عن النصارى والرعيـة. ومنـع الاسـلام المنـع التمام عن النهب والحرام، وقال لهم : لا يجوز في ساير الاديان الاذاة على رعية السلطان. وغضب من ذلك الشان، وامر اجناده ان تدور بالحارات، وكل من بدا منه فساد يقطعوه بالسيوف الحُداد.

ولم تزل النار تثور والشرّ يفور. والخلايق قايمة والهيجات دايمة على حارات الاقباط وبيت السارى عسكر وكان به [الستين من الصلدات]، ذلك النهار بتمامه، والليل بظلامه. والخلايق تجتمع والجماهير تندفع، وهم يهيجون هيج الجمال، ويهجمون هجم الرجال، ويرجعون خايبين الامال. وقد اندهشت الابصار وحارت الافكار، وتاه العقل وطار، وحار القايل ما يقول، وخشى الناقل تكذيب المنقول، في صلابة أوليك الستّين صلدات الابطال، وثبات قلوبهم على حمل هذه الاهوال. اذ كنت تهجّم عليهم الخلايق افواج كالبحر العجاج، وتهجم عليهم الجيوش هجمات الوحوش، الوف الوف، تفوق العدد والصفوف، ما لها مدد، وهذا الجنرال الصنديد يتلقاهم بعزم شديد. وذلك الثبات بستين صلدات. واستمروا على ذلك الشان يومان عظيمان. وهذه العوالم تندفع دفعة بعد دفعة، وهي على بيت السارى عسكر مجتمعة وعن حربهم غير مرتجعة، ولا زالوا يهجمون ويرجعون بلا منفعة، حتّى ولّى ذلك النهار والقهّار.

وكان اوليك الصلدات تتلقّى تلك الجموعات الهاجمة من كل الجهات. اذ كان كل منهم يصادم الوفاً، ويرغم انوفاً، ويهزم صفوفاً. فاجتمع رأيهم [العثمانية] ان يتركوهم ويذهبوا الى الجيزة . وما كانوا يعلمون ما تمّ الى العساكر الفرنساوية مع العساكر العثمانية، في تلك البرية.

وحين رأوا اكثر تلك العساكر التى دخلت الى مصر، استبشروا بالعزّ والنصر، وبينما هم سايرين الى الجيزة، فالتقاهم رجل راكب من عسكر العثمانية، على جواد متين عليه هيئة السفر، فسألوه ما الخبر، فاعلمهم ان جيش الوزير انكسر، وامير الجيوش انتصر. فانقطعت ظهورهم وحاروا في امورهم. وانثنوا على اوليك الصلدات. وزاد الحرب،كثر البلا والكرب، واظهر ذلك الجنرال درناطون غرايب الفنون. وكان هذا الجنرال راسه ممسوح من الشعر لكبر سنه، فكانت اهل مصر تدعوه الاقرع والليث الادرع.

واشتدّ الحصار، وهاجمت اهل المدينة، واظهروا الاحقاد الكمينة. وهجموا على منزل مصطفى اغا واتوا به الى قدّام ناصيف باشا، وقدّموا عليه شهودات بانه كان يؤذى المسلمين ويودّ الفرنساوية. فامر الباشا بقتله ونهب منزله. وقبض ايضاً على اناس كثيرين من المسلمين الذين كانوا يخدمون الفرنساويين، وأذاقوهم الموت المهين، واوردوهم موارد التلاف.

وقبضوا على الشيخ خليل البكرى نقيب الاشراف، واتوا به حافيا عرياناً ذليلاً مهاناً، وقدّموه الى عثمان بيك. فامر باطلاقه بعدما قدموا عليه جملة شهادات، وكان في اكثر الاوقات شرب في منزله مع الفرنساوية المنكرات، هذا وتلك الهجمة متّصلة على تلك الصلدات من جميع الجهات، وعلى حارة الاقباط التى بها يعقوب الصعيدى، وقد كافح هذا الرجل كفاحاً عظيما وعارك عراكاً جسيماً. وفي سادس يوم من تلك الاسباب والامور الصعاب، هجمت الاسلام على حارة الاقباط،

ونهبوا البيوت، وايقنوا النصارى فى الهلاك والارتباط. فهذا ما كان من احوال مصر وذلك الاتفاق.

واما ما كان من مدينة بولاق، فانهم حينما بلغهم دخول ناصيف باشا والغزّ الى مصر بالعزّ والنصر، فظنّوا ان عسكر الاسلام انتصر وجيش الفرنساوية انكسر. فقاموا على النصارى الرعية فنهبوا اموالهم وسبوا اعيالهم. وعصوا اهل بولاق عصاوة شديدة، وبنوا متاريس جديدة.

وبعد ثمانية ايّام وصل امير الجيوش الى دار الكنانة، فوجدها من الاخصام ملآنة. وقد اشهروا العدواة وأظهروا العصاوة. وحدّثهم عقلهم الزميم فى الجهل العميم على عدم التسليم. واحتاط امير الجيوش بعساكره الوافرة حول دايرة القاهرة، وصلبت أعناقهم على المحاصرة. ومنع الداخل والخارج ، وسدّوا المسالك والمدارج، ونشب القتال بينهم، نهارهم وليلهم . فطلبت خلوّ المدينة العساكر والحكّام، فما مكّنتهم من ذلك العوام. [وتصدّت] الاعيان ذوى البيوت، وحثهم على الاقامة والثبوت. ومنهم ذلك البهوت السيد أحمد المحروقى، فهو يتصدر للجدال وصرف الأموال ، [وحرّض] الرجال على الحرب والقتال. ولم يزالوا المصريون مصرّين على غرورهم المتين فى محاربة الفرنساويين. وكان امير الجيوش قد تمكّن بعساكره من القلع والاسوار، بالكلل وقوّة النار، وكتب الى مدينة الاسكندرية يسترجع الجبخانة والمدافع التى كان ارسلها حين عزم على التسليم. وارسل الى الجيزة احضر مصطفى باشا كوسا وارسله الى دمياط.

وقد بلغ امير الجيوش ما ابدوه اهالى بولاق من العصاوة والنفاق، فارسل اليهم ذلك الاسد الهدّار والليث المغوار الجنرال بليار، وامره ان يهجم عليهم بالنار، ويهدم الحصون ويخرب الديار. فهجم عليهم ذلك البهموت، فما قدروا على الثبوت. وتركوا المتاريس والتجوا للبيوت. فهجمت عليهم تلك العساكر بالرصاص المتكاثر، والسيوف البواتر. واحرقوا المنازل. واشتدت الاهوال وهربت الرجال. وبكت النسوان والاطفال. وصاحت الكبار والصغار: الامان الامان ياجنرال بليار. فلما سمع بكاهم حنّ الى شكواهم، وامر الصلدات بحفظ الحياة ومنع الممات. وعفى عن قتل الرجال، وبدوا ينهبون النساء والبنات ويهتكون الحراير المخدّرات.

واستمر هذا البلاء العامّ ثلاثة أيام. ففى تلك المدينة هدمت المنازل المتينة، واحترقت البضايع الثمينة، وراح على التجّار من المال والبضايع عدّة خزاين وافرة. اذ كانت بولاق اسكلة [ميناء] القاهرة، فتجتمع بها البضايع والاموال، وهى محل للاستقبال والارتحال لقربها الى البحر. [النيل] وكانت خزينة مصر. ودثرت هذه المدينة فى تلك الفتوح المهول، عن سوء تدبير اهلها المخذول.

ومن بعد هذا الخطب العظيم والخراب الجسيم امر امير الجيوش ان يوخذ من اهلها اربعة الاف كيس تمام الانكيس وكانت عساكر الفرنساوية مقيمين حول دايرة القاهرة، نهاراً وليلا على المحاصرة والمجادلة والمشاجرة . وعساكر المدينة لم تمتنع من الهجمات وراء المتاريس المتينة، فى ساير شوارع المدينة، فى كل الجهات. وقد عزّ القوت وهدمت البيوت. وكانت ايّام شديدة الاهوال

غريبة الاحوال، تتزعزع من ذكرها الجبال، وتشيب من اهوالها الاطفال.

وقد شدّت الفرنساوية الحصار، وصارت العساكر تهجم الليل والنهار، وترمى على المدينة النفط والنار، والكلل والقنابر الكبار. وبقت اهل البلد بضجيج وعجيج، والخلايق فى [ا]ضطراب ورجيج. والولولة من النساء والصياح، والبكا والعويل والنواح. وكانت الرجال والنسا والاولاد يختبون تحت العقودات، من تساقط الكلل والقنبار من القلعات.

ولم يكن فى تلك الايّام رقاد، ولا مكان مؤتمن. بل حرب مستطيل، وكرب دايم جزيل، ونوح وعويل. فيالها من ليلة ما امرّها، واشدّها واحرّها. ليلة فتحت بها ميازيب السماء، وهطلت وغمّ وجه الارض بالمياه. فاستنهزت الفرنساوية الفرصة وهجموا فى تلك الحصّة. واثاروا حروب عظيمة لم يكن مثلها فى الوقايع القديمة. واتّقدت النيران فى اربع جهات القاهرة. واحترقت بيوت كثيرة فى تلك الليلة الماطرة، مع الحرب المتّصل والضرب غير المنفصل. وماتت خلايق لا تحصى من الفريقين. وزعق عليهم غراب البين. وكانت الكلل تتساقط عليهم من القلع كالبرد على وجه البقاع.

واذ كانت الناس مستترة فى البيوت الذين على رصيف الخشب الكاين فى اليزبكية، فاوقدت بهم النار الفرنساوية. فكانت ساعة لا تُعد بالساعات، من تلك البلايا النازلات. وهجمت الفرنساوية [وطردوهم] من تلك الحارات. واحرقوا منازل كثيرة بتلك الجهات.

واذ شاهدت العساكر المحاصرة داخل القاهرة تلك النيران الوافرة، وعدم النجاح بهذه المصادرة. فضجوا وقالوا: كفانا هذه المخاطرة. وكانت الفرنساوية قد احرقوا حارات متسعة، كحارة الخروبى العدوى لحدّ باب الشعرية، ورصيف الخشب [الخشاب] وما يليه من المنازل العلية، فاجتمع رأيهم ان يطلبوا الامان، وعقدوا فى بيت ناصيف باشا ديواناً.

وقد اجتمعت السناجق والكشاف، وعثمان بيك كتخدا الدولة، والعلما والاشراف. واخذوا يتفاوضون فى امر التسليم، والخلاص من هذا البلا العظيم. وفيما هم فى الاجتماع ، واذ قد سقطت عليهم بومبة من القنابر ففرّق جميعهم، وايقنوا بالموت والنزاع، وقالوا هذه هى الأخيرة، وقد استخرنا الله وهو نعم الخيرة. فالتسليم أسلم لنا عاقبة من هذه المجادلة والمعافية. وانتخبوا اثنين من المشايخ وهم عبدالله الشرقاوى وسليمان الفيومى، واثنين من السناجق: عثمان بيك البرديسى وعثمان بيك الاشقر. واخذوا بيراق ابيض معهم اشارة الامان، وساروا مُشاة الى البركة اليزبكية. ولما قربوا من ذلك المكان، ونظر اليهم أمر الجيوش من بعيد، وعرف الإشارة، فأمر برفع ضرب البارود، وأرسل إليهم وزيره داماس ومعه ترجمانه الخاصّ. فلما تقابلوا قال لهم الجنرال داماس: ما مرامكم؟ فقالوا له: تسليم المدينة، وخروج العساكر بطريقة امينة. وسفرهم الى اراضى الشام من القاهرة، من دون مشقة ومخاطرة. وفرمان الامان الى الرعايا والاعيان. فرجع الجنرال واخبر امير الجيوش بذلك، فردّ الجواب: ان الباشا وكتخدا الدولة، مع الغزّ والسناجق وكامل العسكر، لهم الامان. واصدر لهم

فرمان [بان] ينقلوا الى قاطع الخليج ويقوموا هناك ثلاثة ايام. بينما يتجهّز لهم ما يحتاجون من لوازم الطريق لارض الشام. ويخرجون بساير خيلهم واثقالهم. وعند السفر يسير معهم الجنرال رانيه باربعة الاف صلدات الى الصالحية، ليلا [لئلا] يصير لهم معارضة فى الطريق من اهل البلاد، ويكون سبيلاً للفساد. وجميع ما يتركون من المجاريح وذوى الامراض فيكون لهم الامان وعدم الاعتراض . ولاجل عدم وقوع الخلل منهم بعد اصدار هذا الامان لهم، يكون عندنا منهم اثنان رهينة لحينما يخرجون من المدينة، ويصلون الى ارض غزّة، ويرجع الجنرال رانيه الى مصر بسلام، فنطلق سبيل الرهاين بكل اكرام. وقد اصدرنا لهم هذا الامر الكافى والامان الوافى.

واما اهل المدينة فلا نمنحهم الامان، وليس لهم ان يسألوا عنهم الان. لانّهم رعاياى وتدبيرهم مختصّ بى. فرجعوا السنجقان والشيخان واعرضوا القول على الغزّ والباشا وكتخدا الدولة، فامتثلوا القول، وعقدوا الرأى على إرسال سنجقين رهينة وهما: عثمان بيك البرديسى وعثمان بيك الاشقر، وحضروا لعند امير الجيوش ونبّهوا حالاً على العساكر بالانتقال الى الجهة الثانية من الخليج.

ودخلت العساكر الفرنساوية واخذوا الجهة الواحدة من الخليج، وتملكوا المتاريس.

ونصبت الغزّ والعساكر العثمانية اوطاقها خارجاً عن باب النصر، وشرعوا يتأهبون لأجل السفر من مدينة مصر. ونصب الجنرال رانيه مضاربه امامهم.

وكان حزناً عظيماً عند المصريين، وسقط عليهم خوف جسيم، وبدوا بالنوح والعويل، والبكا والتعداد المستطيل، فى جميع منازل الاسلام الخاصّ والعامّ. وبدوا يسبّون الغزّ ويشتمونهم وهم خارجين، ويقولون لهم : قد احرقتمونا بناركم من بغيكم وضلالكم، واسيئتم الينا وطرحتم شرّكم علينا، وقتلتم رجالنا ويتّمتم اطفالنا.

وفى الثلاثة ايّام، خرجت العساكر من مصر بالتمام. وخرجت معهم عدّة من العوالم وساروا قاصدين غزّة والأراضى الشامية. والجنرال رانيه ساير فى اثرهم بمن معه من الفرنساوية. الى ان اوصلهم للصالحية. واستراحوا يومين واخذوا ما يحتاجون، وتوجّهوا لقطية.

وقد ساعدهم الجنرال بما يحتاجون اليه من الماكل ومن الخيل والجمال. وتعجّبت الاسلام من امان هولاء الانام، وحفظهم للذمام. اذ كانوا خاشين من خيانتهم بالطريق وغدرهم فى تلك البريّة. ثم رجع الجنرال عنهم الى القاهرة بعزّة وافرة.

واما امير الجيوش، فانه بعد ما سارت العساكر، امر بان يعملوا فرحة عظيمة، وحضرت اليه الاعيان والحكّام والعلما وارباب الديوان. واقعد عن يمينه السنجقين بكل اكرام. ورجعوا الفرنساوية الى محلاتّهم فى المدينة.

وبعد ثلاثة ايّام، عمل امير الجيوش ديواناً ودعا اليه العلما والاعيان وقال لهم: انّى كنت اظنّكم ايّها علماء الديوان انكم من الناس العقلا ذوى الاذهان. الان قد استبان لى ان عقولكم اخفّ من عقول الصبيان، واجهل من النسوان. لان بعد معرفتكم انى قد قهرت وزير السلطان، وشتّت جيشه فى البرارى والوديان، فقبلتم شرذمة يسيرة

وفرقة حقيرة، هاربين من سيفى الباتر وقوّة بطشى القاهر. وادخلتموهم القاهرة، واخذتم تحاربونى بعيون فاجرة. مع انكم تعلمون لا تربحون الاّ الذلّ والاهانة، وخراب وطنكم الكنانة . وهلاك الرجال وذهاب الاموال. وقد كنتم قادرين على طرد هولاء القوم الهاربين، وعدم تمكّنهم غير الامين. وانى قد كنت قادراً بعد حضورى ان احرق المدينة فى الحال، ولكن اخذتنى الشفقة على النسا والاطفال الذين لا رضا لهم بهذا الوبال والنكال.

والان قد صفحت عن خطأكم، ولكن يلزمكم ان تدفعوا مليونين من الريال، مبلغها ستّة عشر الف كيس ثمن دماكم، وعشرين الف بندقية، وخمسة عشر الف جوز طبنجات، وعشرة الاف سيف، واربعماية بغل، ومائة حصان. وهذه يكون منها على السيّد احمد المحروقى ماية وخمسين الف ريال، وعلى شيخ مصطفى الصاوى خمسين الف ريال، والشيخ العنانى ثلاثين الف ريال، وبقية المال على اهالى البلد جميعها. واما النصارى فليس لهم ان يساعدوكم بدرهم واحد، فكفاهم ما جرا عليهم منكم من الوبال، والهتيكة وسلب المال. وما تكبّدوه من الاضرار وسفك الدماء منكم يا اشرار. مع اننا افهمناكم امرار عديدة اننا نحن لسنا من النصارى، بل نودّ الاسلام ونحترم القرآن بكل احترام، وما سمحنا لهم بحمل السلاح الاّ ليحموا انفسهم منكم يا قباح. اذ نظرنا هجومكم عليهم . ثم نهض من قدامهم وهو مملوء من الغضب ولم يلتفت اليهم.

ثم استدعى يعقوب القبطى الذى ذكرنا انهم حاصروه فى حارة الاقباط، وامره ان يسترد منهم فى الحال ما طلبه من المال. وارسل قبض على السيد احمد المحروقى، وضبط منزله وارسله للقلعة. وسجن ايضاً امرأته فكان امر عظيم عند المصريين، وغمّ لا يوصف عند المسلمين، وارتجّت تلك الديار من سطوة هذا الاسد المغوار. وخافت منه الصغار والكبار. وقطعت الاسلام الامال من التغيير والابتدال.

وخرجوا النسا خروجاً شنيعاً مع الفرنساويين. وبقت مدينة مصر مثل باريز فى شرب الخمر والمسكرات والاشياء التى لا ترضى ربّ السماوات. ورجعت الوُلاة والحكّام لما كانوا عليه اولاً من الاحكام.

واحضر امير الجيوش السيد خليل البكرى الذى قد كانوا الاسلام نهبوا بيته، وانعم عليه بما كان راح له، وارجعه الى الديوان كما كان. واحضر رجلا ونصبه عوض مصطفى اغا الذى قتلوه، واقامه على الانكشارية.

ثم يعقوب القبطى انعم عليه بالجنرالية، ووضع على كتفه شراشيب الذهب كعادة هذه المنصبية وان يجمع عسكراً من الاقباط. ودعى من ذلك الحين الجنرال يعقوب. وكان ذلك مكافأة له لما ظهر منه من الشجاعة والفروسية مع الصلدات الفرنساوية. وجمع ثمانماية راجل من الاقباط ولبّسهم لبس الصلدات. وكانت الفرنساوية تعلمهم فنون حرب الافرنجية، فى كل يوم بكره وعشية.

ثم احضر نقولا قبطان الروم واكرمه غاية الاكرام، واعطاه الوظيفة الجنرالية، ووضع على كتفه الشراشيب الذهبية، وذلك لما ظهر منه من

الشجاعة والرجولية، واقامه جنرال على العسكر الرومية، والبس عسكره الملابس الافرنجية. واحضر ايضاً بارتليمى الساقزلى [فرط الرمان] وانعم عليه الجنرالية. وبلغ عسكر الاروام ثلاثماية صلدات من الشجعان.

[ذكر الاتفاق بين كليبر ومراد بك]

ثم ان امير الجيوش ابتدأ ببناية ابراج جديدة حول مصر، خشيةً من قيام اهاليها وعصاوتها على الفرنساوية، ان وردت الاخصام لمحاربتهم من البلاد العثمانية، لأنهم كانوا يخشون قيام اهالى المدينة اكثر من القادمين عليهم من البريّة.

وهذه مرّة ثانية التى قامت بها اهالى مصر على الفرنساوية. وهذه المرتين اهلكوا من العسكر الفرنساوية ما يفوق عن الثلاثة آلاف، ما عدا الذين اهلكوا خفية فى المنازل. فشرعوا اولاً فى بناية القلعة التى فى كوم الزيت بين القلعة الكبيرة وقلعة كوم الغريب. ثم شرعوا ايضاً فى بناية قلعتين فوق الكومين الخارجين من باب النصر. ثم شرعوا ايضاً فى بناية القلعة فوق باب النصر، وقلعة ثانية فوق باب الفتوح،وقلعة فوق باب العدوة، ، وقلعة فوق باب الحديد.

وشرعوا ايضاً فى بناية قلعة فوق باب الريش الخارج عن المدينة ما بين العدوة والحسنية. وهذا الكوم كانت العساكر العثمانية تحارب عليه الفرنساوية فى مدّة الحصار، واخذته منهم الفرنساوية قوّةً واقتداراً ليلة تلك الامطار. ثم شرعوا ايضاً فى بناية قلعة فوق كوم الذى بين اليزبكية وبولاق. وفى بناية قلعة فى بولاق من جهة البحر فوق كوم السبتية. ووجدوا سورا قديماً كايناً من باب النصر الى باب الحديد قد تغطى من العمارات على مدى الزمان، فأمر المهندسون بكشفه، وهذه القلعة بنوها مع السور المذكور.

ثم شرع ايضاً يعقوب القبطى الجنرال بعمل سور وابراج حول دور النصارى والأقباط، لما قاساه فى مدّة الحصار الذى قد كان آيلاً لهتك الاستار وفضح الاحرار، وقطع العمار والدمار والدثار. فهذا الزم يعقوب الجنرال لهذه العمار، ولكن لم يكّمل عماره الأ فى زمان الامير منو كما سيأتى ذكره فيما بعد.

قد قلنا سابقاً ان مراد لم يرد يدخل القاهرة مع ناصيف باشا وعثمان بيك كتخدا الدولة وباقى الغزْ المصريين، بل بقى خارجاً عنها، جايلاً فى برّ الجيزة مدّة اربعة وثلاثين يوماً، بشرذمة وجيزة. وكانت نفسه فى مسافة هذه المدّة المذكورة تتوق إلى الصلح مع الفرنساوية، لما شاف من ضعف العساكر العثمانية وقوّة بطش الفرنساوية.

وقد كان امير الجيوش يودّ انتظامه ويؤثر التيامه، فوجّه له برطولمى الساقزلى الجنرال، وهذا كان يتكلم باربعة ألسُن: العربية والتركية والرومية والطليانية. وكان متربيّاً فى مدينة مصر، وله الدالة [الخطوة] فى بيوت السناجق ، والكشاف. فسار هذا لعند مراد بيك واخبره ان امير الجيوش يروم اتحاده لا ابعاده، ورغب وداده لا جلاده. ويرفع احقاده ويبطل جلاده. ويأخذ من الصعيد بلاده ويريح فواده. ويكسب نفسه واجناده. فلما فهم مراد بيك هذا الخطاب انشرح صدره واجاب: إلى الصلح والاصطلاح، وابطال الحرب والكفاح، صيانةً للاجساد والارواح، ليلاً يفتح العزيز الفتّاح باباً غير هذا الباب للفرح والنجاح.

وقد كان عند مراد بيك رجلاً من خدّامه قايماً بتدبير امر المدافع يُدعى حسين اغا الزانطلى، وهو من مدينة زانطة[٧٦] ، واسلم فى مصر مع اخوته الاثنين، وكانوا جميعهم فى خدمة مراد بيك قايمين. وهذا المذكور ايضاً كان يتكلم باربعة السن، فارسله مراد بيك الى الامير كليبر لاجل اتمام الصلاح بينهما. وبواسطة هذين الشخصين تمّ الاتفاق وارتفع الانشقاق، وانعقدت المشورة على ان مراد بيك يصنع وليمة للامير كليبر فى جزيرة الذهب القريبة من الجيزة، ويدعوه اليها.

وهناك يكون الاتفاق. فركب امير الجيوش الى الجيزة ومعه عثمان بيك البرديسى وعثمان بيك الاشقر، وسار بنفر قليل الى مقابلة مراد بيك. فحين وصلا وتقابلا، تلاقاه مراد بيك بكل بشاشة، وتصافحا مصافحة الاخوان، وجلسا فى ذلك الديوان بالسرور والامان، وجلس معهما داماس الوزير ودميانوس الترجمان، ووقفت جميع السناجق والكشّاف. ثم بعد المخاطبة والكلام بالترحيب والكرام، امر مراد بيك الى الواقفين بالخروج، وهناك عاهد امير الجيوش مراد بيك العهد التام، وانه يقيم فى بلاد الصعيد بعيش رغيد، مع ساير من يروم اقامته من الغزّ والمماليك هناك. وصرّفه بجميع ما له من الاملاك، ويكون حاكماً على مدينة جرجة، ويدفع للمشيخة مال ميريها المترتب عليها. وانه يرسل الى ابراهيم بيك وبقية الغز ان يكون لهم الامان.

ثم عاهده ايضاً انه اذا اخلت الفرنساوية الديار المصرية، فلا يكون تسليم هذه المملكية الاّ له دون غيره من الدول . فانشرح مراد بيك بهذا الامل.

وبعد اتمام الكلام وبلوغ المرام، أهدى مراد بيك لامير الجيوش سيفاً ثميناً وخنجراً عظيماً، والى الوزير داماس سيفاً من الهندوان، والى الترجمان خاتماً ثميناً من الماس. وبعد ذلك قدّم له صفرة الطعام وانية المُدام، كلها من الكواكيل الفاخرة بالروايح العاطرة. فاكلوا وشربوا ولذوا وطربوا. وطالت لهم الاوقات بالحبّ والمسرّات. واتصل بينهم الوداد وتركوا البغضة والعناد.

ثم ان مراد بيك طلب من امير الجيوش حضور العساكر الفرنساوية من المشاه والخيا[لة] ليلعبوا امامه، ويتفرّج على ما يعملون فى حربهم من الصناعة والفنون. فامر امير الجيوش باحضار خمسماية صلدات من الجيزة. فحضروا بمدّة وجيزة ، وطفقوا يلعبون ويظهرون ما عندهم من الحرب والفنون، صناعة تأخذ العقول وتدهش العيون. فانشرح مراد بيك من تلك الفرجة واخذه الفرح والبهجة. ثم ركبت الغزّ المماليك ، وبدوا يلعبون على الخيل ملاعيب الحرب القوية. فانشرح امير الجيوش وشهد لهم فى الثبات والفروسية، وقال لمراد بيك: ان فوارسكم اصنع فى الطعن واثبت فى الحرب على الخيل بالميدان.

وبعد انقضاء النهار، نهض امير الجيوش على اقدامه وقام مراد بيك لقيامه. وودّعوا بعضهم بعض بالانس والسرور والغبطة والحبور. وخرج امير الجيوش من ذلك المكان وبدا يرمى الذهب الكبير على ساير الانام. ولم يزل على ذلك الشان الى ان صار خارج الديوان. فقدّم له مراد بيك جوادا، والى وزيره جواداً، من الخيول الجياد بالعُدَد الكاملة. وسار امير الجيوش الى الجيزة، ومن هناك ارسل الى مراد بيك فرمان التصريف مع حسين اغا

الزانطلى، واعطى للمذكور وظيفة سنجاقية، واقام كتخدا مراد بيك. وتوجّه مراد بيك للصعيد، وكان معه عثمان البرديسى، وعثمان بيك الاشقر، وسليمان بيك، واحمد بيك الكورجى، وعثمان بيك الطوبجى.. و[أ]قام فى الصعيد بعيش رغيد، واجتمع عليه من السناجق والكشاف من تلك الاطراف والارياف.

وقد تقدّم القول أن الوزير الاعظم، بعد امضاء الشروط، ارسل صورة الاتّفاق الى الدول العلية والمملكة العثمانية. وصار فرح عظيم بمدينة القسطنطينية، وبساير الاقطار الاسلامية. واشحنت التجار اصناف البضايع فى السفن البحرية السايرة الى الاسكندرية، لعلمهم ان الاقطار المصرية تسلمتها الدولة العثمانية. وما توفقّ وصولهم الأ بعد فساد الصلح والنية.

وعندما اقبلوا على الاسكندرية ونظرت اليهم الفرنساوية، فرفعوا لهم السناجق العثمانية. فدخلت تلك المراكب الى البواغيظ من غير خوف ولا تحريز. وارموا المراسى والحبال وهم باغضاء بال. ونزلت رؤساء المراكب الى البرّ وهم مأمنين فقبضت عليهم الفرنساوية، وارسلوا ضبطوا المراكب بما فيهم، وكانوا نحو ثلاثين مركباً صغاراً وكباراً، وبهم من البضايع ما يحيّر الانظار. وارسلوا اعلموا امير الجيوش بتلك الاخبار، وذكروا له ان البحرية اكثرهم اروام. وما فيهم الا قليل اسلام. فامر امير الجيوش ان تباع البضايع على التجار. وامر الى نقولا الجنرال ان يتوجه للاسكندرية، ويعين عنده الأروام النوتية. فسار المذكور كما امر الجيوش، وعّين عنده الاروام، والبسهم لبس الصلدات الفرنساوية.

واما وزير الختام، بعد كسره ورجوعه الى غزة بالذل بعد العزة. وقد تفرقت تلك الجيوش والامم فى الصحارى والاكام، وخرجت الغز من القاهرة بالقهر، وشاعت اخبار هذا الانكسار فى ساير النواحى والاقطار. لانه من غرايب الامور، وعجايب ما يحدث فى العصور، والازمنة والدهور، ان فئة يسيرة تشتت عدّة غزيرة، وتقوى وتقتدر وتظفر وتعلو وتنتصر. فهذا يحير الافكار، ويدهش الاسماع والابصار، فالعزة لله القوىّ الجبّار. وقد ارتجت ممالك الاسلام رجة قويةً، ووقع عليهم الخبال من تلك الاحوال. وابتدات اصحاب العقول فى الافتكار، وتدبير ما يزيل عنهم هذا العار، ويبدّد هولاء الكفّار.

[ذكر مقتل أمير الجيوش الجنرال كليبر]

وقد كان فى مدينة القدس المحمية احد اغوات الانكجارية، اسمه احمد اغا، من مدينة حلب القوية. فهذا يجول بافكاره على شخص مغوار، او مغازى يغار، اومحتال غدّار، او خبيث مكّار، يحتال بالفطنة والاختيار، على قتل ذلك الرهط الجبّار والبطل القهار، سلطان اوليك الكفّار، ويسقيه كاس الدمار. وقد اجتهد فى ذلك التدبير، والأمر الصعب العسير. الذى لا يقدم عليه الأ كل ليث خطير، أو شجاع مغير، يطلب المناداة، والموت فى المغازاة. او طمعاً فى المكاسب وعلوّ المراتب. وبينما هو فى ذلك الاهتمام لبلوغ المرام، واذ تقدم عليه شابّ قوى الجنان، مملو من الجهل اسمه سليمان. وهو من مدينة حلب الشهبا(٧٧)، قد هزّه جنون [الصبا]، واوعده بقتل ذلك السلطان حبّاً بالدين والايمان. فاخذ يجسره ذلك الاغا المذكور، ويحثه

على قضاء هذا الامر المأثور. ويوعده بما يناله من النعامات الوفية من الدولة العلية، وما يحصل له من السرور ومن الاسم المشهور مدّ الاعوام والدهور.

وكان ذلك الشاب ما بلغ من العمر اكثر من اربعة وعشرين سنة، الا انه اسد درغام وليث هجّام. فسار من القدس على هذا المرام، ودخل الى غزّة بنفس مُعْتَزّة. وهناك اجتمع باحد من اغوات الانكشارية اسمه ياسين اغا، من الرجال الحلبية. فحدثه الشابّ بما في ضميره من النية من قتل السلطان الفرنساوية، فجسره ياسين اغا على تلك النية، واعطاه اربعين غرش اسدية. وسار المذكور الى مدينة مصر الكنانة، وفي قلبه الغدر والخيانة. ودخلها في شهر ذى الحجة، ونفسه غير مرتجة وقطن في جامع الأزهر. وهناك اجتمع باربعة انفار من المجتورين [بالازهر] واخبرهم بما في باطنه من الكمين. وطفق يتبع امير الجيوش من مكان الى مكان، ويترقب له فرصة من الزمان، ليبلغ بها المرام. وحين آن الاوان، وسمح العزيز الرحمان، ودنت الاجال واتسع المجال.

ركب امير الجيوش ذات مرة يوم من الجيزة الى القاهرة ، وكان ذلك نهار الاثنين الواقع فى ٢١ محرم سنة ١٢١٥. فمن بعد ما لبّس [شيخ العريشى] على القضاوية، جال ذلك النهار فى مصر مع عساكره القوية، ورجع الى منزله فى موكب عظيم ومحفل جسيم. ودارت المناداة فى شوارع القاهرة تنادى حسبما رسم السلطان كليبر، سلطان مملكة مصر القاهرة، وصاحب الجيوش الظافرة، وكان قط لم ينادوا فى شوارع مصر جهاراً باسم السلطان إلا لذلك البطل القهار، ثم بعد رجوعه الى منزله، قصد المسير لعند وزيره داماس، إذ كان منفردا عن الناس، وقد قدمنا الإيراد انه كان يحب الانفراد، وعند آخر النهار، خرج مع شيخ المهندسين، وقد [جرتّه] الاقدار الى شرب كاس البوار. وبينما هو منفرد فى الجنينة الكاينة بين منزله وبين منزل وزيره داماس، فدخل عليه ذلك الشاب سليمان، وكانت عليه ثياب باليات. ومدّ يده اليه ليستعطى منه صدقة، واعطاه من يده ورقة. فاخذها كليبر من يده، وبينما هو يمعن فى [قراءتها]، فانقض عليه ذلك الشاب وضربه بسكين كان محتفظاً عليه تحت ثيابه، فجاءت الضربة بخاصرته، فسقط فى الأرض وصرخ صوتاً عظيماً. وضربه ثانياً وثالثاً ورابعاً.

وقد سمع صوته كل من كان بالقرب منه، فبادر اليه المهندس [بروتاين] وبيده [عصا] فضرب القاتل بها على هامه فجرحه، فهجم سليمان على المهندس وضربه بتلك السكين، فجرحه جرحاً بليغاً، ووقع على الأرض بين ميت وحيّ، وفرّ القاتل هارباً.

وعندما سمع داماس الوزير صوت امير الجيوش بادر مسرعا، فنظر امير الجيوش ملقى على الارض طريحاً، فحار وصرخ: من فعل بك يا مليح هذا القبيح [؟] ، فرفع يده واومى [الى] القاتل الهارب. وحضرت الصلدات وداروا حول الجنينة، وطفقوا يفتشون. واى من وجدوه عليه يقبضون ، واذ بامراة من شباك دلّت على القاتل، وكان مختفياً فى بعض الدهاليز. فقبضوا عليه، ونظروا الى ثيابه عليها اثار الدماء والسكين معه. واتوا به فرفعوا جسد امير الجيوش الى منزله. واجتمعت الجنرالية والكوميسارية والاوفيسيالية والجرايحية،

وبدوا يضعون الادوية على جراحاته فما مكث غير برهة يسيرة ومات. وصار حزن لا يوصف عند ساير الجيوش الفرنساوية، وبكوا بكاء مراً، وعضوا البنان تحسراً وقهراً. واخذوا يقدحون شرراً، وينظرون [شزراً] ليخرجوا الاحكام بتدوير الحسام فى النصارى والاسلام، ويقتلوهم على التمام. ولولا تعطف الملك العلاّم، وظهور ذلك الغلام ويتضح النور من الظلام. لكان حل باهالى مصر الويل والاهدام. فى هولا القوم الليام الذين لا يعرفون الحلال من الحرام، ولا يخشون رب الانام.

وأما أهالى القاهرة، فشملهم خوف عظيم من هولا الجبابرة. واختفت الناس فى المنازل والبيوت، وأخذتهم [البهتة] والسكوت. وبقى كل منهم مبهوت فى قتل ذلك البهموت. وخافوا ان يكون ذلك الفعل الذميم من سكان تلك الاقاليم. وان هذا القاتل الشنيع يرمى الناس فى هذا المهلك الفظيع والخطب المريع.

وأما الفرنساوية، حين وقعوا فى هذه البلية، احضروا القاتل سليمان وعذبوه العذاب الشنيع، فقر واعترف بما صنع وأتلف. ومن هو الذى أرسله لهذا الطرف وكيف مشا وتصرف. وقر عن أوليك الاربعة أنفار المجاورين، الذين عندهم حقيقة الخبر باليقين. فسارت الصلدات الفرنساوية اليهم بالخفية ليلا يعلموا ويهربوا، فدخلوا الجامع وقبضوا على الثلاثة وهرب الرابع. وأحضروهم وبدوا يعذّبوهم ويقررونهم ان معهم خبر هذا القاتل سليمان، وما هو معوّل عليه من الحرام، وقد نصحوه فلم يسمع كلام. فحكم عليهم الشرع بالموت [لعدم] تخبيرهم وتحذيرهم.

وبرز من الشريعة الفرنساوية ان سليمان القاتل تُحرق يده أولاً بالنار، ثم يرفعوه على خازوق عال أمام النظر ثم يقطعوا رأس الثلاثة أنفار، ويرفعوهم على مزاريق حول الخازوق.

ثم ان فى ثانى الايّام، عند الصباح، صنعوا الفرنساوية ديواناً عمومياً، واختاروا كبير الجنرالية المدعّو الجنرال منو، وأقاموه امير الجيوش عوضا عن المقتول.

وبعد ذلك صنعوا ميتما عظيماً ومحفلاً جسيماً، وصنعوا له تابوتاً من الرصاص ووضعوه فيه، بعدما جوفوا جسده وحنّطوه. وأخذ داماس الوزير قلب الامير كليبر، ووضعه فى زجاجة، وكب عليه ارواحاً لحفظه من البلاء والفساد، وقد حزن هذا الوزير حزناً مفرطاً مع البكاء والتعداد.

ثم أمر منو أمير الجيوش بنقل جسد سلفه، وحضرت كافة الجنرالية وباقى حكام الفرنساوية، وجميع العلماء والاعيان، وجمّ غفير من كل الملل والديان. واحضروا خيل الامير كليبر ثم البسوهم الحلل السواد، ووضعوا التابوت فوق عرباته، وغطوه بحلة سوداء، ومشت جميع العساكر أمام التابوت وهى منكسة البندق وركب امير الجيوش منو مع سوارى العساكر، وسار من بركة اليزبكية الى قصر المعنية [القصر العينى]، وجميع العساكر والعلماء والاعيان، والحكام وارباب الديوان، ماشين قدام التابوت. والفرنساويون فى بكا شديد بحزن مفرط ما عليه من مزيد.

وسحبوا القاتل ورفقاءه حفاة عراة مكتوفين قدام التابوت. وحينما وصلوا أمام القصر، اصعدوا القاتل ورفقاءه الى اعلا الكوم. وحذفوا روس

اوليك الثلاثة انفار، ووضعوهم على ثلاثة مزاريق، واحرقوا يد سليمان القاتل وهو بالحياة، ثم رفعوه على خازوق عال، وركزوا الثلاثة مزاريق حوله.

ثم اوقدوا ناراً شديدة واحرقوا بها اجساد اوليك الثلاثة انفار.

ثم ادخلوا التابوت الى وسط القصر[العينى] وعملوا له مصطبةً عالية ووضعوه فوقها وغرسوا حولها اغصانا خضرا. وصعد امير الجيوش الى مكان عالٍ، واخذ يعظ موعظة عظيمة تجعل القلوب كليمة،والدموع سحيمة، تتضمن مراثى محزنة والشاهيات [التعديدات] الموهنة، على مثل هذا البطل الهمام والاسد الباسل الدرغام، الذى قد نشر الاعلام وقهر الانام، وظفر فى عسكر الاسلام وطرد وزير الختام، وبددّ ذلك الجيش الملتزم، وخلد ذكره مدى الدهور والايّام. ومن بعد اتمام تلك المراثى الموجعة والتعديدات المتنوعة ، اطلقوا البندق الكثيرة حول التابوت، وبكوا بكاءً مراً على هذا البهموت، ثم اقاموا [صلدات] محافظاً ليلاً ونهارا، وفى كل ثلاث ساعات يتغيّر احد الصلدات وياتى غيره، اكراما له واجلالاً لقدره.

وبعد ذلك رجع امير الجيوش الى منزله ببركة اليزبكية، وتفرقت لمنازلها عساكر الفرنساوية. وكل منهم ملتهب بنيران مهولة، بانهدام هذا الركن العظيم ذى الصولة. واستحوذ الحزن والاكتياب على المختصين به من الاحزاب، وتفرقت من ذلك الوقت منهم القلوب باذن عالم الغيوب.

[ذكر أمير الجيوش
الجنرال عبدالله منو]

وأما امير الجيوش منو، فهذا كان من المتقدمين فى بلاط ملك باريز السلطان لويس [السادس عشر]، وحين قتله المشيخة تبع هذا رأيهم. وحين حضروا للديار المصرية وحصلوا على ذلك التأييد، أقامه بونابارته حاكماً على رشيد. فمكث هناك مدةً وتزوّج بامرأة مسلمة شريفة، وادّعى بالاسلام، وسما ذاته عبدالله . وكان متقدماً بالعمر ذا احتيال ومكر.

ومن بعد تقدّمه على العساكر الفرنساوية، وارتضوه الجميع وشرع يغير فى الاحكام والوظايف، وضمّ اليه حزبا من الفرنساوية، واضعف احزاب سالفه القوية، واتكل على تدبيره وقوة بطشه. فتغيرت قلوبهم من ذلك الوقت، ووقع الاختلاف بين الفرنساوية، وابتدا ذلك الامير فى التبديل والتغير. وامر اولاً فى قفل جامع الازهر، وعقد لذلك ديوانا، وادعى ان هذا المكان ليس هو محلاً للدرس والتعليم للفرايض والسنن، بل هو محلّ للعقد والمشورة وايقاظ الفتن. فامر بطرد المجاورين وقفل ابوابه اجمعين.

ثم امر بتكميل بناء البراج التى كان شرع فى بنايها سلفه الامير كليبر. ثم امر بتوسيع الطرقات التى داخل القاهرة، وهدم عدّة بيوت، وشرع بكشف السور الذى كانوا وجدوه من باب النصر لباب الحديد، وهدموا من امامه ومن ورايه بيوتاً عديدة. واكمل بناء هذا السور، وجعل من فوقه ثلاثة ابراج.

وهدم جامع الحاكم بامر الله ، المشهور فى مصر، القريب من باب النصر، وجعله برجا عظيماً. ثم حصن اوليك البروج والاسوار، بالمدافع والقنابر الكبار.

وامر الجنرال يعقوب بتكميل السور الذى كان شرع فى بناية بايّام كليبر.

وامر على النصارى الشوام ان يدفعوا ثلاثماية كيس بالتمام. واحدث على النصارى خراج ثقيلاً لم يمر بالازمنة خراجاً اثقل منه وافرض ايضاً على الاسلام واليهود كذلك. وكان كرباً عظيماً وظلماً عميقاً، وذلك على الرعايا من جميع الملل. ولولا الرخاء العظيم، لكانت خربت من الظلم تلك الاقاليم.

هذا والفرنساوية لم تكل من تعمير الحصون بمدينة القاهرة وفى الاسكندرية، واصرفوا على ذلك خزاين عظيمة: اذ كانوا ناظرين قلة عددهم وعدم امدادهم وكثرة اضدادهم. فحصنوا تلك الحصون المنيعة. وامر امير الجيوش باطلاق السيد احمد [المحروقى] ، المسجون من سلفة الامير كليبر.

وقد كنّا ذكرنا ان حين قبض وزير الختام على الجنرال بوضوط قبض امير الجيوش على مصطفى باشا وارسله الى دمياط، واقام هناك تحت الترسم يكابد الهم العظيم. فمرض من قهره وتوارى فى قبره. وصنعوا له الفرنساوية بدمياط ميتماً عظيماً، ومحفلا جسيماً، حسب عادة روساء العساكر. فهذا ما كان من الفرنساوية فى الديار المصرية.

[عودة إلى ذكر امير الجيوش بونابرت]

واما ما كان من امير الجيوش بونابارته، فانه جاز البحار وداس الاخطار، ووصل بالامن الحريز الى مدينة باريز، وصنع اموراً غريبة واحتيالات عجيبة. ودخل على رؤساء المشيخة فارتجوا لدخوله، واهتزوا لحلوله، وتعجبّوا غاية العجب من خلاصة من بلاد مصر. ونهضوا بوجهه نهضة الغضب، وعزموا على هلاكه والعطب.

فنشر لهم اساطير اللوم والعتب. وطفق يبكتهم على فعلهم الذميم، وسيرهم غير المستقيم. وخيانتهم الشنيعة وتخطيهم حقيق الشريعة. وتركهم الخواص رجال المملكة الفرنساوية فى ممالك البربرية من دون عون ولا اسعاف. ورميهم فى الهلاك والتلاف. فنهض اليه بعض رؤساء المشيخة فبدا يبث له الغدر، فما قبل عذره وجرزه. فلما جرزه [سبه] ضربه بالشيش على هامه. فحين حسّ بونابارته بالألم وثب على ذلك الشيخ وثب الاسد الضيغم، واطلق فى صدره الرصاص فالقاه قتيل، وفى دمّه جديل. وهجم على بقية ارباب الديوان مع اصحابه بالسيف والنيران، فقتل منهم اثنين، وهما اللذان كانا له مبغضين، وعلى هلاكه بالديار المصرية متفقين، وانتبهت اصحاب بونابارته وطفقوا يصيحون: فليعش رئيس شعبنا الامير الشهير، الليث الخطير، بونابارته النحرير. وحينما سمع شعب مدينة باريز اسم هذا العزيز، طفقوا يتهللون وبالندا يعلنون: فليعش بونابارته مخلصنا وعظيم مشيختنا.

ثم ان بعد انقضاء الهياج وهدوء ذلك العجاج، عقد بونابارته ديواناً مع عظما الجمهور، وذوى التدبير فى الامور. واوعظهم ان يختاروا ريساً على الشعب يكون خبيراً وبأمور الدهر عليماً، فاجابوه جميعهم بصوت واحد: لا ريس لمشيختنا سواك، ولا لنا مدبّر الاّ إياك. ودعوه القنصل الاول فى الجمهور الفرنساويين، كما كانت هذه العادة عند الرومانيين.

وابتدا، من ذلك الوقت والحين، بتجهيز العساكر الكثيرة والجيوش الغزيرة. وفتح مدارس

التعليم. وارسل الجيوش الى ممالك ايطاليا. واخفض المقامات السامية. ومهد الجبال العلية. وداس تلك الرقاع والبقاع واسترجع المدن والبقاع، وملك الاقاليم والبلاد. وخضعت له تلك العباد. ودحض عساكر الامبراطور. واخلا منهم الدور. وانقادت له الملوك وسالوه الصلح فلم يأبه بل سلك معهم غاية السلوك. وقررهم على الرضى والاتفاق، مع العهود الوثاق. ورجع بالجيوش الى مدينة باريز بنصر عزيز. وارتجت جميع الممالك الافرنجية من سطوته القوية.

ومن بعد هذه الانتصارات الجزيلة التى تمت بأيام قليلة، كتب القنصل الاول بونابارته الى البابا سلطان رومية كتابا بالصلح والسلام، ويرده لكرسيه بالعز والاكرام. وفتح الكنايس جميعها فى ساير بلاد فرنسا. واشهر ايمانه بالمسيح، واعترف جهاراً امام كل الشعوب بهذا الدين الصحيح. وانتشر ذلك فى كامل البلاد الافرنجية. وابتدا يجاهد ويفرغ جهده لكى يعين زمرة الفرنساويين الذين بمصر مقيمين. فلم يمكن عدوّه الانكليز من ذلك. وقد سدّد عليه جميع الطرقات والمسالك. وكان قبض على مقدار ألف اسير من المسكوبين فى حرب[النمسا]، وارسل اعلم بهم دولة الانكليز، وطلب منهم ان يستفدى بهم ما عنده من اسير الفرنساوية فابى الانكليز ذلك.

وحين تحقق بونابارته انه لا يقبل ذلك الاتفاق، فاحضر تلك الاسارى المسكوبين، ومن عليهم بالاطلاق اجمعين، وكساهم كسوة جديدة،وصنع لهم وليمة عظيمة . وحباً بهم ، امر فى زينة جسيمة، وارسلهم الى كرسى دولتهم مع احد الجنرالية من قبله. وحرر الى سلطان باولو(٧٨) انه: قد كتبت الى سلطان الانكليز، صديقكم، ان يستفدى بالاسارى المسكوبين بما عنده من [اسرى] الفرنساويين ، فأبى ذلك ولم يرض.

وحين وصلت الاسارى، اعلموا السلطان باولو بما فعل بونابارته من الاكرام، بعد الاسر والاعدام. ففرح فرحاً شديداً ماعليه مزيد، وامر بزينة حبّا بالشيخة الفرنساوية واجرا الصلح بينه وبين القنصل الاول بونابارته، على حرب الانكليز والدولة العثمانية، بواسطة اقتدارها وانتشار قوتها.

واستعَد الملك باولو المشار اليه على مضادّة الانكليز والعثمانى، وكتب السلطان [باولو] للسلطان سليم ان يمنع الحرب عن الفرنساوية المتملكين الديار المصرية لبينما يدبّر امراً إلى الصلح. وإن لم يمتنع عن حرب الفرنساويين بينما اجري صلحهم مع الانكليز، وإلا يقتضى الأمر أن ينادى فى الحرب. فحين وقف على هذا السلطان سليم، فخرج حالا الأمر من الدولة العثمانية برفع الحرب عن الفرنساوية الذين هم بالديار المصرية. فهذا ما كان من القنصل الأول بونابارته.

وأما ما كان من الانكليز، فانهم لم يرتضوا بان يمتنعوا عن محاربة الفرنساويين، فاخذوا يدّبرون مكايد لهلاك السلطان باولو سلطان المسكوبين ، وبدوا يجمعون العساكر ليسيرهم الى مصر. فبلغ بونابارته ذلك، ففى الحال ارسل مركباً صغيراً الى مدينة الاسكندرية، واخبر امير الجيوش ان حاضرة لمحاربتهم عساكر الانكليزية بعشرين الف مقاتل واخبره بموت الجنرال ديزه فى حرب النمسا، فكان حزن عظيم عند الفرنساوية، واخبرهم ان يصنعوا ميتما على رؤساء العساكر. وان يتشدّدوا للحرب والجلاد. واوعدهم بالاسعاف والامداد. واوصاهم بحفظ البلاد، بقوة الحرب والجهاد.

وحين دخل ذلك المركب للاسكندرية، واوصل الكتابات الى عبدالله منو من بونابارته القنصل الاول، فعقد ديواناً فى مصر، وحضرت رؤساء العساكر والاوفيسيالية، وفرحوا فرحاً عظيماً

لانتصاره. والصلح مع الملوك، وهدوء المملكة وسكون حركاتها. وتأملوا بالامداد، وانسروا بصلح البابا وركون البلاد. وحزنوا لفقد الجنرال ديزه وصنعوا له ميتماً، واجتمعت الفرنساوية الى بركة اليزبكية، مع العلماء والحكّام وارباب الديوان. وصنعوا له تابوت، وخرجوا به من باب النصر وهم منكسين البندق، وساروا الى ارض القبة، وهناك عملوا المراثى والمناحة، واوردوا شجاعته وفروسيته، والانتصارات التى صارت عن يده. ثم اطلقوا البندق حول التابوت، وبكوا على فقد ذلك البهموت، ورجعوا الى القاهرة بحسرة وافرة.

[ذكر ما جرى للوزير الأعظم]

ثم نرجع لما كنّا [بايراده عن] الوزير الأعظم فانه بعد رجوعه الى ارض فلسطين، بعد تلاشى عسكره ذلك المتين. ابتدا يفرق الفرمانات على ساير الاقاليم والبلاد، بطلب العساكر للجهاد . وابتدت تتوارد عليه العساكر من ساير الاماكن، [فجرّد] عسكرا عظيماً.

وقد حدث بفلسطين وتلك الاقطار غلا جسيم، ومات من القحط اكثر اهل الديار، من كثرة تلك العساكر المتبادرة، والجيوش المتقاطرة، وتضايقت تلك العساكر من عدم المآكل، وماتت البهايم والدواب. ثم اعقب الغلا الطاعون المريع والموت الفجيع، فمات منه الشريف والوضيع، وحاق التلاف بكل الاطراف، بلا شك ولا خلاف وحل بهم الوبال والنكال، وماتت منهم خواص الرجال. ولم يبق من تلك العساكر الا الوجيز. ومات كل رهط وعزيز.

وقد مات من السناجق احسنهم وافرسهم. واجملهم ، وعدة وافرة من الممالك الجبارة ، وهم: مصطفى بيك الكبير، وايوب بيك الكبير، وعثمان بيك الشرقاوى، وعثمان بيك الطاويل[الطويل] ، وحسن بيك الجرداوى[الجداوى]، وقاسم بيك ابو سيف، وقاسم بيك امين البحر، والامير شروان. وذلك من غير الكشاف والسناجق الصغار.

وتقمقمت [تذمرت] عساكر الاسلام على ربّ الانام، اذا كانوا يقولون : ما يحل من الله العليّ العلاّم، ان الكفار يتنعموا فى خيرات مملكة الاسلام بتلك الديار، ونحن نهلك بالبرارى والقفار، ونلتقى الجوع وبرد الليل وحرّ النهار.

وقد كان بلغ الوزير الاعظم الاتفاق الذى وقع بين مراد بيك والأمير كليبر، وانه وعده اذا رحلت الفرنساوية يسلّمه الديار المصرية.

ثم بلغه ما حلّ بالامير كليبر من المنية ففرح فرحاً شديد[اً] ما عليه من مزيد ، وتامل بتملّك تلك الاقطار ، بعد زوال ذلك الاسد المغوار. فدعا ابراهيم بيك، وامره يكتب الى مراد بيك، ان يطالب عبدالله منو امير الجيوسن بوعد سلفه كليبر. وان لا بد لهم من الخروج [عن] هذه المملكة لكون لا قدرة لهم على الثبات، حيث لا اسعاف لهم ولا امداد . وقد بقوا قليلين العدد وكثيرين الاضداد، واخصامهم فى ساير البلاد. ومن المستحيل ان يقتدروا على هذا الجلاد، ومحاربة جميع العباد، والعساكر العثمانية والمراكب الانكليزية قايمة عليهم من كل الجهات. فخروجهم الان بالصلح والسلام، اوفق لهم من خروجهم بالقهر والرغام. واوعد الوزير لابراهيم بيك ان متى عولوا على الامتثال، وخرجوا على هذا المنوال، يسلّم المملكة إلى الغز المصريين، كما وعدهم كليبر، ويرتحل هو للقسطنطينية بالعساكر الهمايونية. ويرسل وزيراً يكون بالقلعة السلطانية، وذلك حكم الايام السالفة، بدون مناقضة ولا مخالفة.

فكتب ابراهيم بيك ما امره الوزير ، وكتب ايضاً الوزير فرمانا الى مراد بيك بهذا الشأن.

ولما وصلت الى مراد بيك هذه الكتابات رآها، وفى الحال كتب الى أمير الجيوش يعرفه بتلك الاسباب. وارسل بها عثمان بيك البرديسى، وامره ان يشرح الى امير الجيوش عبدالله منو ما ذكره الوزير الاعظم، ويعرض عليه ذلك الفرمان الذى اتاه.

فتوجه عثمان بيك إلى مصر وأخبر أمير الجيوش فى تلك الكتابات،وأعرض عليه الفرمان، فتغيرت منه الاحوال واجابه: اننا نحن لسنا عازمين الان على الخروج من هذه المملكة، فمتى عزمنا واردنا ان نتركها نبقى فى ذلك الوقت نقيم بوعدنا مع مراد بيك. ومع ذلك مراد بيك قاطن بمملكة مصر براحة كلية، وقد صار عضواً من أعضاء المشيخة الفرنساوية، ولا يكن مهتماً الا بذاته. فاجابه عثمان بيك البرديسى: ان مولاى مراد بيك ارسلنى للتخبير لك بالصورة الواقعة والمكاتبة، لا على صورة السؤال والمطالبة. ولابد رفع الريب والشكوك عنه، لان لابد كان يبلغ حضرتك رسالة الوزير الاعظم لمولاى، فيحصل الشكوك والريب. وأقام عثمان بيك بمصر، بعد هذا الكلام، مدة ايام بالعز والاكرام. وقد كان جاب جانبا من الاموال الميرية المستوجبة على مراد بيك للمشيخة الفرنساوية. وبعد ذلك اخبر مراد بيك بجواب امير الجيوش، فكتب لابراهيم بيك عن جواب الفرنساوية.

وقد كان مراد بيك غير مطمان من طرف الدولة العثمانية. فلذلك لم يبال بذلك الجواب، وبالنفور الذى ابداه امير الجيوش على الوزير، لانه كان قايماً فى صعيد [مصر] بعيش رغيد.

واما ابراهيم بيك ومن معه من الغز المصريين، الذين كانوا مع الوزير متحدين. كانت قلوبهم ايضاً غير امينة، والخشية فى قلوبهم كمينه، وهم خايفين من غدر الدولة ونياتها المدغولة.. فاجتمعوا فى بعضهم، ودبروا امرهم. وانهم يلتجوا الى الانكليز، فقبلهم السر عسكر سميت، وامنهم بميثاق شديد. واعرض امرهم الى باب الدولة العثمانية، واستخرج لهم الخطوط الشريفة من الدولة المنيفة، بالامانات الوثيقة والعهود الحقيقية. فاطمأنوا الغز المماليك، وامنوا من المهالك. فاشتهر امرهم وبان سرهم بانهم قد صاروا فى حماية الانكليز، بكل امن حريز.

[ذكر نزول العساكر الانكليزية والعثمانية فى ابوقير]

وكانت فى ذلك الوقت الحركة فى مصر من شهر صفر سنة ١٢١٥ الى شهر شوال كمالة(٧٩) الثمانية اشهر. وفى شهر رمضان ثمانية ايام منه (٨٠)، ظهرت الشمس والقمر معاً فى وسط النهار. وكان بالقرب من القمر نجوم تشعشع جداً كالنار، وكان النيِّران اى الشمس والقمر ظاهران. وقد تم ما قيل إذا ظهر [النيِّران] بميقات واحد يلطف باهل الكنانة.

وفى هذا الشهر المذكور، اقبلت على البواغيظ الاسكندرية ماية وخمسون مركباً انكليزية مشحونة بالرجال والابطال. فارتجت لقدومهم اسكندرية

وتلك الاطلال. وكتب الجنرال فوريه الحاكم بالاسكندرية، يعلم امير الجيوش بمصر بقدوم تلك المراكب ويستنجده.

ولما وصل الكتاب، حالاً جهّز العساكر وارسلهم عن طريق رشيد. وثالث يوم حضر له كتاب ثانى من الجنرال المذكور، بان المراكب، اذ لم تستطع الوقوف تجاه الاسكندرية من المدافع، فرجعت بطريقها مولية. فكتب امير الجيوش للعسكر المرسول ان يرجعوا، واطمان قلبه ظاناً ان اعداه الانكليز هربت منه.

وكان الامر ضدّ ذلك، لان المراكب المذكورة، اذ لم تستطع المقابلة بوجه الاسكندرية لكثرة حصونها، فرجعت إلى أبوقير، وخرجت العساكر من المراكب إلى البر، وبنت المتاريس المتينة. وكانوا عشرين الف مقاتل، وهولا الذين اخبر عنهم بونابارته من باريز وحذرهم من ذلك صد التحريز.

وقد بلغ الخبر إلى الجنرال فوريه أن تلك العمارة أخرجت عساكرها إلى أبو قير. فبالحال سار اليهم بثمانماية مقاتل، وانتشب فيما بينهم القتال. وقد كانت واقعة من الاهوال، وانكسرت الفرنساوية ورجعت للاسكندرية.

وأرسل الجنرال المذكور واخبر امير الجيوش بتحصين الانكليز فى ابو قير، وقدوم عمارة العثمانية. فارتجت الفرنساوية رجةً قويةً. وجهز امير الجيوش العساكر وارسلهم على طريق رشيد. وقد خافت باقى الفرنساوية الذين بقوا بمصر، وبان عليهم اشارات الغلبة. وبدوا يخلون المنازل القاطنين بها، ويتحصّنون فى القلعة الكبيرة وفى الجيزة.

وسقطت عليهم الاوهام، وتنكست منهم الاعلام. وتيقنوا بالزوال وعدم الدوام، من كثرة الاخصام، ومبادرة الاعادى من كل فج ووادى.

وكانت العساكر الانكليزية والعثمانية ينوفون عن الخمسة وثلاثون الف جنكية[مقاتل]. وذلك ما عدا عساكر الوزير الاعظم الوارد من الشام، وعسكر وارد من ارض الهند الشرقى على طريق القُصَير، خلا عن سكّان الاقاليم المصرية القايمة على قدم وساق، مع العساكر القادمين بالاتّفاق.

ومن هذا القبيل قد ارتجّت قلوب الفرنساوية. وكانت قلوبهم منقسمة وغير محتزمة، كرهاً منهم فى امير الجيوش، لانه فرق قلوبهم. لان فى جلوسه على تخت القاهرة كره رجال سلفه كليبر.

وبالاختصار نقول: ان الامير عبدالله منو، بعد ثلاثة ايّام، سار بباقى العساكر على طريق رشيد، وولى مكانه الجنرال بليار قيمقام. وهذا الجنرال من رجال الجنرال ديزه حاكم الصعيد سابقاً، وكان رئيساً فى الاحكام، شديد الباس فى الحرب والصدام.

وكان الفرنساوية بدت تخلى الاقاليم والبلاد، ويتجمّعون فى مدينة مصر. ثم قد اخلوا قطية وبلبيس والصالحية، وجميع الوجه الشرقى، وارض الصعيد ودمياط والمنصورة. وقد انحصروا فى القاهرة والرحمانية، وفى رشيد امام العساكر العثمانية والانكليزية. وكانت عدة المحاربين من الفرنساوية ثلاثة عشر الف مقاتل فقط. ما عدا ارباب الصنايع والنساء والاولاد فكانوا مقدار سبعة

الاف. والبقية ماتوا بالحروب والجلاد، والبعض توجهوا للبلاد [فرنسا]. فهؤلاء جميعهم انحصروا فى القاهرة والرحمانية ورشيد والاسكندرية، وبقى فى بوغاز دمياط المعروف بالعزبة مايتان صلدات.

ومن بعد حضور حسين قبطان باشا، سارى عسكر العمارة العثمانية مع عمارة الانكليزية، وطلوعهم لابوقير، هجموا على رشيد. واذ لم يستطع الجنرال حاكم رشيد والعساكر الفرنساوية لمصادمة هؤلاء الجيوش، فسلم المدينة وخرج. وبنت العساكر الفرنساوية متاريسها فى الرحمانية. وانتشب الحرب بين العسكرين. وكان ذلك فى ابتداء شهر ذى القعدة الى ثمانية ذى الحجة ختام سنة ١٢١٥ (٨١).

[ذكر الطاعون الذى حدث فى مصر]

وكان فى تلك الايام حدث طاعون عظيم فى مدينة مصر واقطارها ومات فى الصعيد الامير الشهير، صاحب الكوكب المنير، الامير مراد بيك. وكان حزناً عظيماً عند الغز المصريين، لانه طفى سراج زمرة المماليك الشجعين. ومات سليمان بيك وعدّة من الكشاف والمماليك.

وعند موت مراد بيك جمع مماليكه واقام عليهم مملوكه عثمان بيك الطوبجى [الطنبرجى]. وسلم الخزنة الى مملوكه عثمان بيك البرديسى. واوصاهم بان يكونوا فى طاعة ابراهيم بيك الكبير، ويكونوا متحدين مع بعضهم بعض. ومات هذا الامير المذكور فى ختام سنة ١٢١٥ (٨٢). ومات فى مدينة مصر عدّة من الفرنساوية. وكذلك من الرعية.

[ذكر الحرب بين الفرنسيين وبين الانكليز والعثمانيين]

وفى هذا الشهر المذكور، نهض الوزير الاعظم يوسف باشا من اراضى غزّة بالجيوش العثمانية، قاصداً الديار المصرية. وكان بطياً فى مسيرة خشية من انقلاب الوقت وتغيره. لانه قد كان جرب حرب الفرنساوية، واختبر جسارة قلبهم المتين.

وقد عظمت الاهوال على الفرنساوية، واحطات بهم الاعدا من كل ناحية. وشرع الجنرال بليار يحصّن القاهرة. وحفر خندقاً عميقاً، من باب الحديد الذى بالقرب من اليزبكية، الى شاطى بحر النيل ببولاق. وغرس حافات الخندق اصول النخل. وصنع من وراه ابراجاً من النخل والرمل بمتاريس عظيمة، ووضع عليهم المدافع الكبار. وحصن مدينة الجيزة والقلعة الكبيرة، واشحنها بالجبخانات العظيمة. وادخل المشاق والزيت استعداداً للحريق.

هذا والحرب مشتدّاً بين العساكر الفرنساوية والجيوش العثمانية والانكليزية. وذلك فى اراضى الرحمانية.

ومات من الفريقين جمع عديد بهذه الحرب الشديدة. ومات اربع سوارى عسكر من الانكليزية، وعدة جنرالية من الفرنساوية. وانجرح الجنرال لانوس جرحاً بليغاً ومات منه. وقبل وفاته دخل عليه امير الجيوش عبدالله منو وبكى عليه وقال له: سلامتك ايها البطل من الهلاك، ولا تشمت بك اعداك. فيتنفس الجنرال لانوس الصعدا من فواد

مجروح من سهام الاعدا، واجابه قايلاً: قد القيتنا ايها الجنرال ببحر الهلاك من فساد رأيك وكبرياك. فلا يسوغ للذى نظيرك ان يكون امير الجيوش الفرنساوية. ومدبر حروبها القوية. بل يجب ان يكون مدبراً فى مطبخ المشيخة. لانك لو كنت تركت العساكر سايرة فى طريقها، لما كانت اعدانا الانكليز قدرت تملك منا البر، وتتمكّن هذا التمكين. فكان ذلك من جبروتك وعنادك المبين. ومات هذا الجنرال، وحزنت عليه الفرنساوية حزناً عظيماً.

وقد كانت هذه الوقعة الاخيرة التى انجرح بها لانوس ومات، غلبت الفرنساوية وانتصرت على العثمانية والانكليزية.

وعزمت عساكر الانكليز ان تسلم ارواحها الى الاسر. وقد كان مقدّم الحرب فى تلك الوقعة لانوس البطل المشهور الليث الجسور. وهذا المذكور كان فى ذلك اليوم اظهر فى الحرب عجايب وفنون الغرايب. وجاهد فى الكفاح، الى ان غُلبت الاعدا وارموا السلاح. وعند ما اصابه ذلك الجراح، حضر إلى معونته امير الجيوش، وحمل على الاخصام. وامر [رؤوس] العساكر، والجنرال داماس، وهم المكروهين منه، ان يتقدّما لمساعدة لانوس. فتخلفا وابيا عن التقدّم.

وقرعت طبول الكسرة والرجوع الى ورا نكايةً فى امير الجيوش. وارتدّت العساكر الفرنساوية، وتظاهرت عليهم العساكر الانكليزية، لما علموا من الانفساخ الذى ظهر فيما بينهم. فانتصروا عليهم نصرةً عظيمة، من بعد ما كانوا ايسوا من السلامة والغنيمة. وارتدّت الفرنساوية الى متاريسها. وظهر فى هذه المعركة الجنرال نقولا الرومى وعارك عراكاً شديداً.

فعندما نظر امير الجيوش انقسام قلوب العساكر، اجمع رايه ان يترك جانباً، بالمتاريس بارض الرحمانية، نحو ثلاثة الاف. وسار بباقى العسكر الى الاسكندرية، وبدا يبنى المتاريس فى خارج المدينة. و[أ] قفل ابواب البلد.

فجاءت الانكليزية وقطعت السرى [الجسر] الذى بين بحر المالح [البحر المتوسط] وبين خليج النيل المودّى الى الاسكندرية. وكان قصد الانكليز قطع الطريق ما بين اسكندرية والقاهرة لاجل شدة المحاصرة.

وكان ابراهيم باشا قد احرق قطية وتسلّم مدينة دمياط. واما العساكر التى كان ابقاها امير الجيوش فى المتاريس بالرحمانية، فانهم عملوا حرباً عظيماً، وتركوا المتاريس ليلاً، وتوجّهوا الى مصر.

وصارت العساكر الفرنساوية قسمان: قسم بالاسكندرية مع امير الجيوش ، وقسم القاهرة مع الجنرال بليار أعظم الجبابرة.

وتقدمت عساكر الوزير للحصار من كل فج وديار، وداروا حول مصر شرقاً وغرباً وبراً وبحراً. ونهضت الغزّ المصريون عزوة مراد بيك من اراضى الصعيد، واتوا الى مدينة رشيد، وقابلوا حسين باشاً قبوطان. واختلطت العساكر العثمانية مع المصرية والانكليزية، حول مصر [الغربية] وقدم الوزير الاعظم بعساكره من الجهة الشرقية، وابطى ايابه ابطاءً زايداً. وكان السبب انه حضرت له اوامر من الباب العالى، والى حسين باشا قبوطان، ان يتوقفا فى الحرب عن الفرنساوية المقيمين فى مصر كما

ذكرنا سببه سابقاً، وان المكاتب ارسلها السلطان باولو ملك روسيا.

وفى غضون ذلك، جدّت الاعلام من الباب العالى بوفاة المشار اليه السلطان باولو، الذى كان مع الفرنساوية ضد الانكليزية. فعند حقيقة تلك الاخبار، رجعوا لما كانوا عليه من الحصار، واخراج الفرنساوية من الديار المصرية. وكان ذلك فى شهر محرم سنة ١٢١٦(٨٣).

هذا والجنرال بليار لم يكن عنده افتتاح اخبار. وكل ذلك من انقطاع الطرق والمسالك. فارسل ماية هجان على طريق البرية الى مدينة الاسكندرية، لينظر الاخبار من تلك الديار، وما جد من الامور من طرف الجمهور. وسارت الماية هجان وغابوا مدة طويلة، نحو اربعين يوماً، وما خبر منهم بان. وكان الجنرال بليار فى اضطراب عظيم [ووسواس] جسيم، من عدم ايابهم وطول غيابهم.

وبعد المدة المذكورة، حضروا الهجانة عن طريق الجبل، وجازوا ليلاً على معسكر الانكليز المقيم أمام الجيزة غربى الكنانة. ولم [يحسوا] بهم حين مروّا عليهم ودخلوا الجيزة. وحضروا لدى الجنرال بليار واطلعوه على صحة الاخبار.

واتى له جواب من امير الجيوش يعلمه انه حضر مركب صغير من مدينة باريز، وصحبته كتابات من القنصل الكبير يعلم بها ان السلطان باولو سلطان المسكوبية اتحد معه على حرب الانكليز، وارسل إلى الدولة العثمانية برفع الحرب عن الفرنساوية الذين بالديار المصرية. ولم يكن داريا بوفاة السلطان باولو الذى كان قد اوقف الحرب.

وحضر كتاب الى الجنرال يعقوب القبطى يمدحه على شجاعته وفروسيته، ويوعده بسمو مرتبته، ويشدده على الحرب والجلاد ومصادمة الأضداد. وأن لابد له من الإسعاف من المشيخة والأمداد.

وعندما تحقق الجنرال بليار تلك الاخبار، اخذ الفين مقاتل وسار بهم ليلاً الى معسكر الوزير. وكانت قد وصلت طلايع الوزير الاعظم الى بلبيس، مسافة يوم عن القاهرة. وهناك تلاطمت العساكر العثمانية مع عساكر الفرنساوية. ومات عدّة من الارناوط ومن الغزّ.

وحين نظر الجنرال بليار ان جيوش الترك كثيرة، وهم قاصدون الجلاد والغزو والجهاد. وليس الامر، كما زعم امير الجيوش، بان الحرب متوقف. فرجع الى مصر فى حمية. وتمكّن داخل الحصارات القوية.

وابتدت العساكر تتوارد، الى شهر صفر سنة ١٢١٦(٨٤)، حتى بلغوا بالقرب من القاهرة. وكان الوزير الاعظم قادماً من الشرق، وحسين باشا من الغرب مع عسكر الانكليز. وضرب الوزير الرستاق [المعسكر] فى ارض، شيرة [شبرا] والمكاس [المقس] فى القرب من الكنانة. وحسين باشا ضرب الرستاق مع عسكر الانكليزية امام مدينة الجيزة غربى مصر. وتكاثرت جيوشهم، واجتمع عليهم طموش غفيرة وعربان كثيرة.

هذا وذلك الجبّار والاسد المغوار، الجنرال بليار، قايماً فى الكنانة امام ذلك الجمّ. وقلبه اشدّ من الصخر الاصم. ووقعت هيبة. عند ذلك الجمع الملتئم، لان قد شاع ذكر هولا الشجعان فى ساير البلدان، واشتهرت طوتهم وانتشرت سطولتهم. وقد كانوا هولا العتاة لا يعرفون الموت من الحياة. فلذلك اجتهدت الدولة العثمانية باخراجهم من مملكة مصر بالسلامة والطمأنينة.

وقد خافوا ايضاً اذا ضايقوهم يطلقون النار فى البلد ويحرقوها. وكانوا، قادرين على ذلك لما عندهم من الاستعداد، وقوة الجلد والجهاد. فلذلك استقامت تلك العساكر والممالك [المماليك] يتداولون فى كيف يحتالون، وكيف يخرجونهم بالسلام والسكون.

[ذكر المفاوضات بين الفريقين المتحاربين]

وفى نصف صفر، ارسل السر عسكر الانكليز رسولا يطلب من الجنرال بليار ان يرسل احداً من طرفه لاجل المفاوضة بامر الصلح. فارسل له احد الكوميسارية. ولما وصل الى مقابلته، أخبره أولا بموت السلطان باولو. وكان قصده بهذا الخبر لاجل قطع امالهم من اعانة المسكوب وانقطاع رجاهم. ثم بدا يتفاوض معه بأمر الصلح وتسلم المملكة الى أصحابها. وذهابهم الى أوطانهم بالامان. ويريه انقطاعهم فى هذه البلاد وعدم اسعافهم والامداد. وان الخروج لابدّ منه. وكلّ محصور مأخوذ.

وبعد ذلك سيّره [على] ان يردّ عليه الجواب. فرجع الكوميسار الى عند بليار واعلمه بهذه الاخبار. وعن وفاة السلطان باولو وكلام سر عسكر الانكليز. فلما سمع الجنرال بليار هذه الاخبار صنع ديواناً، وجمع ساير الجنرالية ورؤساء العساكر الفرنساوية، واخبرهم بمخاطبة سر عسكر الانكليز، وطلبه الصلح والتسليم. ثم استشارهم كيف يكون الجواب، وما يقتضى رأيهم من الصواب. فمكثوا برهةً يتداولون ويتشاورون. ثم انه اجتمع رأيهم ان التسليم اوفق، وعدم الحرب ارفق. بحيث ان الخروج يكون سليم العاقبة على شروط مناسبة. وعلى ذلك عقدوا الرأى، وبدوا يسطرون شروطاً وعهوداً لتسليم مملكة مصر.

ومن بعد ان حرّروا الشروط، قدّموها الى الجنرال بليار، وارسلها إلى سر عسكر الانكليز مع الكوميسار.

ثم نصبوا خيمة فى برّ الجيزة بين العسكرين، وهناك تصير المفاوضة بين الفريقين. فالذين انقاموا وكلا لامر الصلح من طرف الفرنساوية: الكوميسار، ويوسف الترزى الارمنى. ومن طرف الانكليز. الجنرال سميت سارى عسكر، واحد الكوميسارية. ومن طرف الوزير الاعظم. عثمان بيك. ومن طرف حسين باشا قبطان. اسحق بيك.

واستمرت المداولات بامر الصلح اربعة ايّام. فحينما تمت تسجلت المواثيق والعهود، وانعقد الرأى تسليم مصر [واعطائها] الى الدولة العثمانية، وخروج العساكر وجميع الفرنساوية منها على موجب الشروط الاتى ذكرها، عن يد سيدنه سميت سر عسكر الدولة الانكليزية.

ثم حتمت الفرنسارية بان يكون التسليم عن يد حسين باشا قبطان، [بواسطة] الانكليز. وسببه كان هذا المشار اليه يميل لطرف الفرنساوية ميلاً عظيماً، وذلك قبل دخولهم واخذهم الاقطار المصرية. وقد [اتّهمه] الوزير الاعظم ان دخولهم كان باطلاعه.

وتقمقمت الفرنساوية على الوزير لدخوله في الجمعية، وقالوا: نحن لانعقد معه شروطاً ولا نقبل منه خطوطاً، لانه قد كان خان عهوداً مع امير جيوشنا الامير كليبر. واذ لم يقدر على التغلب عليه ارسل قتله خفيةً. ثم ثبت التسليم عن يد حسين باشا وسر عسكر الانكليز. وتسطرت اسطر الشروط وانختمت من الثلاث دول.

وهذه صورة الشروط:

[ذكر شروط الصلح بين الفريقين المتحاربين]

الشرط الأول

ان بلوكات العساكر الفرنساوية، برّية وبحرية، وبلوكات العساكر المساعدة [٨٥] المتحدة معهم، الذين [أمرهم] الجنرال بليار، يسلموا مدينة مصر والقلعة الكبيرة، وكامل القلع الصغار ببولاق والجيزة، وكامل اطراف مصر الموجودة بها الفرنساوية.

الشرط الثاني

كامل بلوكات العساكر الفرنساوية والعساكر المتحدة معهم، يتوجّهوا برّاً الى بندر رشيد من طرف شمالى النيل، بسلاحهم وعزالهم ومدافع البر وصناديق الجبخانة. لاجل يوسقوهم من رشيد ويتوجهوا الى اساكل بلاد فرنسا الموجودة فى بحر المتوسط. وكامل مصاريف ما ذكر تقوم بها الدولة العلية المصالحة. وسفر العساكر المذكورين والمتّحدين معهم، ونزولهم فى المراكب، يكون باسرع وقت. وغاية ما يكون من العاقة خمسين يوماً أوّلها من تاريخ هذه الشروط المحرّرة. ومن غير شك ان عساكر المذكورين يوخذوا بالمراكب الى اى اسكلة كانت، الى الطريق الاعدل والاقرب لفرنسا.

الشرط الثالث

من ابتدا هذه الشروط، تكون العداوة مرفوعة من الطرفين بالكلية. ويتسلم الى الدولتين المتحدين قلعة الظاهر [قلعة سولكويسكى] وباب مدينة الجيزة المسمّى الباب الهرامات. وعلى الوكلاء المشار اليهم ان يضبطوا الحدود، وعدم التخطى والاحتراز من وقوع الخلل.

الشرط الرابع

بعد اثنا عشر يوماً من هذا التاريخ، مدينة مصر وقلاعها، والقلعة الكبيرة والباقية، ومدينة بولاق، يخلون من العساكر الفرنساوية ومن المتحدين معهم. ويتوجّهون الى قصر العينى والروضة واتباعها، والجيزة واطرافها. ومن هناك يسافرون، فى غاية جدهم الى مسافة خمسة ايّام، لكى يتوجّهوا الى محل المراكب التى يسافرون بها. وكامل حكّام الانكليز والعثمانية يلتزمون يقدّمون مراكب، ويقيمون بمصارفهم ولزومهم فى بحر النيل، لاجل وسق عزالهم ومونتهم لحدّ البحر المالح. وجميع هذه المراكب تكون محضرةً بغاية السرعة والاهتمام، ويسلموهم إلى عساكر الفرنساوية بالجيزة.

الشرط الخامس

مشى العساكر ومحطاتها يكون معين لها جنرالية واهل مراتب من الطرفين. وكذا الايام المعينة للمشى من الواجب يكون المدبر فيها الجنرالية الانكليزية والعثمانية. وكذلك العساكر الفرنساوية المذكورون، والذين متحدون معهم، يكونوا مصطحبين بطريقهم من كوميسارية الانكليزية والعثمانية. فهم الذين يقومون بالمعاش الضرورى فى مسافة الطريق ومحطاتهم.

الشرط السادس

كامل العزال والجبخانات الذين يوسقونهم فى مراكب بحر النيل، يكونوا مغفرين مع بعض عساكر فرنساوية ومراكب حربية، من طرف الدولتين المتّحدتين.

الشرط السابع

فيكون محضّراً الى العساكر الفرنساوية والمتحَدين معهم، واتباعهم والذين صحبتهم، المونة المرتبة حسب قانونهم. من يوم سفرهم من الجيزة، الى يوم نزولهم فى المراكب. ومن ذلك اليوم تكون المونة مرتبة حسب قانون الانكليز الى يوم طلوعهم لبلاد فرنسا.

الشرط الثامن

يحضر من طرف حكام الانكليزية وحكام العثمانية، فى بر وبحر، المراكب الضروية الطيبة لاجل سفر العساكر الفرنساوية، وكامل ما يلوذ بهم، لاجل وصولهم الى اى اسكلة كانت من بلاد فرنسا الموجودة فى بحر المتوسط. ولاجل اتمام ذلك، يجب ان يحضروا كوميسارية من قبل حضرة الجنرال بليار، ومن قبل رؤساء عساكر الدولتين المتّحدتين براً أم بحراً. ومن بعد تاريخه، يجب ان الكوميسارية المتعيّنين من الطرفين يتوجّهون الى رشيد وابو قير، لاجل تحضير المراكب وكامل المطلوبات للسفر.

الشرط التاسع

ان الدولتين المتحدين يجب أن يحضرون اربع مراكب ام اكثر، ان امكن، لاجل نقل الخيول واللوازم لهم لحين نزولهم.

الشرط العاشر

يجب ان يتقدم الى العساكر الفرنساوية وكل المتحدين معهم، من الدولتين المتحدتين، مراكب حربية كفاية لاجل تغفيرهم ووصولهم سالمين الى فرنسا. والدولتين المتحدتين يضمنوا عدم وقوع الخلل والعداوة من طرف عساكرهم، الى حين وصول عساكر الفرنساوية والذين معهم الى فرنسا سالمين. وكذلك الجنرال بليار يوعد ويتعاهد، مع جميع العساكر التى تحت امره، ان لا يحصل منهم ادنى خلل للعمارة ولا لبلاد حضرة الدولة الانكليزية فى هذه المسافة.

وكذا لا يحصل ادنى تعرض وخلل ببلاد الباب العالى، ولا ببلاد الدول المتحدة معهما. فما لهم ان يتوقفوا فى اسكلة من الاساكل فى مسيرهم، بل انهم يقصدون بلاد فرنسا، ما عدا الامر الضرورى. ثم روسا عساكر فرنسا والانكليز والعثمانى يكون معهوداً عندهم جميع ما ذكر اعلاه ومحفوظا، طالما عساكر الفرنساوية موجودة بمصر، ومن هذا التاريخ الى دخولهم للمراكب.

وان حضرة الجنرال بليار حاكم العساكر الفرنساوية والمتحدين معهم، يتعاهد عن حكّام دولة فرنسا، ان جميع المراكب الموسوقة التى مسافرون بها، فبعد وصولهم يخرّجونهم جميعاً،

وترجع جميعاً، ولا ينعاق منها ولا مركب. وان القباطين بالمراكب المذكورة يشترون بمالهم مونتهم الضرورية الى رجعتهم. والجنرال بليار يتضمن رجوع هذه المراكب الى مواضعها بحيث انها لم تتداخلوا بامور حرب بالكلية.

الشرط الحادى عشر

جميع حكام السياسة المدنيين وارباب الحرف والصنايع وجميع الاشخاص المتعلقة بالفرنساوية ويحصل لهم سويةً للعساكر الحربية. وان حكّام السياسة وارباب العلوم والصنايع، يصحبون ويأخذون معهم جميع الاوراق والكتب ليس التى تخصّهم فقط، بل كلما يروه نافعاً لهم.

الشرط الثانى عشر

جميع سكّان مصر من اى طايفة كانت، من اراد منهم يتبع العساكر الفرنساوية، مسموح لهم ذلك. ومن بعد سفرهم لا يحصل لعيلته ولاله اذية.

الشرط الثالث عشر

جميع سكّان مصر من اى مذهب كانوا، لا يحصل لاحد منهم أذية، لا فى مالهم ولا فى اعيالهم ولا فى انفسهم، بسبب رفقهم للفرنساوية (٨٦).

الشرط الرابع عشر

جميع المرضى الذين ليس لهم طاقة على السفر، يستقيمون فى مصر فى بيمارستان، ويبقى عندهم حكماء وخدّام يداورونهم لحين شفاهم، ثم يُرَسلوا لفرنسا بالحفظ والصون. وان حكّام الدولتين يتعهّدون تحضير امر هولا المرضى من كامل النظام.

الشرط الخامس عشر

فى وقت فروغ مدة تسليم المدن والقلع كما ذكر قبله، فيحضروا الكوميسارية يتسلّموا المدافع والجبخانات والحواصل، وقوايم واوراق ومحلاّت وغير اشيا عمومية التى للفرنساوية، الى الدولتين المتّحدتين.

الشرط السادس عشر

حاكم البحر لازم يحضرٌ، قبل بساعة، مركب يسافر الى فرنسا، وياخذ واحد فسيال وكوميسار الى طولون، وياخذ لهم صورة هذه الشروط الى المشيخة الفرنساوية (٨٧).

الشرط السابع عشر

الذين يخالفون هذه الشروطات يحصل قصاصهم عن يد الكوميسارية وكذلك اذا وقع اختلاف فى الامور يكون نظامه واصلاحه بيد الكوميسارية.

الشرط الثامن عشر

بحال اتمام هذه الشروط جميع اسرا الحرب من الانكليز والعثمانىَ الموجودين عند الفرنساوية يحصل لهم الاطلاق والحرّية وكذلك حكّام عساكر الدولتين المتّحدتين يُعتقون كامل اسرا الفرنساوية الموجودين فى عرضيهم.

الشرط التاسع عشر

واحد من اكابر عسكر الانكليز، وواحد من اكابر عسكر الوزير الاعظم، وواحد من قبطان باشا، يكونوا موجودين عند الفرنساوية رهينةً. ويعطى بدلهم ثلاثة من مقامهم من الفرنساوية ولما ينتهى وصول الفرنساوية الى بلادهم يرجعون الرهاين المذكورين، ويروحون الذين كانوا بدلهم، وكل منهم الى محله.

الشرط العشرون

هذه الشروط ترسل مع واحد فسيال الى الجنرال منو للاسكندرية، وله مهلة عشرة ايّام من بعد وصولها ليده، ان كان يرضى على هذا الاتّفاق بذاته وعساكر الفرنساوية. ويحرّر قبوله ورضاه بخطّ يده الى سر عسكر الانكليز الذى مقيم قدّام الاسكندرية، لغاية عشرة ايّام بعد تاريخ وصول هذه الشروط ليده.

الشرط الحادى والعشرون

صورة هذه الشروط يعلّم عليها سوارى عسكر العامّ من طرف الثلاثة دول، ويرجع بعد أربعة وعشرين ساعة، وينتهى كل ذلك.

وقد تحرّر اربعة نسخ مختومة فى محلّ المسافة ما بين العرضين فى تاريخ مسيّدور سنة التاسعة للمشيخة فى نصف النهار الواقع فى ٢٧ يونيو سنة ١٨٠١ مسيحية الموافق ١٦ صفر سنة ١٢١٦.

وهذه هى الامضاوات(٨٨)

دونزلو [جنرال دى برجا].

موران [جنرال دي برجا].

تاربير [جنرال دى برجا].

جون هوب [جنرال دى برجا – انجليزى].

اسحاق بك [كتخدا قبطان باشي].

عثمان بك [كتخدا يوسف باشا].

قد أثبت ذلك:

جان هلى هتشنسون [سارى عسكر عام].

جيمس ستيفنسون [سارى عسكر بحرى انجليزى].

نحن قد اثبتنا جميع الشروط الواقعة فى هذا الاتفاق لاجل خلو مصر وتسليمها للباب العالى باب همايون المشيد: الصدر الاعظم يوسف باشا. حسين قبودان باشا.

لقد ثبت وتحقق هذه الشروط فى مسيدور [يونيو] سنة ٩ للمشيخة الفرنساوية الجنرال دى فازيون بليار.

طبعت فى مطبعة مصر الفرنساوية.

[ذكر جلاء الفرنسيين عن مصر]

ومن بعد تمام تلك الشروط، شرع الجنرال بليار بتخلية مدينة مصر القاهرة وخروج العساكر منها الى قصر العينى والى الجيزة. وتهيّا للخروج

معه الجنرال برتولمی[٨٩] كومندان بنی الروم مع عساكر الاروام، والكومندان يوسف الحموی واتباعه المعينون من شفا عمر وارض عكا، وعبد العال اغاة الانكشارية. وجميعهم [يخشون] الاقامة فی الديار المصرية بعد خروج الفرنساوية. وتهيّا معهم عدّة انفار من عامّ الناس، ونساء كثيرات من الاسلام كُنّ متزوّجات للفرنساوية، واستعدوا للسفر معهم. وقبل خروجهم، الجنرال بليار، أقام جسد كليبر من المحل الموضوع به بتابوت رصاص، فامر بنقل التابوت للجيزة باحتفال عظيم ومحفل جسيم، وضربوا مدافع كثيرة، وامر بتنزيل جثة سليمان القاتل مع الثلاثة رؤس ارفاقه، لانهم كانوا محنطّين ومصبّرين، فانزلوهم بحقارة للجيزة لاخذهم لفرنسا. ثم ان بعد الاثنى عشر يوماً المعيّنة لخروجهم من مصر الى الجيزة، بعد تجهيز كامل ما يلزم للجمهور الفرنساوی، نهض بليار فی العساكر الفرنساوية من القاهرة الى الجيزة فی ٢٨ صفر سنة ١٢١٦[٩٠].

وخليت مصر من الفرنساوية، ودخلت عساكر الوزير للمدينة. وكان فرح لايوصف عند الاسلام، وغمّ عظيم عند من كان من طرف الفرنساوية خاصّ وعامّ.

وتخبّت النصارى واليهود فی منازلهم، وكانت العساكر الاسلامية ای من وجدوه يعيروه بعد ما يهيّنوه.

وعندما بلغ الصدر الاعظم احوال العساكر، ارسل اغاة الانكشارية اطلق التنبيه بالمدينة، على الامان وعدم معارضة الرعية، ورفع الظلم والعدوان. وفرّق الظابتان على جميع الحارات وفی الشوارع والمحلات.

هذا والعسكر الفرنساوی لم يزل مقيم فی برّ الجيزة، لحينما تتجهزّ لهم المراكب لحمل اثقالهم لابوقير.

ومن بعْد اربعة ايّام من دخولهم الى الجيزة، تحضّرت لهم المراكب، فاشحنوا بها من الاثقال والمتعة والنساء والاولاد وجميع الذين لا يقدرون على المسير فی البر، وساروا برّاً وبحراً. وسارت امامهم عساكر الانكليز، ومن وراهم حسين باشا بعساكره، وهم فی وسط الفريقين. وساروا اربعة عشر يوماً من الجيزة الى قرب رشيد، ومكثوا هناك بينما تتجهزّ لهم الذخاير والمراكب، فتجهزّت، وسافروا من ابو قير فی غاية ربيع الأوّل سنة ١٢١٦ [٩١] طالبين فرنسا.

وكانت الانكليز، حينما خرجت الفرنساوية من مدينة الجيزة، تسلّموها وجعلوها محلاً لعساكرهم. ومن بعد سفر الفرنساوية بثمانية ايّام، مرض الجنرال يعقوب القبطی ومات.

فهذا ما كان من بليار.

وامّا امير الجيوش منو والفرنساوية الذين بمدينة الاسكندرية، فابوا الصلح والتسليم. وانهم لا يخرجون منها إلاّ بعد حرب عظيم.

وكان، بعد خروج الفرنساوية من مصر [القاهرة] ودخول عساكر الاسلام، دخل وزير الختام، وحسين باشا قبطان، بمحافل عظيمة.

ودخل صحبتهم ابراهيم باشا المحصّل والى حلب، وابراهيم باشا والى ديار بكر، ومحمد باشا ابو مرق، وطاهر باشا ارناوط، واغوات الانكشارية ورجال من الدولة العلية.

ومن امراء مصر ابراهيم بيك الكبير، وولده مرزوق بيك، وعثمان بيك الطنبورى، وعثمان بيك البرديسى، والالفى، ومحمد بيك المنفوخ، ومراد بيك الصغير، وعثمان بيك الأشقر، وسليم بيك ابو دياب، وعلى بيك، وايوب بيك، وعدّة كشّاف وكان يوماً عظيماً.

وخرجت لمقابلتهم علماء مصر واعيانها وكافة عوامها وسكّانها، وانتشرت الاعلام وانسرّت الانام، وفرحت الاسلام بخروج الافرنج الليام.

وصاحت المسلمون ما هذا الأ نصر من الله وفتح. وهاجوا هياجا عظيماً على النصارى، وقدّموا عروضات الى الوزير فى قتلهم ونهبهم وسلبهم، لم يصغ ذلك العادل لبغيهم ووشيهم. ولم يلتفت لفسادهم ومكرهم. واصدر فرمانا خطيًا لساير الحكّام والقضاة، بان لا يقبلوا دواعى التى حدثت بايّام الفرنساوية فى الايالة المصرية، جزئية كانت ام كلّية. ولم يرتض هذا الصدر النبيل ان يلتفت الى هذا القال والقيل، بل سلك مع الرعايا سلوك الملوك العادلين والسلاطين الاقدمين، وترك الانتقام لله الملك العلام. وكان [يوسفا] ثانياً بالامانة الى مصر الكنانة. وابتهجت مصر بزمانه من شيمه وعزيز امانه. وكثر البيع والشرا، وعمرت المدن والقرا، وربحت التجّار وتواردت من ساير الاقطار. وفرحت الخلق طرًا. ونارت به مصر وانشدت بذلك شعراً. وهو هذا:

اتى صدر الصدور لارض مصر
بنصر اشرقت فيه الديانة
بعام قد كساه النور ارّخ
به فتحت بيوسفها الكنانة

٧+ ٨٨٨+ ١٦٤ + ١٥٧=١٢١٦هـ.

واما حسين باشا قبطان، بعد ما بات ليلة فى مصر [القاهرة]، خرج الى الجيزة وسار مع الفرنساوية كما ذكرنا.

وبعد ما مهدّ الوزير مصر، اعطا ولايتها الى محمد باشا ابو مرق الذى كان عنده وكيل خرج. وهذا كان اصله من مدينة غزّة من عامة الناس، فاسعدته الاقدار باذن القهّار، حتّى ارتقى الى هذه المنازل العالية عند الصدر الاعظم بالتفاته اليه، والقى نظره عليه. فتقمقمت الوزرا الباقون، كونه ابن عرب قدّمه على الاخرين. ومن المعلوم ابن العرب عند ابن الترك مقاماتهم مخفوضة وراياتهم منقوصة.

وقد كان الوزير الأعظم، قبل تملك القاهرة أوعد لطاهر باشا الارناوط بولاية مصر ان فتحوها بالسيف. فحيث التفت الامور وخرج بالصلح الجمهور، فبطل الوعد لطاهر باشا، وكذلك لارضاء رجال الدولة به. فلاجل ذلك عدل عن تولىّ طاهر

باشا وولى محمد باشا ابو مرق. فارسل لدمياط احمد باشا مير مران(٩٢) وامره باخراج الفرنساوية من العزبة بامن. فارسل احمد باشا طمّن الفرنساوية، فلم يامنوا، بل تركوا القلعة وساروا لرشيد ليلاً، وسلّموا انفسهم للانكليز.

فهذا ما كان من الوزير وما دبّر بالديار المصرية.

واما ما كان من الاسكندرية، فان امير الجيوش عبدالله منو، حين حصلت له تلك الشروط، فاعتمد على المحاربة، وبدا فى بناء الحصون والمتاريس خارج البلاد، وكان منتظراً الامداد من بونابارته بما سبق من الاوعاد.

وبعد سفر بليار ومن معه العساكر، سارت العساكر الانكليزية والعثمانية الى الاسكندرية، ودارت بها براً وبحراً. وانتشب بينهم الحرب والقتال، بالمدافع والقنابر الثقال. ولم تزل القنابر والمدافع تتساقط وتزداد، وهم صابون من تلك الحرب والجلاد، الى ان قل ما عندهم من الزاد، وصار قحط مريع وجوع فزيع، ومات كثير منهم من الجوع وبليوا بالويل والفجوع. وكانوا يطحنون الرز وياكلونه، فيكون به اداء دون الغداء.

وانقهر امير الجيوش من مخامرة الجنرالين رانيه ودامس، فعقد ديواناً وشرع يبرهن خيانة الجنرالين المذكورين، والضرر الذى حدث منهما ضد العسكر. فاثبتت الشريعة عليهما الحقوق، وامر امير الجيوش بالترسيم عليهما فى منازلهما، وخلع الجنرالية عنهما، وضبط اموالهم وتعلقاتهما. هذا والحروب قايمة والنيّران دايمة، والهجمات على متاريس الفرنساوية متّصلة، وملاحمة غير منفصلة.

وفى تلك الايّام، حضر من بلاد الفرنساوية ستّة الاف صلدات فى المراكب، وقصدوا اسكلة درنة. وهذه بلد على شطّ البحر المالح فى برّ الاسكندرية. فبلغوا الانكليز قدومهم، فساروا اليهم مجدّين. وحين شعروا بهم ولّوا منهزمين. وحضروا أيضاً مراكب انكليز الى قُصير، وبهم عساكر من بلاد الهند ورؤساهم انكليز. ورجال الهند بلون السودان، وهم مختلفون الاديان، فمنهم يعبدون النيران، ومنهم يعبدون الاوثان. ولهم مذاهب متفرقة ولغات متنوْعة. ولا يلبسون سوى القمصان فقط فهولا القوم قد خرجوا من مراكبهم الى القصير، واتوا الى مدينة الجيزة حيث كان المعسكر هناك . ونصبوا المضارب والخيام، واستقروّا بها ايّام. وقيل انه جاز فى ذات يوم احد العساكر المصريين فى وطاق هولاء الهندين واخذ ناراً، فوثبوا عليه وكادوا يقتلونه وقدّموه الى سارى عسكرهم ليقضى عليه بالموت. وادّعوا انه لمس إلاههم، فخاف الرجل خوفاً عظيماً وقال: انى لست اعلم ما ذنبى. فرحمه السر عسكر اذ هو من الانكليز، وامر لذلك المصرى ان يدفع لهم ثمن الطعام الذى نجسه لما لمس النار.

وبعد ما استقروّا ايّاماً وجيزة فى مدينة الجيزة، ساروا الى مدينة الاسكندرية لاجل محاربة الفرنساوية. وكان فى ذلك الوقت مشتدّ القتال والجدال، وازداد الحصار فى البرارى والبحار، وزادت النار وقصرت الاعمار، وكلّ من الحرب كل قرم جبّار.

وبعد مضايقة كلية ومحاصرة قوية، ملت العساكر الفرنساوية، وعزمت على [تسليم] الاسكندرية، ومسيرهم فى الامان الى منازلهم والأوطان. فارتضت معهم الاسلام بان يخرجوا بالسلام، ويتركوا جبخاناتهم واسبابهم، ويمضوا بسلاحهم وذهابهم فقط. وخرجوا من الاسكندرية على هذا النمط.

وبعد وقوع الصلح والاتفاق، صنع امير الجيوش عبدالله منو وليمة عظيمة للسر عسكر الانكليز، والى رجال الدولة العثمانية. وقدّم لهم الطعام، وهو من لحوم الخيل والفار والقطاط والكلاب الوخام [الردئ]. واذ تفرّسوا بها سالوه عن تلك اللحوم، ولم ينكر عنهم واجابهم: انه ليس يوجد عنده غير ذلك، ولم يوجد عند الفرنساوية ما يسدّوا به رمق [الفؤاد] لما سلموكم البلاد. فرفعوا اياديهم عن الطعام وهم متعجّبون من تلك الكلام.

وخرجوا الفرنساوية من الاسكندرية. وتقاسما الدولتان الانكليزية والعثمانية جميع ما تركوه الفرنساوية، لانهم خرجوا بسلاحهم فقط، وساروا فى مراكب الانكليز الى بلاد باريز وخلوا مدافع وجبخانات وامتعة وذخاير وخيرات ودخل سارى عسكر الانكليز، وتسلم مدينة الاسكندرية.

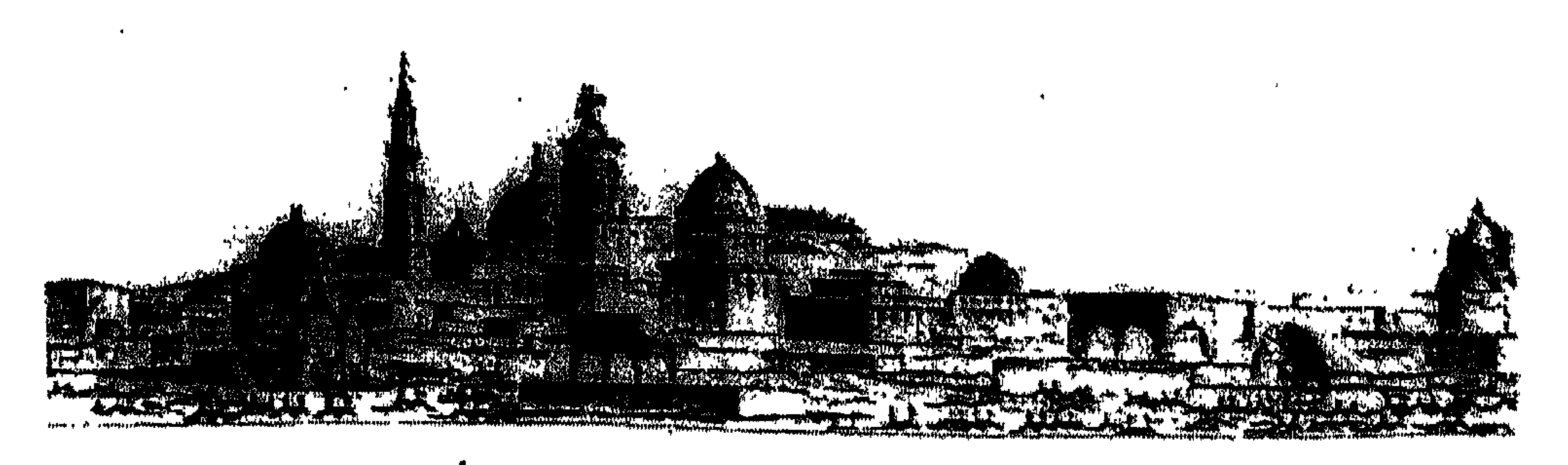
وكان تسليم الجنرال بليار وخروجه اصلح شان من تسليم منو فى الذل والهوان ولكن قد افتخر الجنرال منو على بليار انه ما وقع التسليم الاّ بعد الحرب العظيم والجوع الجسيم. فهذا على مقتضى شرايع مشيختهم واحكام دولتهم.

وكانت مدّة حصار الاسكندرية ستين يوماً، وكان خروجهم فى اواخر ربيع الثانى سنة ١٢١٦[٩٣]. وحضرت البشاير للصدر الاعظم، فامر بشنلك عظيم، وفرح فرحاً جسيم، وضربت مدافع كثيرة وحراقات غزيرة. وابتهجت الاسلام ورفعت الاعلام، وحمدوا ربّ الانام، وقالوا الحمد لله على تاييد الدين. وهذا نصر من الله وفتح مبين امين.

[خاتمة]

وقد تمت اخبار الفرنساوية، وما حدث من الوقايع في الديار المصرية. وكانت اقامتهم بتسعة وثلاثين شهراً، وكانوا، من دخولهم الى خروجهم، ما استكنوا من الحرب والقتال والمنازعة والجدال. وقد مات منهم خلق كثير، واهلكوا من الاسلام عالم لايرام.

والحمد لله على الدوام امين.



هوامش

(١) يبدأ شهر المحرم عام ١٣١٣ هـ بتاريخ ١٥ يونيو عام ١٧٩٨م. وقد وصل الجيش الفرنسي إلى الاسكندرية في السابع عشر من هذا الشهر من العام المذكور، الموافق للأول من يوليو عام ١٩٧٨م.

(٢) تسهيلاً للقارىء، رأينا ان نضيف على الكتاب عناوين لم تكن موجودة في النسخة الاصلية التي حققناها، وذلك بعد وضع هذه العناوين بين اشارتين [ ].

(٣) السلطان: الملك، ويقصد ملك فرنسا لويس السادس عشر الذى قامت في عهده الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ونفذ فيه حكم الاعدام على المقصلة بباريس، بتاريخ ٢١ يناير١٧٩٣.

(٤) هكذا وردت في الأصل، والصواب: مارى تيريز، لأن زوجته الملكة «مارى انطوانيت» اعدمت بدورها على المقصلة، بباريس، بتاريخ ١٦ اكتوبر ١٧٩٣.

(٥) حصن مشهور بباريس، شيد عام ١٢١٢، وكان، في الأساس، مركزاً رئيساً لاقامة الهيكليين Les Templiers، هدم عام ١٨٤٨ وأقيم مكانه سوق تجارى.

(٦) ورد فى أصل الوصية بالفرنسية ما تعريبه: «لاجلنا نحن البشر الآخرين. مهما كنّا غير مستحقين، وانا أولهم» ولكن المؤلف غيّر في العبارة فأتت على الوجه التالي: «لاجل خلاص كل البشر الذى انا اولهم ولو كنت غير مستحق لذلك» مما غيّر في جوهر المعنى. (راجع نص الوصية بالفرنسية في كتاب: Desjranjes Aine, His-francais en Ejypte PP. (roire de Lexpediin de 6-11) وهو ترجمة لكتاب «نقولا الترك» الذى نحن بصدد تحقيقه. واهمية هذه الترجمة أن صاحبها «ديغرانج اينيه» هو سكرتير الملك لويس فيليب ومترجمه الخاص، وقد صدرت هذه الترجمة، باذن من الملك نفسه، عن المطبعة الملكية بباريس عام ١٨٣٩). ويشير (اينيه) إلي أن هناك اخطاء عديدة في النص العربي للوصية، والذى اثبته الترك في الكتاب الذى بين ايدينا.
(Aine, Ibid, PP, 277-278, Nite 2)

(٧) كليرى Clery هو من حاشية الملك.

(٨) ورد في اصل الوصية بالفرنسية ما تعريبه: «ارجو السادة مالرب وترونشيه M, Malesherbes,Trinchet et de Seze ودى سيز أن يقبلوا شكرى...» وهو ما لم يذكره المؤلف.

(٩) استخدمت الثورة الفرنسية، منذ انتصارها عام ١٧٩٣ «الروزنامة الجمهورية» وقد قسمت السنة، حسب هذه الروزنامة، إلى ١٢ شهرا بالتساوى، عدد ايام كل منها ٣٠ يوما، يضاف اليها ٥ ايام نسىء (مكملة). وكانت الشهور مقسمة الى عشرة الايام وليس الى اسابيع فكان اليوم العاشر هو عطلتهم. وكان بدء السنة الجمهورية في ٢٢ سبتمبر ١٧٩٣، وهذه الشهور هى:

١ – فنديميير (Vendemiaire) أو شهر القطاف (لعنب)، وبدؤه في ٢٢ سبتمبر.
٢ – بريمير (Brumaire) أو شهر الضباب، وبدؤه فى ٢٢ اكتوبر.
٣ – فريمير (Frimaie) أو شهر الصقيع، وبدؤه في ٢١ نوفمبر.
٤ – نيفوزيه (Nivose) أو شهر الثلوج، وبدؤه في ٢١ ديسمبر.
٥ – بليفيوز (Pluviose) أو شهر الامطار، وبدؤه في ٢٠ يناير.
٦ – فانتوز (Vantose) أو شهر الرياح، وبدؤه في ١٩ فبراير.
٧ – جرمينال (Germinal) أو شهر البذار، وبدؤه في ٢١ مارس.
٨ – فلوريال (Floreal) أو شهر الزهور، وبدؤه في ٢٠ ابريل.
٩ – بريريال (Prairial) أو شهر المروج، وبدؤه في ٢٠ مايو.
١٠ – ميسيدور (Messidor) أو شهر الحصاد، وبدؤه في ١٩ يونيو.
١١ – ترميدور (Themidor) أو شهر الحرارة، وبدؤه في ١٩ يوليو.
١٢ – فريكتيودر (Fructidor) أو شهر الثمار، وبدؤه في ١٨ اغسطس.

وقد الغيت هذه الروزنامة في فرنسا عام ١٨٠٦.

(١٠) جزيرة كورفو Corfou : فى البحر الايونى Mer Io-nienne على الساحل اليونانى وعلى مدخل بحر الادرياتيك Mer Adriatique الموصل الى البندقية.

(١١) فيساليه: من Vassal بالفرنسية، وهو «التابع» (لقب اطلق في عهود الاقطاع على الاشخاص المرتبطين بالسيد أو الاقطاعى)، وهم، هنا: خدم المركب. أو من Offi-ciers اى: ضباط. وهكذا فهمها: ديغرانج اينيه في الترجمة التى وضعها لهذا الكتاب، Voir: Aine, Histoire, P) ١٦) الا اننا نرجح الرأى الاول.

(١٢) ينتهى شهر ذى القعدة عام ١٢١٢هـ. بتاريخ ١٦ مايو عام١٧٩٨م.

(١٣) ولس: دسيسة أو خديعة، والكوليرية: من Chevaliers بالفرنسية، أى الفرسان والمقصود هنا فرسان القديس يوحنا.

(١٤) بيلك، أو بكلك: مركب حربى حكومى أو سلطانى. وكان الجبرتى يكتبها «بليك».

(١٥) الموافق لـــ٢٧ يونيو/ ١٧٩٨.

(١٦) الريالة: اسم لمركب عثمانى يحمل قائده رتبة امير البحر (Contre - amiral).

(١٧) العجمى: مكان يبعد ستة اميال بحرية عن الاسكندرية غربا، مقابل جزيرة صغيرة حيث يوجد برج يعرفه باسم «برج العرب» وفى هذا المكان نزل الجيش الفرنسى فى شهر يونيو عام ١٧٩٨.

(١٨) حسرت: جلت وانكشفت. هكذا فهمها «ديغرانج اينيه P. 21» . اما «الجبرتى» فى كتابه «عجائب الآثار فى التراجم والاخبار، ج٤ :» فقد اوردهما: «واخرنا، من مدة عصور طويلة ..» . والفرق بين المعنيين كبير، فبينما يرى «اينيه» ان هذه الزمرة من المماليك «جلت، من مدة عصور طويلة ..من عصور طويلة من جبال الابازا الخ..» يرى الجبرتى أن ماورد فى المنشور، وهو بالعربية هو «وأخرنا، من مدة عصور طويلة هذه الزمرة من المماليك المجلوبين من بلاد الابازا الخ..» . ونحن نرجح ما ورد عند الجبرتى. (أي أخرنا عقوبتهم).

(١٩) جبال الابازا: جبال القفقاس. وجبال الكرجستان: ترجمها «اينيه» :

«جورجيا Ceorjie» ، (p. 21) اما «الجبرتى» فورد فى النص عنده «بلاد الابازة والجراكسة» . ونحن نرجح ما ورد عند الجبرتى، مع العلم ان جورجيا هى الجزء الجنوبى من القفقاس، وبلاد الجراكسة هى الجزء الشمالى منها، وتقع بلاد الكرج (كرجستان) الى الشرق من جبال القفقاس.

(٢٠) وردت فى الأصل: «والجوار الجمال والحلل الحسان والمساكن الأشهى» ووردت عند الجبرتى «الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة» . وقد وجدنا فرقا شاسعا فى النص المنقول للمنشور بين كل من الجبرتى والترك ، فقارن.

(٢١) درج المؤلف على كتابة (ثلاثة) و(ثلاث) بالشكل الوارد فى النص (ثلثة، ثلث، ثلثين)، فاقتضى التنويه دون التصحيح، لأنها تدرك من سياق المعنى.

(٢٢) ١٣ مسيدور أى الشهر العاشر من سنة الجمهورية الفرنسية وفى السنة السادسة من قيامها. ويقع فى شهر يوليو ١٧٩٨.

(٢٣) أى من الجزائر.

(٢٤) غلايط: جمع عن الفرنسية (Galiote) غليون صغير، وهو مركب شراعى صغير.

(٢٥) البيرق، ويذكر الجبرتى انه، فى يوم الثلاثاء (ليس الجمعة كما ذكر المؤلف) «صعد السيد عمر افندى نقيب الاشراف الى القلعة فأنزل منها بيرقا كبيرا سمته العامة البيرق النبوى، فنشره بين يديه من القلعة الى بولاق» .

(٢٦) الجنرال دومينيك دبوى Dominique Dupuy (١٧٦٧ – ١٧٩٨) ولد فى «تولوز»، وتميز ببطولاته فى اثناء حملة بونابرت على ايطاليا ومصر. عين حاكما على القاهرة، حيث قتل فيها خلال احد اعمال التمرد الشعبى على الاحتلال الفرنسى فى ثورة القاهرة الأولى.

(٢٧) يذكر الجبرتى ان ذلك كان يوم الثلاثاء «صفر وصحته الاربعاء ١١ صفر = ٢٥ يوليو ١٧٩٨ م. واما ما ذكره نقولا الترك هنا فهو خطأ وقد حاول د. ياسين سويد فى تحقيقه لهذه المخطوطه ان يصحح تاريخ نقولا الترك فذكر انه ١٩ صفر وهو خطأ واضح كذلك.

(٢٨) ورد رقم ١٢ هكذا فى الاصل دون اى توضيح. ويستكمل بانه كان فى صفر ١٢١٣ هـ. والجبرتى يذكر انه كان يوم الخميس ١٣ صفر وهو خطأ وصحته الخميس ١٢ صفر ١٢١٣ هـ.

(٢٩) القاووق: من ملابس الرأس.

(٣٠) الجنرال ديزيه Desaix واسمه Louis Desaix de veygoux (١٧٦٨ – ١٨٠٠)، كان قائد المقدمة فى حملة مصر، وقد لقب من قبل المصريين بالسلطان العادل، أسر من قبل الانكليز اثناء عودته من مصر، ثم اطلق سراحة والتحق ببونابرت فى ايطاليا حيث قتل فى معركة مارنجو.

(٣١) الجنرال مورا Murat (١٧٦٧ – ١٨١٥) كان قائدا مهما فى خيالة بونابرت، (١٨٠٠) واصبح مارشال فرنسا فى اوائل العهد الامبراطورى، حيث نصب دوقا اكبر على برج Berg ثم ملكا على نابولى (١٨٠٨) باسم يواكيم الاول. وفى عام ١٨١٤ اتفق مع الحلفاء ضد نابوليون للحافظ على ملكه، الا انه عاد فانضم اليه قبل واترلو، وكان من نتيجة ذلك انه طرد من ملكه بعد هذه المعركة، وقد حاول استرداد ملكة فأسر واعدم فى بيتزو Pitzo عام ١٨١٥.

(٣٢) الجنرال لانس Jean Lannes (١٧٦٩ – ١٨٠٩) دوق مونتبيلو Due de Montebello ، ومارشال فرنسا. تطوع كجندى فى الجنيش عام ١٧٩٢ حيث اصبح جنرالا بعد اربع سنوات (عام ١٧٩٦). وقد تميز ببطولاته فى حملتى ايطاليا ومصر.

(٣٣) الجنرال فيال Vial

(٣٤) القنصل كارلو (او القنصل شارل Charles) هو القنصل «شارل روزيتى Charles: Rosetti» القنصل العام للنمسا وروسيا، فى ذلك الحين، وقد لعب دورا سياسيا مهما فى تاريخ مصر فى تلك الحقبة وكان من المشايعين لفرنسا.

(٣٥) جبر النيل: يستخدم المصريون كلمة جبر للمعنى المضاد وهو كسر الجسر الذى يحجز ماء الفيضان وذلك من باب

التفاؤل.

(٣٦) بوفوازان، وقد وردت فى النسخة المطبوعة من تاريخ الامير حيدر الشهابى: «ثم ان توجه ذلك الجننار [الجنرال] الفيسالى المدعو باظان».

(٣٧) البحر الصغير: يصل ما بين المنصورة وبحيرة المنزلة.

(٣٨) سنة ١٢١٣ هـ. الموافق ليوم ٢٠ اكتوبر ١٧٩٨ م. الا ان هذا اليوم يوافق، وفقا لتقويم التواريخ الهجرية (للواء محمد مختار باشا)، يوم السبت، وليس يوم الاحد، اما إذا كانت الحادثة قد جرت يوم الاحد، كما ذكر المؤلف تاريخها ١١ جمادى الاولى الموافق لـ ٢١ اكتوبر.

(*) يذكره الجبرتى باسم الشيخ سليمان الجوسقى وهو الأصح.

(٣٩) المشاقة هى الشياب الرثة، والمقصود هنا فتايل اشعال المدافع.

(٤٠) يبدأ شهر شعبان عام ١٢١٣ هـ. بتاريخ ٨ يناير ١٧٩٩.

(٤١) عام ١٢١٣ هـ. الموافق لليوم العاشر من فبراير، عام ١٧٩٩ م. (يبدأ شهر رمضان ١٢١٣ هـ. بتاريخ ٦ فبراير ١٧٩٩ م).

(٤٢) الشَوْل: الصحراء المقفرة.

(٤٣) المارشال لويس الكسندر برتييه (١٧٥٣ - ١٨١٥)، ولد فى فرساى، وتطوع فى الجيش الملكى، وحصل على رتبة عقيد خلال الثورة الاميركية، ثم اصبح جنرالا وعين قائدا للحرس الوطنى، حيث امن حماية العائلة المالكة فى فرساى عام ١٧٨٩. وبعدها انضم الى بونابرت واصبح رئيسا لهيئة اركان جيش ايطاليا عام ١٧٩٦، ثم وزير للحربية الفرنسية (١٨٠٠ - ١٨٠٧) فمساعدا لقائد الجيش الكبير الامبراطور نابوليون الأول (١٨٠٥ - ١٨١٤) حصل على لقب مارشال فرنسا عام ١٨٠٤. وقد وقع على وثيقة استسلام نابوليون (عام ١٨١٤) وبعدها مباشرة انضم الى لويس الثامن عشر. وبعد عودة الامبراطور من منفاه (عودة المئة يوم - آذار ١٨١٥)، لجأ هو الى مدينة بامبرغ فى بافاريا حيث توفى، فى العام نفسه، وفى ظروف غامضة.

(٤٤) الموافق ليوم ٢٤ فبراير ١٧٩٩.

(٤٥) من المعروف ان بونابرت ذبح أهالى يافا بعد ان اعطاهم الأمان.

(٤٦) سنة ١٢١٣ هـ. الموافق للاول من مارس عام ١٧٩٩. (باعتبار ان شهر فبراير ٢٩ يوما، وان بدء رمضان هو فى ٦ فبراير).

(٤٧) سنة ١٢١٣ هـ الموافق ليوم ٨ آذار/ مارس ١٧٩٩ م.

(٤٨) الموافق ليوم ١٢ مارس ١٧٩٩.

(٤٩) هو الأميرال البريطانى السير وليم سيدنى سميث Sier William S. Smith (١٧٦٤ - ١٨٤٠) لعب دورا هاما فى الدفاع عن عكا عام ١٧٩٩ ضد بونابرت والى جانب الجزار، وقد كان قائدا للبحرية البريطانية فى شرق البحر المتوسط فى ذلك الحين، فأحبط الحصار الفرنسى لعكا وذلك بأن استولى على مدفعية الحصار الفرنسية فى عرض البحر وساند الجزار وقدم إليه المشورة.

(٥٠) أى مشايخ جبل عامل.

(٥١) وردت (جبل شيحا) فى نسخة الشهابى (ص ٢٦٣) وقد ورد فى (معجم البلدان) اسم (جبل شيخان) وهو جبل مشرف على جميع الجبال التى حول القدس، وأغلب الظن أنه هو الجبل المعنى.

(٥٢) الجنرال لوتيرك Leture.

(٥٣) وادى عبلين: واد يقع شمال بلدة، شفا عمر فى فلسطين، وتقوم بمحاذاته بلدة تسمى باسمه.

(٥٤) صفورية، وهى بلدة فى فلسطين تقع جنوب شرقى شفا عمر، على الطريق بين الناصرة وعكا.

(٥٥) تسلم الشيخ ضاهر العمر ولاية عكا طيلة ربع قرن (١٧٥٠ - ١٧٧٥)، وكان قد بدأ طموحه السياسى بجيش صغير من الصفديين (أهالى صفد التى حكمها فى بدء حياته السياسية خلفا لوالده الشيخ عمر الزيدانى) ثم صار جيشه يكبر ورقعة حكمه تتسع شيئا فشيئا، فأخذ طبريا (عام ١٧٣٧)، ثم ضم إليه عكا (عام ١٧٥٠) حيث أصبح واليا عليها، وتحالف مع على بك الكبير حاكم مصر ومع العاملين، وحارب العثمانيين فى صيدا (عام ١٧٧١) وظل حاكما لولاية عكا حتى وفاته ١٧٧٥، حيث خلفه عليها أحمد باشا الجزار الذى اضطهد أولاد ضاهر العمر بعد وفاة والدهم، فتحالفوا مع بونابرت ضده.

(٥٦) يذهب اينيه، فى ترجمته إلى أن «خرسان» هى جزيرة «كورسيكا» (Ainé, op cit. pp. 284 - 285) ونحن نذهب مذهبه، حيث أغلب الظن أن حامل البريد قد أتى من باريس الى كورسيكا فالاسكندرية، خاصة وأنه لا علاقة (لخراسان) بموضوع البحث اطلاقا.

(٥٧) الموافقة ليوم ١٦ مايو ١٧٩٩ (بدء شهر ذى الحجة عام ١٢١٣ هـ. يوم ٦ مايو ١٧٩٩).

(٥٨) الموافق ليوم ١٤ يونيو ١٧٩٩.

(٥٩) الموافق لشهر/ يوليو ١٧٩٩ م.

(٦٠) الموافق ليوم ١٦ يوليو ١٧٩٩ م.

(٦١) الاكراك: مفردها كرك، وهى، لغة اللون الاحمر. ترجمها اينيه بخلعة الشرف (Pélisses d'hommeur, Ainé, op. cit. P. 135). وغالب الظن ان المؤلف يقصد خلعة الامارة او الولاية التى يخلعها الباشا على من يوليهم الحكم من اتباعه. وربما تكون تلك الخلعة رداء مزركشا باللون

الاحمر علامة التباهى والغطرسة.

(٦٢) الدونما، او الدونمانمة، او الطونانماة: كلمة تركية تعنى: الاسطول. وقد عرف الاسطول المصرى فى عهد محمد على وكل من الخديوى عباس وسعيد واسماعيل، باسم «الدونتمة المصرية». وكما عرف الاسطول العثمانى باسم «الدونتمة الهمايونية» وا«الدونتمة السلطانية».

(٦٣) الموافق ليوم ١٩ يوليو ١٧٩٩م.

(٦٤) الموافق ليوم ٢٨ يوليو ١٧٩٩. الا ان الجبرتى يذكر ان وقعة ابى قير جرت ليلة الاربعاء فى ٢٠ صفر ١٢١٤ هـ. (الموافق لـ ٢٤ يوليو ١٧٩٩). ونحن نرجح ما ذكره الجبرتى.

(٦٥) يذكر الجبرتى ان الفرنسيين استولوا على قلعة ابى قير ليلة الاربعاء فى ٢٠ صفر، اى ليلة الوقعة نفسها.

(٦٦) الموافق ليوم ٤ اغسطس ١٧٩٩م.

(٦٧) سنة ١٢١٤هـ الموافق ليوم ٧ اغسطس ١٧٩٩م. (يبدأ شهر ربيع الاول عام ١٢١٤هـ. يوم السبت الواقع فى ٣ اغسطس ١٧٩٩م).

(٦٨) الموافق ليوم ١٠ اغسطس ١٧٩٩م.

(٦٩) سنة ١٢١٤هـ. الموافق ليوم ١٤ اغسطس ١٧٩٩م.

(٧٠) الموافق لشهر اغسطس ١٧٩٩م.

(٧١) الموافق للاول من سبتمبر ١٧٩٩م.

(٧٢) يبدأ، شهر شعبان عام ١٢١٤هـ. بتاريخ ٢٩ ديسمبر ١٧٩٩م.

(٧٣) الياتغان او اليطقان: سيف محدب عند الاتراك والعرب.

(٧٤) شهر شوال عام ١٢١٤هـ. الموافق لشهر مارس عام ١٨٠٠.

(٧٥) الجنرال بليار Augustin Daniel, Comte Belliard (١٧٦٩-١٨٣٢) رقى الى رتبة جنرال فى معركة آركول Arcole. وقد شارك فى حروب الثورة والامبراطورية، وعين سفيرا لبلاده فى بلجيكا من عام ١٨٣١ حتى وفاته، (فى عهد لويس فيليب).

(٧٦) مدينة زانتيو: تقع فى جزيرة زانتيو وهى جزيرة من الجزر الايونية.

(٧٧) هو سليمان الحلبى الذى قتل الجنرال كليبر طعنا بالخنجر.

(٧٨) بول الاول امبراطور روسيا (١٧٩٦-١٨٠١).

(٧٩) يبدأ شهر صفر عام ١٢١٥ هـ. بتاريخ ٢٤ يونيو ١٨٠٠م. وينتهى شهر شوال من العام الهجرى نفسه بتاريخ ١٥ مارس ١٨٠١م. وكمالة = تمام.

(٨٠) الموافق ليوم ٢٣ يناير ١٨٠١ (يبدأ شهر رمضان ١٢١٥هـ. بتاريخ ١٦ يناير ١٨٠١م).

(٨١) يبدأ شهر ذى القعدة عام ١٢١٥هـ. بتاريخ ١٦ مارس ١٨٠١م. ويقع ٨ ذو الحجة من العام نفسه بتاريخ ٢٢ ابريل ١٨٠١م.

(٨٢) اى فى منتصف مايو ١٨٠١م..

(٨٣) يبدأ شهر المحرم عام ١٢١٦هـ. بتاريخ ١٤ مايو ١٨٠١م.

(٨٤) يبدأ شهر صفر عام ١٢١٦هـ. بتاريخ ١٣ يونيو ١٨٠١م.

(٨٥) العساكر المساعدة، او الجيوش المساعدة هى وحدات عسكرية غير فرنسية، تتكون عادة من مواطنى المستعمرات. وهى هنا تتكون من الاقباط والاروام (المسيحيين) وبعض البدو والمرتزقة والانكشاريين اوالمغاربة والهوارة الهاربين من سلطة الدولة العثمانية.

(٨٦) ورد النص الفرنسى بما تعريبه، كاملا: «ان اى مواطن مصرى، الى اية طائفة انتمى، يجب ان لا يؤذى، لا بشخصه ولا بأمواله، بسبب اتصاله بالفرنسيين فى اثناء احتلالهم لمصر، على ان يتقيد، من الآن وصاعدا، بقوانين بلاده» ونرى ان الفرق شاسع بين النص الاصلى بالفرنسية وبين ما اورده الترك.

(٨٧) وردت فى النص الفرنسى بما تعريبه: «يجب على قائد الجيوش البحرية للقوى المتحالفة ان يجهز، وبالسرعة الممكنة، سفينة حربية تحمل الى طولون ضابطا ومفوّض حرب، مهمتهما تسليم الحكومة الفرنسية هذه الاتفاقية».

(٨٨) جنرال: عميد (Céneral de Brligade).

- الجنرال دونزلو Donzelot.
- الجنرال موران Moran.
- الجنرال تارير Tarayére.
- الجنرال جون هوب John Hope.
- هلى هتشنسون J. Hély Hutchinson (جنرال).
- اللورد كيت Lord Keith.
- القبطان (جيمس ستيفنسون Captain of Royal Navy. James Stivesnson) (وقد وقع الاتفاق نيابة عن اللورد كيت).

(٨٩) هو نفسه الجنرال بارتليمى Barthélemy الذى سبق ذكره، وهو من جزيرة «سيو» اليونانية.

(٩٠) الموافق للعاشر من يوليو ١٨٠١م.

(٩١) آخر ربيع الاول عام ١٢١٦هـ. الموافق للعاشر من اغسطس ١٨٠١م.

(٩٢) الميرميران: لقب يعطى للباشا بتوغ (Toug) ذى رتبتين.

(٩٣) الموافق لاوائل سبتمبر ١٨٠١م.

ملحق رقم (٣٦)

الشعب المصرى بين الاستعمار الفرنسى والاستعمار العثمانى

- ١ -

جابهت الجيش الفرنسى حين نزوله فى الاسكندرية مقاومة عفوية وقوية.

«فلم يشعر اهل الثغر وقت الصباح الا وهم كالجراد المنتشر حول البلد. فعندما خرج اهل الثغر وما انضم إليهم من العربان المجتمعة وكاشف البحيرة فلم يستطيعوا مدافعتهم ولا امكنهم ممانعتهم ولم يثبتوا لحربهم. وانهزم الكاشف ومن معه من العربان. ورجع اهل الثغر الى التترس فى البيوت والحيطان، ودخل الافرنج البلد وانبث فيها الكثير من ذلك العدد، كل ذلك واهل البلد لهم بالرمى مدافعون وعن انفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون».

وثمة بداية تفسير او تأويل «لوقائع» الهزيمة:

«وليس ثم عندهم للقتال استعداد لخلو الابراج من آلات الحرب والبارود».

حيث يوضح «المؤرخ» عدم الاستعداد والعجز عن الاستشراف والتشوف الذى يسم الادارة المحلية والادارة المركزية. ذلك ان الجبرتى يبدى رأيه صراحة بالمبادرات التى اتخذتها سلطات القاهرة، فى اجتماع الرؤساء العسكريين المماليك:

«فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مكاتبة بخبر الى اسلامبول، و(...) انفض المجلس على ذلك وكتبوا المكاتبة وأرسلها بكر باشا على طريق البر ليأتيه بالترياق من العراق».

الجبرتى/ ملحق (٣٦)

فلا جواب على المقاومة العفوية الا من سلطة هى اول من ولى الادبار تاركة الشعب أعزل. فالدعم الذى كانوا يرتجونه من السلطة المركزية انما يرتكز الى حسابات فاسدة: فهذه السلطة بعيدة جدا، كما ان الريبة فى قدرتها على الدفاع عن نفسها قد باتت تتزايد. واذن فمنذ اللحظة التى يندلع فيها التناقض الذى سيحكم الحقبة الأولى التى ستواجه ما بين مصر (وسنرى اية مصر هى) وبين الغازى الاجنبى، فان تناقضا آخر، فعالا وان غير معلن ولا نام، كان يواجه ما بين الاهالى وبين السلطة وادارتها. وقد استند الفرنسيون حين انزالهم على الاعيان الذين جمعوهم:

«ونادى الفرنسيس بالامان فى البلد ورفع بنديراته عليها وطلب اعيان الثغر فحضروا بين يديه فألزمهم بجمع السلاح واحضاره اليه».

وستتداخل علاقات المحتل بالاهالى طوال الاحتلال، بعلاقة هذا المحتل بالاعيان على كافة انواعهم - باستثناء البيروقراطية العسكرية غير المنضوية اليه من جهة، ثم علاقات الاعيان بالاهالى. وعلى اى حال فان اول اعلان لبونابرت سوف يدور حول هذه العلاقات المتناقضة المعقدة، وسيورد الجبرتى هذا الاعلان بكامله.

والاعلان البونابرتى فعل ادارى ولكنه ينقل ايديولوجية بالغة الدقة والوضوح، ويزيد من دلالتها أنها يمكن اعتبارها «كطرف الخيط» بالنسبة لمختلف مبادرات ادارة الاحتلال. فهى تفترض ان اضعف حلقات السلسلة هى العلاقات بين البيروقراطية العسكرية المستولية على السلطة وبين بقية الاهالى. كما تفترض ان الاسلام، أى الايديولوجية الدينية، هى اللحمة التى تمنع التناقض من الانفجار. فهدف الاعلان، او «المرسوم الذى طبعوه» كما

يسميه الجبرتي، هو التشديد على تعارض المصالح وتحييد العامل الايديولوجي:

«من مدة عصور طويلة هذه الزمرة من المماليك المجلوبين من بلاد الابازة والجراكسة يفسدون في الاقليم الحسن الاحسن الذى لا يوجد في كرة الارض، كلها.. يا ايها المصريون، قد قيل لكم انني ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين انني ما قدمت اليكم الا لاخلص حقكم من يد الظالمين وانني اكثر من المماليك اعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم».

ثم ان الاعلان الذى يحمل معه ايديولوجية الثورة الفرنسية، يشدد على عدم – التسوية في الثروات واختصاص المماليك، بكل شيء احسن فيها من الجوارى الحسان والارزاق. ثم يمضي الاعلان الى أبعد من ذلك في ما حمل واستورده من الايديولوجية. فهو لم يكن يضرب حتى الان الا على وتر اخلاقي ومعنوى غائم غامض، لكنه ها هو الآن يكشف وضع الفرق والطرائف والشيع التى تكبل المجتمع المصرى وتنال منه:

«ولكن بعونه تعالى من الان فصاعداً لاييأس احد من اهالى مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الامور وبذلك يصلح حال الامة كلها».

ان الاعلان يخاطب المصريين. بعد ان يخرج المماليك من عدادهم، عبر ممثليهم الاهليين الذين يغلب بينهم اولئك الذين يشغلون وظائف ذات تبغية دينية: «المشايخ والقضاة والائمة والجربجية واعيان البلد». ثم يخاطب هؤلاء الممثلين انفسهم عبر امانتهم للسلطة العثمانية، وهى امانة يشفعها الرباط الديني والادارى. واذ يتماثل هؤلاء الممثلون ويتماهون مع وظائفهم الايديولوجية والادارية فانهم يتصلون بعنصرين مختلفين: فهم يمارسون وظائفهم داخل الادارة المحلية المتصلة بالمجتمع الذى ينتمون اليه. ومن جهة اخرى فانهم يتبعون السلطة العثمانية التى تمثل مصدر الشرعية وتتماهى مع «بلاد الاسلام». ولا تفعل القرارات التى تلى فاتحة الاعلان سوى ان تؤكد هذا التحليل: فمعارضة الشعب سوف تقمع بالحديد والنار.

«المادة الثانية: كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوية تحرق بالنار» وبازاء ذلك فان الفرنسيين يعترفون «بالشرعية» العثمانية:

«المادة الثالثة: كل قرية تطيع العسكر الفرنساوية ايضا تنصب صنجاق السلطان العثماني محبنا دام بقاؤه».

فاما الموظفون: «الايديولوجيون» وموظفو الجهاز القضائي وكذلك ممثلو الجماعات القروية الذين يمثلون أولا وقبل كل شيء السلطة داخل هذه الجماعات فانهم:

«المادة الرابعة: الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والائمة انهم يلازمون وظائفهم..

«المادة الخامسة: المشايخ في كل بلد مختمون حالا جميع الارزاق والبيوت التى تتبع المماليك».

وبعد ان يورد الجبرتي الاعلان بدون ان يعلق عليه فانه ينتقل الى ردة فعل العاصمة. وحينها لايكتفي باظهار الوحدة التى رسخها التدخل:

«... فكانت كل طائفة من طوائف اهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون لهم خياما او يجلسون فى مكان خراب او مسجد ويرتبون لهم فيما يصرف عليهم ما يحتاجون اليه من الدراهم التى جمعوها من بعضهم وبعض الناس يتطوع بالانفاق على البعض الآخر ومنهم من يجهز جماعة من المغاربة والشوام بالسلاح والاكل وغير ذلك».

بل انه يقول ذلك ويشدد عليه:

«بحيث ان جميع الناس بذلوا ما فى وسعهم وفعلوا ما فى قوتهم وطاقتهم».

ولكن ذلك لا يؤدى به الى اغفال الشقاقات الداخلية التى سبق اظهارها لدى المقاومة:

«ومع ذلك فان قلوب الامراء لم تطمئن بذلك، فانهم من حين وصول الخبر لهم من الاسكندرية شرعوا فى نقل امتعتهم من البيوت الكبار المشهورة المعروفة الى البيوت الصغار التى لا يعرفها احد واستمروا طوال الليالى ينقلون الامتعة ويوزعونها عند معارفهم وثقاتهم وارسلوا البعض منها لبلاد الارياف، واخذوا ايضا فى تشهيل الاحمال واستحضار دواب للشيل وادوات الارتحال فلما رأى اهل البلدة منهم ذلك داخلهم الخوف الكثير والفزع واستعد الاغنياء واولو المقدرة للهروب ولولا ان الامراء منعوهم من ذلك وزجروهم وهددوا من اراد النقلة، لما بقى بمصر منهم احد». [وقائع صفر ١٢١٣].

كاشف البحيرة واهل الثغر (الاسكندرية)، الاغنياء والفقراء.. انه اذا كانت الكافة تشارك فى الاستعدادات الحربية، الا ان الحرب لا تطال كافة من يشاركون فيها بكيفية واحدة. ومع ان الجبرتى يضع القيادة السياسية والعسكرية خاصة موضع المقاضاة الا انه يعود بعد ان يشدد على اجماع الواجهة والتفسخات والشقاقات التى تنخر الجانب المصرى، فيلجأ فى تفسيره لهذه السلسلة الاولى من الوقائع الى مقالة سبق لسبينوزا ان وصف فيها اصحابها بالاهوائيين:

«.. ولكن لم يسعف (المصريين) الدهر».

ان الشرح او التعليق الغامض العابر والعلاقة الواضحة المحددة الناشئة عن الواقعات والتى تزيح الحقيقة المعروضة عن التعليق. مضيفة الى وضع المعلق تحديدا جديدا، ان هذه كلها ليست المعالم الوحيدة او العلامات الوحيدة على منزلة راوى الوقائع المزدوجة. فهناك كذلك تساوق وتكامل الواقعات فى تسلسل. فبعد ان يصف الجبرتى تدفق سكان القاهرة على بولاق حيث خط الدفاع. وبعد ان يصف الحرية التى تمتع بها اللصوص وقراءة الادعية و«غلاء» سعر البارود والرصاص. فانه يكتب يقول:

«وفى كل يوم يتزايد ويعظم الهول ويضيق الحال بالفقراء الذين يحصلون اقواتهم يوما فيوما لتعطيل الاسباب واجتماع الناس كلهم فى صعيد واحد، وانقطعت الطرق وتعدى الناس بعضهم على بعض لعدم التفات الحكام واشتغالهم بما دهمهم» [وقائع صفر ١٢١٣].

ان «الدهر» الذى يحمله المنطوق الايديولوجى فى الاستشهاد أعلاه وزر ما كان، لا يضعه الجبرتى فى مقابلة التناقضات التى تواجه ما بين مختلف العناصر فى المجتمع وحسب، بل يضعه كذلك فى

مقابلة ادانة صريحة لسلطة يعتبرها هو - اى الجبرتى - مسؤولة عن الهزيمة. ومرد هذه الهزيمة ليس قصورها وعدم كفاءاتها البينة وحسب بل وموقفها الذى سمح بكافة التفسخات المشار اليها:

«ثم فى كل يوم تكثر الاشاعة بقرب الفرنسيين الى مصر وتختلف الناس فى الجهة التى يقصدون المجيء منها فمنهم من يقول انهم واصلون من البر الغربى ومنهم من الجهتين، هذا وليس لأحد من أمراء العساكر همة أن يبعث جاسوسا او طليعة تناوشهم القتال قبل دخولهم وقربهم ووصولهم الى فناء مصر، بل كل من ابراهيم بك ومراد بك جمع عسكره ومكث مكانه لاينتقل عنه...» [وقائع صفر ١٢١٣].

وبالاضافة الى التناقضات التى سبقت الاشارة اليها (الادارة والاهالى - ثم الاغنياء والفقراء) فان هناك تناقضا جديدا داخل السلطة وملازما فى واقع الامر لبنيتها. هذا التناقض - كما سيظهر الجبرتى ذلك فيما بعد - هو تكون عصبيات منفصلة ومتناحرة يشكل حاصل جمعها الحسابى: السلطة. فأما هذه الاخيرة - اى السلطة - فانها مشلولة نتيجة الشقاق والتناحرات بحيث انها عاجزة عن اجماع امرها وتنظيم الدفاع عن البلاد. ولذا فان تعبئة الاهالى كانت تعبئة لا طائل فيها. فقد أركنوا الى سلطة جعلت تتخبط امام التدخل الاجنبى فى عجز سياسى وعسكرى، تامين كاملين. والجزاء العسكرى ساطع الوضوح فى هذا المجال: «ففى حين ركب جماعة من العساكر التى بالبر الغربى وتقدموا الى ناحية بشتيل (بلد مجاورة لانبابه) فتلاقوا مع مقدمة الفرنسيس فكروا عليهم الخيول فضربهم الفرنسيس ببنادقهم المتتابعة وأبلى الفريقان». فان عسكر البر الشرقى:

«فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقى والقتال. ضج العامة والغوغاء من الرعية واخلاط الناس بالصياح ورفع الاصوات بقولهم يارب يا لطيف ويا رجال الله ونحو ذلك. وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم».

وما يصفه الجبرتى ليس مواجهة عسكرية تقنية، حتى ولو كانت التقنية المضمرة فيه تلعب فى هذه المواجهة دورا غير يسير، بحيث ان صاحب الوقائع يشدد عليه حين يتكلم من موقف يتماهى مع وجهة النظر «المصرلية» عن مناورة الالتفاف التى قام بها الجيش الفرنسى:

حين «انقسم على كيفية معلومة عندهم فى الحرب وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطا بالعسكر من خلفه ومن امامه» .

وهو يعالج المعركة العسكرية عمليا «كميزان» للقوى، فهى تحل التناقض آنيا وذلك باعدام الخصم. فاما هذا الاخير فان صاحب الوقائع يصفه حتى إبان المعركة، بكثرة تعييناته التى يحكمها التعين السياسى: القيادة المفككة، فقدان الخطة فى المعركة، والمؤخرة المتروكة للنهب، ومضافرة هذه العناصر ليست نقلا للواقع العينى إلى النص وإنما هى نتيجة عملية بناء للواقع عينه من قبل نقولا الترك، اى وفق مقالات تقيم علاقات اخرى مختلفة بالواقع فان هذا الواقع لا يعود هو نفسه.

«... وهو ان امير اللواء مراد بك مع عساكره فما زالساير حتى وصل الى الرحمانية وهنالك قابل الفرنساوية قادمين كالبحر الزاخر والسيل القاطر.. ثم رموا الغلايط بمبه واحدة فجات فى

الذهبية الذى فيها الجبخانة فاحترقت واحرقت باقى الذهبيات من حولها وصعد النار من الذهبية الذى فى البحر ووقعت فى الجبخانة التى على البر فشالت فيها النار.. فحين نظرت عساكر البر هذه الحالة فنهضت وارتجعت الى ورى فداهمتهم الفرنساوى بالكلل والرصاص .. ودقت طبول الحرب وتقدم الى المحاربة والمضاربة احد الجنرالية دبوى البطل العظيم المعد فى الحرب بألف صنديد وهجم على عساكر الغز.. لان الغز ما اطلقت مدافعها سوى مرة واحدة وكانوا نحو ثمانين مدفعا لان الفرنساوية كانت الكلل تنزل عليهم وهم هاجمين على المتاريس الى ان ملكوها ودوروا مدافعها على عسكر الغز. فصارت الغز اعداهم امام وجوههم ومن البحر...».

يظهر وصف نقولا الترك الآنف قوام عمل التحويل والبناء لدى الجبرتى: فليس موضوع وقائعه ذاتا بمعنى الذات العارفة والقادرة كما جرى التعارف عليها فى الفلسفة الكلاسيكية او فى اللاهوت التاريخى، ولو كان ماديا. ونحن لا نقصد بهذا ان نؤكد على انه لم يوجه بنظره خلال المعركة أو خلال المرحلة التحضيرية لها، الى هذا المملوكى او ذاك الفرنسى وحسب، فهذا امر بين جدا، من جهة، كما انه ليس حاسما حقا، من الجهة الثانية. ثم ان القول بأنه ليس من ذات فى وقائع الجبرتى انما هو تأكيد على واقعة رئيسية مفادها انه ليس ثمة اى عنصر بسيط دقيق منتظم متجانس. فكافة العناصر التى تدخل فى التحليل هى عناصر معقدة ومتناقضة. وما يجمع هذه العناصر بعضها الى بعض انما هو العلاقات الداخلية التى تتدخل، وتحدد درجة الفعالية والتدخل. وهذا الامر هو ما جعل الوقائع حين كلامها عن الاستعدادات للمعركة ثم حين كلامهم عن المعركة نفسها، تلم بالمقاومة الاولى المهزومة وبالمضاربة على الأسعار وبالسرقة وبالمنافسة بين العصبيات المملوكية وبالصلوات.. اى بكافة ما لا تستطيع وقائع مكتوبة من وجهة نظر «ذات» قادرة تتماهى وتتماثل مع مسيرة التاريخ، ان تتكلم عنه فتغفله.

وبعد ان قطع الفرنسيون دابر «قمم» السلطة ورؤوسها لم يديروا البلاد مباشرة. بل استدعوا اولئك الذين توجه إليهم المنشور الأول «المشايخ والقضاة والائمة.. »لان نابوليون طلب ان يتفاوض معهم. وكان اول من التقاه شيخان ثانويان. اما اول ديوان فقد تم تشكيله من عشرة مشايخ اختيروا خلال جمعية ضمت كافة «المشايخ والوجاقلية» واما دور هذا الديوان فان المؤرخ يورده عبر مختلف مداخلاته ومساعيه. فالفرنسيون يعارضون «تقليد المناصب بجنس المماليك» فى حين ان المشايخ كانوا يلحون فى ذلك:

«فعرفوهم ان سوقة مصر لا يخافون الا من الاتراك ولا يحكمهم سواهم...»

كان العلماء يدافعون لدى الفرنسيين عن جهاز السلطة الذى طالما كانوا متعاضدين ومتضامنين معه. فكانوا «يتشفعون» لدى الفرنسيين فى «اسرى المماليك فيقبلون شفاعتهم ويطلقونهم». وبمقابل هذه المهاودات فان المحتل طلب الى الديوان ان يتوسط بينه وبين الاهالى ليعتصرهم. فقد طلبوا:

«دراهم سلفة وهى مقدار خمسمائة الف ريال من التجار المسلمين والنصارى القبط والشوام وتجار الافرنج ايضا فسألوا التخفيف فلم يجابوا فأخذوا فى تحصيلها».

وكذلك فان جيش الاحتلال جعل يستخدم هذا التضامن وهذا التعاضد بحيث يقوم المشايخ بنقل مطالبه هو لاسيما المالية منها، الى الوجهة المقابلة. وهكذا يتضح بالتدريج الدور الذى تلعبه هذه الشريحة فى مجتمع مصر لتلك الحقبة. فعندما فرض الفرنسيون على رؤساء «اهل الحرف» والتجار فرائض، فان هؤلاء لجأوا بدورهم الى نفس الوسطاء بغية حمل الفرنسيين على خفض غراماتهم:

و«تشفعوا بالمشايخ فتكلموا لهم ولطفوها الى نصف المطلوب ووسعوا لهم فى المهلة».

لكن ما ان يخرج الجنود الفرنسيون من القاهرة حتى يكون عليهم مواجهة عداء الشعب المصرى. ففى ابو زعبل رفض اهالى القرية تموين الجيش:

وتنتشر اشاعات عن وصول الاسطول الانجليزى الى الاسكندرية فيضطر الفرنسيون الى الرد على هذه الصيغة الماكرة من المقاومة. فكثرت مداهماتهم بقصد التفتيش عن مخابئ الاسلحة. وعندما اراد بونابرت «ان يعظم ويشرف اعضاء الديوان بزيه وعلامته» و«وضع طيلسانا ذا ثلاثة عروض ابيض واحمر وكحلى على كتف الشيخ الشرقاوى فرمى به الى الأرض واستغنى وتغير مزاجه وانتقع لونه واحتد طبعه».

[وقائع ربيع اول ١٢١٣].

و«عندما نادى جماعة القلقات على الناس بوضع العلامات المذكورة المعروفة بالوردة (الجوكار) وهى اشارة الطاعة والمحبة «فأنف غالب الناس من وضعها» وفشلت امام عناد الشعب ورفضه لاية صورة من صور الالحاق الرمزى وعندما مر «صارى عسكر» الجيش الفرنسى امام الناس الذين «وافق ان حضر آغا رومى وكان معوقا الاسكندرية فمر بالشارع... تشاهده الناس فاستغربوا هيئته وفرحوا برؤيته وقالوا هذا رسول الحى حضر عند السلطان بجواب للفرنسيس يأمرهم بالخروج من مصر.. فعندما مر بعسكره وطوافيه من باب المشهد[الحسينى] والناس قد كثر ازدحامهم.. وهم يلغطون ويخلطون.. داخله امر من ذلك فصاحوا بأجمعهم وقالوا بصوت عالى: الفاتحة فشخص اليهم وصار يسأل من معه من ازدحامهم فلطفوا له القول وقالوا له انهم يدعون لك» [وقائع ربيع ثان ١٢١٣].

وتحتل الاستلابات المباشرة فى هذه المرحلة من الاحتلال، مرتبة متقدمة على اية ادارة. فحدّ من دور الديوان وهو الذى كان يتجاوز فى غالب الاحيان. وذلك ان اثره فى عرقلة مقاومة الشعب او فى عرقلة مقاومة بعض المماليك الذين لا يزالون يمسكون بحصون وقلاع فى الريف بصعيد مصر. كان صفرا. يقول الجبرتى:

«وفيه اهمل امر الديوان الذى يحضره المشايخ ببيت قايد آغا فاستمروا اياما يذهبون فلم يأتهم احد فتركوا الذهاب فلم يطلبوا».

ثم ان الغاء الديوان يستجيب الى حاجة أخرى. فالاعلانات التى يطلقها جيش الاحتلال هى اعلانات مشربة بالايديولوجية البرجوازية الناشئة. وكان هذا الجيش ينتوى اعادة تنظيم الشرع الذى ينظم العلاقات الاجتماعية على المستوى القانونى. وبعد ان طلبوا «من أصحاب الاملاك ان يأتوا بحججهم وتمسكاتهم الشاهدة لهم بالتمليك» فانهم «شرعوا فى تركيب ديوان آخر وسموه حكمة القضايا وكتبوا فيه طومارا وشرطوا فيه شروطا ورتبوا فيه ستة انفار من النصارى القبط وستة انفار من التجار المسلمين وجعله قاضيه الكبير ملطى القبطى». فأما ما تتصدى له هذه المؤسسة الجديدة فانه ليس اقل من المبادئ التى تنظم حق الملكية كما هو ممارس فى السلطنة العثمانية. ويقدم الجبرتى تحليلا فقهيا مفصلا لذلك (وقائع ربيع الثانى ١٢١٣هـ) ثم يدينه بشدة:

«وشرطوا فى ذلك شروطاً وفى ضمن تلك الشروط شروطا اخرى بتعبيرات سخيفة يفهم منها المراد بعد التأمل الكثير لعدم معرفتهم بقوانين التراكيب العربية، محصلة التحليل على أخذ الاموال..».

وبعد أن يظهر الطابع التعسفى الجائر «للطومار» الذى ينظم الملكية فى مجتمع تحصل فيه حيازة الملكية «بالشراء» أو «بالأيلولة» فتنتقل بدون تجديد، يستعرض الجبرتى كافة الاستيفاءات فى الرسوم او المقررات كما يسميها فيبدو له ذلك كله من «البدع السيئة». وهو يتعرف فى الطومار الجديد على طابع «غريب» (بدعة) يتبينه فى «التعبيرات السخيفة.. وعدم معرفتهم بالتراكيب العربية» كمايتبينه فى المباينة القائمة بين الوثائق المطلوبة (القيد بالسجل فالثبوت فالاشهاد) وبين الممارسات المحلية. ولن تتأخر كثرة المقررات وتنوعها مضافة الى الاقتطاعات التى لم تلغ، فى أن تثير استياءه وانكاره. ثم ان المحكمة التى تم ترتيبها تغصب من المؤسسة العدلية المحلية والتحكيم العرفى. غير ان الديوان الجديد سيشتمل عند تشكيله، بالاضافة الى المشايخ، شيوخ المدن والقرى والتجار وادخال عناصر فيه تنتمى الى القطاع «الاستثمارى الرأسمالى» الى سياسة كانت فى طور بدايتها فى تلك الاثناء وتنزع الى تصحيح خطأ اقامة المحكمة التجارية والمدنية، فتقرر الابقاء على المحاكم التى تطبق الشريعة الاسلامية (محاكم البلاد) والتى كانت لاتزال تعمل حتى ذاك.

الا انهم قرروا فى الحين ذاته استيفاء «مقررات عن الاملاك والعقار ... والوكائل والخانات، والمعاصر والسيارج والحوانيت». وبعد ان هاجمت ادارة الاحتلال المماليك على الصعيد العسكرى ثم على الصعيد الاقتصادى بأن صادرات ارزاقهم، انثنت تهاجم التجار والصناع واصحاب الريوع.. ان ادخال ممثلىْ هذه الشرائح الى الديوان انما يكرر الدور الذى يسنده الفرنسيون الى «الممثلين». الا أنه كان من شأن الاجراء المتخذ ان ادى الى التحام كافة الانتهاكات التى نالت الادارة الفرنسية بها من كافة شرائح الشعب القاهرى:

«ولما اشيع ذلك في الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك والبعض استسلم للقضاء فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا في ذلك ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر في عاقبة الامور ولم يتفكر انه في القبضة مأسور، فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم واصبحوا يوم الاحد متحزبين وعلى الجهاد عازمين وابرزوا ما كانوا اخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح، وحضر السيد بدر وصحبته الحسينية وزعر الحارات البرانية ولهم صياح عظيم وهول جسيم، ويقولون بصياح في الكلام نصر الله دين الاسلام. فذهبوا الى بيت قاضى العسكر وتجمعوا وتبعهم ممن على شاكلتهم نحو الالف والاكثر فخاف القاضى العاقبة واغلق ابوابه واوقف حجابه فرجموه بالحجارة والطوب وطلب الهرب فلم يمكنه الهروب، وكذلك اجتمع بالازهر العالم الاكبر وفى ذلك الوقت حضر دبوى بطائفة من فرسانه وعساكره وشجعانه فمر بشارع الغورية وعطف على خط الصنادقية وذهب الى بيت القاضى فوجد ذلك الزحام فخاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة وتلك الاخطاط بالخلائق مزحومة، فبادروا اليه وضربوه واثخنوا جراحاته وقتل الكثير من فرسانه وابطاله وشجعانه، فعند ذلك اخذ المسلمون حذرهم وخروا يهرعون ومن كل حدب ينسلون ومسكوا الاطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة كباب الفتوح وباب النصر والبرقية الى باب زويلة وباب الشعرية وجهة البندقانيين وما حاذاها، ولم يتعدوا جهة سواها وهدموا مساطب الحوانيت وجعلوا احجارها، متاريس للكرنكة لتعوّق هجوم العدو فى وقت المعركة، ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس. واما الجهات البرانية والنواحى الفوقانية فلم يفزع منهم فازع ولم يتحرك منهم احد ولم يسارع، وكذلك شذ عن الوفاق مصر العتيقة وبولاق وعذرهم الاكبر قربهم من مساكن العسكر...» [وقائع عاشر جماد الاول ١٢١٣].

ان سرد الجبرتى ليجعل الحركة اقرب الى المدارك فى تفاصيلها. فانتهاك العرف يصيب فى نقطة حاسمة:

– فالسلطة الاجنبية التى لم تفتأ تلاقى مقاومة عنيفة منذ نزولها مصر، وهى لم تكن قد تمكنت من اجتثاث كافة الشرائح المملوكية (ما دام مراد بك لايزال وسيظل سيد الجيزة). وهى مضطرة للرد على العنف بعنف اعتى منه واشد اذا كانت تريد الاستمرار فى السيطرة على البلاد.

– وبالاضافة الى هذا، فان السلطة الاجنبية بدات تظهر كعبء مالى هام. وهى تحاول ان تقسم انصبة كلفتها «بالقسطاس المستقيم» الامر الذى يكرهها على استثارة احتجاجات كافة الفئات الاجتماعية المرغمة على الاسهام والمشاركة فى الجهد اللازم لتعهد هذه السلطة.

– لا بل إن السلطة الاجنبية نفسها مرغمة على التصدى للاحكام التى تضمن الملكية والانتفاع ونمط انتقالهما واستمرارهما. وحتى عندما يكون بعض هذه الاحكام (كتلك المتعلقة بالمكوس والضرائب مثلا) عاجزا عن الانتساب الى اوامر ونواهى دينية، فإن تساوقها مع العرف وتتامها به يهبها شرعية يعزز من شأنها (على الصعيد الايديولوجى) ارتباطها بتوزع المصالح والمراتب فى

داخل المجتمع. والحال هو ان هذه الاحكام ليست الضامن لمصالح الفئات التى طالتها اجراءات السلطة الاجنبية وحسب، بل ان ببقائها وباستحالتها وفقا لقواعد دقيقة واضحة ترتهن وظيفة ذلك الجسم المعقد من العلماء، ووظيفة المؤسسة التى توجه وتقود عملية اعدادهم عنينا الازهر. وهذه الوظيفة (اذا ما تتبعنا سياق الاخبار التى يسوقها الجبرتى) هى وظيفة مزدوجة: فما دامت القواعد او الاحكام القضائية مكرسة، بموجب قانون، فان الوظيفة القضائية لاتنفصل عن الوظيفة الايديولوجية التى هى فى اساسها:

«فهو بمنحاه فى تجنيد تلامذته واساتذته، وبحظوته لدى الجمهور، وباشعاعه فى كافة العالم الاسلامى، وبتآلفه مع الشخصية المصرية ان وفق نمط الشعر العامى وان وفق نمط فقه اللغة وفقه الشرع. فانه (اى الازهر) يتكفل بالنظام الريفى ثم يتوجه ثقافة شمولية».

وإذ يوسع الاقتطاع الضريبى من قاعدته الاجتماعية فانه يعبئ ضده موارد سياسية هامة. وفى تضام العناصر واتحادها هذا، يرهص عامل يتفوق على بقية العوامل لانه العامل الذى يوحدها جميعا. وهذا العامل هو ما تشير اليه «العجايب» تلميحا: اذ يبدو الشيوخ، او المتعممون كما تسميهم، من الذين انضموا الى الحركة الشعبية، انهم يبدون بالنسبة اليها «كمن لم ينظر فى عاقبة الامور ولم يتفكر فى انه فى القبضة مأسور». وانما الأمر الملحوظ هنا هو «عدم التفكر» هذا مضافا الى نتيجته ومفاعيله. فعندما يؤكد الجبرتى على «عدم التفكر» فى اللحظة التى تجتاح الموجة الشعبية العلماء فيها، فان اسباب «عدم التفكر» تظهر جهارا: فالوظيفة الموقوفة فى «الأحوال العادية» على الادارة، التقنية والطقسية، تطرح فى ابان الازمات فى العلاقات التى تنظم وحدة التشكيلة الاجتماعية، هذه التشكيلة التى تعمل السياسة، بداخلها كتقنية او كأيديولوجية محضة (وهذان امران لا يتنافيان بل يتكاملان وجوبا. فالايديولوجية تغطى التقنية و«تساميها» الى حد محوها). وتبعا لذلك فان لحكم صاحب الوقايع، مدلولا، يتجاوز هامشيته فى النص. اذ يبدو سلوك اولئك المشايخ (المتعممين) سلوكا مغايرا للماهية التى تعطيه طابعه الدائم عند ذاك «يفسر» الانحراف الملاحظ «بالاحوال»: فغياب «رئيس يسوس وقائد يقود، التجمع الكثير من «الغوغاء» يستدعى قيادة وفق مقالات نظام كمقالات الكاتب نفسه. واذ يملأ تدخل العلماء، الذين كان عليهم الا يتدخلوا، هذا الغياب، فانه يعيد النظام ثم ينتهكه فى نقطة اخرى هى تلك المتعلقة بوضعهم كعلماء. «فعدم التفكير» يعمل بسلبية مطلقة وينقذ ما يبدو مهددا. ويظهر تفسير الجبرتى فى المقالات عوج المقالات: فعندما يتتبع تركيب هذه المقالات التناقض ومركباته الكثيرة فان المنطوقات «الاجمعية» تغطى التركيب بمعنى هو «حقيقة» التركيب). ثم ينحو هذا المعنى منحى تفكيك التركيب واطراحه فى اللامعنى التام. ومناص هذا الاخير الوحيد هو ان يقلد ايماءات المعنى الذى ينقل فحواه ومؤداه من حال التوكيد الى حال انمحاء علاماته الفارقة. على ان اعمق علامة فارقة هو الاسلام نفسه: بمؤسساته واوامره ونواهيه و«بحجيته وقطبيته». ثم ان التناقض يخترق — وهو يربط الخيوط المتبعثرة — كل عنصر من العناصر:

ففي نفس المشهد الذى يتصدر فيه المتعممون التظاهرة، ويتلقى فيه الازهر «العالم الاكبر.. بصياحه العظيم وهوله الجسيم» فان القاضى يولى الادبار دفعا لكل مسؤولية قد تنسب اليه فى التمرد. واذا كان ثمة فى المشهد هرب القاضى فان ثمة فى نص الجبرتى المعنى الذى يفرض نفسه على التركيب.

وكذلك فان الجواب على التمرد متعدد هو الآخر: فدائرة القمع تتسع حتى ان بيانا يصدر عن جيش الاحتلال يتباهى بها.

«ونخبركم ان كل من تسبب فى تحريك هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم واراح الله منهم البلاد والعباد».

«وفى مدة هذه الايام.. اخذوا فى الاهتمام فى تحصين النواحى والجهات» ونصبوا مدافع فباتت القاهرة فى متناول مرماهم، واستوفيت المقررات. الا ان الجواب ظل سياسيا اساسا. ويستعيد الاداة التى سبق استخدامها، عنينا تمثيل الاعيان والعلماء. انما فى ديوان موسع هذه المرة، اذ عينوا له ستين نفرا منهم اربعة عشر يقال لهم خصوص وهم الذين يحضرون دائما ويقال لهم الديوان الخصوصى والديوان الديمومى. فكان اهم فريق فى هذا الديوان هم العلماء اذ انهم شغلوا فيه خمسة مقاعد وكذلك فقد تدعم فيه تمثيل الاجانب من شوام واوروبيين.

«فاما الديوان العمومى فاكثره مشايخ حرف» لكن هذه (لا يستثير) الجبرتى عليه.. فهو لا يعلق على ذلك بما يفهم منه تقييم او حكم أو تقدير. وعلى العكس من ذلك فان طومار دعوة اعضاء الديوان العمومى. الذى يتصدره صدد «مقول على لسان بونابارته كبير الفرنسيين» تستثير منه التعليق التالى:

«وانما اوردت ذلك وان كان فيه بعض طول للاطلاع على ما فيه من التمويهات على العقول والتسلق على دعوى الخواص من البشر بفاسد التخيلات التى تنادى على بطلانها بديهة العقل. فضلا عن النظر...».

ذلك ان هذه الرسالة / التصدير ليست سوى فلذة ايديولوجيا من ألفها الى يائها. وهى تقف بالكلية فى ارض العلماء وميدانهم وتنازعهم عليه.

«والعاقل يعرف ان ما فعلناه بتقدير الله تعالى وارادته وقضاه، ومن يشك فى ذلك فهو احمق واعمى البصيرة.. ولا يشك العاقل ان هذا كله بتقدير الله وارادته وقضاه» [وقائع رجب ١٢١٣].

فكلام بونابرت يقلب مقالات العلماء عليهم بعد ان «يملأها» بصورة مختلفة. وما هو مقتطع منه انما هو توظيفه وطريقة عمله وطابعه التبريرى الذى يؤهله «لترجمة» اى نظام ما دام يتخذ الاسلام ظهيرا . «فالتمويهات» و«التسلق على دعوى الخواص من البشر» و«فاسد التخيلات» ليست صفة لسيكولوجية المحتل بقدر ما هى معالجة للمقالات وتدبر لها. وثمة عنصر رئيسى يتغيب فى معالجة المقالات: انه التعاضد والتضامن فيما بين الموضع المعين صوريا وبين من يحتله. ويبدو الفصل والتفريق فى نص بونابرت نتيجة لان، من يزكى نفسه كأداة للإرادة الإلهية، لايضطلع بهذه التزكية غايتها – الأمر الذى يدل على اجنبيته. فيبدو

الموضع فارغا شاغرا وبالتالى قابلا لان يشغله اى مدع واى متقدم. وفي ذاك ما ينكره منطق النظام.

ولا تقتصر محاولة قلب الايديولوجية على حملتها واصحاب البراءة فيها، بصعيد المقالات. بل انها تتقلد المؤسسات. فاذا كان الازهر يعد الشراح والمعلمين والأئمة والقضاة.. الا انه ليس المؤسسة الوحيدة التى تدور وتتواكب مع الايديولوجيا ومرجعها الاسلامى:

«وانما يجد الاسلام الصراطية، اسلام العلماء، نده ومراجحه فى التصوف الشعبى. فلقد نشأت منذ عدة قرون خلت، جماعات باطنية تشاغلت بها اوروبا..»

الا ان التصوف الشعبى يتفلت من الصراطية الطقوسية السائد ويأبق منها دون حاجة منه الى باطنية. فهو يجند مريديه من اوساط لايغفل الجبرتى عن الاشارة اليها حين يقول:

«وغالبهم السوقة واهل الحرف السافلة، ومن لايملك قوت ليلته فتجد احدهم يجتهد بقوة سعيه ويبيع متاعه او يستدين الجملة من الدراهم ويصرفها فى وقود القناديل واجرة الطبالة والزمارة، وكل يجتمع عليه ما هو من امثاله من الحرافيش ثم يقطع ليلته تلك سهرانا ويصبح دايخا كسلانا ويظن انه بات يتعبد ويذكر ويتهجد».

ثم يشفع هذا الحكم الاجتماعى الطبقى بتدبيج مذهبى وطقوسى لهم:

«ثم زاد الحال وانضم اليهم كثير من اهل البدع كجماعة العفيفى والسمان والعربى والعيسوية.. هذا مع ما ينضم الى ذلك من جمع العوام وتحلقهم بالمسجد للحديث والهذيان وكثرة اللغط والحكايات والاضاحيك والتلفت الى حسان الغلمان الذين يحضرون للتفرج والسعى خلفهم والافتتان بهم، ورمى قشور اللب والمكسرات والمأكولات فى المسجد، وطواف الباعة بالمأكولات على الناس فيه وسقاية الماء، فيصير المسجد بما اجتمع فيه من هذه القاذورات والعفوش ملتحقا بالأسواق الممتهنة».

وعلى هذا النحو وفى مثل هذه الوضعية كان يحتفل بمولد الامام الحسين، قبل ان يهجر فى بضع السنين التى سبقت الغزوة الفرنسية، غير ان الادارة الفرنسية عادت، بعد انشاء الديوان فأمرت باعادة الاحتفال بالعيد من جديد:

«و (...) نادى القبطان الفرنساوى الساكن بالمشهد الحسينى على اهل تلك الخطة وما جاورها بفتح الحوانيت والاسواق لاجل مولد الحسين، وشدد فى ذلك ووعد من اغلق حانوته بتسميره وتغريمه عشرة ريال فرانسة مكافاة له على ذلك..» [وقائع شهر شعبان ١٢١٣].

وكان رد فعل المحتل على التماسك الذى بدا فى التمرد انه اكد التمايزات الأيديولوجية التى ترتبط بالتمايزات الاجتماعية. ومن هنا ان وضع الصراطية الدينية موضع مقاضاة ومدافعة قد كان أبلغ تأثيرا وفعالية مما لو جاءتها الهجمة من الخارج.

ومن اللافت للنظر ان نرى الجبرتى عندما يتكلم عن قرب رحيل الفرنسيس ويذكر «عقد الصلح»بكامله، يلتزم السكوت التام حول رحيلهم عنها ولا يعتب عليه بأية صورة من الصور. فهذا

الحدث الذى املاه ظرف دولي يفوت صاحب الوقايع الذى يدرجه كمعطية واقعية شأن ادراجه لوفاء النيل او للجفاف. ولئن فات الجبرتي ضبط واحكام الصلح وعلاقات القوى التى املته فلعله فات كذلك المثقفين المصريين اضرابه ممن شبوا وتكونوا داخل عالم مقفل سياسيا وتاريخيا لكن دلالة النص كانت واضحة للناس اجمعين: «وورد الخبر بذلك (أى اتمام عقد الصلح على الثنين وعشرين شرطا رسمت وطبعت فى طومار كبير) والى مصر وفرح الناس بذلك فرحا شديدا... » [وقائع ٢٢ شعبان ١٢١٣]

وهنا، كما في طول الوقائع وعرضها، يتماهى المؤرخ مع وجهة نظر «أهل مصر» بشغراتها وظلالها كذلك بتعقيداتها. ولقد ادى رحيل الفرنسيين الى مواجهة دامية، فقمع العصيان الشعبى مرة اخرى قمعا دمويا. واذ يروى الجبرتى رواية العصيان ثانه يرد على التناقض كافة وجوهه. ففرح الناس لم يكتف بالاعراب عن نفسه «بذهنوية مجردة».

«وأما الرعايا وهمج الناس من اهل مصر فانهم استولى عليهم سلطان الغفلة ونظروا للفرنسيس بعين الاحتقار وانزلوهم عن درجة الاعتبار وكشفوا نقاب الحياء معهم بالكلية وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية ولم يتركوا للصلح معهم مكانا...» [وقائع رمضان ١٢١٤].

وأما من الجهة الاخرى، فان الاتراك الذين باشروا الدخول الى مصر، كانوا ذوى «طرائق قبيحة». واما رؤوس المماليك فان دخولهم البلاد كان دخول الطبقة الحاكمة القديمة التى تستعد لانهاض نظام حكمها:

«واخرجت لهم الخيام والتراتيب والنظام وهيأت نساء الامراء والاجناد احتياجاتهم وترتيباتهم وجروا على عادتهم في التغالى، ولازمت الخدم والفراشون الغدو والرواح الى خيم ساداتهم وهم راكبون البغال والرهونات والحمير الفارهة، وفى حجورهم تعابى الثياب والبقج المزركشة بالذهب والفضة» [وقائع رمضان ١٢١٤].

فهم اذ عادوا بعد طرد الفرنسيين لهم، فانهم اطلقوا لمكامن نفوسهم العنان. وقد حافظ الفرنسيون بصمت توجس الجبرتى منه الانفجار: «ويتجاوبون بكلام وسخريات ولعن للنصارى البلدية والفرنسيس بمرأى منهم وسمع، الى غير ذلك مما يثير الحفاظ ويوغر الصدور».

ثم تدخلت العلاقات الخارجية فيما بين الدول العظمى: فقد «تعرض الانجليز للجماعة التى نزلت البحر من الفرنساوية الذين يريدون السفر الى بلادهم» فى الاسكندرية. فاما الفرنسيون فانهم قلقوا من ذلك ثم «تأهبوا للمقاومة والمحاربة وردوا آلاتهم الى القلاع» [وقائع شوال ١٢١٤].

فالتحالف بين الانجليز والاتراك هو من الظهور، بحيث ان الجيش الذى يعتزم الجلاء عن بلد يعاديه ولا يرغب فيه، سيحاول الدفاع عن نفسه. وقد فعل ذلك بان هاجم الاتراك. واما اهالى القاهرة فقد كانوا لا يزالون على تنصبهم لجيش الاحتلال ومعارضتهم له: «فهاجوا وماجوا ورمحوا الى اطراف البلد وقتلوا اشخاصا من الفرنساوية صادفوهم». ثم نظموا دفاعهم الذاتى بان احتلوا «التلول خارج

باب النصر» يقودهم نقيب الاشراف عمر مكرم وشاه بندر التجار احمد المحروقي. وبرغم ان قيادة الحركة كانت قيادة ذات اعتبار من وجهة نظر الجبرتي، ومن جهة انتمائها الاجتماعي، الا ان صاحب الوقايع يعتبر الحركة بمجملها حركة شوهاء مريبة:

«تحزب فيها كثير من طوايف العامة والاوباش والحشرات وجعلوا يطوفون بالازقة واطارف البلد ولهم صياح وضجيج وتجاوب بكلمات يقفونها من اختراعاتهم وخرافاتهم».

واما الوالي التركي فقد فاقم من الانشقاقات التي تكونت في كنف الاحتلال و«قال للعامة اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم». الامر الذي حدا بهؤلاء للدفاع عن انفسهم:

«فتحزبت النصارى واحترسوا وجمع كل منهم ما قدر عليه من العسكر الفرنساوى والاروام وقد كانوا قبل ذلك محترسين وعندهم الاسلحة والبارود والمقاتلون لظنهم وقوع هذا الامر...».

لقد اجتمعت كافة العناصر من اجل مواجهته. والجبرتي يرتب الاحداث. بدون ان يغيب عنها سياقها، ثم ينظمها تنظيما يجعلها سريعة الى الافهام ينبث منها تماسك لاورود له في اى موضع آخر وان كان حاضرا، عاملا على سبيل الاضمار. وما ان فتح احد رؤساء العساكر الاتراك النار على الجنود الفرنسيين حتى اشتعلت الحرب وجعلت تزيد من اقترابها حتى شملت المعسكرين:

«وفي هذا اليوم وضع اهل مصر والعسكر متاريس بالاطراف كلها وبجهة الازبكية وشرعوا في بناء بعض جهات السور واجتهدوا في تحسين البلد بقدر الطاقة وبات الناس في هذه الليلة خلف المتاريس. فلما اظلم الليل اطلق الفرنساوية المدافع والبنب على البلد من القلاع وو الوا الضرب».

غير ان الوحدة التي تجمع الاتراك والمصريين، وتشد ما بين مختلف الفئات والشرائح من المصريين فيما بينهم دون تمييز ظاهر قد عاودت الانفصام من جديد. والمصطلحات والتعابير يستخدمها الجبرتي لا تترك مجالا لشك حول ثاقب نظرته التي تعكس المدى الناشئ عن المقالات التاريخية:

«فلما عاين ذلك الجميع رأى الكبراء والرؤساء على الخروج من البلد في تلك الليلة.. وتسامع الناس بذلك فتجهز المعظم (معظمهم) للخروج، وغصت خطة الجمالة وما والاها من الاخطاط بازدحام الناس الذين يريدون الخروج من المدينة وركب بعضهم بعضا.. وتسامع اهل خان الخليل من الالداشات وبعض مغاربة الفحامين والغورية ذلك، فجاؤوا للجمالية وشنعوا على من يريد الخروج (...) وعمدوا الى خيول الامراء فحبسوها (...) واغلقوا باب النصر» [وقائع شوال ١٢١٤].

وعندما يصف الجبرتي طريقتين في السلوك داخل ظروف واحوال واحدة فانه يعين سبب التباين ويعزوه ويماثل بينه وبين المواضع التي يشغلها اصحاب كل من السلوكين: الذين يستطيعون الهرب ولديهم وسائله ويردعهم عن ذلك اى وازع سياسي او ايديولوجي، والذين «استولى عليهم سلطان الغفلة» ممن اعرقوا بأصولهم في المدينة، وكذلك من اشتدت حميته الدينية وتضامنه الديني (مغاربة الفحامين) .. ثم ان تناقضات المدينة المحاصرة امتدت الى خارجها:

فالوزير التركى ولى بجيشه. ورؤساء المماليك الذين هاجمهم الفرنسيون تخلوا عن المعركة والتحق ضباطهم بالوزير العثمانى الهارب. كما لحق به بعض رؤساء العصيان يطالبونه بالنجدة. لكن الوزير بات عاجزاً بعد هربه عن ان يحمل جنوده على القتال. و«اما مراد بك فانه بمجرد ما عاين هجوم الفرنسيس .. ركب ومن معه ومر من سفح الجبل، وذهب الى ناحية دير الطين ينتظر ما يحصل من الامور واقام مطمينا على نفسه واعتزل الفريقين». واما العامة فقد استمروا فى المقاومة. «وقامت بولاق على ساق واحدة» . وبرغم «انهم احاطوا بالمدينة احاطة السوار بالمعصم واكثروا من الرمى المتتابع بالمدافع والمكاحل.. وواصلوا وقع القنابر والبنبات من اعالى التلول والقلعات وخصوصا البنبات الكبار آناء الليل وأطراف النهار ... وعدمت الاقوات وغلت اسعار المبيعات وعزت المأكولات.. وارتفع وجود الخبز من الاسواق (...)». الا ان ذلك لم يقض على العصيان. وعندما تفاوض وفد من المشايخ مع قائد الجيش الفرنسى حول شروط اجلاء الجيش التركى والصلح فان ردة فعل «الغوغاء» كانت غاية فى العنف.

«فلما رجع المشايخ بهذا الكلام وسمعه الانكشارية والناس قاموا عليهم وسبوهم وشتموهم وضربوا الشرقاوى والسرسى ورموا عمايمهم واسمعوهم قبيح الكلام (..) وصاروا يقولون: هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس (...) وتكلم السفلة والغوغاء من امثال هذه الفضول (...)».

بعد ان قدم كافة عناصر الظرف القائم والذى يبدو كوحدة لمناقضات عديدة: الحرفيون وصغار التجار والفعله / ضد الفرنسيين، والملاكون والوكلاء والتجار/ ضد الفرنسيين، والعلماء/ ضد الفرنسيين، والاتراك والمماليك / ضد الفرنسيين، ثم الرؤساء والاغنياء والعثمانية/ ضد الشعب، والعلماء/ ضد الشعب، الا ان الغالب على المتناقضات والتضادات هى تلك التى تواجه ما بين المحتل الاجنبى وبين مجمل الطبقات والشرائح الاهلية («البلدية») التى توثق فيما بينها ايديولوجية سائرة فى طريق التمايز - نقول انه بعد ان وصف الجبرتى كافة هذه المعطيات فى تراتبها فانه جعل يفسر الموقف وهو يرى ان مرد الفتنة هو من يطلق عليه اسم «الرجل المغربى» الذى هاجم شروط الصلح التى تفاوض عليها العلماء ونادى (الصلح منقوض وعليكم بالجهاد).

والجديد هنا انه عندما يرغب المشايخ فى التفاوض بشأن المصريين فإن كليبر يرفض ذلك رغبة منه فى التعامل مع المصريين بأسلوبه الخاص المدعوم بأشد أشكال التنكيل فهو هنا يدرك من هو عدوه الحقيقى.

غير ان تناقضاً آخر يزيح التناقض الذى يواجه ما بين الشعب المصرى والمحتل الفرنسى ويحل محله مع دخول المماليك والاتراك. وتنفتح حقبة جديدة. وتثور علاقات جديدة يفهم من امرها تراكب السيطرة الفرنسية مع البيروقراطية القديمة. فقد اصدر الوزير التركى - حتى قبل ان يصل القاهرة فرمانين اثنين: ينص اولهما «على تعيين» آغات للجمارك اى للمكوس بمصر وبولاق ومصر القديمة، وفيه التحكير على جميع الواردات من

اصناف الاقوات فيشتريها بالثمن الذى يسعره هو بمعرفة المحتسب ويودعه المخازن واما الفرمان الثانى فمضمونه:

«ان السيد احمد المحروقى شاه بندر التجار ملزوما ومقيداً بتحصيل الثلاثة آلاف كيس المعينة لترحيل الفرنساوية .. ودهى الناس من اول احكامها بهاتين الداهيتين. وكان اول قادم منهم امير المكوسات ومحكر الاقوات واول مطلوبهم مصادرة الناس واخذ المال منهم وتغريمهم» [وقائع اول رمضان ١٢١٤].

وبعد عصيان القاهرة واغتيال كليبر، تعرض الاهالى لقمع شرس واعتصار اقتصادى فظيع. فقد فرض عليهم غرامة اولى فور سحق العصيان. واثر اغتيال كليبر بعد ذلك بقليل:

«قرروا فردة اخرى وقدرها اربعة ملايين، وقدر المليون مائة وستة وثمانون الف فرانسه واشتد امر المطالبة بالمال وعين لذلك رجل نصرانى قبطى يسمى شكر الله فنزل منه بالناس ما لا يوصف فكان يدخل الى دار اى شخص كان لطلب المال وصحبته العسكر من الفرنساوية والفعله وبأيديهم القزم فيأمرهم بهدم الدار ان لم يدفعوا له المقرر وقت تاريخه».

واصبح نهب الخانات «والوكايل والحواصل» عادة جارية:

«فهدم للناس من الاملاك والعقار ما لا يقدر قدره وذلك مع مطالبتهم بما قرر على املاكهم ودورهم من الفردة والمطالبة فى آن واحد وبعد ان يدفع ما على داره او عقاره وما صدق انه غلق ما عليه الا وقد دهموه بالهدم فيستغيث فلا يغاث فترى الناس سكارى وحيارى ثم بعد ذلك كله يطالب بالمنكسر من الفرده».

ثم امتدت الفردة الى شيوخ القرى فكانوا يديرونها بالطبع على فلاحى القرية ويجبونها منهم. مضافة الى الضريبة العقارية التقليدية. ثم اصدروا:

«اوامر ايضا بتقرير مليون على الصنايع والحرف يقومون بدفعه كل سنة.. ويكون، الدفع على ثلاث مرات ... فدهى الناس وتحيرت افكارهم واختلطت اذهانهم وزادت وساوسهم.. واجتمع التجار وتشاوروا فيما بينهم فى شأن ذلك فرأوا أن هذا شى.. لا طاقة للناس به من وجوه الاول وقف الحال وكساد البضايع وانقطاع الاسفار وقلة ذات اليد وذهاب البقية التى كانت فى ايدى الناس فى الفرد والدواهى المتتابعة. الثانى ان الموكلين بالفردة السابقة وزعوا على التجار والمتسببين وكل من كان له اسم فى الدفتر من مدة سنين ثم ذهب ما فى يده وافتقر حاله وخلا حانوته وكيسه فأرموه بشقص من ذلك وكلفوه به وكتب اسمه فى دفتر الدافعين ويلزمه ما يلزمهم وليس ذلك فى الامكان. الثالث ان الحرفة التى دفعت مثلا ثلاثين الفا يلزمها ثلاثة آلاف فى السنة على الرأى الاول وعلى الثانى اثنا عشر الفا وقد قل عددهم وغلقت اكثر حوانيتهم لفقرهم وهجاجهم وخصوصا اذا الزموا بذلك المليون فيفر الباقى ويبقى من لا يمكنه الفرار» [وقائع رجب ١٢١٥].

وخلال الحقبة ذاتها، اعيد تنظيم الديوان. فكان هذا التنظيم هو التنظيم الثالث. وبات هذا الديوان الجديد يتألف من تسعة اعضاء فقط كلهم

من المشايخ. فكان يقطع فى المسائل التى تدخل فى نطاق العدالة فاما ما يتعلق بالامتيازات مثلا فلم يكن من صلاحياته بل من صلاحية صارى العسكر الكبير. فتم بذلك فصل واضح بين ماهو قضائى من جهة وبين ما هو سياسى او اقتصادى من جهة ثانية وذلك بمقدار ما يكون للشأن الاقتصادى من انعكاس مباشر على السياسة. غير انه بمجرد ما ان قام الانجليز بانزال جيوشهم حتى اخذ اعضاء الديوان رهائن. ولم تتراخ قبضة الجيش الفرنسى الا مع قدوم الطاعون الذى جعل ينتشر فى البلاد وفى صفوف الجيش نفسه، وعلى اثر هزائمه المتتالية امام التدخل الانجليزى.

وخلال هذه الظروف تمت إعادة السلطة المملوكية تحت الوصاية العثمانية وكان البلد قد استنزف وامتص دمه عن آخره. والمواصلات فوضى والادارة مبتورة. وليس من قوة مسلحة خارج القاهرة الا قوة العربان. واما الفرنسيون فانهم لا اشراف لهم الا على مواصلاتهم مع الاسكندرية وفى بعض الاحيان مع غزة والعريش. واما السلطة القديمة فقد كانت اصلا فى وضع مهيض. ثم جاءت الازمة فزلزلتها وعمقت من تقسم وتوزع عصبياتها حدت من امكان تفوق عصبية منها على الاخريات. وأما السلطة العثمانية فانها اضافة إلى ازمتها الداخلية الخاصة التى فتحت ابوابها للتدخل الانجليزى، او ما سيعرف بعد ذلك باسم «المسألة الشرقية»، فقد خرجت من مصر ضعيفة، فاقدة الاعتبار. فالعامل الرئيسى الذى سوف يغلب على هذه الحقبة الثانية هو الامتحان العسير الذى تعرضت له السلطة التقليدية التى تكونت تحت حكم المماليك، فتشكيل جبهة عريضة معادية للفرنسيين، أبان سنوات احتلال الثلاثة، يقودها زعماء من ابناء البلاد المستقلين عن المماليك والاتراك، وان متحالفين معهم، ان هذه الجبهة اضافة الى التجاء الشعب للانتفاضة مناضلة منه لدخول سلطة اجنبية عنه قوميا ودينيا، كل ذلك اطلق قوة سياسية، كانت دائمة الخضوع للسلطة القائمة. فاما العلماء المؤتمرون بأمر السلطة «الشرعية»، فانهم وجدوا انفسهم برغم تلجلجاتهم يمسكون بقيادة الفئات الاجتماعية التى افادت ايديولوجيتها ونهلتها من الاخوانيات والطقوس والممارسات التى لم تعتد المؤسسة الازهرية ان تتكفلها. وهكذا فقد وجد العلماء (من معلمين وشراح وقضاة ومديرى وقفيات.. الخ) انفسهم ممثلين للنصاب الذى ينم عن الفارق الجذرى الاكبر الفاصل بين المحتل والبلاد. كماوجدوا انفسهم قيمين (موظفين) على العامل الذى يوثق العلاقات المشروعة بين مختلف فئات المجتمع المصرى. وذلك فى غياب القيادة «الشرعية»، على نقاط التماس والمواجهة مع المحتل. فاستندوا الى الجماهير التى، وان كانت غير متجانسة وذات مصالح متباينة ومتناقضة، الا ان ثمة ما يوثق فيما بينها الا وهو معارضتها للاجنبى، وكذلك للفئات العليا من أصحاب الامتيازات والملاكين العقاريين والتجار الذين تجد القيادة الجديدة نفسها اقرب ما تكون اليهم. ثم تحتل هذه القيادة، مذ ذاك، الموقع الراجح الغالب على سائر المواقع الاخرى وذلك حتى مجئ محمد على.

■ ٢ ■

كانت السلطة الراجعة شتاتا متنافرا. فالجيش العثمانى الذى استعاد مصر كان جيشا يتألف من

اتراك وارنؤوط وانكشارية والبان وذلك بدون ان نذكر المماليك البالغة عددا مبلغ العصبيات التى تتنازع مصر «بفردات» ضرائبها واراضيها. ولم يكن يبدو أن لواحدة من هذا الشتات الموارد الكافية بحيث تستطيع التغلب على الاخريات، وان تفرض حدودا آمرة على تصرفاته.

وما أن دخل الانكشارية (بلوكات الينكرجية) المدينة حتى وضعوا راياتهم واسلحتهم (نشاناتهم ورنكهم) على المقاهى والحوانيت والحمامات «فامتعض أهل الاسواق من ذلك وكثر الخبز واللحم والسمن والشيرج بالاسواق وتواجد البضائع... وتعاطى بيع غالبها الاتراك والارنؤد، فكانوا يتلقون من يجلبها من الفلاحين بالبحر والبر ويشترونها منهم بالأسعار الرخيصة ويبيعونها على أهل المدينة وبولاق باغلى الاثمان... وطلب اولئك القلقات من أهل الاخطاط الماكل والمشارب والقهوات والزموهم بذلك» و«يطلبون منهم بعد كلف الماكل واللوازم مصروف الجيب واجرة الحمام وغير ذلك» وأرسلت الادارة:

«تنابيه للملتزمين بطلب بواقي مال سنة ثلاث عشرة ورابع عشرة (سنوات الاحتلال الفرنسى) فاعتذروا بانهم ممنوعون من التصرف فمن اين يدفعون البواقى» [وقائع ربيع آخر ١٢١٦].

«نقضت الاوامر بتصرف الملتزمين فى البلاد وقيدت صيارف بالنزول إلى البلاد لقبض الأموال فى غير أوانها لطرف الدولة» ويلاحظ الجبرتى أن تراكم هذه الواقعات هو تراكم عجيب خارق فيسهب فى الحديث عنه ويفصل فيه القول ويظهر امتداداته: وهو يشدد على التواتر غير المألوف بالمزايدة فى بيع الالتزامات بسبب حالة «فقد الامن» الناجمة عن الاجراءات المذكورة. وكذلك فقد اخضعت:

«الرزق الاحباسية والاوقاف إلى شخص تولى النظر والتفتيش على جميع الاوقاف المصرية السلطانية وغيرها، ثم انكشف الامر وظهر أن المراد من ذلك ليس الا تحصيل الدراهم فقط واخذ المصالحات والرشوات بقدر الامكان...»

[وقائع نهاية جماد أول ١٢١٦]

ثم أن «ضرايب وغرائم ومظالم وتقارير» وقعت بصعيد مصر الذى كان يحكمه مملوك كبير هو الالفى. فبعض الناس افتقر وبعضهم «طفش» حتى امتلأت «الطرق والازقة منهم» بالمدينة. أما الجنود فقد:

«كان منهم من يتولى رياسة حرفة من الحرف كالمعمارجية أو غيرهم، قبض من أهل الحرفة معلوم أربع سنوات وتركهم وما يدينون فيسعرون كل صنف بمرادهم: وليس له هو التفات لشىء سوى ما يأخذه من دراهم الشكاوى فغلا بسبب ذلك الجبس والجير واجر الفعلة والبنائين خصوصا... وأما الغلة فرخيصة وكذلك باقى الحبوب بكثرتها مع أن الرغيف ثلاثة آواق بنصف، لما ذكر من عدم الالتفات إلى الأحكام والتسعيرات».

وأما الريف فقد كان بلا وازع ولا أشراف،

«.. وهجاج الفلاحين من الأرياف لما نزل بهم من جور العسكر وعسفهم حتى امتلأت المدينة من الفلاحين ونودى عليهم عدة مرار بذهابهم إلى بلادهم» [وقائع جماد ثان ١٢١٦].

بهذا يرتسم منحى عام ولو أنه غير جديد، فيشى عبر التأكيد على بعض المميزات والخصائص

القائمة بالعلاقات المحددة للتشكيلة الاجتماعية. فتسييس أو ترشح للتسييس كافة العناصر الاجتماعية الاقتصادية ابتداء بأدنى المواد التموينية وانتهاء بنظام الفرد (الضرائب) والامتيازات. اذ أن القرارات السياسية أو المبادرات، التى اتخذتها السلطة هى التى عينت وحددت وضع هذا العامل الاقتصادى أو ذاك، وذاك العامل الاجتماعى أو هذا. فبهذه القرارات ترتهن مصائر الاسعار، والعلاقات بداخل الجمعيات الحرفية، مثلما ترتهن بها علاقات المدينة بالريف، وهجرة جزء من الفعلة الذين يعيشون على الاراضى الممنوحة، على سبيل الامتياز، واحترام أو عدم احترام قانون الميراث. فممارسة السلطة، وأن تكن بالغة التفتت والانتثار، هى الشرط الذى ترتهن به ظاهريا كافة العلاقات الاخرى. وليس هذا بواقعة تذكر بالنسبة للحقبة السالفة. فالسلطة فى هذه، خلافا لحالها فى تلك، لم تعد تمارس انطلاقا من مركز وحيد له مصالحه التى تفرض مشروعية ما فى الازمنة العادية. بل إن مرد توكيد هذا التسييس المفرط هو واقعة كون ارتهان الفقهى والقضائى للسياسى وغياب استقلالية المؤسسات يعود بالسياسى إلى تعبيره العادى، أى: القوة المسلحة. فالواقع أن هذا ليس سوى منحى: فحتى عندما يبدو أن القوة تمارس بعيدا عن أى منطق إجمالى، وبالتالى سياسى، فانها تخضع لعلاقة تصلها بصعيد تتواجه فيه عدة قوى، مما يعيدها إلى الصعيد السياسى. وفى الظرف المعنى الذى نتعرض له بالتحليل، فان التحديد والتعيين جاريان على مختلف الكتل العسكرية، اذا المسألة ليست مسألة تجمع خالص ولا تجميع خالص. فهى إما تحديدات قومية (الارنؤوط والالبان والاتراك) وأما تحديدات ادارية (كالانكشارية) وأما تحديدات كتلوية (كمختلف العصبيات المملوكية). وبداخل كل كيان من كيانات هذه العصبيات، فان الرابط الاشد الذى يضاعف من الرباط القومى أو الكتلوى الخ، انما هو الرباط الذى يؤمن ممارسة السلطة على أى مستوى كان ـ كشرط لاحتراز حصته من الارزاق. فالسمة المميزة، لهذه الحقبة الثانية، انما هى الصراع المستميت من أجل السلطة بين هذه الشرائح المقابلة للشعب الذى بدأ ينقل صراعه نحو عدو جديد.

وكان الامر فى ابتدائه أمر مشاورات ومخاصمات فردية سريعا ما كانت تفضى إلى مجابهات جماعية بين فئات وفرقاء. فقد قتل أحد الانكشارية ضابطه لانه أمره يدفع بثمن ما شربه من عرقسوس ثم هرب «ودخل إلى دار وامتنع بها».

«ومر شخصان من الارنؤد بتلك الخطة فقتلهما الانكشارية لكون الغريم ارنؤد من جنسهما» فى آخر ربيع الاول لسنة ١٢١٦ من الهجرة:

«تشاجرت طائفة من الينكرجية مع طائفة من الانجليز بالجيزة وقتل بينهما اشخاص فنودى على الينكرجية ومنعوا من التعدى إلى بر الجيزة» [وقائع ربيع أول].

الا أن هذه المشادات والمشاجرات لم تكن الا أعراضا لنزاعات أشد اتساعا وتطال مصالح أعظم أهمية منها. فقد كان العثمانيون المدعومون بالوجود الانجليزى يحاولون استعادة سيطرتهم على مصر، مواجهين سلطة مملوكية خرجت من المعركة مع الاحتلال الفرنسى ضعيفة خائرة.

«وفي يوم الثلاثاء حادى عشر (جمادى الثانى سنة ١٢١٦) عمل الوزير الديوان وحضر عنده الامراء، فقبض على ابراهيم بك الكبير، وباقى الامراء الصناجق وحبسهم وأرسل طاهر باشا بطائفة من العسكر الارنؤد إلى محمد بك الالفى بالصعيد، وكان أشيع هروبه إلى جهة الواحات، وذهبت طائفة إلى سليم بك أبى دياب، وكان مقيما بالمنيل، فلما أخذ الخبر طلب الهرب، وترك حملته، فلما حضر العسكر اليه، فلم يجدوه فنهبوا القرية..».

ويصل الجبرتى ما بين واقعتين هما: الهزيمة أمام الفرنسيين والملاحقات الحالية:

«... وباتوا بليلة أسوأ عليهم من ليلة كسرتهم وهزيمتهم من الفرنسيس وخاب أملهم وضاع تعبهم وطمعهم، وكان فى ظنهم أن العثملى يرجع إلى بلاده ويترك لهم مصر ويعودون إلى حالتهم الاولى يتصرفون فى الاقاليم كيفما شاؤوا...».

وكان أن جعل النزاع بين المماليك والعثملى، التدخل الانجليزى أمرا ممكنا: فقد عرض قائد الاسطول الانجليزى على المماليك ملجأ لا يؤتى اليه فى الجيزة. لكنهم كانوا يفضلون على ذلك اقامة مستقلة سبق لها أن أثبتت فعاليتها أيام الاحتلال الفرنسى، أى الاعتصام فى الصعيد، حيث أمكن لمراد بك أن يقاوم طوال سنين ثلاث جيشا يتمتع بما لا يتمتع به الانكشارية والارنؤد من الوسائل.

ثم أن هجوم والى مصر الجديد وحاكمها لم يقتصر على تدمير الجهاز العسكرى المملوكى ولا على أسر رؤسائهم وحسب. بل أنه قام بجهد كبير على صعيد الادارة الاقتصادية. فقد جرى، وعلى جناح السرعة، ابعاد الجيش الذى رافق الوزير العثمانى وتسبب فى الاغلاق العام للسوق. ثم منع الجنود من التجوال فى المدينة بعد الغروب ثم توالت عدة اجراءات لم تؤلف من وال وتنم عن «رحابة خارقة» وصاحبتها مراقبة شديدة للاسعار:

«... فانسرت القلوب بتلك الفرمانات واستبشروا بالعدل... وأكثر حضرة الباشا وكبار أتباعه من التجسس وتبديل الشكل والملبوس والمرور والمشى فى الازقة حتى أخافوا الناس وانكف العسكر عن الاذية ولزموا الادب... وهاب الناس هذا الباشا وخافوه وصاروا يترنمون به فى البلاد والارياف ويغنون بذكره حتى الصبيان فى الاسواق...» [وقائع شهر شوال ١٢١٦].

كان هدف كافة هذه الاجراءات هو نقل الصلة بين مختلف الفئات الاجتماعية من الشعب المصرى والاتراك من جهة والمماليك من جهة أخرى. ذلك أن تثبيت العلاقات بين الفلاحين والمدينة وبين الفلاحين والعربان (البدو) وأخضاعها لاشراف ما من قبل الادارة، كان يتيح للسلطة التركية الامل فى القضاء على الخصم المملوكى بدون أن يكون عليها أن تخشى مختلف المعارضات المدنية والريفية. والفرمان الذى يمنع العسكر من الخروج ليلا وينص على أن:

«القهاوى المحدثة جميعها تغلق ولا يفتح الا القهاوى القديمة الكبار».

إنما هو قرار بحماية المصالح القائمة القديمة. ويقول الجبرتى: أن هذا الفرمان اتبع بفرمان آخر «فى نفس الشهر» ينص على خروج عساكر:

«إلى جهة قبلي وعدتهم ستة آلاف بسبب الامراء المصرلية الهربانين وقرر لهم أن من يأتي براس صنجق فله الف دينار أو كاشف فله ثلثماية أو جندى أو مملوك فله مية»

لكن هذه الجهود كبتت واخفقت في مسألة الارض. فقد أحدث: «علـى الرزق الاحباسية المرصدة على الخيرات والمساجد وغيرها، مال حماية... في جميع الاراضى المصرية القبلية والبحرية وحرروا بذلك دفاتر» [وقائع خاتمة ذى الحجة ١٢١٦]

وكان فرمان الحماية هذا ذريعة يتذرع بها من أجل مراجعة السجلات و«التثبت» من حجج التصرف، والسندات. فكان لدى بيروقراطية الدولة ابتداء «بالدفتردار» وانتهاء «بكاتب الرزق» و«كاتب الميرى» الامكانية والوسائل لاجراء عملية اعادة توزيع للتصرف (بالعقارات) وحيازتها ولاقتطاع مبالغ ضخمة من المال كثمن لتثبيت الحيازة والتصرف.

«فما يسع ذلك الشخص الا بذل همته فى تتميم غرضه بأى وجه كان. أما أن يستدين أو يبيع ثيابه ويدفع ما يلزمه، فان ترك ذلك وأهمله بعد إطلاعهم عليه حلوه عنه ورفعوه وكتبوه لمن يدفع حلوانه ثلاث سنوات أو اكثر».

وأما «الجرايات ومرتبات الغلال التى كانت من جملة الاسباب فى رواج حال أهل مصر المتوسطين وغناهم...» فقد انخفضت قيمتها بمقدار الثلث نتيجة لمساعرة الدينار المصرى بالدينار العثمانى (الذى لم يكن يساويه) ثم زاد من مفاقمة هذا الاجراء ما سبق ذكره من اعادة تنظيم السجلات (الدفتردار) حتى أن الموظفين انتهوا بالاستيلاء على السندات لانفسهم ومحاسيبهم.

فأما ما سوف يغلب على الصراعات السياسية لفترة من الزمان فهو العلاقات فيما بين العثمانيين والمماليك بحيث ينتهى ذلك إلى تأجيج معارضة الاهالى لكلا الفريقين.

ففي مطلع عام ١٢١٧ للهجرة(*) (الموافق لشهر ايار من سنة ١٨٠٢) يتواجه الجيش العثمانى مع المماليك ـ الذين يسميهم الجبرتى المصرلية فى أرمنت «وكانت الغلبة على العثمانية وقتل منهم الكثير»

فأدت الهزيمة المدوية بالباشا إلى اعادة تنظيم جيشه جزئيا مع استمرار وصول الامدادات اليه، ثم اتخذ عسكرا من طائفة التكرور (السودانيين) الذين يأتون مصر بقصد الحج... وجمع الباشا ايضا العبيد السود وجعلهم طائفة مستقلة وأخذهم من أسيادهم بالقهر وألبسهم شبه ما تقدم.. وكذلك طلب المماليك وغصب ما وجده منهم من اسيادهم واختص بهم والبسهم شبه لبس المماليك المصرلية».

ثم أسلم جميع هؤلاء إلى كبير من الفرنسيس «يعلمهم الكر والفر والرمى بالبنادق.. وسموا ذلك كله بالنظام الجديد». وخلال ذلك تقدم المماليك من الصعيد باتجاه اسيوط «وتجمع عليهم الكثير من غوغاء الحوف والهوارة والعربان... فخافتهم العساكر العثمانية وداخلهم الرعب». وانكمشوا ولم يجرؤوا على الهجوم. وزاد من عزلتهم عداء الاهالى لهم:

(*) انظر الجزء الخامس وكذلك النصوص التالية.

«.. مع ما هم عليه من الظلم والفجور والفسق بأهل الريف والعسف بهم وطلبهم الكلف الشاقة والقتل والحرق وذلك هو السبب الداعي لنفور أهل الريف منهم...» [وقائع جماد أول ١٢١٧].

غير أن المصاعب التي كانت تواجه الخزينة العثمانية دفعت الادارة العثمانية في مصر إلى إجراء اقتطاعات أشد عبثا. كما أن الشكنات التي أنشأها الباشا الجديد من «أجل العساكر» المختصة به» قد جرى تمويلها من «فردة على البلاد... مع ما الفلاحون فيه من الظلم والجور من العساكر والمباشرين وحق الطرق وفرد الانجليز» ثم فرضت السخرة على ارباب الحرف طوال شهر كامل. وقد أدى هذا كله إلى أن الامراء لم يلاقوا في مسيرتهم باتجاه الشمال - كأسيوط مثلا - أية مقاومة برغم أن معاملتهم للاهالي لم تكن مختلفة عن معاملة السلطات (العثمانية) القائمة. فعندما وصلوا إلى بني عدى مثلا:

«نهبوا غلالها ومواشيها وقبضوا أموالها وأعطوهم وصولا» [وقائع ٢٣ جماد ثاني ١٢١٧].

وأمام هذه الاستعادة الجديدة وازاء معاودة الاستيلاء هذه على مصر بدأ الوالي بالمفاوضة: فعرض العفو الشامل على الامراء وذهاب «الاربعة الامراء»إلى أستامبول. لكن المماليك رفضوا العرض ثم عرضوا بالمقابل أن يتولوا الريف اقطاعا من «اسيوط إلى آخر الصعيد والقيام بدفع خراجه». ولم يفض هذا بطبيعة الحال إلى شيء. الا أنه لم يمنعهم من جباية الاموال من بلاد الفيوم التي كانوا فيها.

أما في المعسكر العثماني فان الانهيار المعنوي بلغ إلى الحد الذي رفض فيه أحد كبار الموظفين أمر الباشا له بترؤس حملة ضد المتمردين ثم أن حالة انعدام الامن استمرت بالتفاقم: فالبدو (من عربان وغز) استمروا في النهب والتحريق، والمماليك، الذين كانوا لا يزالون في الفيوم يتصرفون هناك كما لو كانوا في بلد محتل فيجبون الضرائب ويستولون على الحبوب والحيوانات ويقتلون الفلاحين. ثم اجتازوا المقاطعات الشمالية حتى وصلوا إلى الجيزة «وطلبوا منها الكلف حتى وصلوا إلى وردان». ثم نشبت معركة جديدة في شهر رجب «وقتل من العساكر العثمانية مقتلة عظيمة وكانت الغلبة للمصريين وانتصروا على العثمانيين» واستولوا على المراكب التي تنقل غلال الميرى وأصبحوا يسيطرون جزئيا على طرق تموين القاهرة.

وغادر جزء من قواتهم جهة البحيرة إلى الجنوب وبعد ان أجتازوا الجيزة «حصل منهم ومن العساكر العثمانية الضرر الكثير في مرورهم على البلاد من التغاريم والكلف ورعى الزرع وقطع الطرق برا وبحرا» ثم اجتاحوا الفيوم مجددا وخربوها، اما السلطة فكانت عاجزة عن الدفاع حتى عن القاهرة بحيث أن العربان قطعوا طريق بولاق مرارا. وأما أمرا الجيزة فإنهم كانوا يدخلون القرى ويجبون ما لها ويحاصرون المدينة التي تقاومهم ويشعلون النار فيها ويقتلون من يجدونه من الاهالي والجنود كما حصل في المنيا.

ولم يلبث خروج الاقاليم من سيطرة السلطة المركزية تباعا وبصورة متزايدة الاتساع يوما بعد

يوم. وهكذا فان السلطة طلبت سلفة اجبارية من التجار وارباب الحرف وأوكلت إلى شاه بندر التجار الذى كانت عينته قبل ذلك أمين الضربخانه «سك النقود» أن يوزعها عليهم. وبعد ذلك بشهر عادت ففرضت سلفة جديدة تبلغ خمسة أضعاف السلفة السابقة ثم وزعتها على التجار والملتزمين. وكانت ردود الفعل لدى شريحة من التجار ذات دلالة:

«... فانزعج الناس وأغلق أهل الغورية حوانيتهم وكذا خلافهم وهرب أهل وكالة الصابون إلى الشام على الهجن واختفى أكثر الناس مثل السكرية وأهل مرجوش وخلافهم فطلبهم المعنيون ولزموا بيوتهم وسمروا مطابخ السكر...» [وقائع ٢٢ ذى القعدة ١٢١٧].

ولم يعفوا عن القرى، فقد:

«عملوا فردة على البلاد اعلى واوسط وادنى» وأمام عجزها عن تنظيم وارداتها وازاء نقصان مواردها، فان السلطة وعلى أثر نقص الموارد وزيادة النفقات بنتيجة الحرب مع المماليك فان الباشا «قطع (على العسكر) رواتبهم وخرجهم لقلة الايراد وكثرة المطلوب» فبدأت تلوح تباشير عصيان، وعمد العساكر الى الاهالى نهبا وتشليحا وخطفا وتقتيلا.

ومن جهة ثانية فقد تفككت العدالة. فكانت الدعاوى تقبل بدون ادنى تحقق واصبح استصدار الحكم يتطلب كلفة باهظة، خاصة اذا كان المتهم فلاحا. ويصف الجبرتى رد الفعل على هذه الاحراءات فيقول:

«فضاق ذرع الناس من هذه الحال وكرهوا هذه الاوضاع. وربما قتل الفلاحون المعينين وهربوا من بلادهم وجلوا عن أوطانهم خوف الغائلة...».

ثم يقدم صورة عامة للموقف:

«ولم يزل هذا دأبهم حتى نفرت منهم القلوب وكرهتهم النفوس وتمنوا لهم الغوائل وعصت أهل النواحى وعربدت العربان وقطعوا الطرق. وعلموا خيانتهم فخانوهم ومكالبتهم فكالبوهم وانتهى عربان الجهة القبلية الى الامراء المصرلية وساعدوهم عليهم. ولما انحدر الامراء إلى جهة بحرى انضمت اليهم جميع قبائل الجهة الغربية والهنادى وعرب البحيرة وخلافهم...» [موجز احداث عام ١٢١٧].

والجبرتى لا يغفل التشديد على المرحلة التى بلغها تداخل النزاعات وتشابكها. فالسلطة المركزية التى حسبت أنها ستستطيع الافادة من الضعف الفعلى الذى حل بالمماليك، تبالغ فى تقدير قوتها. ذلك أن سلطتها ترتكز إلى جيش لا أمل فيه، وباهظ الكلفة، بحيث أنها لا تستطيع أن تدفع له خراجه ومرتباته فيعمد إلى نهب البلاد، وهى لعجزها عن محاربة العصبيات العسكرية التى تسعى لازاحتها، فانها تغوص فى حرب صعبة وسط سكان معادين لها. وتمرد العساكر هو جواب على إلغاء جزء من أعطياتهم. ولهذا كله فان التناقض المزدوج الذى يواجه ما بين الشعب المصرى والسلطة، ثم ما بين هذا الشعب والمماليك، انما يتصوره التناقض الاول: تتراكب على بنية سابقة عليها وتسعى إلى إزالتها بوسائل

ليست مختلفة عن وسائل المماليك بل أنها تبدو وكأنها تضاعف من عنف المماليك، لاجبارها لهم على الدفاع عن انفسهم. ومن جهة أخرى فان السلطة المركزية، لاسباب اسلفنا الاشارة اليها، ليست متجانسة وقد زعزعتها الصعوبات التى تتخبط فيها. فالهيئة العليا منها ـ أى تلك التى عينتها استامبول ـ فى حال تمزق. وهى تبدو كهدف لكافة القوى الوالجة فى هذه النزاعات المتعددة. ومن هنا بالذات كان انفراط العقد. ففى مطلع ١٢١٨= ابريل ١٨٠٣ ثارت العسكر وطلبوا بأن تدفع أعطياتهم فورا فكان جواب الباشا أن ضربهم بالمدافع. فعمدوا، انكشارية وارنودا، الى نهب الخزينة واحتلال المدينة وانتزاع مفاتيح القلعة وقصف بيت الباشا واحراقه. ثم هجموا على أكبر تاجرين: المحروقى والجوهرى. لكنهم لم يعتدوا على الاهالى ابان هذا الانفجار بل جعلوا يراعون جانبهم ويجاملونهم. وفى هذا الظرف بدأ محمد على الذى سيستولى على السلطة فيما بعد، بالخروج من الظل. فقد توجه الاهالى اليه ليحميهم بجنوده. أما الباشا فانه لاذ امام هذا التحالف الناشىء بالفرار. فشغرت تبعا لذلك السلطة الرسمية المركزية، فتغيب بذلك احد طرفى التناقض تغيبا مؤقتا. أما الجبرتى فانه يقدم هنا، كما فعل بالنسبة لقيام القاهرة على الفرنسيين، حصيلة عامة بحيث أن الموازنة بين هاتين الحصيلتين تصير موازنة كاملة. فثمة دائما شخصية تحمل وزرها. والشخصية هناك، الشخص المغربى، وهنا الباشا المبعد:

«فكانت مدة ولاية هذا الباشا على مصر سنة وثلاثة أشهر وواحدا وعشرين يوما وكان سيىء التدبير ولا يحسن التصرف ويحب سفك الدماء ولا يتروى فى ذلك ويتكرم على من لا يستحق ويبخل على من يستحق... وطاوع قرناء السوء المحدقين به والتفت إلى المظالم والفرد على الناس وأهل القرى...» [وقائع محرم ١٢١٨].

ولا تصبح العناصر المبعثرة التى يشتملها وضعاً من الاوضاع ذات دلالة واهلا للتدبر والتفكر الا حين «تسلك» فى أمثولة تلقى نفسها متجسدة فى عنصر أو وجه فردى يمكن للمعايير الخلقية أن تنصرف اليه. ثم أنه لابد لهذا الوجه، كيما يقوم بسلسلة الشرور الموصوفة بكاملها، من أن لا يرد إلى عنصر آخر غير نفسه. وعليه أن ينطوى على كينونته والا يتعلق بغيرها ويعتزل ما سواها. ولذا فانها تتجوهر فى التو، وتصير نسيجا متجانسا من الاوصاف السلبية. وهى «تمتص» مادية الوقائع وتعقيدها وكثرتها، لكن ـ على صعيد ـ الايديولوجيا وحده أى صعيد المنطوق دون سواه.

وعقد التحالف الذى ازاح الباشا اجتماعا كان بين الحاضرين فيه: قائد الانكشارية وضباط (وجاقات) مختلف العصبيات وموفدو المماليك والعلماء والقاضى فاختاروا كقائمقام الوالى زعيما عسكريا ثم قرروا إرسال «عرضحال» بصورة ما وقع إلى الباب العالى وطلبوا من القائمقام الجديد أن يلغى كافة المظالم. ويظهر هذا الاجراء شقا هاما. فقد تم استيلاء الجيش على السلطة كجواب على عجز السلطة عن دفع متأخر

أعطياته. ولكنه تم كذلك بتواطؤ من قبل الاهالى الرازحين تحت وطأة المظالم والفرد التى كانت تجبى ـ فى جزء منها على الاقل ـ من أجل تلبية حاجات هذا الجيش. والهدنة التى حصلت بين الاهالى والجيش ابان العصيان اظهرت وكأن ثمة مصالح مشتركة بين الفريقين. فبمجرد أن أزيح العدو المشترك حتى عادت التناقضات التى تغيب للحظة، الى الظهور متبدلة المواضع.

وكان الرجل الذى أختير كقائمقام هو طاهر باشا رئيس الارنؤد. فاما فى داخل التحالف المتنافر الذى يشتمل على الانكشارية والارنؤد والمماليك والعلماء، فان أكثر العناصر قربا من الوالى المطرود هو الانكشارية. وهؤلاء عنصر مسلح مقرة القاهرة ويخضع للسلطنة العثمانية من حيث المبدأ فهو يشكل لهذه الاسباب مجتمعة خطرا داهما على من سيباشر الامساك بمقاليد السلطة. ولذا فان طاهر باشا ـ القائمقام ـ تصدى له مباشرة. فقد أرسل غداة تعيينه جنوده فأوقفوا رؤوس الانكشارية (وآغاتهم) وكبار الموظفين العثمانيين الذين يديرون الخزانة والدفتردار وسك العملة التى يشرف عليها شاه بندر التجار المصرى أحمد المحروقى. وقد قطعت رؤوس البعض منهم وأطلق البعض الآخر مقابل فدية من المال. لكن النزاع لم ينشب برغم ذاك. بل نشب النزاع بصدد الاعطيات (الجامكيات) اذا فى حين «صار طاهر باشا يدفع إلى طائفة الارنؤد أعطياتهم المتأخرة أو يحولهم بأوراق على المصادرين»، فانه جعل يقول للانكشارية كلما طلبوا شيئا من أعطياتهم: «ليس لكم عندى شيء ولا أعطيكم ألا من وقت ولايتى». لهذا فان جماعة منهم «بيتت امرها» مع موظف عثمانى آخر هو والى المدينة واغتالت طاهر باشا. واذا ذاك تواجهت كافة العناصر المسلحة فى حرب عنيفة قاتلة: فكان هناك الانكشارية بالطبع والدلاة والسجمان، فى مواجهة الارنؤد الذين تحالفوا ظرفيا مع المماليك، الذين جعلوا يقتربون من القاهرة. وقد حاول والى المدينة أن يمثل السلطة الشرعية فجمع العلماء وطلب اليهم الذهاب إلى محمد على، رئيس الارنؤد وخصم الاتراك، وأن «يخاطبوه بان يذعن للطاعة». غير أن النهب الذى قام به الانكشارية ورفض العلماء لان يضمنوا سلطة متأرجحة، مضافا إلى سيطرة الارنؤد على القلعة الكبيرة المحصنة التى تتحكم بالقاهرة وتشرف عليها، كل ذلك ادى إلى تلاشى ادعاءات والى المدينة:

«اخذ أمره فى الانحلال وتفرق عنه غالب الانكشارية البلدية» [وقائع يوم الاثنين ٩ صفر ١٢١٨].

والتجأ أعيان العثمانية إلى محمد على «فأظهر لهم البشر والقبول». عند ذاك جرت المناداة بالامان وفتح الاسواق «حسب ما رسم ابراهيم بك (الزعيم المملوكى) وأفندينا محمد على» (رئيس الارنؤد)، أى باسم الحليفين الباقيين من بعد أزاحة السلطة العثمانية. ثم أن التصفية الجسدية للطاقم التركى كانت تسير بموازاة أسقاط الانكشارية سياسيا وتجريدهم من سلاحهم والاحاطة بهم وإرسالهم إلى سورية. وإبان هذه الفترة وطد الارنؤد من

تحالفهم مع المماليك الذين قابلوهم فى الجيزة. ثم تقدم هؤلاء الاخيرون مع احلافهم من «العربان الكثيرة» باتجاه ابواب القاهرة و«على اكتافهم البنادق وبالقرابين وخلفهم المماليك والعربان».

ثم استعادوا عددا من كبريات الوظائف «فقلد أمين خزنة مراد بك والى الشرطة»... ثم أن الرئيس المملوكى ابراهيم بك جمع الاعيان، تقربا من الاهالى والملتزمين و «ابرز لهم فرمانات وجدوها عند الدفتردار المقتول ومضمونها تقريرات مظالم»، منها مظالم ومنها على صادرات الغلال «وتقريرات على الرؤوس والدور والعقار والاملاك ومنها أن الحلوان عن المحلول ثلاث سنوات ومنها أنه يحسب المضاف والبرانى إلى ميرى القرى وغير ذلك [وقائع ١١ صفر ١٢١٨].

وفى نهاية هذه المرحلة الثانية من الحقبة الثانية كانت السلطة العثمانية، والممثلة بالوالى وكبار آغاة الادارة والعنصر العسكرى، قد صفيت نهائيا.

أما فى التجمع الذى خلفها فكان هناك قوتان حليفتان تتواجهان. هم الالبان الارنؤد والمماليك، وبيد كل منها عناصر مسلحة منظمة وذلك فى الحين الذى وقفت فيه قوة ثالثة من طبيعة أخرى هى العلماء تترقب وتترصد.

وتكتمل هذه المرحلة الثانية باقتسام ظاهر للسلطة:

«عزم الامراء على التوجه إلى جهة بحرى فقصد البرديسى وصحبته محمد بك... جهة دمياط ومعهم محمد على بيك أيوب وغيرهم وصحبتهم الجم الكثير من العساكر والعربان ولم يتخلف الا ابراهيم بك واتباعه والحكام وسافر سليمان كاشف البواب الى جهة رشيد وصحبته عساكر أيضا».

أما المرحلة الثالثة التى تبدأ فى هذه الحقبة الثانية فانها توزع الممثلين (عينهم) بصورة مختلفة. فهؤلاء الممثلون لم يعودوا ذات الممثلين، طالما أن النسبة المحددة من القوى أى النسبة التى تحدهم وتعرفهم قد تغيرت بعد أزاحة الوالى والآغاة العثمانيين. فقد عقد المملوك ابراهيم بك الذى يحكم القاهرة ديوانا حضره القاضى والعلماء وتعين قائما مقام الوالى. أما الوالى الجديد الذى عينته استامبول فلا سند ولا ظهير له فى مصر نفسها بحيث أن أوامره وعروضه ردت عليه بدون مواربة. وأما العلماء فانهم وقفوا الى جانب المماليك الذين بدوا العنصر الرئيسى فى التحالف الذى يضمهم مع الجنود الارنؤد المؤتمرين بأمر محمد على. وفى الديوان الذى عقد لسماع ومناقشة الجواب الذى سوف يرسلونه إلى الوالى الجديد حضر المشايخ:

«وتكلموا (أى المشايخ) فى ظلم العثمانيين وما احدثوه من المظالم والمكوس» [وقائع ٢٢ ربيع أول ١٢١٨]

وأمام العداء الاجماعى الذى قوبل به الوالى الجديد، وازاء العرض الوحيد الذى قدم له والذى يجعله تابعا لسلطة المماليك «على الشرط والقانون القديم»، فإن الباشا الجديد تقصد وسائل الانتاج

الرئيسية فى مصر: أى السدود التى تقى الارض من المياه المالحة، والسدود التى تحفظ ماء الرى. وحماية هذه السدود بالنسبة للجبرتى هى مرادف للنظام والعقل. فهو يكتب عن السد الذى ناحية أبى قير الحاجز على البحر المالح ويقول:

«وتتفقده الدول على مر الايام بالمرمة والعمارة اذا حصل به أدنى خلل. فلما اختلت الاحوال واهمل غالب الامور واسباب العمارات.. فلم يتدارك امره.. فسالت المياه المالحة... وخربت القرى والبلاد وتلفت المزارع....»

[وقائع ١ جماد أول ١٢١٨].

وقد أزرت هذه البادرة بما كان تبقى للسلطة العثمانية من اعتبار وأزهقته نهائيًا، فباتت مرادفة مع الجور. غير أن إزاحة الباشا السابق وطرد الإنكشارية والتشكيلات- العسكرية التركية الأخرى أحالت الحزب العثمانى إلى قوة ثانوية. فأما التحالف الذى كسب المعركة فإن التآلف يسود ظاهريًا بين صفوفه. لكن مسألة الجباية عادت تطرح نفسها بنفس الحدة. بحيث أن الناس «انزعجوا لما أشيع عن عزمهم عمل فرده».

وتلافيًا للمواجهة بينها وبين جزء كبير من الأهالى فإن الإدارة المملوكية قصرت مطالبها على القبط ومال للجهات. ومع أن ذلك لم يف بالمطلوب إلا أن هذه الإدارة تجنبت سكان القاهرة وعمدت إلى الفلاحين والقرى:

«حتى خرب الكثير من القرى والبلاد وجلا أهلها عنها».

«وقائع ٨ جماد أول ١٢١٨].

ثم تلت ذلك مجاعة فاقم من أمرها سلوك الأمراء الذين:

«صاروا يأخذون الغلال القادمة بمراكبها قهرًا عن أصحابها».

فعز وجود الغلة وقل الخبز!

«وداخل الناس وهم عظيم».

لقد بات المماليك هم الذين يحتلون الآن مقدمة المسرح ويمسكون بمقاليد السلطة فيفرضون ويجبون. وهكذا انتقل الصراع نحو هذه العلاقة التى لم تعد تتقنع بالصراعات الداخلية فيما بين شرائح السلطة. فاجتمع العلماء للتشاور. وهم إذ جعلوا أنفسهم الناطقين باسم الشعب المصرى فى وجه العثمانيين وجورهم الذى ظهر «فيما أحدثوه من مظالم ومكوس» كما ذكروا ذلك فى الديوان فإنهم باتوا ملزمين بالتحكيم فى الخلاف الذى يواجه ما بين الممسكين بمقاليد السلطة الجدد وبين الشعب، فلاحيه وأقباطه ومزارعيه كلا وجميعًا. وكان موضوع تشاورهم هو «توفر شروط صلاة الاستسقاء». وقد وجدوا هذه الشروط غير متوافرة. فنصوا إلى إبراهيم بك يقولون له:

«وأين الشروط التى من جملتها رفع المظالم وردها والتوبة والإقلاع عن الذنوب وغير ذلك».

[وقائع منتصف جماد أول ١٢١٨].

غير أن مشكلة أعطيات الجنود و «جامكيتهم» المزمنة عادت لتطرح نفسها مجددًا. ولجوء العساكر إلى التمرد والعصيان ليس أمرًا مستبعدًا.

وتوزع رؤوس العصبيات على أنفسهم وعلى «الأمراء والكشاف والأجناد كل منهم على قدر حاله في الإيراد» لم يكن يكفى الكسورات المتبقية. وهكذا فإنهم اتخذوا قرارًا في مثل خطورة قرار الوالى بكسر السد الذى ناحية أبى قير. فقد طلبوا «قدرًا كبيرًا» من المال من جمرك البهار وفتحوا الحواصل و «أخرجوا منها متاع الناس وباعوه بالبخس» و «أخذوا بن الحضارمة والينبعاوية».

[وقائع ٩ جماد ثان عام ١٢١٨] وبعد الضربة التى سددها الوالى إلى الإنشاءات المائية الكبرى هاجم المماليك بدورهم العنصر الثانى من عناصر التشكيلة الاجتماعية المصرية: عنينا التجارة البعيدة.

ومع هذا فإن القاهرة لم تسلم: فقد أنزلوا فردة وزعوها على التجار وأرباب الحرف. أما البيروقراطية فإنها أفادت من الأشراف الذى تمارسه على توزيع الغلال: فقد احتلت جزءًا منها لصالحها الخاص وتقاضت رشاوى وتاجرت بالقمح الموجود في حيازتها:

«فضج الناس وشح الخبز من الأسواق... والأمر فى شدة وتسلط العسكر والمماليك على خطف ما يصادفونه... وإن حضرت مركب بها أغلال وسمن وغنم من قبلى أو بحرى أخذوها ونهبوا ما فيها جملة فكان ذلك من أعظم أسباب القحط والبلاء».

وأمام عبث العسكر وعربدتهم فى الناس لجأ الناس إلى العلماء، فتشفعوا وتوسطوا مرة أخرى لدى المسكين بمقاليد السلطة فكان هؤلاء يحاولون طمأنتهم «بالكلام الفارغ»:

وإلى هذا النزاع المتفاقم، أضيفت نزاعات أخرى أقل حسمًا إلا أنها أسهمت فى تأجيج النزاع الأول الذى أصبح رئيسيًا. فقد جعل الأرنؤد يطالبون بجامكيتهم بإلحاح يؤدى إلى حافة المواجهة المسلحة. ثم تم اتفاق مؤقت بخروج العساكر الأرنؤدية من المدينة. وقد أمكن تجميد هذا النزاع الصغير فى تلك الآونة. إلا أن نزاعًا أهم وأخطر سوف يندلع بين صفوف الأمراء المصرلية. فقد عاد إلى مصر أحد كبرائهم (الألفى) من انجلترا حيث كان لاجئًا هربًا من الفرنسيين. فأما المماليك، ولا سيما أولئك الذين تمكنوا من السيطرة على الطبقات الأخرى كالبرديسى فإنهم:

«أظهروا البشر والفرح... وأضمروا فى نفوسهم السوء له ولجماعته، المتأمرين حسدا لرياسته عليهم وخمولهم بحضوره»

[وقائع الخامس من ذى القعدة ١٢١٨].

وبدأت استعدادات عسكرية ضخمة لقطع طريق السلطة على القادم الجديد. وحين طلب العساكر إلى ذلك فإنهم طالبوا بجماكيهم ويسجل الجبرتى أن مطالب العساكر المستمرة وتهرب الأمراء المتواصل قد انتهى إلى أن فعل فعله.

وبرغم أن محمد على «حولهم على القبط» وعلى المماليك. فإن العساكر ظلوا يقومون ببعض «القلقات» والتمردات. وحاول بعض منهم

الاستيلاء على القلعة التي لا سيطرة ولا تحكم بالقاهرة بدونها. وأمام هذا كله لم يبق للسلطات من خيار فشرعت في «عمل فردة أجرة سنة» نصفها على المماليك والنصف الآخر على المستأجر وذلك لدفع المستحقات الجديدة وبدأ «تصقيع» (أي تسجيلها) الأملاك وكتابتها في قوائم «فضج الفقراء والعامة والنساء وخرجوا طوائف يصرخون»، والنساء «ينذبن وينعين ويقلن كلامًا على الأمراءمثل ايش تأخد من تفليسي يا برديسي»، وصبغن أيديهن بالنيلة وأغلقت الدكاكين وذهب الجمع الكثير إلى الجامع الأزهر وذهبوا إلى المشايخ فركبوا معهم إلى الأمراء حيث أبلغوهم مطالب الناس. وقد كان للعنف الذي اتصفت به ردة الفعل الجماهيرية مفاعيل ملحوظة: فأما العساكر الذين كانوا منتشرين في الأسواق فإنهم «داخلهم الخوف وصاروا يقولون لهم نحن معكم سوا سوا».». وأما محمد على الذي سرعان ما أدرك نسب القوى المتواجدة فإنه أرسل مساعدة (كتخداه) إلى الأزهر. وهدأت الناس ولكن:

«انحرفت طباعهم عن الأمراء ومالوا إلى العسكر».

ويشدد تعليق الجبرتي على نهاية المرحلة الثالثة وهي نهاية لا تزال في بداياتها.ولسوف تكون طويلة ومعقدة. إلا أن حبكتها قد حبكت. وهنا تتدخل الأيديولوچية في تركيب الكتابة: فهي تموضع نهاية مرحلة من المراحل بتكثيف سماتها وقسماتها في وجه أحد الأطراف- وبالتحديد ذاك الذي يعتبره صاحب الوقايع الطرف الأساسي.

ويستعيد، بمناسبة ذلك، عبر هذا الطرف مختلف التعرجات التي تحل بالسلسلة المتلاحقة من الأحداث. ونقول عبر هذا الطرف لأنه الصيغة التي تستخدمها الأيديولوچية في إعادة تدوين الظواهر بما هي ظواهر. وعلى هذا فإن وجه محمد على هو الوجه الغالب على ملتقى الحقبتين الثانية والثالثة. فيسترجع الجبرتي كافة ما حدث بعد رحيل الفرنسيين ويجعله حصيلة «دسائس» الزعيم الألباني (الارنؤدى).

«وكانت هذه الفعلة من جملة الدسائس الشيطانية. فإن محمد على لما حرش العساكر على محمد باشا خسروا وأزال دولته وأوقع به ما تقدم ذكره بمعاونة طاهر باشا والأرنؤد ثم بالأتراك عليه حتى أوقع به أيضًا... وكل ذلك و هو يظهر المصافاة والمصادقة للمصريين وخصوصًا البرديسي... واغتر به البرديسي وراج سوقه عليه وصدقه وتعضد به وقص جناحه بيده... فعند ذلك استقلوهم في أعينهم وزالت هيبتهم من قلوبهم (أي الأرنؤد) وعلموا خيانتهم وسفهوا رأيهم..»

[وقائع ٢٥ ذى القعدة ١٢١٨].

ويظهر المؤرخ بدقة كاملة المسلك الملتوى المتعرج الذى سلكته التناقضات وهو يعزو أسباب التمزقات التي تجعل السلطة الممارسة على التشكيلة الاجتماعية المصرية فريسة التفكك لا مخرج له ولا منه وترمي بها في متاهات نزاعات متزايدة الحدة مع مختلف فئات وطبقات الشعب المصري فيعزو هذه الأسباب إلى الأزمة المزمنة التي تعاني منها الخزينة والجباية. ومع هذا فإن نص

الجبرتى هو الذى يسوق وصفًا لما فعله «كشاف الأقاليم فى القرى القبلية والبحرية من المظالم والمغارم وأنواع الفرد والتساويف» ويجعله صدى وتتمة لحكمه العام على تلك الحقبة فيقول:

«إنه شئ لاتدركه الأفهام ولا تحيط به الأقلام» ونص الجبرتى نفسه أيضًا هو الذى يورد مداخلة شيخ الأزهر العتيد إذ تكلم فى أحد المجالس التى عقدها الأمراء:

«فذكر بعض كلمات ونصائح فى إتباع العدل وترك الظلم وما يترتب عليه من الدمار».

[وقائع ٢٠ شوال ١٢١٨].

ولكن عندما يتبدى التاريخ للناظر فى ظروف من الصراعات «التى لا تدركها الإفهام»، فإنه يجرى تفكره عبر «الدسائس الشيطانية».

أما المرحلة الرابعة فمفتتحها فردة البرديسى التى وضعت المماليك فى وضع صراع مع الأهالى وفيها ستتراكم المناقضات وتتشابك، ففى المعسكر المملوكى هناك الصراع ضد الألفى الذى سوف يستفرغ جهود سائر العصبيات ويستنفدها. كما كان على المماليك أن يواجهوا الأرنؤد الذين يقودهم محمد على. ثم أن تركيا التى لم تزهد بعد فى مصر ولم تتخل عنها ظلت ترسل الولاة الذين يوحدون للحظة كافة المناقضات والمعارضات ضدهم . وقد هب الإنجليز لنجدة حليفهم التركى المهدد فكان عليهم مواجهة الفلاحين. ولكن الصراع الرئيسى الذى يتقدم كافة النزاعات ويغلب عليها، كما يشير الجبرتى، هو صراع الشعب المصرى ضد المماليك والأتراك. وإنما أفلح الرئيس الألبانى فى الإستيلاء على السلطة لفهمه هذه الحقيقة.

ولكى يكسب الأهالى إلى جانبه ويعزل المماليك فإن محمد على ألغى الفردة الجديدة. أما البرديسى فإنه أجاب بتقرير الفردة عن ثلاث سنوات سلفًا وبمهاجمة الأرنؤد. ثم حاول أن يجمع المماليك المنتشرين فى سائر أنحاء مصر ليواجه الموقف الجديد. لكن الهجوم الأرنؤدى المضاد كان غاية فى السرعة: فقد حاصروا بيوت زعماء المماليك وفرقوا أتباعهم ثم احتلوا – ويا لدهشة الجبرتى– القلعة. ولكنهم ظلوا إلى ذلك يراعون الشرعية. فعلى الرغم مما سلف من عزل عدة ولاة، إلا أن الرئيس الأرنؤدى، أبلغ القاضى فرمانًا بتعيين والى الأسكندرية واليًا على مصر. وطالما أنه لم يظهر بعد أى منقذ للوضع القائم فانه جعل من نفسه المدافع عن وضع مصر فى علاقتها بالسلطة العثمانية.

ونقول انه لم يظهر المخرج النهائى بعد لان الامراء المطرودين لايزالون يتمتعون بما يكفى من القوى لتهديد القاهرة وقطع موارد التموين عنها وتعبئة العربان وجباية القسم الاكبر من الضريبة وقطع الطرق التجارية أو ابتزاز القوافل. وفى مثل هذا الموقف فان استيلاءه على السلطة يصبح بمثابة استباق لعزل نفسه. أما المماليك فانهم ركزوا بهذا على أنفسهم الردود المتضافرة من قبل الاتراك والارنود والفلاحين ـ بدون أن ننسى التباعد الحاصل داخل صفوفهم.

واذن فقد أصبحت مقاليد السلطة المركزية رسميا بيد العثمانيين، وتستند إلى قوتين عسكريتين: قوة السلطنة (أى الانكشارية والولاة...) وقوة الالبانيين الخاضعة من حيث المبدأ للقوة الاولى والمستقلة فعليا. وقد بدأ الوالى الجديد بأن:

«طلب مال الميرى من السنة القابلة لضرورة النفقة».

غير أن الصعوبات التى يتخبط فيها الملتزمون، ودمار القرى، وسيطرة المماليك على الريف المصرى، وتضافر هذه العوامل جعل جباية الضريبة المذكورة أمرا مستحيلا. لذلك فقد انحطوا بها إلى النصف. لكن هذا الاجراء اتخذ فى ظرف ارتفعت فيه الاسعار على عادتها فى كل مرة لا تكون الأرياف والاقاليم فيها خاضعة للسيطرة المركزية. فظلت مع ذلك شديدة الوطأة.

اما المصرلية المتحالفون مع العربان فقد انتشروا فى وادى الجيزة حتى انبابه فنهبوا البلدة وشردوا السكان، ثم عبروا الى ضفة النيل اليسرى (البر الغربى) حيث تعسكر الجيوش التركية والجيش الذى يقوده محمد على. وكانت المواجهة قرب امبابه دموية شرسة. فقد هاجم الجيش المملوكى المتاريس ولكنه خسر الكثير من رجاله فتراجع. لكن الحرب المتحركة هذه هى حرب لا يمكن كسبها حتى عبر انتصارات متوالية. فبعد هزيمتهم انكفأ الأمراء الى الضاحية الجنوبية للعاصمة حلوان. فكان من نتيجة ذهابهم الى هناك وفود سيل من اللاجئين الهاربين من الارهاب جاءوا يطلبون المأوى والملاذ فى العاصمة. لكن القاهرة بدون دفاع مهيضة الجناح. وقد وصل قسم من «المتمردين» الى أبواب القاهرة نفسها فتسللوا الى الأحياء المحاذية فنهبوا البيوت وسلبوا النساء. وعندما كان بعض الضباط يقاومونهم ويصمدون للحصار، كما حصل مع كاشف اقليم الشرقية فى بلبيس، فانهم كانوا يبقون معزولين ويقاومون بدون نجدة، ثم ينتهون بأن يهزموا ويقتلوا. فبقدر ما كان مدى حركة المماليك يمتد، بقدر ما كانتْ ترتبط القاهرة لجهة تموينها وأسعارها بمشيئتهم.

أما «الإدارة» المملوكية فقد تحولت إلى نهب غير منظم: فقد أوكلت جباية الفردات الى العربان فجعلوا يقتطعون منها أنصبة عالية يدفعها الفلاحون. كما يصادرون الغلال.. أما الباشا فانه «أرسل تنابيه الى أرباب الحرف والصناعات» دعما للمجهود الحربى، فاعتبرها هؤلاء فوق الطاقة فتراجع عن قراره فى ضريبة الميرى عن هذه السنة الى نصفها. وفى المدينة بدأ الاحتجاج الاقتصادى يعلو قبل أن يفضى الى مساعى صلح. فقد اجتمع الكثير من «غوغاء العامة» بالجامع الأزهر الذى صار أكثر فأكثر انفتاحا على مثل هذا النوع من المظاهرات. و«تحلقوا بمقصورة الجامع يدعون ويتضرعون ويقولون يالطيف». وأغلقت الحوانيت واقفرت الأسواق. فأرسل الباشا فى بادرة تهدئة من جانبه. قاصدا الى عمر مكرم، الذى التف حوله الذين طالتهم اجراءات الفردة، يقول له: «اننا رفعنا عن الفقراء»، فأجابه نقيب الاشراف: «ان هؤلاء الناس وأرباب الحرف والصنائع كلهم فقراء». ويشير «أخذ الموقف» هذا إلى اتساع حركة المعارضة التى كانت تقتصر فى تعبيرها حتى ذاك على التجار، لتشمل «جناحا راديكاليا» يطلق عليه الجبرتى اسم «الغوغاء»، ثم فشلت أثر ذلك محاولة فتح الأسواق بالقوة. فواجهت المركزية فشلا خطيرا: فهى تتراجع للمرة الثانية على

التوالى وبصدد نفس المسألة. ثم انتهت الهزائم العسكرية التى حصدتها هذه السلطة فى الحرب على أرض لا دراية للجيش التركى بها، وطرقها صعبة الحماية، انتهت هذه الهزائم بأن أضعفت تلك السلطة التى كاثرت من ارتكاب الأخطاء..

ويقول الجبرتى فى حصاد شهر صفر لعام (١٢١٩) الموافق فيكتب قائلا:

«وانقضى هذا الشهر والحال على ماهو عليه من استمرار الحروب والمحاصرات بين الفريقين وانقطاع الطرق برا وبحرا وتسلط العربان واستغنامهم تفاشل الحكام وانفكاك الأحكام.. وجهل القائمين المتأمرين بطرائق سياسة الاقليم.. وتمادى قبايح العسكر بما لا تحيط به الأوراق والدفاتر.. وتعطل أسباب المعايش وغلو الأسعار فى كل شئ وقلة المجلوب ومنع السبل.

وتبين أن الامدادات التى أرسلتها السلطنة للوالى بدون فاعلية. فالخمسة أو عشرة آلاف جندى من «النظام الجديد» ممن جرى اعدادهم وتدريبهم على النمط الأوروبى ليسوا أهلا لكسب المعارك وأما محمد على فانه برغم تعيينه واليا على جدة، وبرغم أن الأمراء جعلوا يحاولون محاصرة المدينة بخلق شبكة من المتواطئين معهم، فان محمد على ظل يمسك بالمبادرة السياسية والعسكرية. فقد استدرج المماليك الى معركة فى طرا فى التاسع من شهر ربيع الثانى لعام (١٢١٩)حيث فاجأهم ليلا وهزمهم شر هزيمة. وهكذا فقد بدا الوالى وجنوده ازاء مآثر وانتصارات الألبانيين كالوجوه الشاحبة. وعندما جمع الوالى محاولا أن يورطهم فى مساومة مع الأمراء الذين كانوا يطالبون بأن «يعطيهم» الصعيد فى حين قبل الوالى باعطائهم جهة اسنا ومقبلا، فان العلماء «ابوا» القيام بأية وساطة وقالوا: «نحن لا نكتب شيئا اكتبوا لهم مثلما تعرفون».

ثم حدثت حادثة تتصل بسلك العلماء ومصالحهم فوترت العلاقات بين المشايخ والوالى. فقد تورط كاشف كبير فى جريمة قتل أحد المشايخ بدون أن تتخذ بحقه الاجراءات الشرعية اللازمة. الأمر الذى أثار سخط المشايخ بحيث امتنعوا عن الحضور للأزهر والتدريس فيه. وفشلت المساعى لصرفهم عن ذلك. وفى تضاعيف ذلك تعرضت السلطة لسدنة ضريح سيدى أحمد البدوى وقبضت على نسائهم ونبشت أرض دارهم بحثا عن مال. وشفع المشايخ امتناعهم عن التدريس بالامتناع عن الافتاء. فأدى الشلل الذى أصاب القضاء الى رضوخ السلطة. وكان من الظاهر أن السلطة تتخبط فى صعوبات لا سبيل لتذليلها، أو أن قدرتها على ذلك كانت فى تناقص مستمر. كما أن عجزها وعدم فاعليتها ازاء مناوشات عصابات المماليك المسلحة المتآلبين مع البدو كان واضحا. فكثرت محاصرة العساكر القادمين من الأقاليم لأحياء القاهرة. وأصبح تعهد الجيش أمرا باهظ الكلفة، سيما وأن أعباءه ملقاة على عاتق الناس محاصرين ويتفاقم عوزهم ويعانون الجوع نتيجة لاشراف الأمراء على الريف. غير أن قدرة الوالى العسكرية ظلت على حالها، لا بل أنها توشك أن تتدعم وتقوى بالولاة القادمين الى

القاهرة. وفى هذه اللحظة بالذات تدخل محمد علي. فشرعية السلطة الرسمية لم تعد معترفا بها ابتداء بكفلتها الأيديولوجيين أى العلماء، والأهالى يرزحون تحت عبء ساحق هو عبء تعهد الادارة والجيش ويعانون من حصار القاهرة. والمماليك أعجز من أن يشكلوا خيارا (يركن اليه) بسبب انقسامهم وادارتهم المفجعة. أما الرئيس الأنؤدى فلا تزال تكلل جبينه انتصاراته التى حققها على المماليك فى صراعه معهم حتى ولو كانت انتصارات جزئية. كما أن معارضته للبرديسى حين فرض فردة على الأهالى جعلته يظهر بمظهر البطل المدافع عن «الفقراء» بالمعنى الذى يذهب اليه عمر مكرم. وهكذا فقد عاد الى القاهرة مصحوبا بجيشه الذى أدخله معه الى المدينة خلسة دون أن يسأل الباشا عن ذلك. أما العلماء، فان نهب المدينة من قبل جيش الباشا المفكك نتيجة لفقدان هذا الأخير أية سلطة عليه (فكتب خطابا فرمانا للدالاتية يأمرهم بالخروج من الدور وتركها لأصحابها فلم يمتثلوا ولم يسمعوا»، نقول أن العلماء قرروا حينذاك اللجوء الى أكثر أسلحتهم فعالية: «فتركوا قراءة الدروس» واسمعوا رسول الباشا اليهم كلاما «وأوهموه ثم قام وانصرف» [وقائع صفر ١٢٢٠].

أما السلطة العثمانية فانها كانت تريد أبعاد محمد على والافادة من كفاءته العسكرية والسياسية فى آن معا فعينته واليا على جدة حيث كان الوهابيون وفق ما نقلته ركبان الحجيج، يحاربون السلطة العثمانية.

وشاع فى المدينة أن الباشا «عازم على عمل فردة على أهل البلد وطلب اجرة الاملاك بموجب قوائم الفرنساوية» وهى الفردة التى أثارت فى حينها معارضة شديدة من قبل العلماء. شكل العلماء بالفعل قيادة الحركة الشعبية:

«والمشايخ تاركين الحضور الى الأزهر وغالب الأسواق والدكاكين مغلوقة وبطل طلوع المشايخ والوجاقلية ومبيتهم بالقلعة فحضر الأغا الى نواحى الأزهر ونادى بالأمان وفتح الدكاكين فى العصر فقال الناس وأى شيء حصل من الأمان وهو يريد سلب الفقراء ويأخذ أجر مساكنهم... وركب المشايخ الى بيت القاضى واجتمع به الكثير. من المعممين والعامة والأطفال حتى امتلأ الحوش والمقعد بالناس وصرخوا بقولهم شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم وطلبوا من القاضى أن يرسل باحضار المتكلمين فى الدولة لمجلس الشرع... فحضر الجميع واتفقوا على كتابة عرضحال بالمطلوبات وذكروا فيه تعدى طوائف العسكر والايذاء منهم للناس واخراجهم من مساكنهم والمظالم والفرد وقبض مال الميرى المعجل وحق طرق المباشرين ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة» [وقائع ١٣ صفر ١٢٢٠].

فعمد عمر مكرم نقيب الاشراف والشيخ الشرقاوى شيخ الأزهر، أى ممثلا أهم سلطتين ايديولوجيتين، الى تنصيب محمد على واليا بحضور القاضى الأكبر ممثل الجهاز القضائى ثم أرسلا الخبر بذلك الى الباشا. وهكذا تبدل التناقض الذى يواجه مابين الشعب المصرى وما بين السلطة

العثمانية والمماليك لصالح الطرف الأول: وحين أرسل الوالى تذكرة الى القاضى ينكر فيها شرعية عزله والصفة التمثيلية للجمعية (الديوان) التى أصدرت هذا العزل فان القاضى يجيبه:

«انه حضر... نحو الأربعين الف نفس بالمحكمة وطالبون نزولكم أو محاربتكم فلا يمكننا دفع قيام هذا الجمهور» [وقائع صفر ١٢٢٠].

واذا كان الاستشهاد اللفظى بالجمهور ورأيه وقيامه ليست أمرا جديدا. الا انها تأخذ فى هذا السياق قيمة مختلفة تماما. اذ أن التدخل جاء من حركة وهى حركة مدينية صِرفة. أما الريف فانه يقاوم وحيدا وبتشتت. وهى تستمد وحدتها من معارضتها للسلطة العثمانية وادارتها. وقد تلقت ايديولوجية قيادتها تحولا هاما. فموضوع النقاش الذى كان دائرا هو موضوع كلاسيكى فى الاسلام فهو يدور على شرعية معارضة «أولى الأمر منكم» أى السلطة القائمة. وقد سبق أن أطلقت صفة الظلم مرتين (انظر اعلاه). وهذا هو ما يجعل المعارضة مشروعة. وعندما يقول موظف من كبار الموظفين لعمر مكرم:

«كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى:«اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» فيجيبه مكرم:

«أولو الأمر العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل وهذا رجل ظالم وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة (...) هذا والأمر مستمر من اجتماع الناس وسهرهم وطوافهم بالليل واتخاذهم الأسلحة والنبابيت حتى أن الفقير من العامة كان يبيع ملبوسه أو يستدين ويشترى به سلاحا...» [وقائع ٢٥ صفر ١٢٢٠].

ان عمر مكرم والشيخ السادات والقاضى، ليدّعون الأمر والسلطة للعلماء ويطلبونها فيهم. ويرون أنهم هم حملتُها والأمناء عليها وقولهم هو الفصل فى عدالتها وأنهم ضمان مطابقتها للأصول والمعايير. وهم يقفون على نفس الأرضية الأيديولوجية التى يقف عليها من ينكرون عليهم السلطة وينازعونهم عليها. وهم يقرعونهم باسم القواعد القائمة المشتركة التى تعمل لصالح السلطة وتقيم تبعية العلماء لهذه السلطة ذاتها. وثمة مرجع فى المقالة التى أدلى بها مكرم، فمكرم (شأن الجبرتى فى مقدمة العجايب) يعتقد أنه يتكلم باسم الشريعة التى هو مبلغها ووارثها بنسبه كشريف. ولكن ما يحسب مكرم انه يتكلم باسمه لا يعين العبور الى الفعل ولا يحتميه. أنه يتكلم على خلفية من صراعات وأعمال عنف. تستبعد مقالته فى الحافها على سرد شروط امكانها هى كمقال. وبين حدى التناقض (الذى لا يتعين بالمناقضة فيما بين الشعب القاهرى والسلطة العثمانية وحسب بل بها وبالصراعات فيما بين العثمانيين والأرنؤد وبين المماليك والعثمانيين والفلاحين والمماليك...) يضاعف العلماء السلطة القائمة بادخال التباين بين ممارستها وأصولها ومعاييرها، بعد قصره على امكانية تدخل خارجى

فى دائرة السلطة. وتبعا لذلك فانهم يضعون أنفسهم بجانب الأصول. فالتقويم، أو بتعبير أدق اعادة الحال الى أصولها وطبيعتها، حين يتذرع ويتعلل بالحركة الشعبية فانه يزعم فى الحين ذاته استنفاذ معناها فى توافق السلطة مع الأحكام التى ينص عليها حملة الشريعة. وما هذا الا استعادة لعلاقة «الروحى ـ السياسى» «بالتنوع» المعين.وقيادة الحركة «تعيد ادراج» هذه العلاقة فى نصابها هى الذى توليه اياها التشكيلة الاجتماعية وتحيلها الى مجرد مطالبة بالأصول داخل علاقات السلطة.

أما المرحلة الخامسة التى تفتتح بتعيين جمعية المشايخ لمحمد على فتسمها تناقضات ادعاء الأمر والسلطة ذاك: فالشعب الذى لعب الدور الرئيسى فى تصفية السلطة التركية لا يشغل المركز الرئيسى لا هو ولا الناطقون باسمه. اذ ان ما أنهى الوالى هو تدخل شعبى من مصاف وارومة ذلك التدخل الذى عرفته مصر تحت الاحتلال الفرنسى. فقد شرع العسكر بالمطالبة باعطياتهم «فقال لهم محمد على ليس لكم عندى علوفة حتى ينزل أحمد باشا من القلعة ونحاسبه فتأخذوا علايفكم فلم يمتثلوا وتركوا المتاريس فذهب جماعة من الرعية وتترسوا فى مواضعهم».

وهاجمت طائفة من العسكر المتاريس لتفكيك الحصار عن القلعة وأجلوا من بها وجلســوا فيها:

«فتسامع أهل الرميله فاجتمعوا وحضروا اليهم وكبيرهم حجاج الخضرى واسماعيل جودة وهجموا عليهم وقتلوا منهم أنفارا...»

[وقائع ٨ ربيع اول ١٢٢٠]

ولم تعد المواجهات بين الأهالى والعناصر المسلحة خلال هذه المرحلة تسوى بالشكاوى والسلبية. بل باتت «قبايح العسكر» تلاقى المقاومة: «وصارت العامة تقابل القبايح بالقاء القبض على فاعليها وقتلهم» .

وثمة طائفة من الارنؤد التحقت بالباشا وجعلت تواصل الهجوم على الأهالى. وقد تقدمت طائفة منهم واستوليت على سبيل ماء كما حضرت طائفة ثانية منهم الى بيت عمر مكرم ودخل البعض منهم البيت فحجزوا فيه. فكان لهذا الهجوم على زعيم الحركة الشعبية غير المنازع انعكاسات مباشرة:

«ووقع فى الناس هوزعات وكرشات ثم حضر حسن أغا نجاتى المحتسب وأمر الأفندى بالمناداة فمر وأمامه المنادى يقول حسبما رسم السيد عمر الأفندى والعلماء لجميع الرعايا بأن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم ويحترسوا فى أماكنهم وأخطاطهم واذا تعرض لهم عسكرى بأذية قابلوه بمثلها والا فلا يتعرضوا له وأخذ الناس يعملون متاريس فى رؤوس الأخطاط... وحضر أيضا شخص من طرف محمد على ونادى بمثل ذلك ومعه أيضا شخص ينادى بالتركى بمعنى ذلك». [وقائع ١٠ ربيع أول ١٢٢٠].

والواقع هو أن المناداة لا تضيف جديدا بل تكرس حالة واقعة. فالعامة المسلحون كانوا قد

أخذوا حذرهم فعلا وباتوا يقابلون اذية العسكر بعنف مماثل بحيث أن المجابهات كانت يومية: فحين دخلت جماعة من العسكر حى العقادين وتترست جماعة منهم بجامع الفكهانى، فان أهالى الحى خرجوا عليهم وحاصروهم به وقبضوا على عشرة أنفار منهم. وحين ذهبت جماعة من العسكر يطلبون بعض رفاقهم أخذ أهل الحى سلاحهم وحبسوهم. وحين حضرت طائفة أخرى تطلبهم، لم يسلموهم وحاربوهم وهزموهم، وحين يدبر الوالى المحاصر «مكيدة» لتنسيق عمله مع بعض العناصر التركية فى المدينة فان يقظة «رجال المتاريس تحبط المكيدة» اذ أنهم ما أن «رأوا الجمال التى تحمل الذخيرة حتى أوقفوا الخدم والعساكر الذين يرافقوها وأخذوا منهم تلك الجمال».

[وقائع يوم السبت ١٧ ربيع اول ١٢٢٠]

وكذلك فان «أهل البلد» هم الذين أشعلوا النار بباب القلعة ومن ردوا على نار المحاصرين وهم من أوقفوا عساكر الباشا «القلعاوية» عن تسلق أسوار القلعة على سلالم بحثا عن مؤن. كما أن من يقود حصار القلعة هو رجل من أرباب الصناعات سبق أن أوردنا اسمه: حجاج الخضرى.

ثم ان الظاهرة لم تظل وقفا على القاهرة. ففى بولاق تنشب مناوشة بين الأهالى وبين العسكر «بسبب نقب البيوت وقتل بينهم أنفار واستظهر عليهم أهل بولاق» خرج منها الأهالى منتصرين

وكذلك فان الزعيم المملوكى الألفى الكبير الذى يتمتع بأكبر قوة بين الزعماء المماليك يصل الى دمنهور البحيرة «فتمتنع عليه». «فيرتحل عنها ولم ينل منها غرضه» وقد حاصرها ثلاث مرات خلال سنة واحدة. فكانت تدافع عن نفسها بدون أية معونة خارجية ولم يتمكن الألفى من دخولها وفى قرى برطس وأم دينار ومنية عقبة طلب أجناد الألفى هذا كلفا فامتنعوا عليهم وحاربوهم.

وعلى نفس هذا المسار تقع مناضلة رشيد للانجليز بعد ذلك بقريب سنة. فعندما علم محمد على «بحصول» الانجليز فى الاسكندرية فانه انفعل ذلك وداخله وهم كبير وأرسل الى المماليك المشايخ وخلافهم يطلبهم للصلح».

أما جواب شعب رشيد فكان مختلفا بالكلية. اذ ما أن وصل الانجليز الى داخل البلدة «ضربوا عليهم (أى الأهالى) من كل ناحية فألقوا ما بأيديهم من الأسلحة. فقد «كان أهل البلده ومن معهم من العساكر منتبهين بالأزقة والعطف وطيقان البيوت».

ويصف الجبرتى انتصار الشعب المصرى باسلوبه اذ يقول عن الأهالى:

«وكذلك أهل البلاد قويت هممهم وتأهبوا للبروز والمحاربة واشتروا الأسلحة ونادوا على بعضهم بالجهاد وكثر المتطوعون ونصبوا لهم بيارق واعلاما وجمعوا من بعضهم دراهم وصرفوا على من انضم اليهم من الفقراء وخرجوا فى مواكب وطبول وزمور فلما وصلوا الى متاريس الانجليز دهموهم من كل ناحية على غير قوانين حروبهم وترتيبهم وصدقوا فى الحملة عليهم وألقوا أنفسهم

فى النيران ولم يبالوا برميهم وهجموا عليهم واختلطوا بهم وأدهشوهم بالتكبير والصياح حتى أبطلوا رميهم ونيرانهم فلقوا سلاحهم وطلبوا الأمان...» [وقائع صفر ١٢٢٢].

غير أن ثمة تعليقا للجبرتى ينساب عبر ثنايا الوصف فينير أمامنا السمة الرئيسية للأيديولوجية الغالبة: انها شرعيته أو حقوقيته السياسية و «الوهم المعيارى» فيه. فهو لا يتمثل الواقعة الماثلة أى المقاومة الشعبية.الوطنية المندرجة ضمن ظرف عام من تفكك السيطرة السياسية الشرعية وانعتاق القوى المقموعة ـ فى نسبها الى مرجعها اى الى السلطة المستقلة التى تشكل هذه الواقعة حلقة من حلقاتها، بل انه يعود بها الى «الترتيب والقوانين» التى يجب أن تسود الحرب. وعاقبة هذه «اللاشرعية» ـ أى النصر ـ ليست حاسمة بالنسبة للجبرتى: بل انه يتوجس فيها الكارثة شأنها شأن كل ما يخالف القانون.

فهذا التفريق الفيصل بين ماهو مشروع وبين ماهو غير مشروع هو العنصر الغالب فى أيديولوجية الجبرتى وأيديولوجية زمانه. فكان من المدهش ان لا تتصدع الايديولوجية الرسمية فى هذه الحقبة من القطيعة والأزمة الشاملة. فموقف مكرم هو ذو صلة بتسلح الشعب ورفضه الانصياع للجنود والمماليك والانجليز حيثما وجد القدرة على ذلك.

والواقع أن العصيان والهيجان الشعبى الذى أوردنا بعضا من واقعاته قد انتهى الى اخافة قيادته الرسمية ـ التى كانت فى الواقع القيادة الوحيدة الممكنة لحركة لا تزال فى بداية تفتحها.

فعلى أثر مبادرة الأهالى، وعلى رأسهم حجاج الخضرى، الى الدفاع عن المتاريس المحيطة بالقلعة، اجتمع الشيخ الشرقاوى والشيخ محمد الأمير وغالب المتعممين «وقالوا أيش هذا الحال وما تداخلنا فى هذا الأمر والفتن واتفقوا انهم يتباعدون عن الفتنة وينادون بالأمان... وكذلك يفتحون أبواب الجامع الأزهر ويتقيدون بقراءة الدروس وحضور الطلبة [وقائع ١٢ ربيع ثان ١٢٢٠].

وبالتالى فانهم دعوا أولئك الذين يقاتلون مع حجاج الخضرى الى «عدم المقارشة فى عزل الوالى» المحاصر وان يتركوا محمد على ـ الوالى المعترف به ـ يتصرف بما لديه من وسائل السلطة. ثم أبلغوا محمد على بذلك فأجابهم الى طلبهم.

غير أن محمد على لم يكن يريد ـ كما ولم يكن يستطيع ـ أن يضطلع وحده (ليس بمفرده بطبيعة الحال) بسلطة مجزأة ومفتنه عمليا. لذا فانه طلب ان يفصل هو فى «ما يقع من العسكر من قباحة» على أن يفصل مكرم فيما يقع من المدنيين. بعد أن يترك هؤلاء الأخيرون «حمل السلاح بالنهار واذا دخل الليل حملوا الأسلحة». غير أن «ثنائية السلطة» هذه لم تكن الا وهما. ذلك أنه لم يعترف «بالسلطة» المدنية الا كرديف تابع للسلطة التى تقود العنصر العسكرى والبيروقراطية ودفتردارها والتى تجبى الفرد.

غير أن النزع النهارى للسلاح لم يخدع الشعب:

«فلما سمع الناس ذلك أنكروه وقالوا ايش هذا الكلام. حينئذ نصير طعمه للعسكر بالنهار وغفراء بالليل»

وحين يمر الأغا (والى القاهرة) ويوقف العامة المسلحين بالنهار فان الهيجان يعود من جديد. وعندما تطلب العامة من عمر مكرم الذى تعتبره ممثلها أن يتخذ موقفا فانه «يعتذر ويخبرهم بان هذا الأمر على خلاف مراده». اذ يظل مكرم أسير رفضه السلبى ولا يملك أية رؤية أو أى كشوف كان. وبينما عاد مشايخ السلطة والنظام الى دروسهم في الأزهر مثبطين الناس، نازعين منهم سلاحهم السياسي والحربى، فان عمر مكرم القائد الأكثر جذرية فى ميوله وتعاطفاته كان يجيب الناس الذين ضجوا وأغلقوا دكاكينهم وكثرت شكاويهم «بأن يقول لهم اذهبوا الى الشيخين الشرقاوى والأمير فهما اللذان أمرا الناس برمى السلاح». ذلك انه لم يكن بامكان المثقفين الأعيان تخيل شرعية أخرى غير شرعية السلطة القائمة. ولهذا فانا سنلقى الحجر نفسه بعد الانتصار الشعبى فى رشيد. وعندما وصل خبر الانتصار الى القاهرة أمر عمر مكرم الناس بحمل السلاح والتأهب للجهاد فى الانجليز ولم يستثن من ذلك، كما يقول الجبرتى، حتى مجاورى الأزهر. فقد أمرهم بترك حضور الدروس وكذلك أمر المشايخ المدرسين بترك القاء الدروس. غير أن هذه الدعوات ـ أو التنبيهات كما يسميها بترك القاء الدروس ـ لن تستطيع برغم التجاوب الذى تلاقيه والتعبئة التى تليها، أن تتجاوز الحدود التى ترسمها السلطة. اذ ما أن يعود الباشا الجديد ـ ونقول الجديد لان الباب العالى كان قد اقر محمد على حينذاك واليا على مصر ـ حتى يستبعد الامكانية أو البعد المتضمن فى استجابة الشعب لدعوة نقيب الأشراف التى تريد أن تنقل مقاومة رشيد المظفرة والفعالة الى القاهرة. ولهذا فانه حين عرض الجميع عليه أن: «نخرج جميعا للجهاد مع الرعية والعسكر»... قال «ليس على رعية البلد خروج وانما عليهم المساعدة بالمال لعلايق العسكر» [وقائع أول صفر ١٢٢٢].

وجواب الباشا الجديد الذى وصل الى السلطة بفضل تحالفه مع عمر مكرم. هو نفس جواب ـ الموظفين ـ كما سيقول ذلك الجبرتى بوضوح. فعندما يجتمع المشايخ (انظر أعلاه) ويقررون العودة الى الدروس والدعوة الى وضع السلاح وفتح الأسواق وترك الأمر لمحمد على يتصرف فيه كما يشاء، فانهم انما يصدعون بما تقوله السلطة.. غير أن الأيديولوجيا لاتنى تقول دائما لماذا لا ينبغى للشعب أن يحارب، وهذا ما يقوله الجبرتى حول رشيد: أنه جهل أهل البلاد فى جوهرهم ذاته «بقوانين وترتيب الحروب». فهذه المعرفة حكر على جنوده السلطة ووقف عليها. فأما اذا ظفر الشعب الجاهل، فان مرد ذلك يكون صياحهم وتكبيرهم وجهلهم الذى يبطل قوانين الحرب ويجعل الهزيمة ادهاشا أو زيفا ومكيدة..فان دعوة الشعب الى التسلح تنتهك الحدود المرسومة للدوائر التى تستبعد «غير النظامين» من نطاق القوة المنظمة التى تحتكرها السلطة. فالسلطة تقبل بأن يدافع

الصناع وأصحاب الحوانيت والفلاحون المهجرون من قراهم المنهوبة عن المتاريس، ولكن فى ظرف محدد تسيطر عليه هى، أى عندما تكون القوى الشعبية قليلة العدد، وذات طابع دفاعى وتعوزها القيادة المستقلة. أما اعداد البلاد كلها لمقاومة الانجليز فمشروع ذو مدى مختلف يوشك أن يسرع بالتمهيد لنشوء قوى مستقلة ربما أعجزت الجيش «النظامى» فيما بعد. وهذا الاحتمال هو ما ترفضه السلطة رفضا قاطعا. وهو ما تفترضه تلك الشريحة من المثقفين المرتبطين عمليا بالحركة الشعبية ممن يلحق بأيديولوجيتهم أى تحول أو تغيير ـ تقول هذا الاحتمال ذاته هو ما تصدر عنه هذه الشريحة من المثقفين بدون أن تتمكن من تجسيده. وبعد رشيد ستبدأ عملية تدعيم السلطة بمراس وأحكام : وستمضى هذه العملية جنبا الى جنب ازالة الاحتمالات الجانحة نحو الاستقلال والمتجهة نحو ايجاد قيادة ممكنة لهذا الاستقلال.

وسيتمكن محمد على من استيعاب «حياد» العلماء و«سلبية» عمر مكرم بسهولة كاملة. بحيث أن كافة الفرد والضرائب سوف تجبى الآن عبر المشايخ وعبر نقيب الاشراف. فاذا ما شاعت بين الناس ـ شائعة حول «عمل دفتر فردة على البلاد التى بقى فيها بعض الرمق» فان المشايخ هم الذين سيتكلفون بتسكين خواطر الأهالى. وهكذا فان الفردة ـ هاجس الشعب واللازمة الرتيبة التى لاتنى تتردد فى طول نص الجبرتى وعرضه ـ سوف تقتطع «بموافقة المشايخ» ولكن بعد أن يأخذوا من محمد على فرمانا يلتزم فيه بعدم عود ذلك ثانيا ويذكر فيه «لعن الله من يفعلها مرة ثانية». وعندما يحضر أهل رشيد يتشكون الى نقيب الاشراف مكرم والمشايخ من الضريبة التى فرضها عليهم الوالى الجديد فان هؤلاء «يترجون عند محمد على فتستقر غرامتهم على النصف» [وقائع جماد ثان ١٢٢٠].

فيسافر أهل رشيد على ذلك ويأخذون فى تحصيلها. بل أن المشايخ سيلعبون دور الضامن لشرعية سلطة محمد على حتى فى مواجهة السلطان العثمانى. فقد كان السلطان قد بدأ يشعر بالقلق من هيمنة الوالى الجديد ومن تدعيمه لمواقعه فنقله الى سالونيك. فتولى المشايخ المسؤولية الفقهية والشرعية الناجمة عن رفض الوالى الانصياع لأوامر السلطنة وكتبوا عرضحال الى السلطان يبررون فيه «الفرض والسلف التى حصل منها المشقة للأهالى من طرف محمد على باشا فانه اضطر اليها لاجل اغراء العساكر وتقويتهم على دفع الأشقياء والمفسدين والطغاة المتمردين امتثالا لأوامر الدولة العلية فى طردهم...». فأما السلف والفرد «فان المحصل لها والقاضى فيها فى غالب الأحيان السيد عمر أفندى نقيب الاشراف». وكان محمد على يعى قوة النقيب لذا فانه «لما قوى عزمه على السفر.. أشار على السيد عمر أفندى، النقيب بأن ينوب عنه ويكون قائمقامه فى الأحكام مدة غيابه فلم يقبل السيد عمر ذلك وامتنع [وقائع صفر ١٢٢١].

ومن جهة ثانية فان الصراعات التى كانت جارية بين العلماء أحدثت شقوقا فى صفوفهم. اذ

«وقع بين أهل الأزهر منافسات بسبب أمور وأغراض نفسية وتحزبوا حزبين: حزب مع الشيخ عبدالله الشرقاوى وحزب مع الشيخ محمد الأمير وهم الأكثر وجعلوا الشيخ الأمير ناظرا على الجامع» [وقائع أول ذى الحجة ١٢٢٨].

وأمام هذا كله: وازاء قيادة هى أسيرة لايديولوجيتها التى تلحقها بالسلطة وتقطع المنافذ على امكانية سلطة أخرى فعلية، وان كانت جزئية. وأمام اندراج الحركة فى مشروع السلطة، وازاء المنافسات التى تعطى السلطة ذريعة للتدخل واللعب بهذه الشريحة ضد تلك الأخرى ـ ازاء هذا كله يصبح بامكان الجهاز الحكومى القديم أن يؤمن البديل بدون أن يخشى شيئا.

وتسلطوا (أى العسكر) على تزوج النساء قسرا اللاتى مات أزواجهن من الأمراء المصرلية... وتزيوا بزى المصريين فى ملابسهم وركبوا الخيول المسومة بالسروج المذهبة والقلاعيات والرخوت المكلفة وأحدق بهم الخدم والأتباع والقواسة والسواس والمقدمون ووصل كل صعلوك منهم لما لا يخطر له على بال أو يتوهمه أو يتخيله ولا فى عالم الرؤيا» [وقائع أول رمضان ١٢٢٠].

وبعد أن حوصر وقصف وعزل، انتهى الوالى القديم الى الاستسلام. وفى تضاعيف ذلك كانت السلطنة العثمانية قد أصبحت مقتنعة بعدم جدوى معارضتها لمحمد على لأنه يستطيع مقاومتها فقررت استخدام الحيلة معه مؤقتا وعينته واليا. وزاد من اضطرارها الى ذلك خروج الحركة الوهابية بالحجاز من سيطرتها واقلاقها لها فى اللحظة التى اندلعت الحرب فيها بين الروسيا وانجلترا (ويروى الجبرتى عبور الاسطول الانجليزى للبوغاز ودخوله ميناء استامبول وبقائه يوما كاملا بدون أن يلقى مقاومة). ثم أن اللعب بلعبة المماليك ـ ضد ـ الوالى المزعج، لم تفلح وتوقفت حين تبين أنها عديمة الأثر: اذ ظهر للموفد التركى ـ الذى جاء ينفذ أوامر استامبول وينهض تحالفا مع الأمراء المصرلية ـ فساد التحالف مع عصبيات تنخرها خلافاتها المزمنة، وأفقدها اعتبارها السلب والنهب المنظم الذى كان يفاقم من شأنه تحالفها مع العربان الذين يرادف اسمهم اسم الخراب [وقائع جماد آخر ١٢٢١].

وبعد خلع الوالى المحاصر بسنة كانت المعارك مع المماليك ولاسيما مع الألفى لا تزال على أشدها.

ولهذا فان شوكة المماليك الظاهرة وانتصاراتهم فى أقاليم بعيدة عن القاهرة وممتنعة عليها وتخرج عن أشرافها، لم يكن ليخدع محمد على. وعندما تنطفىء أنفاس كبيرهم، الألفى الكبير، فان قوتهم الظاهرة تنطفىء معه فينسحبون الى الصعيد، ويبدأ الباشا باللعب على خلافاتهم. وفى أسيوط يهزمهم عدة مرات متتالية ويضعفهم ويدمر معنوياتهم. واذ يجدون قواهم خائرة منهوكة ازاء سلطة يتعاظم اتساعها يوما بعد يوم، وتزيد مواردها تبعا لاتساع اشرافها على الأقاليم فانهم يتحالفون فيما بينهم على أمل التوصل الى عقد سلام مشرف يحفظ لهم مصالحهم. وبهذا الانضواء الأخير يصبح

محمد على صاحب السلطان المطلق فى مصر: فقد طرد الأتراك وكان هو الذى فرض ولايته على استامبول بمعونة العلماء له، واستغل الحركة الشعبية فى تصفية ادعاء العثمانيين باسترجاع مصر وعزل المماليك. وأما هؤلاء الأخيرون فانهم غرقوا فى أزمة الخراج التى فاقم من حدتها اتساع منافساتهم وعصبياتهم وأما المثقفون الذين بدأوا أقوياء فى بعض اللحظات بالدعم الشعبى لهم فقد اتبعتهم ايديولوجيتهم ووظيفتهم بالسلطة. كما تمكنت المقاومة الشعبية من ايقاف التقدم الانجليزى الذى كان هامشيا فى تلك الفترة.

لقد أزيلت كافة العناصر بعضا أثر بعض دون أن يخلو ذلك من التداخل والتكرار. وهكذا فان المرحلة الثانية ـ التى كان قوامها صراعات مختلف الشرائح الحاكمة وتدخل الشعب ضد هذه الشرائح واحدة أثر الأخرى ـ قد انتهت. فأما المرحلة الثالثة فانها تنفتح باستيلاء محمد على على السلطة وازالة المماليك وتقليص الحركة الشعبية وقيادتها. وهكذا فان بناء الدولة المستقلة التى تستند الى جهاز عسكرى أهلى هام يمول من تدعيم وتوحيد اقتطاع الفائض الزراعى وبناء صناعة تابعة للحاجات العسكرية ـ ان بناء هذه الدولة يبدأ بمقدمتين هما الاستقلال وتوحيد السلطة.

ـ ٣ ـ

والمرحلة الثالثة معروفة بصورة أفضل من سابقيها ذلك أنها تقترن بعهد محمد على الذى ستتجاوز آثاره من الآن فصاعدا حدود مصر. أما فى داخل الحدود المصرية نفسها فان بناء بعض المشاريع واستئناف سنة قديمة من أشغال الرى الكبرى، وانهاض جهاز دولة قوى يغطى مصر كلها فى كامل ترابها الوطنى ـ ان ذلك يتيح لنا ترسم معالم النظام المقام بصورة أكثر يسرا وسهولة (فى تنظيم انحرافه أو تباعده على الأنماط الأوربية).

أن وقائع الجبرتى تعيد الى سياق البناء تكثره وتناقضاته واختلاف وتأثر الخطط التى يتضمنها (السياسية والعسكرية والاقتصادية...). ونحن لن نستخدم من المادة الوفيرة التى تقدمها الوقائع الا ما كان له علاقة بموقف المثقفين وبالصياغة الايديولوجية.

كان لدى الجبرتى انطباع بأنه يشاهد «القيامة» [وقائع ذى الحجة ١٢٢٠] مايو من عام [١٨٠٦] جعل صاحب الوقايع يؤكد وهو يروى مصادرة القمح والفول والشعير ان هذا الاجراء هو «ثالث فرضة ابتدعت على البلاد فى هذه الدولة». وفى الشهر التالى قرر الباشا «فرضته على البلاد دراهم وغلال... وطلب سلفه دراهم من الملتزمين والتجار وغيرهم». ووعد بحسمها من الضرائب والربوع التى تستحق فى السنة التالية. هذا بالاضافة الى الشروع فيما سوف يصبح فى المستقبل سنة قائمة طوال حاكمية محمد على: أى التسعير الاكراهى للعملة، بما يجعل السلطة التى سوف تحتكر التجارة تدريجيا ـ تربح الفارق القائم بين سعرى العملة الداخلى والخارجى.

كما ستبدأ في هذه الحقبة ذاتها سنة أخرى هي السلف الاكراهية التى لن يجرى سدادها مطلقا. وابتداء من هذه الحقبة ستكلف السلطة العساكر بجباية الضرائب، الأمر الذى سيكون بمثابة بداية أشراف مباشر من قبل الادارة. «فضيقوا على الملتزمين» وأبطلت الاعفاءات (أو المسموح) التى كان مشايخ القرى يتمتعون بها،«فضيقت عليهم معايشتهم ومضايفهم». وأخضعت لهذه السياسة طوائف أرباب الحرف ابتداء بأغنياء التجار وانتهاء بصغار الحرفيين: القبانية والحطابة وباعة السمك القديد المعروف بالفسيخ. كما أن أهل القرى النازلة بهم المغارم والمظالم والذين كانوا «يتنقلون الى القرية المحمية لشيخ من الأشياخ»، لم يستطيعوا الافلات لأن الحماية أيضا كانت «بطلت حينئذ». أما المشايخ فقد طالتهم الفرضة بدورهم: فقد «وزع على المشايخ الملتزمين جانب (من مبلغ ألفى كيس) نظير مسموحهم فى فرض حصصهم التى أكلوها... وزعت على القراريط على كل قيراط ثلاثة آلاف نصف فضة على سبيل القرض لأجل أن ترد أو تحسب لهم فى الكشوفات من رفع المظالم ومال الجهات يأخذونها من فلاحيهم». وهنا ايضا لم يعد لاحتجاج صغار الحرفيين تأثيره «فقد التجأوا الى الجامع الازهر واقاموا به ليالى وأياما فلم ينفعهم ذلك» وفقا لتعقيب الجبرتى، وهو يشير إلى التحول الحاصل فى موقف السلطة. وكذلك فان الحطيطة التى قبلت بها الدوله بناء على ضغط العلماء من السنة السالفة (١٨٠٦) قد عادت فاستوفتها. أما القرى الخراب أو التى سجلها الروزنامجى على أنها خراب من البلدان «التى بها بعض الرمق لتخلص من الفرضه» فقد أمر الباشا بتوزيعها «على أولاده وحاشيته واغراضه». وارتفعت عن اصحابها. لا بل أن ذلك جرى لاقليم بكامله هو اقليم البحيرة «لما عمها الخراب وتعطل خراجها وطلبوا الميرى من الملتزمين فتظلموا واعتذروا بعموم الخراب فرفعوها عنهم وفرقها الباشا على اتباعه واستولوا عليها وطلبوا الفلاحين الشاردة والمنسحبة من البلاد الاخر وامروهم بسكناها...».

وسيذهب هذا النهب الضريبى الضخم كله الى الجيش والى اشغال الرى الضخمة واستصلاح الاراضى وبناء المشاغل. وكان محمد على قد أوكل سد ترعة الفرعونية فى بداية ولايته إلى شاه بندر التجار محمد المحروقى الذى خلف والده [أحمد] فى هذا المركز. اما الآن فان الوسائل التى باتت تتمتع بها الدولة قد اصبحت تتيح حاجات أوسع. وهكذا فقد شرع محمد على ببناء سواقى من شبرا على ضفة النيل «واخذ فى الاستيلاء على ما يحاذى ذلك من القرى والاطيان والرزق والاقطاعات من ساحل شبرا إلى جهة بركة الحاج عرضا». ومن أجل مد هذه المشاريع بالحجارة والصخور، راحوا يشقون الجبل بالغام البارود «مثل عمل الافرنج». ونودى على ارباب الاشغال فى العمائر من البنائين والحجارين والفعلة بأن لا يشتغلوا فى عمارة أحد من الناس كائنا من كان وأن يجتمع الجميع فى عماره الباشا بناحية الجبل. ومن أجل بناء اسطول فى البحر الاحمر (بحر القلزم) فان الباشا ارسل «المعنيين لقطع اشجار

التوت والنبق من القطر المصرى البحرى والقبلى وجعل بساحل بولاق ترسخانه وورشات» تقل الصناع وتحمل اخشابا على الجمال الى السويس «يركبها الصناع بالسويس سفينة» وكان الغرض من هذه السفن نقل العساكر والمواد. وانشأ كذلك معملا للصابون ومشغلا لصناعة المواعين والسخانات النحاسية الكبيرة. وتوسعت صناعة البارود. وبدأ مسبك المدافع والكلل بالعمل...

غير أن الوسائل الضريبية وحدها لم تعد كافية لتغذية هذه المشاريع فضلا عن الكلفة الساحقة لجيش شرع يغلب الطابع الاهلى عليه بمعنى أن عساكره اصبحوا يجندون من بين المصريين وليس من بين المرتزقة الاجانب. لهذا فان الباشا عمد الى اعادة تنظيم سياسة الاقتصاد مقوضا لذلك أسس العصبيات الملوكية وأسس نظام الملتزمين والمؤاكرة. فاحتكر النشوق: «ونادوا على جميع صناع النشوق وجمعوهم بذلك الخان ومنعوهم من جلوسهم بالاسواق والخطط المتفرقة»، وجعلوا عليهم «ناظرا وقيما» من نصارى الاروام. أصبح القيم «يشترى الدخان المعد لذلك من تجاره بثمن معلوم حدده لا يزيد على ذلك» ولا يشتريه سواه وهو يبيعه على صناع النشوق بثمن حدده ولا ينقص عنه. وعينوا معينين لجميع القرى والبلدان القبلية والبحرية.«ويعطونهم قدرا موزونا ويلزمونهم بالثمن المعين بالمرسوم». وكذلك النطرون «فقد فرقوه وفرضوه على القرى محتجين أيضا باحتياج الحياكة والقزازين اليه...» ثم أن الدولة فى طلبها لزيادة دخل خزينتها لا تتورع حتى عن صنع وحكر المسكرات: ثم صودرت القهوة من الخانات واعاد المعينون بيعها بسعر محدود. ثم حجزت جميع الغلال «وحجز عليها لطرف الباشا» الذى كان يعمد إلى تتجيرها ببيعها خارج مصر إلى الافرنج بسعر اعلى من السعر المحلى. ثم استعمل الباشا «رجلا نصرانيا من جبل الدروز» بدار الضرب لانه «يوفر عليه كثيرا من المصاريف». ذلك أن بدار الضرب نحو «الخمسماية صانع وهو يقوم بالعمل بأربعين شخصا لا غير»، ويصنع آلات وعددا لضرب القروش وغيرها ولا تحتاج إلى وقود نيران ولا كثير من العمل. غير أن الباشا لن يقف عند حد التسويق ويعممه على «جميع الغلال» التى يمكن نقلها بالمراكب عبر النهر. بل منازع» واستولى على «جميع حصص الالتزام فلم يبق لاربابها شىء الا ما ندر (...) واحتج فى ذلك باستيلاء الامراء المصريين عليها (...) واستولى على جميع مزارع الارز (...) ورتب لهم مباشرين وكتابا يصرفون من الكلف والتقاوى والبهائم ويؤخذ ذلك جميعه من حساب الفرض التى قرروها على النواحى ويسعرونها بما يريدونه ويستوفون المصاريف ثم يعطون ما يبقى للمزارعين» الذى أمسوا عمالا زراعيين. وامتدت حقوق «ديوان المكس الذى يعبرون عنه بالكمرك» لتشمل كافة السلع بدون استثناء، الامر الذى سيزيد من سعر التزام الجمارك فقد ظل يتزايد فيه المزايدون حتى وصلوا خمسين ضعفا. ثم نشأ الباشا فى القاهرة مصانع لنسيج القطانى «وابطل دواليب الصناع» لذلك ومعلميهم واقامهم يشتغلون فى المنساسج التى احدثها ، بالأجرة.

وهذا السياق المعقد الذى يركز بين يدى الدولة المركزية الموحدة الجزء الأعظم من وسائل الانتاج، ان بحيازتها أو بالابقاء على نظام الالتزام بحيث يتجه الوجهة التى ترسمها له سياسة الدولة - ان هذا السياق المعقد هو سياق سياسى اساسا. ويقدمه الجبرتى بصفته سياقا سياسيا.فكافة الاجراءات المتخذة انما تستند الى علاقات قوى جديدة بين مختلف الفئات الاجتماعية. وبهذا تتحول الدولة الى قوة اقتصادية انطلاقا من السطوة السياسية والعسكرية. فالفرضات أو الاقتطاعات المباشرة تؤكد، فى مختلف اللحظات التى تقع فيها، حالة العلاقة أو نسبة القوى السياسية بين الباشا المتوطد وبين من يفرض عليهم هذه الفرضة أو تلك. والجبرتى يقول بوضوح ان احتجاج أهل الحرف وهيئاتهم «لم ينفعهم» بشىء، كما لم ينفعهم التجاؤهم الى الجامع الازهر. وكما رأينا فى نهاية المرحلة الخامسة من الحقبة الثانية، فان شرط فرض الفرضات الكثيرة هو اندراج الجسم الذى قام بدور قيادة الحركة الشعبية، كعنصر تابع لسياسة الباشا. ولكى تتمكن الدولة من القيام بكافة الاجراءات التى قامت بها، من مختلف المصادرات الى الغاء مختلف السموحات التى جرت السنن عليه (كالجبوسات واراضى شيوخ القرى واراضى المشايخ واراضى الرزق...) الى فرض السخرة على مستوى واسع، الى تدمير الحرف الخاصة، الى الغاء بعض الهيئات الحرفية، ان هذه الاجراءات تتصدى لاشكال وصيغ من تنظيم العلاقات الاجتماعية ولمواقف فئات المؤسسات، وان تفلك قيادات القوى المناوئة لها - من المماليك بطبيعة الحال - ومن الحركة الشعبية ايضا. وهو أمر كان قد سلف شروعه نتيجة للتبعية الايديولوجية.

وتنفتح المرحل الاولى من الحقبة الثالثة - والتى تمتد حتى نفى عمر مكرم الى دمياط - على ظاهرة بالغة الدلالة بحيث ان الجبرتى ببصيرته المدهشة يضعها وبالضبط قبل هزائم القيادة الشعبية «الرسمية» النهائية، وفى اللحظة التى يصبح فيها التراجع ملحوظا بحيث ان محمد على لم يعد يلجأ الى المشايخ لينيط بهم تحصيل المال. وهذه الظاهرة هى تفشى نفوذ شيخ فى بنها العسل كان حتى ذلك يقيم «فى عشة بالغيط واعتقد فيه الناس الولاية والسلوك والجذب فاجتمع اليه الكثير من اهل القرى واكثرهم من الاحداث ونصبوا له خيمة وكثر جمعه واقبلت عليه اهالى القرى بالنذور والهدايا...» [وقائع جماد ثان ١٢٢٢].

وانما يتبدى تدخل الشيخ سليمان البنهاوى على خلفية من المجاعة والادقاع والفرض المتتالية الثقيلة. ذلك ان هذا الشيخ واعظ حتى فى خرسه وحتى ولو كان تدخله عبر وسائط من الناس:

«وصار الذين حوله ينادون فى تلك النواحى بقولهم لا ظلم اليوم ولا تعطوا الظلمة شيئا من المظالم التى يطلبونها منكم ومن اتاكم فاقتلوه [وقائع ١٦ جماد ثان ١٢٢٢].

ويشير توضيح الوقائع الى ان الولى كان يعلن ما يعلنه بتوسط الذين حوله. أنه واعظ اخرس، وأية اسقاط وتنزيل: «يقول» وضع الريف المصرى فى تلك الحقبة. وبالفعل فان الفلاحين الذين استنهضتهم هذه الدعوات: «كل من وردهم من العسكر المعنيين الى تلك النواحى يطلب الكلف أو الفرض التى يفرضويها فزعوا عليه وطردوه وان عاند قتلوه».

ثم ان الجبرتى يتكلف التشديد على ان «المردان» المجتمعين على الشيخ «غالبهم اولاد مشايخ البلاد» . اى انهم ينتمون الى شريحة وسيطة ساء وضعها الاقتصادى والسياسى بعد اشراف الدولة المباشر على الريف وتصفية المماليك الذين كانوا يتركون لمفاصل النظام هؤلاء استقلالية واسعة فى سيطرتهم على الفلاحين. والجبرتى يقيم تأثير الشيخ بمصطلحات سلطوية . وسريعا ما تكهنت سلطة الباشا بان الشيخ الصامت هو خطر حقيقى ،متوضع. وعندما جيء به من قريته الى القاهرة قتله الجنود وقتلوا مرافقيه[وقائع اواخر جماد ثان ١٢٢٢].

وهكذا فان فشل الحركة الشعبية تحت قيادة العلماء الرسمين الملتحقين بسياسة الباشا وخدمة متطلباتهم الضريبية، مضافا الى عدم مقاومة مشايخ القرى لسياسة الاقتطاع المباشر، كل ذلك ادى الى انتقال متميز: هو نهوض الممارسات الدينية الشعبية لتتكفل عبر الصمت،ادى عبر ارجاع كلام الفلاحين، عما لا يستطيع جسم العلماء المؤسسى او لا يريد، بالنظر الى المكانة التى يحتلها، ان يتكفل به: عنينا المقاومة المسلحة لقهر الدولة السائرة فى طريق المركزة. غير ان السبيل مقفل بحيث ان الانضواء لا يفعل سوى ان يبرز عجز القيادة الرسمية الملتحقة.

والجبرتى يقيم بوضوح العلاقة فيما بين وصول محمد على الى السلطة وبين دعم العلماء ومكرم والحركة الشعبية له:

«وانتصر محمد علي بالسيد عمر مكرم النقيب والمشايخ والقاضى واهل البلدة، والرعايا وهاجت الحروب بين الباشا واهل البلدة(...) ومحمد علي يداهن السيد عمر سرا (...) وانه لا يفعل امرا الا بمشورته ومشورة المشايخ وانه متى خالف الشروط عزلوه واخرجوه. وهم قادرون على ذلك كما يفعلون الآن» [وقائع ١٢٢١ ترجمة الالفى الكبير].

ومن جهة اخرى فان الجبرتى يقيم بما لا يقل وضوحا عما سبق العلاقة فيما بين تدعيم سلطة الباشا والتحاق العلماء بسلطته:

«ولما استقر الباشا واطمأن خاطره وخلص له الاقليم المصرى وثغر الاسكندرية... فأول ما بدأ به أنه ابطل مسموح المشايخ والفقهاء معا فى البلاد التى التزموا بها» [وقائع شعبان ١٢٢٢].

وكان الباشا قبل ذلك« قد ابتدع المغارم والشهريات والفرض التى فرضها على القرى» وجعل ذلك «عاما على جميع الالتزامات

والحصص التى بأيدى الناس بدون استثناء» وفق ما يلاحظه الوقائع. وكان الاستثناء الوحيد حتى فى ذلك الحين «هو البلاد والحصص التى للمشايخ (...) ومن ينتسب لهم أو يحتمى فيهم» . فكان الامتياز الحاصل لهم عن ذلك مزدوجا: فقد كانوا يأخذون الجعالات والهدايا من اصحابها ومن فلاحيهم «تحت حمايتها ونظير صيانتها». وقد استمر ذلك طالما كان الوالى الجديد منازعا فى هيمنته». ثم ان التملص والتخلص من الحركة الشعبية ربما كان هو الآخر باملاء ايديولوجية العُلماء. وباملائها هى خاصة. وذلك دون ان ننسى ان هذه الايديولوجية لا تعطى المواقف السياسية والعملية بالكامل. والباعث الايديولوجى يتقاطع ويتدعم بباعث اجتماعى طبقى - هو اندماج جسم الموظفين الايديولوجيين والجهاز الفقهى بالسلطة وامتيازاتها ومصالحها. وهنا ايضا يظل الجبرتى غاية فى الوضوح:

«وافتروا بذلك «اى الامتيازات) واعتقدوا دوامة واكثروا من شراء الحصص من اصحابها المنجاحين (المحتاجين؟) بدون القيمة وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم الا بمقدار ما يحفظ الناموس... وانقلب الوضع فيهم بضده» [وقائع شعبان ١٢٢٢].

ثم ان العلماء - جزء لا يتجزأ من السلطة وموظفيها ودعائمها - لم يعودوا يستطيعون الاعتماد على ازدواجية السلطة التى انشأتها الحركة الشعبية فى مقاومتها للاحتلال الاجنبى ونهب السلطنة الضريبى . فصبحوا عزال من كل سلاح ازاء الممسك بالسلطة السياسية والعسكرية. وزاد طينتهم بلة ان الباشا - كما اكدنا على ذلك - قد تصدى لقاعدة الحركة الشعبية: الحرف وصغريات الصنائع والتجار الصغار والفلاحين... ثم تبين ان لجوء كافة هذه الشرائح الى الازهر والى العلماء. هو امر لا جدوى ولا طائلة فيه. وما الازدهار النسبى الذى عرفه «اولياء» القرى والنواحى الا قصاص لفشل العلماء.

وفى هذه اللحظة اختار محمد على أن يقوم بالهجوم. ففى مطلع سنة (١٢٢٣هـ. ابريل ١٨٠٨م) كان قد بدا من «هيفان الزرع» أن حصاد القمح سيكون غير كاف. «فانزعجت الخلائق». واجتمع المشايخ عند الباشا الذى قال لهم «اعملوا استسقاء»... غير أن شيخ الجامع الازهر. الشرقاوى، اعتبر أن واجب الباشا هو أن «يرفق بالناس ويرفع الظلم» وهذه المقالة هى صدى رقيق للنقاش الذى جرى حول الاستداد، مرة أولى، لدى طرد الملوك ابراهيم بك من القاهرة ومرة ثانية لدى عزل الباشا التركى. وقد اشار الباشا فى جوابه الى المصلحة المشتركة التى تربط العلماء بالسلطة وتأبى عليهم أدعاءهم الدفاع عن مصالح الشعب:

«انا لست بظالم وحدى وانتم اظلم منى فانى رفعت عن حصتكم الفرض والمغارم أكراما لكم وانتم تأخذونها من الفلاحين»

[وقائع جماد ثان ١٢٢٣].

وبالرغم من «حرمهم» فان المشايخ بقوا ملاذ الاهالى العزل ازاء السلطة. فادارة الباشا ـ كما سبق ولاحظنا ذلك ـ كانت تمد بفرضها على فئات من الناس ومن الاراضى، كالرزق، والرزق الاحباسية كانت الى ذلك الحين معفاة من الفرض ولا سيما بالنسبة للفقراء. و«فيه» يقول الجبرتى (أى فى يوم الخميس خامس عشر جمادى الاول ١٢٢٤هـ ـ مطلع ـ يونيو ١٨٠٩) فرضت «دمغة» أو «ختمية» على الاقمشة والاحذية «فزاد الضجيج واللغط فى الناس». وفى هذه الفترة ذاتها القى بشيخ فى السجن بدون نظر إلى وظيفته ولا إلى شفاعة العلماء فيه. وفى اليوم التالى بصراخهم واجبروا المشايخ على الاجتماع والتشاور وقد ارسل هؤلاء إلى عمر مكرم ليحضر مجلسهم ويشاور معهم. وقد اقتضى مضى يومين من المناقشات ـ بسبب التذبذبات والخلافات أو الشقوق الداخلية المستحكمة، لكى يصل المجتمعون إلى اتفاق تترجم بارسال «عرضحال» إلى الباشا للمطالبة بالغاء الاجراءات الاخيرة. ثم أن معاودة الاتصال فيما بين الاهالى والعلماء فى ظرف من السخط الشعبى اخاف الباشا. فاسرع بارسال موظف قريب منه (ديوان افندى)، لاستباق الاحتجاج. وقد دعا الموظف المنتدب العلماء للذهاب إلى الباشا «وتخاطبوه مشافهة بما تريدون». والموضوع هنا هو موضوع عدم المساس بتراتب المنزلات وما تتجلى عبره من طقوس. والحال هو أن هذا بالذات هو ما شرع العلماء برفضه بتحريض من الجناح الجذرى (الراديكالى) المتمثل بعمر مكرم والشيخ الشرقاوى وبعض آخرين. أما محمد على فانه تنازل فى النقطة الاقل اهمية حين افرج عن الشيخ السجين. ثم راح يلعب على الخلافات ـ التى كان يعلم أنها حقيقية ـ بين جناحى العلماء. ولم يسحب اجراءاته الا بشرط شكلى هو زيارة وفد من العلماء له. وقد كان عمر مكرم هو المرمى الذى يصوب اليه محمد على لانه لم ينس:

«أن الرعبة والعامة تحت أمره (أى امر عمر مكرم) أن شاء جمعهم وأن شاء فرقهم وهو الذى قام بنصره وساعده وأعانه وجمع الخاصة والعامة حتى ملكه الاقليم ويرى أنه أن شاء فعل بنقيض ذلك»

[وقائع جماد اول ١٢٢٤].

غير أن قسما من المشايخ تخلى عن كل اعتراض «بالطلوع» إلى القلعة، أى على تقديم الولاء. أما مكرم فقد ظل ثابتا لا يتزحزح. ولكنه بقى كذلك وحيدا مكبلا. وسرعان ما احاطت السلطة به وزادت من عزلته ودفعت بقسم كبير من العلماء الى التسليم. واعتبارا من ذلك اليوم رفض مكرم أن يضمن سلطة الباشا ورفض أن يبرر ازاء قلق استامبول، الفرضات الثقيلة. ثم طالب الباشا بان يزوره ليتفاهما: وهكذا فانه أى مكرم يرد على «الطقوسية»، التى ليست سوى عنصر فى سياسة الخصم، بطقوسية مضادة تستنفد سياسة مكرم ومقوماتها كلها. ذلك أنه ليس لمكرم ـ بخلاف الرفض ـ اية سياسة. وعندما لاحظت

السلطة شلله فانها عمدت الى الهجوم: فعزلت النقيب من مركزه وعينت احد رجالاتها ـ الشيخ السادات ـ مكانه، ثم راحت تنشر شائعات حول نزاهته. ثم نفته. ثم «نمق مشايخ الوقت عرضحال فى حقه» أملى عليهم ويتهمون النقيب فيه بالاختلاس و «مكاتبة الامراء المصريين» و«بايقاع الفتن فى العساكر» ثم ارسل هذا العرضحال الى استامبول. وكان عدد الذين رفضوا وضع اختامهم عليه قليلا وبينهم مفتى الاحناف الشيخ احمد الطحطاوى وقد عزل واستبدل بمفتى آخر. وهكذا فقد تمت سيطرة السلطة على الموقف مؤقتا. فالنظام يسود القاهرة. والجبرتى لا يخفى تعاطفه الحقيقى مع مكرم وأن قسا عليه فى الحكم:

«... فان ما وقع له بعض ما يستحقه ومن اعان ظالما سلطه الله عليه ولا يظلم ربك احدا».

وهو يجعل من نفى عمر مكرم تاريخا يؤرخ به لفقد العلماء لآخر سند لهم تجاه السلطة.

«مع أن السيد عمر كان ظلا ظليلا عليهم وعلى أهل البلدة ويدافع ويرافع عنهم وعن غيرهم ولم تقم لهم بعد خروجه من مصر راية ولم يزالوا بعده فى انحطاط وانخفاض».

[وقائع ١٧ جماد اول ١٢٢٤].

يحاكم مكرم تحديدا فى أمر تحالفه السياسى مع محمد على. ولعل الصورةالتى يرسمها الجبرتى عن مكرم هى الصورة السياسية الوحيدة فى مجمل الوقائع. ولاتستدر السمة المناقبية المغرقة فى اخلاقيتها دور الزعيم السياسى أو البطل السياسى من الايديولوجيا. والجبرتى يتعرف فى عمر مكرم على ممثل الحركة الشعبية وحليف السلطان «الجائر» الذى كان هو (أى ما يمثله) أكثر صنعتها فعالية. ولا ينبغى للنتيجة فى منطوق الحكم الذى يقيم الموازنة ـ الصحيحة ابدا ـ بين الفعل والقصاص أن تزيح التقدير: فملاقاة مكرم لما يستحق تعنى أن التحالف الذى الحق الحركة الشعبية بالصراع فيما بين شرائح السلطة لا يستطيع أن يفضى الا الى سحق هذه الحركة والى نفى قادتها. وهكذا فان التناقض فيما بين القيادة الشعبية والسلطة «الظالمة» الشرقاوى وجد حلا: اعدام القيادة الشعبية.(*).



(*) المسألة التاريخية فى الفكر العربى الحديث. د. وضاح شراره معهد الانماء العربى.

ملحق رقم (٣٧)

أسماء وأنواع العملات المختلفة المتداولة على ايام الجبرتى

أولا: النقود الذهبية

ينظر الى الذهب عادة باعتباره معدنا نفيسا(*) اما الذهب الذى تحول الى نقد، أو العملة المصنوعة من الذهب. فتسمى، دون ان يوضع في الاعتبار حالتها هذه، عينا (عين)[١]، اما النقود الذهبية المسكوكة او قطع الذهب (المنقودة) سواء صنعت في داخل البلاد أو كانت قادمة من الخارج، فكانت تسمى فى الماضى دينار[٢].

ويورد المقريزى فى مقالته عن النقود قولا مأثورا قرر الرسول ﷺ بموجبه أنه قد ترك لكل بلد مكاييله ونقوده وأنه قد ترك لمصر اردبها[٣] ودينارها.

وفى العام العشرين من الهجرة (٦٤١ من تقويمنا)، فرض عمرو بن العاص الموفد من قبل عمر (بن الخطاب)، بعد ان اتم فتح مصر، على الاقباط أن يسددوا الجزية بالدنانير.

ومنذ عهود الفراعنة، حتى استقرار الاسلام[٥]، حتى غزو التركمان بقيادة صلاح الدين، كانت العملات الوحيدة المتداولة بصفة مشروعة أو قانونية، طبقا لقول المقريزى، هى العملات الذهبية، فكانت هى وحدها التى تستخدم فى تقدير أجور الأيدى العاملة واثمان السلع، حساب عوائد الدولة والضرائب.

ولسوف يتبدى لنا هذا الزعم اقل غرابة واكثر احتمالا، برغم ماهو باد من تعارض استخدام الذهب أكثر شيوعا عند مختلف أمم الأرض، اذ يتم تقييم كل شىء عن طريق الفضة، حين نسترعى الانتباه الى أن النقود الذهبية قد كانت، منذ البداية، ضعيلة الوزن، وفوق ذلك، منخفضة العيار، والى أن تفريعاتها كانت بالغة الصغر حتى تكاد تقترب فى قيمتها من النقود الفضية التى تستخدمها الأمم الأخرى، كما سوف نرى عند تعرضنا لمسألة الوزن.

ويبدو مؤكدا، حتى قبل استقرار الاسلام بمصر بوقت طويل، أنه كانت تصنع بها دنانير، أو على الأقل، ان كثيرا من النقود الذهبية كانت تتداول فيها، وهو أمر كان شائع الحدوث فى الجزء الأكبر من الشرق.

كانت ترد الى مصر تلك الدنانير أو النقود الذهبية التى كان يضربها الأروام، وينبغى أن نفهم من هذا اللفظ، على النحو الذى يشير اليهم به المقريزى، الامبراطورية الرومانية (الشرقية) التى تحولت الى القسطنطينية[٦] والتى نطلق عليها نحن اسم الامبراطورية الواطئة Ie Bas Empire ولا يزال أهل مصر حتى يومنا هذا يطلقون على ابناء هذه المنطقة اسم الأروام أى الرومان. وطبقا لشهادة عديد من المؤلفين العرب، فقد كانت النقود الذهبية القديمة، الآتية من القسطنطينية تسمى هرقلة، وهو اسم تسرب اليهم من اسم الامبراطور هرقل Heraclius [٧].

أما النقود الذهبية لمختلف الشعوب التى كانت تمارس التجارة مع مصر، فكانت تتداول فى هذه البلاد على نطاق يتفاوت ضيقا او اتساعا، تبعا

لدرجة نشاط تجارة هذه الشعوب معها، وكذلك، وبشكل خاص، طبقا لما ان كانت نقود هذه الأمم ذات عيار أكثر (أو أقل) ارتفاعا.

أما العلاقات التى كانت يمكنها أن تقوم بين مصر وبين المدينة المركزية أو مقر الحكومة، وهى القسطنطينية (أو استامبول) اليوم. فلابد أنها كانت تؤدى الى ان تصب فى مصر نقود هذه العاصمة الأخرى.

وحيث ظلت جنوة والبندقية تستحوزان لفترة طويلة على تجارة بالغة الاتساع مع أمم الشرق، فقد تدوولت فى مصر منذ فترة بالغة القدم سكينات (سكين Sejuin) جنوة، وسكينات البندقية بشكل خاص، وهذه وتلك مصنوعة من ذهب بالغ النقاء، ولا يزال الطلب يشتد على هذه النقود حتى اليوم، وقبل وصول الفرنسيين، كانت هذه العملات الذهبية تبتاع بسعر عال، وكان كل المماليك، الذين يجردهم جنودنا (من ملابسهم بعد مصرعهم) فى ميدان المعارك، يحملون معهم جميعا منها كميات كبيرة يتفاوت حجم ضخامتها (من مملوك لآخر).

وكانت نقود أوربا الذهبية تسمى فى مصر أفرنتى[٨]، وهذه الكلمة مشتقة من فرانك Franc (أو افرنج) وهو الاسم الذى يخلعه اهالى البلاد عادة على الأوربيين.

وتعود كلمة افرنج Franc هذه الى زمن الحروب الصليبية، ذلك أن الفرنسيين هم الذين لعبوا الدور الرئيسى فى هذه الحروب الدينية، ولأن مليكهم لويس قد هاجم مصر، وتلك هى جهالة المصريين المحدثين بالجغرافيا، تلك التى تحدو بهم لأن يظنوا كلى مسيحيى أوربا، - فى عرفهم - فرنجه (أى فرنسيين)، والتى تجعلهم لا يعرفون من فرنسا الا مدينة مارسيليا.

أما قطع النقود الذهبية، وكذلك الفضية، والتى تعود الى زمن أكثر قدما، والتى صنعت فى شكل جميل، ومن معدن أكثر نقاء، والتى ليست بالوفرة الكافية لحد يبيح تداولها كعملات، فيجد الطلب عليها لكى تستخدم حلية للاطفال والنسوة، فليست زينة الرءوس فى معظم الأحيان شيئا آخر سوى قطع من النقود يتفاوت قدمها، زودت بحلقة صغيرة تعلق عن طريقها، أو كانت ببساطة تثقب ثقبا أو ثقبين[٩] لكى يمكنها أن تعلق بعمامة الرأس[١٠].

ومن عادة كل النسوة أن يفرقن شعورهن فى عدد كبير من الضفائر الصغيرة ترتبط بشرائط من الحرير من اللون نفسه، ومجدولة بالطريقة نفسها التى جدل بها الشعر، وفى هذه الجدائل التى تتدلى من الرأس حتى الحزام، تضفر الماسات والموجوهرات والحلى الذهبية أو الفضية فى بعض الأحيان، ونجد من بينها بصفة خاصة قطع النقود الذهبية التى ترجع الى تواريخ متفاوتة القدم، كما يتفاوت عياراتها العالية دوما، بشكل تكون معه هذه الحلى النسائية بمثابة خزائن لمسكوكات، حتى أنه يصبح بامكان هواة التحف والآثار القديمة أن يعثروا داخل معاقل الحريم[١١] والسريات[١٢] على عملات بالغة الاثارة والندرة.

وقد واصل الأمراء الأول[١٣] الذين وكل اليهم الخلفاء حكم مصر، وكذلك الخلفاء أنفسهم الذين قدموا اليها ليتخذوا منها مقرا لخلافتهم، أو

اولئك الذين استطاعوا الاستيلاء على الحكم، واصل كل هؤلاء ضرب العملات النقدية المستخدمة فى البلاد بالأوزان نفسها والعيار ذاته، وكذلك على النمط الذى كان معتادا ، ثم بعد ذلك، قللوا من ثم فى عيارها أو أدخلوا على انماطها تغييرات مختلفة.

وعندما كانت تبلغ هذه التغييرات حدا يمكن اعتبار هذه النقود اصدارا جديدا أو عملات من نوع مخالف، كان يشار اليها عادة – حتى يمكن تمييزها عن ضروب النقد التى سبقتها – باسم الوالى أو من ينوب عنه.

وهكذا، ففى العام ٢٥٤ من الهجرة (٨٦٨ من تقويمنا)، أمر الأمير أبو العباس أحمد بن طولون، الذى كان قد عين حاكما على مصر من قبل الخليفة المتوكل على الله، والذى استقل بعد ذلك بمصر وتلقب بلقب السلطان – أمر عندئذ بضرب دنانير سميت بالدينار الأحمدى، أى سميت باسمه .

وفى نحو العام ٣٨٥ من الهجرة (٩٦٩ من التقويم الميلادى) أمر القائد أبو الحسن جوهر[١٤] بصنع دنانير سميت بالدينار المعزى، على اسم الخليفة المعز[١٥] (لدين الله الفاطمى).

وفى عهد الناصر فرج[١٦] (ابن السلطان برقوق) اول المماليك. الشراكسة (أو الشركسية) والذى ارتقى العرش من جديد فى عام ٨٠٨ من الهجرة (١٤٠٥ ميلادية) تم تحريف عيار الدنانير وتطرق الى صنعها اهمال بالغ، وكانت هذه الدنانير تسمى بالناصرى باسم كنيته الناصر، وهى كلمة تعنى المنتصر.

وهناك احتمال كبير أنه كانت تصنع فيما سلف انصاف دنانير وارباع دنانير برغم أن المؤلفين الذين رجعنا اليهم لم يشيروا الى ذلك، فلم يتحدث المقريزى مثلا عن صنع أرباع الدنانير الا عند تناوله لقطع النقد الذهبية التذكارية أى التى كانت تسك فى المناسبات.

أما أحدث العملات النقدية الذهبية، أى تلك التى حلت مع الأيام محل الدنانير فهى الفندقلى أو السكين Sejuins ، وان كنا لم نتأكد أن قطع الفندقلى[١٧] . هذه هى التى أمر بسكها قبل غيرها فى مصر: ومع ذلك فقد توقف صنعها منذ نهاية عهد السلطان عبد الحميد.

وحيث كانت هذه القطع النقدية تتداول فى القسطنطينية، فأنه من المحتمل أن تعود نشأته الى هذه العاصمة، ويحتمل كذلك أن يكون الهدف من اصدارها، مع تقريبه من عيار الدينار القديم(١٨)، هو أن توضع فى التداول قطع من النقود ذات قيمة أعلى من السكين البندقى الذى كان بمرور الزمن قد حل محل الدنانير، ومع ذلك فمنذ ذلك الوقت بدأ ينقص وزنه وعياره.

كذلك كانت تصنع فى مصر أنصاف دنانير تشبه الفندقلى فى شيء، عدا أن سطحها كان أقل اتساعا، وأن حروف نقوشها كانت أرفع،وعدا أن وزنها كان يبلغ أقل من نصف وزن الفندقلى.

ولسنا نجزم بأنه كانت تصنع بشكل معتاد أرباع الفندقلى، اللهم الا اذا كانت مجرد قطع للزينة أو كانت تسك بقصد تقديمها كهدايا أو باعتبارها عملة تذكارية (أو استهلالية أى تضرب فى غرة الأعوام الهجرية).

ولا تستخدم كلمة سكين Sejuin ، وهى بالايطالية زتشينو Zecchino [١٩] للاشارة الى النقود الذهبية التى تطلق عليها، الا بواسطة التجار الأوربيين وتراجمة البلاد، هؤلاء الذين يستخدمون لهجة مأخوذة عن الإيطالية والفرنسية محرفتين، تعرف باللغة الأفرنجية (أو الأفرنكية).

أما العملة الذهبية المحلية فيطلق عليها اسم زر محبوب[٢٠] ، ويقتصر عادة عند الاشارة اليها على كلمة : محبوب.

وهذا السكين أو الزر محبوب هو عملة ذهبية يختلف وزنها وعيارها وقيمتها وقطعها عن الفندقلى الذى أشرنا للتو اليه، وتوجد هاتان العملتان كذلك معا متنافستين فى القسطنطينية.

ولسنا نعرف - كذلك - على وجه الدقة من هو أول حاكم أمر بضرب هذه العملة، فى نفس الوقت فاننا نعتقد أن هذه العملة سابقة على الفندقلى، وأنها تحوير أو تحريف للدينار القديم.

كذلك، يجرى تداول نوعين من العملات الذهبية، يكادان لايختلفان الا فى القطع (بفتحة على القاف وتسكين الطاء)، أما أولهما فله وجهان تغطيهما نقوش متشابهة مرتبة على وجه التقريب فى العدد نفسه من السطور، وعلى الوجه الثانى نجد اسم السلطان بكامل حروفه فى حين يحمل النوع الثانى على الوجه نفسه تأشير أو طغراء السلطان، أما الوجه الثانى فهو نفسه فى كلا الضربين من العملة.

وكانت تصنع فى مصر كذلك انصاف سكين (أى انصاف زرمحبوب) كان يطلق عليها على سبيل الاختصار اسم نصفية ومعناه النصف، وأيضا ارباع سكين تسمى ربعية بمعنى الربع، وكان نمط هذه القطع الأخيرة يتفاوت كما سنرى لأن حجمها كان أصغر من أن يحوى قدرا من النقوش يماثل ما نجده على القطع الكاملة (الزر محبوب).

لكننا لم نر مطلقا أية ربعية من النوع الأول من النوعين اللذين تحدثنا عنهما من قبل، أى تلك التى لاتوجد بها تأشيرة أو طغراء، وأن كان ذلك لا ينفى امكانية وجودها بالفعل.

ثانيا: النقود الفضية والبرونزية

تقابل كلمة فضة بالعربية كلمة argent بالفرنسية.

وتطلق الكلمة فى العربية، كما هو الحال فى الفرنسية، على المعدن وعلى النقود التى تصنع من هذا المعدن.

ويشار الى هذه النقود نفسها بكلمة فلس (للمفرد) والى الجمع بكلمة فلوس، وتعنى هذه الكلمة قشور السمك، وتستعمل على نحو مجازى للدلالة على الشىء المستدير بالغ الرقة (ضنيل السمك)، وكان يشار بها فيما مضى الى النقود النحاسية، ثم اصبحت تطلق على النقود الفضية وحدها، اى على قطع المدينى.

وكانت القطع الفضية التى سكت فى شكل نقود تسمى فيما مضى درهم والجمع دراهم، وهو اسم كان يطلق كذلك على واحد من الأوزان كانت تساويه (أو تعادله) قطعة النقود هذه.

وحتى منتصف القرن الخامس الهجرى (القرن الحادى عشر من التقويم الميلادى) كانت النقود الذهبية كما سبق لنا القول، هى العملة الوحيدة

المشروعة أو القانونية فى مصر، ومنذ غزاها الغز أو التركمان تحت قيادة صلاح الدين[٢١] فى نحو العام ٥٦٧ من الهجرة (١١٧١م) بدأ يسمع فى مصر لأول مرة اسم درهم، بمعنى أنه منذ ذلك الوقت استخدم فى تقييم السلع وتقدير الضرائب.. الخ بالدراهم، ذلك أنه حتى من قبل مجىء الاسلام، لم يكن يتداول الناس فى مصر دراهم أجنبية وحسب، بل كذلك دراهم من صنع محلى، وهى التى استمرت تضرب فى عهد اوائل امرائها (من العرب) دون أن يتناولها أى تغيير فى البداية، ثم بعد ذلك، فى عهد خلفائها (الذين استقلوا بها) بقطع وأوزان وعيارات تختلف عن الدراهم القديمة.

وقد اتبعت أوربا فى بعض الأحيان عادة اطلاق اسم الحاكم على النقود المضروبة فى عهده، فأطلقت أسماء كارلوس وفيليب ولويس الخ، على عملات نقدية ضربت بأمر من هؤلاء الحكام على اختلافهم.

وكانت الدراهم فى مصر – كما سبق لنا أن لاحظنا بالنسبة للدنانير – تأخذ فى غالبية الأحيان اسم الأمير (الوالى) أو الحاكم الذى أمر بضربها، مثال ذلك الدرهم الناصرى المضروب فى نحو العام ٥٨٣ هـ (١١٨٧م) والذى استمد اسمه من اسم الناصر وهو الكنية التى كان يكنى بها السلطان صلاح الدين، ثم الدرهم الكاملى الذى ضرب فى نحو العام ٦٢٢ هـ (١٢٢٥م) فى عهد الملك الكامل ناصر الدين، والدرهم الظاهرى الذى تم ضربه فى نحو العام ٦٥٨ هـ (١٢٦٠م) فى عهد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس[٢٢]، ثم الدرهم المحمودى المضروب فى نحو العام ١٧٨١ هـ (١٣٧٩م) باسم الأمير محمود بن على، واخيرا الدرهم المؤيدى المضروب فى نحو العام ٨١٨ هـ (١٤١٥م) بأمر السلطان الملك المؤيد أبو نصر الشيخ المحمودى.

وكانت العملات الأجنبية الأكثر تداولا فى مصرعند بداية الهجرة تنقسم الى نوعين من المسكوكات طبقا لما يورده المقريزى، وكان النوع الأول يعرف باسم الدراهم السوداء وهذه ثقيلة الوزن، وكانت تسمى كذلك البغلى، أما النوع الثانى فكان يعرف باسم الدرهم الطبرى، ولا يزيد وزن هذا الدرهم عن نصف وزن الدرهم من النوع الأول.

وكانت الدراهم البغلى ترد من فارس، ويذكر هايد فى تاريخه عن ديانة الفرس القدماء أن مدينتى أورمياه وشيراز قد بنيتا على يد رجل ثرى اسمه راس مجوس[٢٣]، وقد أطلق عليه العامة الكنية رأس البغل ومنها جاء اسم هذا النوع من العملات النقدية التى تسمى الدرهم البغلى، وأن كان المسيو دى ساسى لا يرى أن هذا الاشتقاق يقوم على أساس صحيح.

أما صفة أسود، التى الصقت بالدراهم القديمة فقد جاءت دون شك من التعارض القائم بين اللون الذى اكتسبته هذه الدراهم مع مرور الزمن وبين المظهر اللامع أو البراق للدراهم التى ضربت حديثا والتى كانت تتميز باسم الدراهم البيضاء. وليس هناك مجال للافتراض بأنه كانت هناك قط عادة عدم جلو النقود قبل سكها، وان كانت ثمة ظروف كثيرة يمكنها أن تعطى لقاع النقود

الفضية[٢٤] هذا اللون الأسود (أو المائل للسواد) مثل دفنها بالأرض أو مثل تأثير النار والرطوبة وبصفة خاصة بخار الماء[٢٥].

وتستعيد الحروف والنقاط البارزة، عن طريق دعك خفيف، رونهاالمعدنى مما يجعلها تتمايز بقوة، حتى لتكاد تظنها منفصلة عن قاع العملة الذى يظل على سواده.

ويرى المسيو تيخسين Tychsen أن الدراهم الطبرية تستمد اسمها من اسم مدينة طبرية[٢٦]، أما هذه العملات قد ضربت بالفعل فيها،وأما لأن العرب كانوا يترددون كثيرا على هذه المدينة بسبب تجارتهم مع الرومان، ومن هناك كانوا يحصلون على العملات التى ضربت على يد الأباطرة.

ويذكر المقريزى كذلك الدراهم المغربية والدراهم اليمنية[٢٧] باعتبارها شائعة ومتداولة فى التجارة، وكلمة المغرب تعنى الغروب، وقد أطلقها العرب على كل بلدان أفريقيا التى نسميها عندنا بلاد البربر، وقد أطلقها على طرابلس وتونس والجزائر وفاس ومراكش.. الخ، وأن كان العرب يمتدون بها لتشمل فى الوقت نفسه أسبانيا وبقية البلدان التى فتوحها فى أوربا، أما اليمن فقد أطلق على البلاد التى عرفت قديما باسم العربية السعيدة، وأما قطع النقود المعنية هنا فكانت تأتى فى الأساس من المدينة ومكة.. الخ.

وحين انتقل السلطان المؤيد من دمشق الى مصر، حمل جيشه وكذلك كل من صحبوه كمية هائلة من الدراهم البندقية، التى سميت بهذا الاسم لأنها كانت تأتى عن طريق التجارة من البنادقة. وكذلك كمية كبيرة من الدراهم النوروزية التى سميت هكذا، بلا جدال، باسم الأمير نوروز الحافظى[٢٨]، وقد تدوولت هذه العملات فى مجالات التجارة، واستقبلت هذه النقود بترحاب كبير، فقد مضى وقت طويل لم تصنع خلاله الدراهم فى مصر، لدرجة لم تعد ترى معها سوى النقود النحاسية.

أما القرش الأسبانى، فقد كان، من بين كل العملات الحديثة القادمة من الخارج، هو أكثر هذه العملات شيوعا وأكثرها استخداما حتى مجىء الجيش الفرنسى الى مصر.

وقد ترتب على هذه الميزة، بالاضافة الى وفرتها فى سوق التداول أنها كانت أوسع العملات انتشارا فى كل تجارة العالم، وأنها أصبحت على نحو ما عملة تعاقد (أى تتم العقود على أساسها)، فتستخدم من جهة، ووسيلة للتبادل مع غالبية الدول. وتغذى من جهة أخرى ليس فقط كل عملات الدول المختلفة على وجه التقريب وانما جزءا من حليها كذلك، ولم يكن استخدامها فى مجال التجارة يقتصر على تسديد أثمان السلع، بل كانت تشكل فى حد ذاتها تجارة هائلة غير مشروعة، تشكل فى أغلب الأحيان جزءا من حمولات السفن والقوافل.

أما التالارى أو التالر[٢٩] فهو عملة المانية يشار اليها باسم الرسدال Risdale أو الريال التعاقدى (الذى تعقد على أساسه الاتفاقيات) ecu de

Iconventicn، وكانت تصنعه دول متعددة لتستخدمه وسيلة للتبادل التجارى مع مختلف الأمم، وينطبق هذا بصفة خاصة على الرسدال النمساوى ، وكان التالر، شأنه شأن القرشى الأسبانى، بالغ الانتشار فى مصر، وقد بلغت القطعة النقدية ، فى التعريفة التى وضعتها لجنة من الفرنسيين والتجار الوطنيين، سعر القرش نفسه، بل لقد كانت عمليات التحويل تتم لصالح التالر برغم أن القيمة الجوهرية أو الفعلية للقرش تزيد بشكل طفيف عنها فى التالر بسبب ارتفاع العيار فى القروش، ولعل هذه الميزة لا تعود فقط الى طبيعة العلاقات التجارية، وانما تعود كذلك الى حقيقة أن وزن التالر كان اكبر (من وزن القرش) وربما أيضا الى حقيقة أنه كان أكثر دقة فى صنعه.

ويطلق العرب على كل من القرش الأسبانى والتالر الألمانى اسم الريال (ريال)، ويميزون القرش الأسبانى بتسمية خاصة به هى ابو مدفع، بسبب صورة الملك الموجودة على أحد وجهيه وصورة العمودين الموجودين على الوجه الآخر، اذ فهم القوم أعمدة هيرقل هذه على أنها مدافع، أما التالر أو التالرى فيشيرون اليه باسم أبو طاقة (أبو بوطاقة)(٣٠) وهى كلمة تعنى صاحب النافذة(٣١)، وجاءت هذه التسمية بسبب الصورة التى ترى على أحد الوجهين، وصورة الأسلحة المدلاة من عقاب مقسوم إلى أربعة اقسام، والموجودة عى الوجه الآخر، اذ يشبه هذا الشعار الموجود بوسط وجه القطعة النقدية بعض الشىء تلك النوافذ ذوات القضبان الحديدية الشائع استخدامها بالبلاد، ومن كلمة بوطاقة هذه جاءت على سبيل التحريف كلمة patague فى اللغة الأفرنجية ثم انتقلت بدورها الى اللغة العربية الدارجة «بطاقة».

وقد بات قبول النقود الفضية كبيرة الوزن، والتى انتهينا من الحديث عنها للتو ضرورة ملحة فى تجارة الجملة خصوصا بعد أن أصبح يصنع فى مصر قليل من العملات الذهبية. وكذلك حين لم تعد توجد هناك قط لا عملات فضية تقترب فى قيمتها من النقود الذهبية، ولا تلك العملات التى تكون واسطة بين النقود الذهبية والعملات الصغيرة.

وفى القسطنطينية، حيث خامات الفضة أكثر وفرة بدون جدال، وحيث التجارة أكثر نشاطا، وحيث أساليب العمل فى دور سك النقود أكثر نضجا وتطورا، تصنع قطع فضية منخفضة العيار من ذوات الـ١٠٠، ٨٠، ٤٠، ٢٠، ١٠ بارات بل تصنع هناك كذلك قطع نقدية من ذوات الخمس بارات.

لكن مصر لم تأخذ على نحو معتاد بهذه السلسلة من العملات التى تشكل نظاما نقديا كاملا من النقود الفضية أو البرونزية والتى تنهض على تقسيمات السلم العشرى، الذى تكون فيه البارة واحدة هى أدنى درجاته.

ويبدو أن المملوك على بك(٣٢)، المكنى بالكبير، والذى صنع لنفسه بشجاعة وجرءة مشروعاته اسما مدويا فى الشرق، بل وأمكنه أن يسترعى أنظار أوربا حينا من الدهر، يبدو أنه الوحيد الذى أمر بضرب قطع نقدية من ذوات الأربعين والعشرين مدينى على غرار تلك التى

تصنعها القسطنطينية، بل يؤكد بعد كذلك أنه قد أمر بضرب قطع من ذوات الثمانين ومن ذوات المائة مدينى، وأن كنا لم نستطع الحصول على شيء منها، ويمكن الافتراض على الأقل أن عددا قليلا من هذه العملات قد جرى تداوله.

وكان يطلق على هذه القطع اسم غروش[٣٣]، وكانت هذه مضروبة بسكة (بكسر السين وشدة مفتوحة على الكاف ومعناها آداة السك) السلطان الحاكم أو على الأقل كانت تحمل تأشيرة أو طغراء هذا السلطان، وقد أمرنا بتصوير قطعة من ذوات الأربعين مدينى، وأخرى من ذوات العشرين مدينى . وعندما سنتناول بالحديث العملات النمطية أو المعيارية وأرقام أو نقوش المسكوكات فسوف نشير الى الخصوصيات التى تميز نقود على بك.

وحيث أصبحت خامات الفضة بعد موت هذا المملوك نادرة، وحيث كان صنع الغروش يعود بنفع أقل مما يعود به صنع المدينى، فقد توقف صنع القطع من ذوات الأربعين والعشرين مدينى، ويبدو أنه كان كافيا أن تحيق الهزيمة بعلى بك، لكى تفقد النقود التى سكها كل ثقة وأن تسحب من التداول أو تلغى كنقود ، كما لو كان الأمر ضربا من التجديد.

ويذكر فولنى Volney فى تأريخه لعلى بك[٣٤] أن نقود هذا المملوك قد فقدت ٢٠٪ من قيمتها اذ سرى زعم بأنها كانت محملة لأكثر مما ينبغى بمعادن خليطة، ويذكر كذلك أن واحدا من التجار قد سرب منها الى مارسيليا عشرة آلاف قطعة فعادت عند صهرها بربح كبير للحد الكافى، ولو لم تكن هذه العملات قد فقدت أكثر من ٢٠٪ من قيمتها الاسمية لكان من المستحيل أن تحقق هذا الربح عند نقلها الى الخارج، وان بعض الناس قد يرى فى المعلومات التى قدمها المسيو فولنى للتو عن عملات على بك، أن الأمر هنا يختص بالعملات الفضية وليس بالعملات الذهبية، فهذه هى التى ينطبق عليها بصفة تامة ماجاء فى هذه الفقرة السابقة.

وعقب ذلك أعدمت الماكينات التى تستخدم فى صنع غروش على بك ولم نعثر لها على أثر فى دور سك النقود القاهرة.

وقرب نهاية العام ١٧٩٨ (١٢١٣ من الهجرة) أمر القائد العام أن يعاد اصدار القطع النقدية ذوات الأربعين والعشرين مدينى، وكلفنا بالعمل على اعادة بناء المصانع والآلات اللازمة، وقد استقبلت هذه القطع النقدية استقبالا طيبا للغاية فى مجال التجارة، كما أن صنعها سيظل أمرا لا ينسى فى مصر، مثلما كانت قروش على بك.

أما الدراهم، وكان وزنها منذ البداية ضئيلا، فقد تناولتها بصفة متتالية بعض تغييرات (نحو الأدنى) فى وزنها وفى عيارها، بفعل جشع أولئك الذين كانوا يحكمون مصر، ومع ذلك فإن بعضا من هؤلاء الحكام، أكثر بعدا عن الهوى والمصلحة، أو ممن كانوا يسترشدون فى ادارتهم بأفكار أكثر ورعا وأكثر عدالة قد رفعوا من جديد وزن وعيار هذه العملات.

ويذكر المقريزى أن السلطان صلاح الدين، بعد أن ألغى تداول الدراهم السوداء، تلك التى

كانت بالغة الثقل وذات عيار عال، أمر بضرب دراهم تمتزج فيها الفضة والنحاس بنسبتين متساويتين، ولعل عيار ووزن هذه العملة قد ظلا منخفضين حتى الوقت الذى أصدر فيه الملك الكامل أمرا بابطال كل الدراهم التى كانت تعرف عندئذ بالقاهرة والاسكندرية باسم أوراق، وأمر باصدار دراهم جديدة كانت تقترب سواء فى عيارها أو وزنها من الدراهم القديمة أى عملات ذات المزيج الجيد.

وقد يكون بمقدرونا أن نلمح فى هذه القطع النقدية المسماة أوراق، ومفردها ورق، منشأ قطع المدينى التى تصنع اليوم من صفائح من البرونز مسطحة أو مصقولة بفعل دقات مطرقة، بل لعل المدينى لم يكن سوى فرع «أو قسم» من هذه العملة التى كانت تستخدم حاملة اسم أوراق.

ويقدم لنا الشيخان اسماعيل وعبدالرحمن(*) وهما اللذان ينظر اليهما فى القاهرة باعتبارهما يتميزان بغزارة معلوماتهما، المعلومات الآتية حول الاشتقاق اللغوى لكلمة مدينى التى تعنى فى اللغة العربية الميدى:

عندما أصبح المملوك الشيخ خليفة، واتخذ لنفسه القاب السلطان الملك المؤيد أبو نصر الشيخ (وهى أسماء وألقاب تعنى الامبراطور الملك، الذى تؤيده العناية الالهية، صاحب النصر، الشريف)، أمر بأن تضرب أنصاف دراهم سميت باسمه: المؤيدى أو الميدى على سبيل الاختصار، وكان يطلق عليها كذلك اسم نص وهى كلمة لاتزال تستخدم حتى اليوم للاشارة الى المدينى أو البارة.

وسواء كان القوم قد اعتبروا المدينى بمثابة تحوير أو تحريف للدرهم القديم، أو كانوا قد نظروا اليه باعتباره عملة جديدة أدخلت صناعتها الى مصر كما أدخلت الى القسطنطينية حتى تضرب هناك عملة مشابهة تعرف بالبارة Parah[٣٥]، فلن يكون أقل من ذلك صحة أن هذه العملة العجيبة، الأكثر رقة من ورقة، والتى تكفى أقل نفخة لبعثرتها والتى يوضع الالف منها فى قاع قمع ورقى، «قرطاس» ضئيل الحجم، قد أصبحت هذ النقد الرئيسى فى مصر، أى تلك تتخذ أساسا فى ابرام الصفقات الكبيرة وكذلك فى عمليات البيع بالتجزئة وكذلك التى تتم بها كل الحسابات وتحصل الضرائب.

أما بخصوص نسبة النحاس التى تمزج بها الفضة التى تستخدم فى صنع النقود، فإنه لاتستخدم قط فى مصر كلمة بعينها للاشارة اليها، وليست هناك كلمة تقابل كلمة نقد برونزى التى نستخدمها نحن. واذا ما طبقنا هذا الاسم، نقد برونزى على كل النقود التى يشكل الناس النسبة الغالبة فى سبيكتها، فان القطع ذوات الأربعين والعشرين مدينى، وكذلك قطع المدينى التى تحدثنا عنها تعد فى واقع الأمر نقودا برونزية (وليست فضية)، فمنذ زمان طويل للغاية لم تصنع فى مصر نقود فضية بمعنى الكلمة، ونحن من جانبنا لم ندخل تحت هذه التسمية (أى النقود الفضية) قطع المدينى والقطع ذوات الأربعين والعشرين مدينى، الا لأن هذه القطع قد حلت محل العملات الفضية التى جاءت النقود التى تحدثنا عنها لتقوم مقامها.

(*) هما فى الغالب اسماعيل بن سعد الخشاب وعبدالرحمان الجبرتى.

ثالثا - النقود النحاسية

تطلق كلمة نحاس فى العربية على المعدن الذى نسميه نحن Couper وفيما مضى كانت النقود النحاسية تسمى فلس والجمع فلوس.

وكانت هذه النقود النحاسية عبارة عن قطع من هذا المعدن، قطعت بأوزان تكاد تكون متساوية، ولم يتداول من هذه النقود اليوم إلاكمية ضئيلة، ولم يكن الناس يضعون النحاس فى مرتبة النقود. ولم يكونوا يستخدمونه عندئذ الا فى شراء السلع ضئيلة الثمن أو فى المطالب المنزلية البسيطة. وقد كانت السلع الغذائية الضرورية منخفضة السعرحتى أن ابناء الشعب قلما كانوا ينفقون فى اليوم الواحد ما يزيد على بضع قطع من العملات النحاسية لشراء أقواتهم.

واستمرت هذه الحال حتى نحو العام ٨٠٠ من الهجرة (١٣٩٨ من التقويم المسيحى) وحيث بدأت النقود الذهبية والفضية بمرور الزمن تصبح بالغة الندرة، وبشكل خاص بسبب الكوارث التى كانت تحدثها القلاقل والاضطرابات والثورات التى حدثت فى مصر منذ العام ٨٠٦ من الهجرة (١٤٠٤م) ، فقد أصبحت العملة النحاسية أكثر ضرورة، واشتد الطلب عليها لهذا السبب وارتفعت قيمتها كثيرا فى عمليات الاتجار غير المشروعة حتى تجاوزت قيمتها الحقيقية كثيرا.

وبدأت هذه العملة تتسرب الى مجال التجارة متنافسة مع النقود الفضية منذ الوقت الذى أصبح الظاهر برقوق فيه اميرا، أى فى نحو العام ٧٨١ من الهجرة (١٣٧٩ من التقويم المسيحى).

وحين أصبح برقوق سلطانا، أمر محمود بن على، الذى ولاه وظيفة استادارا[٣٦] بأن يضرب فى القاهرة كمية كبيرة من الفلوس أى من النقود النحاسية بسبب الربح الذى كان يعود به مثل هذا الصنع وأمر بايقاف سك الدراهم التى أصبحت بالغة الندرة، وقد صهر الصاغة الكثير من هذه الدراهم، كما صدروا الى الخارج كمية ضخمة منها، ومما لاشك فيه أنه قد ضربت نقود نحاسية ذات قيم مختلفة، كما كان لكل واحدة من هذه العملات أقسامها أو تفريعاتها.

وقد استمر سك العلمات النحاسية لسنوات طويلة فى عهد برقوق وفى عهد ولده الناصر فرج، وفى هذه الأثناء جلب الفرنجة كميات هائلة من النحاس الأحمر الى مصر.

وكان سعر التداول الاجبارى الذى تقر للفلوس أو القيمة الأسمية التى تحددت لها وهى أعلا بكثير من قيمتها الحقيقية، هى السبب فى ادخال كميات كبيرة من النقد المزيف ضمن هذه العملات خلال تلك الفترة.

ومنذ البداية، وحتى عام ٨٠٦ من الهجرة كانت النقود النحاسية تتداول على أساس العد، ومن هذا التاريخ صدر الأمر بتداولها على أساس الوزن اما لأنه أن عددا كبيرا منها لم يكن مستوفى الوزن، واما لأنه كان يلزم وقتا بالغ الطول فى عدها مما كان يتسبب فى حدوث ارتباكات شديدة، ثم انتهى الأمر بالنقود النحاسية أن أضحت هى العملات الوحيدة المستعملة، وأصبحت كل السلع، بما في ذلك الذهب نفسه، تقدر بالفلوس.

وبمرارة شديدة، يشكو المقريزى، وهو الذى كتب مقالته (عن النقود) بين عامى ٨١٨و٨٢٣ من هذا الاجراء الذى لا يمكن أحد أن يعقله،

والذى يشعر المرء بالعار من مجرد تدوينه، ويضيف أن النحاس لم يكن قط، فى أى بلد من بلدان العالم، لا فى قديم الأزمان أو فى حديثها، عملة رئيسية، ولم يحل عليه الدور فى أن يتداول كعملة الا فى أكثر الحكام جدارة بالمقت والكراهية، وهو الناصر فرج، فالفضة، بصفة خاصة، هى العملة المشروعة، التى لم يكف تداولها على الاطلاق فى أنحاء العالم، ويوكد المقريزى أنها، هى، هذه العملة النحاسية التى ضربت فى مصر.

واقترح المؤلف على السلطان الذى كان يتولى مقادير مصر فى ذلك الوقت، وهو الملك المؤيد، الذى كان قد أعاد صنع واصدار الدراهم:

أولا: ألا تدون أى مبالغ فى كل العقود العامة والخاصة، وفى كل السجلات المالية، وكذلك فى كل المعاملات والصفقات الا بالدراهم المؤيدة.

وثانيا: ابطال تداول الفلوس القديمة، على أن تقوم مقامها جديدة مؤيدة تنشأ على الأسس التالية: تضاف الى ثمن قنطار النحاس المستورد من بلاد الفرنجة كل النفقات التى تتحملها دور سك النقود لتحويله الى فلوس، ويقدر على أساس ذلك كم عدد الفلوس التى تكون مساوية للدينار وكم منها يكون مساويا للدرهم المؤيدى، وحاول هذا المؤرخ التدليل على جدوى هذه العملية، ومع ذلك فقد كان من المؤكد أن عملية كهذه سوف تلحق ضررا كبيرا بعامة الناس وبصفة خاصة ابناء الطبقة الدنيا منهم، والذين تنتشر بينهم العملات الصغيرة، والذين كانت مصادر دخولهم المتواضعة ستتعرض لهزة عنيفة لتنقص دفعة واحدة.

ولعل الاجراء العادل والشريف الذى كان يمكن اتباعه كان أن نستبدل فى دور سك النقود بتلك الفلوس الملغاة تبعا للقيمة التى كانت لها عند تداولها فى مجال التجارة وقبل ابطالها، دنانير ودراهم، ومن المستطاع تقدير هذه القيمة اذا أخذنا كحد وسط اثمان السلع الضرورية (كالقمح على سبيل المثال) مقدرة بالدنانير والدراهم الجديدة، ومع ذلك فقد يحدث، دون ريب، أن نجد فى مجال التداول كمية من الفلوس أكبر بكثير من تلك التى أبطلتها الحكومة، وتصبح العملية على هذا النحو مدمرة ومستحيلة التنفيذ، ذلك أن الحكومة حين أمرت متجاوزة بذلك كل حد ممكن بصنع كمية بالغة الضخامة من النقود، ذات قيمة اعتبارية أو صورية وسعر تداول الزامى، قد وجدت نفسها، حين أصبح الأمر ملحا عليها بأن تعالج السوءات التى نجمت عن ذلك على مفترق طريق: فاما أن تثقل كاهل نفسها بالديون اذا شاءت أن تسحب هذه النقود طبقا لقيمتها الاسمية، واما أن تتسبب فى خراب أو افلاس الناس، اذا هى لم تسترد النقود الملغاة لا حسب قيمتها الحقيقية أو الجوهرية.

وعندما عاد صنع العملات الفضية ليستقر من جديد، وعندما تضاعفت هذه النقود وتزايدت كذلك تفريعاتها، وعندما أخذ وزنها وعيارها يتناقصان بشكل مستمر، ونقصت نتيجة لذلك قيمتها، أصبح من المستطاع استخدامها فى شراء السلع الرخيصة. وحلت بذلك محل العملات الصغيرة «الفكة»، وبذلك سهل التخلص من النقود النحاسية، تلك التى كانت أكثر من غيرها عرضة للتلف، والتى كانت تبعث برائحة غير

مستحبة، والتى كانت من جهة أخرى قد ساءت سمعتها أوقلت الثقة بها بسبب الكميات الهائلة منها، التى فاقت كل حد متصور، والتى طرحت للتداول - كما كانت تسبب الكثير من الضيق والارتباك بفعل حجمها، والتى تطلبت بسبب ذلك نفسه القيام بعمليات اصدار أكبر ضخامة (وتكلفة) مما كان يعود بذلك على الحكومة بنفع اقل،. ولقد انقضى بل أوقف كلية اصدار النقود النحاسية، وأصبحت كلمة الفلوس ، وهى التى كانت تعنى منذ البداية، وبصفة خاصة، النقود المصنوعة من النحاس، تشير بعد ذلك الى العملات الفضية،وأصبحت كلمة نوعية (تدل على النوع) تقابل اللفظ الفرنسى: نقود أو فضة monnciae ou argent[٣٧].

أما العملات النحاسية التى صنعت اما فى عهد المؤيد كانت تستخدم بمثابة نقود معاونة أى متممة للدراهم التى زاد عيارها، وأما فى عهود أخرى كانت تواجه ندرة العملات الفضية فقد اتخذت اسم جديد[٣٨] أى ما صنع حديثا أو النقود التى صنعت مؤخرا.

وباختصار، فحيث ظلت قيمة السلع الغذائية تواصل ارتفاعها، فى حين استمرت قيمة المدين تواصل انخفاضها، لدرجة لم يعد الأمر يستوجب معها اللجوء الى النقود الأدنى قيمة، فقد توقف صنع الأجداد منذ وقت طويل، وأن كان فقراء الناس لا يزالون يستخدمون فى معاملاتهم أما هذه الأجداد نفسها بأنواعها المختلفة، وأما قطع من النحاس غير مسكوكة ضربت بشكل خشن، يحصلون عليها من عند تجار النحاس لكى يستطيعوا شراء السلع ضئيلة القيمة مثل البرسيم (علف الحيوانات) وبالنسبة للكميات التى يقل ثمنها عن المدينى الواحد أو البارة، وكانت تلتزم عشرة من هذه القطع لكى تساوى مدينى واحدا، بحيث يمكننا تمثلها على النحو الذى كانت عليه الدراهم deniers عندنا.

رابعا: المسكوكات أو العملات التذكارية

لم يعرف الشرق مطلقا، أو على الأقل ، لم تستقر فيه: على شكل نظام متبع، كما هو الحال عند الأوربيين، عادة سك العملات التذكارية المختلفة، التى يكون القصد من اصدارها اما تكريس أو تخليد لذكرى احداث بارزة تمت فى عهد من العهود بواسطة استخدام الرموز أو نقش التواريخ أو النقوش.

ومع ذلك فقد جرت هناك عادة أو تقليد بالغ القدم لا يزال متبعا أيامنا هذه، وهو تقليد يقضى بأن تسك فى فترات بعينها احتفالا باستهلال أو غرة الأعوام (الهجرية) أو لتقديمها كعطايا أو اكراميات، نقود ذهبية لم تختلف عادة عن النقود الأخرى الا فى أن سطحها أكبر اتساعا بكثير، والا فى أن الحفار كان يعطى لكتابتها فى بعض الأحيان قدرا أكبر من الأناقة ومن «التحسين» مع بذخ فى زخرفات الاطار، أو كان فى بعض الأحيان بخط اطارين مركزين من الحبيبات، أحدهما يدور باستدارة القطعة النقدية والآخر فوق حافتها، أو كان يضع بين هذيه الاطارين، زخرفا على هيئة عقد من الورود أو على هيئة ضفائر أو كتابات مضفرة أو ضرورب أخرى من الزينة، وان كانت النقوش والعيار والوزن (لهذه العملات التذكارية) هى نفسها فى النقود الأخرى، أو كان يضاعف الوزن لكى تصنع قطعة ذات اثنين من الفندقى أو تساوى اثنين من العملات الذهبية الأخرى، أو كان الوزن يزاد فقط بمقادر النصف لتساوى القطعة فى الحالة الأخير ١١/٢ فندقلى أو سكينا واحدا ونصف سكين.

ومع ذلك فقد كانوا يغيرون فى بعض الأحيان من النقوش، ويسهبون فى بيان القاب الحاكم اما لتمييز هذه القطع عن العملات الاعتيادية واما لامتداح الأمير.

وبرغم أن قطع النقد الترفيهية (قطع الزينة) هذه أقرب كثيرا شبها بالعملات منها بالمسكوكات، فقد كانت محدودة بالتداول، وكان يحتفظ بها مثلما نحن بقطع الائتمان أو قطع الزواج أو الاحتفالات وكانت تحمل بمثابة زينة أو تعطى فى شكل اكراميات ، وفى بعض الأحيان كانت تباع الى اليهود الذين كانوا يقومون باعادة صهرها.

تقليد كهذا كان موجودا عند الفرس، فقد كانت تصنع فى فارس تبعا لرواية شردان(٣٩) Chardin قطع نقدية لم يكن لها نفس الرواج الذى للعملات وانما كانت توزع عند حلول رأس السنة.

أما العملات الذهبية المستخدمة فى القسطنطينية والتى نشرها المسيو بونفيل Bonn-ville، فلم تكن هى على وجه الدقة هى النقود المتداولة، وانما كانت نقودا استهلاليه أو تذكارية أى نقود صدرت لمناسبة بعينها، وكانت القطع الأولى من نوع الفندقى، أما الثانية فكانت من نوع الزرمحبوب.

ويذكرالمقريزى فى خططة عند وصفه لاحتفالات رأس السنة أن الخليفة كان يعطى عند انتهاء العام أمرا بأن تصنع فى دار سك النقود، فى التاريخ نفسه المحدد لسك نقود السنة الجديدة، عدد محدد من الدنانير ومن الربعيات(٤٠) والقراريط والدراهم المستديرة، وكان يبعث بها كاستبشار الى الوزير والى أقاربه والى كل العسكر من حملة السيف أو حملة القلم (الجنود والكتبة)، كما كانت ترسل قطع الدنانير وحدها هدايا الى الضباط وأصحاب الرواتب فى عيد الفطر(٤١) الذى يستغرق ثلاثة أيام، والذى ينهى شهر رمضان الذى يشكل عند المسلمين وعلى نحو ما يمثله الصوم الكبير عندنا.

ويورد المقريزى فى فقرة أخرى أنه كانت تضرب فى زمن الفاطميين(٤٢) فى دار سك النقود القديمة، وهى أول دار انشئت فى مصر، الدنانير أو بالأحرى الخردبات الخاصة بغزة العام (الهجرى) أو بخميس العدس، وهو الخميس المقدس عند الأقباط، وقد أطلق عليه هذا الاسم لأن الأقباط يطبخون فيه العدس، كما كان هذا اليوم، فى زمن المقريزى كذلك، يوافق الاحتفال بأحد الموالد ذائعة الصيت فى القاهرة، وكل ولايات مصر، وكان المقريزى يسميه ايضا خميس العهد.

ولا يتعلق الأمر، فى الفقرة الأولى التى اقتبسناها للتو من المقريزى، بالقيراط وانما بالربعية فقط وكذلك بالدراهم المستديرة التى تشير اليها باسم مقشقلة، وهى صفة كان المسيو دى ساسى يجهل ماتعنيه، كذلك فان المقريزى عند حديثه عن قطع الاستبشار أو القطع الاستهلالية التى تسك بمناسبة بدء العام الهجرى لم يعد يشير الى الدراهم المستديرة وانما إلى القراريط، وفى مكان آخر، الى الخردبة. ويستنتج دى ساسى أن الدراهم موضوع الحديث هى نفسها ما عاد المؤلف يسميها بعد ذلك بالقراريط و يبدو لنا أن الأكثر احتمالا من ذلك هو أن القيراط والخردبة كانا يشيرا الى قطعة نقد ذهبية واحدة، وكان المثقال، وهو نفسه وزن الدينار، ينقسم الى أربعة وعشرين قيراطا، ومن المعروف ان القيراط يساوى وزن الخردبة أو حبة الخروب. وبلا جدال فإن هناك بترا قد تم فى الجزء الأول من نص المقريزى، اذ كان ينبغى عليه أن يذكر القراريط بعد ذكره للربعيات . أما عند حديثه عن الاكراميات التى كانت تقدم الى الوزير والى أقاربه والى عسكر السيف وعسكر القلم فان الحديث هنا لم يعد يتصل الا بالنقود الذهبية.

والقيراط هو أصغر قطعه من العملات المصنوعة من هذا المعدن.

وسوف يتحدث عنه مؤلفنا بعد ذلك تحت اسم خردبة. وأخيرا فإن الدراهم المستديرة كانت عملات فضية، ولم تكن توزع الا على رجال أو أتباع الوزير ورجال كبار الشخصيات المهمة وعمال سك النقود.

أما فى خميس العهد فلم تكن تضرب الا الخردبة، ويتراوح عدد هذا الاصدار النقدى بين ١٠ آلاف وعشرين ألفا من هذه المسكوكات، ويستخدم فى ذلك من ٥٠٠ الى الف دينار، والى جانب أن وزن الدينار يمكن بسبب تآكل النقود بفعل الاستعمال أو بسبب غش فى وزن النقود الذهبية، أن يكون أدنى من مثقال واحد، أى أقل من ٢٤ قيراطا، فقد كانت الدنانير الزائدة تستخدم فى سداد فروق الوزن وفى الانفاقات اللازمة لسك هذه النقود، وكمنح للعاملين فى الضربخانة.

ونستنتج مما قلناه للتو أن قطع النقد المسماة قراريط أو خردات كانت بالغة الضآلة وذات قيمة متواضعة، اذن فقد كانت بالنسبة للنقود الذهبية ما كانه المدينى أو البارة بالنسبة للعملات الفضية.

وحتى اليوم لا يزال القوم يحتفظون بعادة سك النقود الذهبية احتفالا بغرة الأعوام، أو لكى تقدم اكراميات، أو تعطى لأشخاص متميزين كانوا يطلبونها بأنفسهم، أو كانوا يرسلون الذهب من عندهم لتحويله الى قطع نقدية والى نصفيات وربعيات (من هذه القطع)، ولم يكن هذا كله يختلف فى شىء عن العملات المماثلة الا فى أنها ذات سطح أكبر اتساعا والا فى العناية التى يبذلها الحفار فى كتابة وحفر النقوش.

وتسمى الهدايا أو الاكراميات بخشيش(٤٣).

وفى بلاد ترزح تحت نير الاستبداد، وبصفة خاصة، فى تلك البلاد تعقد فيها السلطة للأقوى والأكثر جسارة، تكون الوسيلة الفعالة، والمعتادة للغاية، لاصطناع الأتباع هى الأعطيات والاكراميات، اذ قل أن تكون هناك حقوق مؤكدة ثابتة، أو عدالة فى التوزيع، وانما كل شىء هو منحة وعطاء، ففى هذه البلدان يعطى النزر اليسير دوما فى شكل رواتب ثابتة، ويوهب الكثير أحيانا فى شكل منح وأعطيات.

فى هذه البلاد يجهل الناس ما التحفظ، أو هذا النوع من الرصانة والحياء اللائق بشخص من يعطى بقدر ماهو جدير بشخص من يأخذ. وفى الأعياد الخاصة التى تحييها على سبيل الترفيه العالمات أى الراقصات من أهل البلاد، والموسيقيون، فإن المدعوين، اذا أخذتهم النشوة من مهارة العازفين، يقدمون لهؤلاء العوالم أعطيات فضية (نقوط) فتعلن العالمة بصوت عال اسم من أعطى وقيمة عطائه، هنا تختلط مشاعر الكبرياء بأحاسيس المكابرة، فتدفع العجرفة المهينة أحد المشايخ أو واحدا من البكوات (عندما يرى غيره قد قدم أكثر منه) أن يعطى «نقوطا» يبلغ ١٠٠ دينار الى واحد من هؤلاء «الآلاتية» المنفرين.

ولدى كبار القوم ارتال من الخدم، يتبعونهم فى كل مكان ، ولا يحصلون من سادتهم قط على مكافآت أو أجور، ويقتصر مايحصلون عليه منهم على أعطيات من الملابس وبعض قطع صغيرة من الذهب فى أعياد بعينها، وان كان هؤلاء السادة يتركون لهم الحق فى أن يدخلوا فى خدمتهم كل من يحتاج الى سيد، وقلما يكون بمقدور أحد أن يدنو من هذا السيد دون أن يوزع البخشيش على

الخدم والأتباع، وهؤلاء يطالبونك به اذا نسيت أن تقدمه اليهم، وفى بعض الأحيان يفرضونه فرضا، ومن وجهة أخرى ولا تزال ثمة عادة مماثلة فى بعض بلدان أوربا حيث ينتظرك خدم البيت، حتى الخدم فى قصر الأمير نفسه، والذين يسمون la Famiglia وأنت فى طريقك الى سيدهم ليلحوا فى طلب الـــ bouna mano والدراهم الفضية المستديرة هى المسكوكات الوحيدة التى أمكننا أن نسمع بها والتى تسك عند بداية (غرة) الأعوام. وحيث أصبح المدينى، وفى الوقت الحاضر، هو العملة الفضية الوحيدة المستخدمة فى مصر، فإنه يوزع، دون تغيير شىء فى نمط صنعه على موظفى وعمال دور سك النقود عند استهلال الأعوام وفى نهاية شهر رمضان.

خامسا: النقود الزائفة

كلما زاد الفرق بين القيمة الأسمية والقيمة الحقيقية أو الجوهرية للنقود كانت الحكومة عرضة لأن تجد من يزيفون نقودها. سواء فى الداخل (على يد رعاياها) أو فى الخارج على يد أجانب.

ولعل هذا هو السبب فى تلك المكاسب الهائلة التى كانت تحققها بالضرورة صناعة النقود النحاسية، حين أصبحت هذه النقود هى العملات الأساسية أو الوحيدة التى تتداول فى مصر، كما أن علينا أن نعزى، بالضرورة كذلك، هذه الكميات الضخمة من العملات النحاسية التى وجدت فى مصر الى تساهل مصر وسماحها بتداول نقود البلدان المجاورة فيها، وقد صنعت هذه وتلك بشكل ردىء، وقلدت على وجهيها، وبطريقة منفرة الأنماط القديمة، بل كذلك أسماء وصور الحكام المسيحيين والأمراء المسلمين.

وقد أمكن الطبقات الدنيا من عربان[٤٤] وفلاحين. وهى اليوم كما كانت بالأمس بالغة الجهالة، أن تدخل الى أعماق البلاد نقودا متنوعة، دون أن يدرك هؤلاء ما أن كانت هذه النقود زائفة أو أجنبية، ولقد قابلنا فى مصر، مثالا فريدا على هذه الجهالة، فحين وصل جيشنا كان الفلاحون المساكين لايحسنون التفرقة بين العملات وبين القطع المعدنية حتى أنهم كانوا يترددون فى أخذ نقودنا الفرنسية لأنهم لم يكونوا معتادين على رؤية عملات نقدية بهذا السمك والوزن، وكانوا - من جهة أخرى - يتبادلون مع جنودنا، الذين كانوا دهشين بقدر ما كانوا سعداء بنجاح ما كانوا يسمونه خدعة الحرب، كل صنوف المأكولات مقابل أزرارهم النحاسية أو المصنوعة من القصدير أو من خليط منهما، شريطة أن تكون هذه مسطحة وأن تكون قد نزعت عنها الحلقات التى تستخدم فى شبكها. لقد كان الفلاحون يأخذونها على أنها نقود، لأنها كانت أقرب كثيرا الى شكل ومظهر النقود ذات العيار المنخفض ، والذين كانت لديهم عنها فكرة منقوصة، ونتج عن ذلك أن ملابس العدد الأكبر من جنودنا، عند وصولهم الى القاهرة، وجدت خالية من الأزرار.

ونستطيع أن نضيف أن التدليس فى عيار النقود يكون أكثر سهولة عند أمة أقل تنورا، ولاسيما أن فن التمحيص يكون سرا قل أن يعرف أو يمارس الا فى مجال النقود، أن فنون الصناعات متدهورة ومتخلفة لدرجة تتجاوز الحدود فى مصر، كما أن العمال، لدرجة تتجاوز الحد ايضا، عارون عن تلك القدرة على التنفيذ، وعارون من المعارف والمهارة، ويتعرضون لوشايات ورقابة شرطة قاسية،

جهمة وصارمة، لدرجة لايمكن معها قط أن ينشأ أو يستقر هناك، وبقدر كبير بعض الشيء، صنع نقود زائفة ، وقد استطاع بعض العمال، فى عهود مختلفة، أن يصنعوا بعض عملات مزيفة عن طريق وسائل سهلة قليلة التعقيد لاتتطلب سوى الصبر ومهارة اليد، ولعل الأمر كان يتم بالمطرقة وقوالب السك، وأن يكن الأمر الأقرب الى الترجيح هو أن يكون ادخال النقود المزيفة الى مصر ناتجا عن منافسة وموجدة وجشع الأمم أو الشعوب الصغيرة المجاورة. كذلك، فكل شيء يدفع على الاعتقاد بأن الذين كانوا يستولون على السلطة فى عهود الفوضى أو الاستبداد، كانوا يدفعون بأنفسهم، فى بعض الأحيان، والى درجة بعيدة الى مساوىء المضاربة بالنقود لحد جعلتهم يصنعون نقودا زائفة.

ويذكر المقريزى أن عبيد الله بن زياد (٤٥)، كان أول من حور فى شكل الدرهم، فأمر بضرب دراهم زائفة، وذلك عندما هرب من البصرة فى العام ٦٤ من الهجرة (٦٨٤ من التقويم المسيحى)، وتضاعفت أعداد الدراهم الرديئة وانتشرت فى كل الولايات فى عهد الأسر الفارسية من آل بويه وفى عهد السلاجقة.

ويورد المسيو تيخسين Tychsen أمثلة لعملات عربية من النحاس تحمل على حافتها: «هذا الدينار - أو هذا الدرهم - ضرب فى .. الخ» وحيث كانت الدنانير عملات ذهبية والدراهم قطع نقود فضية، فيبدو بوضوح أن كانت هذه نقودا مزيفة قد طليت بالذهب عند اصدارها، اللهم الا اذا كان (أولو الأمر)، كى يتجنبوا أى انفاق فى صنع قوالب جديدة، كانوا يستخدمون فى سك هذه النقود النحاسية، تلك القوالب التى كانت تستخدم فى ضرب الدنانير.

وهناك من يرتاب فى أمر المماليك عندما استولوا على صناعة النقود بالقاهرة ويتهمهم بأنهم فى فترات القحط أو الأزمات كانوا «يلعبون» فى أوزان النقود وبأنهم بصفة خاصة كانوا يأمرون بسك عملات ذهبية زائفة. وقد رأينا فى القاهرة كثيرا من قطع الفندقلى يمكنها أن تعد زائفة. تحمل على الوجه أ تأشيرة السلطان عبد الحميد بن أحمد وعلى الوجه ب : سنة ١١٨٧ هـ (١٧٧٤ من تقويمنا)، وهى السنة التى تولى فيها هذا السلطان مقاليد الأمور، وفى أعلى القطعة نجد الرقم ٩ الدال على هذه القطعة قد صنعت فى العام ١١٨٩ هـ (١٧٧٥م) وهو التاريخ الذى يوافق الوقت الذى يستعد فيه المملوك محمد بك، المسمى أبا الدهب، بسبب بذخه، وبعد أن أعقب على بك، سيده الذى خانه وسعى لهلاكه، لأن ينقل الحرب الى سوريا ضد الشيخ ظاهر العمر، الحليف القديم لعلى بك، ومع ذلك، فقد لاتبرهن هذه الأرقام التى تحملها قطع الفندقى هذه على أنها قد صنعت بشكل محدد فى الفترة التى تشير اليها، اذ من المحتمل كثيرا، حين يتصل الأمر بنقود مزيفة، أن يكون التاريخ (المدون عليها) نفسه غير صحيح.

وقد وجدنا بين قطع المدينى التى تتداولها التجارة، بعضا منها من النحاس الأصفر تم جلوها أو تبيضها.

سادسا: النقود الحسابية

نطلق اسم نقود حسابية على وحدات النقد الاعتبارية، التى تستخدم فى حساب القيم المختلفة وفى تقديرها، وذلك تمييزا لها عن النقود الحقيقية، كما هو الحال بالنسبة لجنيهنا التورى الذى نتخذه اليوم عملة حسابية، اذ نعبر عن المبالغ الاجمالية بهذا الجنيه برغم أن هذا الجنيه لم يعد اليوم قط عملة حقيقية.

وقد رأينا المصريين فى البداية يقدرون حساباتهم على أساس الدنانير، ثم بالدراهم، وكذلك بالفلوس أو العملات النحاسية، وهم اليوم يقدرونها على أساس المدينى، بيد أن الضرائب ظلت تقدر منذ ماض بعيد بعض الشيء على أساس عملة اعتبارية تسمى بوطاقة، بعد أن كانت الضرائب تتم فى الأصل بالدينار، ثم بعد ذلك بالعملة الذهبية التى حلت محل الدينار، يبدو أنه قد بدأ يقبل سدادها بواسطة هذه النقود الذهبية، وقد أصبحت بالغة الندرة لحد لايمكن معه تسديد الضرائب عن طريقتها ، والى جانبها عملات القروش والتالرى أو الريال، التى كانت وفرة فى مجال التجارة، والتى اصبحت لها على وجه التقريب القيمة نفسها التى كانت العملات الذهبية، وذلك فى مجال التداول النقدى على النحو الذى يمكن أن تكون عليه الدراهم والفلوس وقطع المدينى.

أما البوطاقة ، هذه العملة الاعتبارية فقد قدرت عند مجيء الفرنسيين الى مصر بـــ٩٠ مدينى، وهو السعر نفسه الذى ثبت عليه على بك فى نحو العام ١٧٧٣ من تقويمنا قيمة التالار،وعندئذ كانت البوطاقة سواء باعتبارها عملة حسابية تقدر وتجبى على أساسها الضرائب أو باعتبارها عملة حقيقية متداولة أو التالر – كانا كلاهما معا ولبعض الوقت يقدران بـــ٩٠ مدينى، ومع ذلك فعلى حين ظلت البوطاقة فى مجال الضرائب تساوى ٩٠ مدينى، أخذت قيمة التالر (أو البوطاقة النقدية) تمضى فى ارتفاعها بسب تدهور المدينى حتى أصبحت تساوى عند مجيئنا ما يبلغ ١٥٠ مدينى، وحيث كان الزرمحبوب فى هذه الفترة نفسها يساوى ١٨٠ مدينى، فقد كانت القطعة الواحدة من أنصافه تساوى ٩٠ مدينى أى بوطاقة كاملة كعملة حسابية.

واذا عدنا إلى الزمن الذى تقرر فيه تقدير الضريبة بالبوطاقات فسوف نجد أن هذه العملة الحسابية، أو تلك التى حلت هى محلها، كانت تعادل أقل من ٩٠ مدينى. وكان الصيارفة والأقباط، أولئك الذين وكلت اليهم جباية الضرائب، والذين كانوا قرب غزو مصر على يد الفرنسيين، يحصلون فى العادم ٩٠ مدينى من كل بطاقة (حسابية) لكنهم لايقدمون حسابها للملتزم الا بواقع ٨٠ أو ٨٥ مدينى، ويحتفظون لأنفسهم بالفرق اما باعتباره ربحا تعسفيا أو باعتباره جعلا متعارفا عليه، اما اذا قام أحد الممولين مصادفة بسداد الضريبة بواسطة انصاف الزرمحبوب فإن هؤلاء الصيارفة لم يكونوا يحتسبون هذه القطع الا على أساس أنها بوطاقة (حسابية) تساوى ٨٥ مدينى، لكنهم يقدمونها فى حساب الملتزم باعتبارها مساوية لـــ٩٠ مدينى.

وحيث ظلت قطع المدينى تفقد بصفة مستمرة جزءا من قيمتها، فى حين كانت غلة الأراضى،

سواء أكانت فى شكل ضرائب أو فى شكل أتاوات أو عادات (هدايا) للملتزم ، مثبتة بموجب بوطاقات حسابية، فقد كان على الحكومة والملتزمين، حتى لا يجدوا دخولهم عرضة للتناقص بشكل مستمر، أن يسلكوا أحد سبيلين، فاما أن يقدروا البوطاقة (الحسابية) بعدد أكبر من المدينى يتفق أو يعوض القدر الذى تدهورت به قيمة العملة الأخيرة، وأما أن يفرضوا ضرائب جديدة.

ويكاد يكون من المؤكد أنه لم يتم اللجوء قط الى الوسيلة الأولى، وان كان أولو الأمر جدوا فى استخدام الوسيلة الثانية، فاستحدثوا حشدا من الضرائب الاضافية انتهى بها الأمر أن تجاوزت فى مجمل حصيلتها ماتدره الضرائب المبدئية.

وبرغم أن هذا السلوك هو على وجه التقريب سلوك غالبية الحكومات التى ترفع من حصيلة ضرائبها بقدر احتياجات الدولة، فتقوم بفرض سنتيمات اضافية أو ضرائب متفرقة بدلا من أن تلجأ الى زيادة الضريبة العقارية أو الضريبة الأساسية بشكل مباشر، فقد كانت لحكام مصر فيما يبدو لنا مصلحة خاصة فى عدم رفع قيمة البوطاقة (الحسابية) فى نظام جباية الضرائب.

فحيث كان الميرى، وهو الضريبة العقارية التى أنشأها سليم، أو بالأحرى خليفته سليمان الأول، لكى تصب فى خزينة سلطان القسطنطينية، يجبى على أساس البوطاقات الحسابية، التى تظل قيمتها هى هى، فلم يكن يسدد للسلطان، عن هذا المال الميرى الا المبلغ نفسه من المدينى نقدا، أما كل الاستقطاعات أو الأتاوات الاضافية التى استحدثها المماليك أو الحكام، بل وكذلك الملتزمون، فكانت حصيلتها تعود عليهم وحدهم.

وتقدر المبالغ الكبيرة بالأكياس، وكل كيس قدره ٢٥ الف مدينى. فى حين لايقدر الكيس فى القسطنطينية الا بـــ٢٠ ألف بارة فقط.(*)

(*) وصف مصر. مجلد ٦ ترجمة : زهير الشايب.



* نقود متداوله من عهد الجبرتى.

هوامش الملحق رقم [٣٧]

(*) هنا تصرف طفيف في الترجمة املته ضرورة النص (المترجم).

(١) تعني هذه الكلمة: عين، النقود الذهبية وكذلك النقود الفضية.

(٢) انظر اسم وقيمة الدينار المستخدم كمثقال في دراستنا عن الأوزان العربية (الكتاب الأول من هذا المجلد).

(٣) الأردب مكيال سعة يستخدم في كيل الحبوب اساسا، ولا يزال اسمه واستعماله شائعين في مصر، والاردب كلمة مصرية.

(٤) دخل عمرو بن العاص مصر في العام التاسع عشر من الهجرة (٦٤٠ من تقويمنا).

(٥) الاسلام هو دين محمد، وهو مشتق من الكلمة العربية سلام واصلها السلام.

(٦) هي بيزنطة القديمة، تسمت باسم القسطنطينة Constan-tinople اى مدينة قسطنطين، وهو اسم امبراطور كان يحمل هذا الاسم، هو الذى جعل منها عاصمة للامبراطورية الشرقية، ويطلق عليها العرب كذلك اسم القسطنطينية أو قسطنطينية، ويشار اليها فوق العملات النقدية في بعض الأحيان بهذا الاسم، وفي أحيان اخرى باسم اسلام بول أى مدينة الاسلام، فالمقطع الأخيرboul أوPOUL يعني في اللغة اليونانية مدينة، ولكن النطق الشائع لها هو استامبول وهو ما أخذنا به Stamboul ، ومع ذلك، فاذا شئنا تنميق الكلمات، أو اللعب بالألفاظ أو قصدنا أسلوبا متكلفا، فبامكاننا تحريف معنى اسمها إلى مدينة اسلام، اذا ما أردنا أن نشتق المقطع الأخير من اسمها، بول، من اللغة التركية، وهذا أمر أكثر طبيعية، وهو يعني الامتلاء أو الوفرة، بدلا من اشتقاق المقطع ذاته من كلمة بوليس POL,s اليونانية.

(٧) ارتقى هرقل العرش في العام ٦١٠ من التقويم الميلادى (العام الحادى عشر قبل الهجرة) ومات في العام ٦٤١ (وهو العام الحادى والعشرين من التقويم الهجرى)، وفي نهاية عهده انتزعت منه مصر على يد عمر (أى عمرو، الا اذا كان يقصد ان ذلك قد تم في عهد الخليفة عمر رضى الله عنه).

(٨) الفرنتي (بفتحة على كل من الألف واللام)، وان كانت كلمة Francs اليوم في مصر الفرنجي (بالجيم غير المعطشة) [والترجمة بتصرف يتفق مع مقتضيات النص العربي].

(٩، ١٠) تكتفى النساء الفقيرات بنوع من المسبحة أو الشريط المزخرف يعقد اسفل العمامة، تعلق به قطع المدينى، وتسمى عمامة المرأة بالعربية طربوش، وهي كلمة يحتمل أنها جاءت من الكلمة العربية طرة (بشدة على الراء المفتوحة) وتعني خصلة أو ناصية، ثم من الفارسية بوش وتعني مليس، أى أن الطربوش هو العمامة التى تغطي قمة الرأس.

(١١) تعني كلمة حريم في العربية المكان المحرم، أى الممنوع، والأصل حرام أى منه.

(١٢) السريات: مفردها سرية أى الجارية وغالباً ما تكون بيضاء يقتني منهم الرجال ما يشاء (ما ملكت ايمانهم).

(١٣) تعني كلمة الأمير في العربية الوالي أو الحاكم.

(١٤) واسمه بالكامل أبو الحسن جوهر الخطيب الصقلي.

(١٥) وهي الكنية التي كنى بها الخليفة أبو تميم معد.

(١٦) وقد بدأ عهده في العام ٨٠١ من الهجرة (١٣٩٩ من التقويم المسيحي).

(١٧) بالعربية فندقي (بندقي) وفيما مضى كانت عملات البندقية الذهبية Sejuins ، ولا يزال الأمر كذلك حتى اليوم، تسمى بندوقي أو بندقي، وهي كلمة وافدة من اللغة الأجنبية، أما كلمة فندقلي، فهي كلمة محرفة عن الكلمة التركية ونديكلي (فنديقلي) بمعنى فندقي (نسبة الى البندقية)، ويشار اليوم الى البندقية في مصر باسم بندق.

(١٨) أو بالأحرى شكل وعيار السكين Seeguin البندقي.

(١٩) تقترب الكلمتان zecchino, Seguin كثيرا من الكلمتين العربيتين سكة (بكسرة فشدة مفتوحة) وسكة (بفتحة أولا) من الأصل سك (أى ضرب النقود) وتعني الكلمة الثانية مسمار أما الأولى فتعني «الكليشية» التي تضرب أو تدمغ به النقود وأن يشار بها كذلك الى عملية الدمغ أو السك ذاتها.

(٢٠) ومعناها ذهب (أو الذهب) المحبوب، من الكلمة الفارسية زر ومعناها الذهب (وليس كما تقول بعض الاشتقاقات من زهر وتصغيرها زهير ومعناها الورود (ثم من كلمة محبوب بالعربية ومعناها العزيز أو المعشوق).

(٢١) ولد صلاح الدين في العام ٥٣٢ من الهجرة (١١٣٨م) وتوفي في العام ٥٨٩ هـ (١١٩٣م).

(٢٢) وكان يكنى بالبندقدارى.

(٢٣) كلمة مجوس تعني: عبدة النار.

(٢٤) المقصود بالقاع هناك الجزء غير البارز من السطح (أى الأرضية) في حين أن النقوش والصورة أو الطغراء الخ هي الجزء البارز.

(٢٥) وبشكل خاص الأبخرة التى تحتوى على الهيدرو سلفور أو حمض الهيدروسلفور.

(٢٦) مدينة في الجودية بناها هيرودوس أجريبا على شرف تيبيروس [أما تيبيروس فهو ثاني أباطرة الرومان وهو ابن ليفى وابن اغسطس بالتبنى، وكان حاكما حذرا

ومستنيرا، ولكن طبيعته الشكاكة جعلته يرتكب أبشع ضروب القسوة. وقد ولد في العام ٤٢ ق.م ومات في العام ٣٧ بعد الميلاد - المترجم).

(٢٧) اذا كانت المغرب تعني الغروب فإن كلمة اليمن بدورها قد اشتقت من اليمين.

(٢٨) بدأ هذا الأمير يحكم دمشق عندما انتقل الملك إلى مصر، ويطلق على الهدايا التي تقدم في الأول من العام اسم هدايا نوروزيـة نسبة الى نوروز، وهو اسم يعني بالفارسية اليوم الجديد أو أول أيام السنة، ويبدو أن النعت المصاحب للدراهم «دراهم نوروزي» قد اشتق من هذا المعنى، فاذا صح ذلك فاننا نكون بصدد دراهم (أو عملات) تذكارية.

(٢٩) كلمة تالر أو تالرى Thalari مشتقة من الالمانية-jei sxhsthaler والتى أخذنا عنها كلمة رسدال risdale ، أو بمعنى آخر كلمة تالر Thaler التى أضيفت في اللغة الأفرنكية المقطع الايطالى (وهو المد بالكسرة) وتشير هذه الكلمة في بعض بلدان المانيا وبخاصة في سكسونيا وهانوفر وبروسيا الى النقد الحسابي، وتماثل كلمة أو ريال عندنا.

(٣٠) ويحذف الألف أحيانا لأنها أخذت على أنها أداة، ولفظت الكلمة بوطاقةPiutague أو بطاقة Patague مع تحويل البـاء الثقيلة P في بعض الأحيان الى باء خفيفةB كما يحدث مع كلمة باشا pacha و Bacha .

(٣١) لكي ندرك ما أدى اليه اهذا التشابه الغريب لابد أن نعرف أن نوافذ البيوت في مصر مزودة بنوع من القضبان (أو المشربيات) على هيئة شبكة مكونة من أجزاء بالغة الضآلة من الخشب المستدير، فجمع بعضه الى بعض مما يشكل أشكالا متنوعة منها، لها صلة برسوم الدانتيل أو بالأوراق المثقوبة أربعة ثقوب مسننة عندنا.

(٣٢) تعني كلمة Bey أوBeyk بالتركية السيد أو الشريف.

(٣٣) يظن المسيو دى ساسي أن هذه الكلمة قد جاءت من الألمانية ومعناها (اسم أحد أجرام الوزن)، وتحمل بقطع قطع النقد الألمانية على سبيل الاختصار اسم Groschen بحروف كبيرة.

(٣٤) Voyage en Syrie Et En Egypte, tom Ler, Chap 8 Précis de Lhistoire dali bek, pag 110, note Iére, édit de 1787.

(٣٥) في التركية بالباءP ، وفي العربية بالباءB .

(٣٦) تتكون هذه الكلمة من كلمتين فارسيتين: استا (أو اسطى) بمعنى مدبر أو مدير، ودار ومعناها قصر وهى ه تماثل عندنا كلمة majordome مدير القصر أو المتصرف في شئونه.

(٣٧) يقول المصريون: هات فلوس، مقابل قولنا donne de Largent أو donne de Ia monnaie اذا كان الأمر يتصل بعملات ذهبية أو بالقروش (الريالات) ويقولون كتير فلوس مقابل قولنا Beaucoip da Largent .

(٣٨) ويفضلونها في القاهرة جديد بدون تعطيش للجيم. وتلفظ في بلاد أخرى مع تعطيش الجيم. وقد استقر رأينا عند نشر وصف مصر على أن نقدم الجيم العربية سواء كان يعقبها حرف الـe أو الـ i وهما حالتان تلفظ فيهما الـg مثل الـz] كما تلفظ اذا أعقبتها أى حروف متحركة أخرى [أى على كتابة الجيم المعطشة بالطريقة نفسها التى يكتبون بها الجيم غير المعطشة].

(م٦ - وصف مصر).

(39) Voyage de Chardin en Perse, tom IV P. 279, edit 1711.

(٤٠) أى أرباع الدنانير.

(٤١) في الأصل: عيد الأضحى.

(٤٢) الفاطمية أو الفاطميون، نسبة الى فاطمة ابنة النبى وزوجة على، والتى يدعى هؤلاء أنهم من نسلها، وقد استقروا في بدايتهم في افريقيا ثم استولوا بعد ذلك على مصر.

(٤٣) وهي كلمة فارسية تعنى هبة أو هدية ، وهى مشتقة من الفعل بخشيدن بمعنى يعطى أو يهب.

(٤٤) نقصد بالعربان أولئك المقيمين منهم على تخوم مصر وأولئك المستقرين فيها.

(٤٥) كان ابن زياد حاكما على البصرة من قبل الخليفة معاوية بن يزيد.

ملحق رقم [٣٨]

كشاف بالوثائق الفرنسية في مكتبة جامعة القاهر*

للدكتور أحمد عبد الرازق أحمد

لاشك فى أن الحديث عن المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى يذكرنا بأهم الأحداث التى عاصرها هذا المؤرخ ومنها الحملة الفرنسية التى قادها بونابرت على مصر، منذ حوالى قرن ونصف من الزمان، بهدف تشييد مستعمرة تعوض الفرنسيين عن خسائر الحروب الاستعمارية الطويلة التى نشبت فى القرن الثامن عشر. ولكن ما نشر عن الحملة الفرنسية سواء بالعربية أو باللغات الأجنبية قد أغفل تماما الاطلاع على مجموعة هامة من الوثائق الفرنسية المتعلقة بهذه الحملة والتى استطاعت مكتبة جامعة القاهرة التوصل الى شرائها منذ زمن طويل، لتبقى حتى اليوم حبيسة الأدراج والأضابير فى انتظار من يعمل على نشرها والتعريف بها.

لذلك فقد رأينا أن ننتهز فرصة احياء الذكرى المائة والخمسين لوفاة المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى لنقوم بالتعريف بهذه الوثائق الهامة، عن طريق اعداد كشاف لها ليكون عونا للمهتمين بهذا الفرع من الدراسات التاريخية، نظرا لأهمية هذه المجموعة من الوثائق لما جاء فيها من مادة تاريخية أصيلة.

وقد قسمنا هذه الوثائق الى تسع مجموعات رئيسية على النحو التالي:

١ - مجموعة من الوثائق تحمل توقيع بونابرت، وهى تؤلف فى مجموعها ست عشرة حافظة، تحتوى كل منها على عدة وثائق ذات موضوعات متنوعة.

٢ - مجموعة خاصة بالاحداث التى وقعت بمصر عقب تولى كليبر لقيادة الحملة بعد رحيل بونابرت عن مصر فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٩، وهى تتألف من ثلاث حافظات بها الكثير من الوثائق والمراسلات.

٣ - مجموعة من الرسائل الهامة تتعلق بمراد بك وتقع فى حافظتين، الثانية منهما تشتمل على مراسلات دون بعضها باللغة العربية.

٤ - مجموعة خاصة بالمجمع العلمى المصرى الذى أنشأه بونابرت بمصر، وهى تقع فى سبع حافظات بها العديد من المراسلات والتقارير والرسوم الأثرية.

٥ - مجموعة خاصة بكتاب وصف مصر، وتتألف من حافظتين.

٦ - مجموعة خاصة بمطبعة القاهرة، وهى تقع فى حافظة واحدة.

٧ - مجموعة هامة تتعلق بأقاليم القطر المصرى، موزعة على أربع حافظات.

٨ - مجموعة من المخطوطات، ذات المواضيع المتنوعة عن الحملة الفرنسية فى مصر، تقع فى سبع حوافظ.

٩ - مجموعة أخيرة تتألف من خمس حوافظ تحتوى على بعض المطبوعات.

وسنحاول فى الصفحات التالية اعطاء أرقام هذه الحوافظ والتعريف بمحتويات كل منها حسب أهميتها التاريخية.

* انظر: عبد الرحمن الجبرتى، دراسات وبحوث. ص ٥٩٧ إلى ٦٢٠ . الهيئة العامة للكتاب. القاهرة ١٩٧٦ .

المجموعة الأولى

حافظة رقم(٣)

وهى تحتوى على وثيقة واحدة مؤرخة فى الاسكندرية فى ١٨ مسيدورمن السنة السادسة (٦ يوليو ١٧٩٨)، وتتضمن أمرا من القائد العام بونابرت بارسال أحد ضباط المدفعية من ذوى الكفاءة العالية الى الأسكندرية بهدف اقامة نقطة دفاع لحماية الاسطول الراسى بها، كما تشير أيضا الى رحيل الضابط المذكور فى مساء اليوم نفسه على احدى سفن القائد برى (Perree).

حافظة رقم(٧)

وهى تحتوى أيضا على وثيقة واحدة مؤرخة فى القاهرة فى ٣٠ ترميدور من السنة السادسة (١٧ أغسطس ١٧٩٨)، وتحمل موافقة القائد العام بونابرت لسافارى (Savary) بالحصول على جوادين من محافظة بنى سويف، بدلا من الجوادين اللذين سبق له إعارتهما الى المدفعية حسب شهادة الجنرال ديزيه (Desaix).

حافظة رقم(١٣)

وهى تشتمل على ثلاثة خطابات مرسلة من القائد العام بونابرت الى الجنرال ديستان (Destaing)، الأول مؤرخ فى القاهرة فى ٤ بريمير من السنة السابعة (٢٥ أكتوبر ١٧٩٨) أى عقب ثورة القاهرة التى راح ضحيتها الجنرال ديبوى (Dupuy) فى ٢١ أكتوبر ١٧٩٨، ويتضمن أمرا من القائد العام بونابرت إلى ديستان (Destaing) بالقبض على أحد الشيوخ الذى صاح من مئذنة أحد المساجد «النصر للثوار»، ورغبة القائد العام فى معرفة اسم هذا الشيخ.

والثانى مؤرخ فى ٥ بريمير من نفس السنة (٢٦ أكتوبر ١٧٩٨)، ويحتوى على أمر القائد العام بونابرت الى ديستان بالمناداة فى شوارع المدينة بأنه أصبح محرما على الجنود الفرنسيين دخول منازل الأهالى، وأن أى جندى يضبط فى حالة تلبس سوف يعدم رميا بالرصاص، وذلك بعد أن كثر نهب الجنود لمنازل الأهالى.

أما الخطاب الثالث فهو مؤرخ فى ١٠ بريمير من السنة السابعة (٣١ أكتوبر ١٧٩٨) يطلب فيه بونابرت من الجنرال ديستان أن يبعث اليه بالتقرير الخاص باستجواب مصطفى بك.

حافظة رقم(١٤)

وهى تشتمل على وثيقة واحدة عبارة عن خطاب مؤرخ فى القاهرة فى ١٠ بريمير من السنة السابعة (٣١ أكتوبر ١٧٩٨)، ومرسل من مصطفى أمير الحج الى القائد العام بونابرت يستأذن فى الافراج عن النساء اللاتى قبض عليهن فى منزل اسماعيل الشنفانى، الذى سبق أن أدين فى أحداث القاهرة الأخيرة والذى نجح فى الفرار

من السجن، ويشير الى موافقة القائد العام بونابرت على الافراج عن تلك النسوة بشرط التحفظ عليهن عند مصطفى بك.

حافظة رقم(١٧)

وهى تحتوى على ثلاثة خطابات تحمل توقيع القائد العام بونابرت، الأول منها لا يحمل مكان ولا تاريخ تصديره ، وهو مرسل من الضابط اليونانى المدعو جون نازو (Guane Nazo) يطلب فيها من القائد العام بونابرت الموافقة على رفع قوة فرقته الى مائتى جندى بدلا من مائة، ويشير الى وجود ما يقرب من خمسمائة يونانى بالقاهرة على استعداد للاشتراك كمتطوعين فى هذه الفرقة. بيد أن القائد العام وافق على زيادة قوة هذه الفرقة الى مائة وخمسين جنديا فقط.

والخطاب الثانى مؤرخ فى المنصورة فى ٥ بليفوز من السنة السابعة (٢٤ يناير ١٧٩٩)، ومرسل من الجنرال فردييه (Verdier) الى القائد العام بونابرت يتساءل فيه عن مصير أحد المماليك وبعض الأفراد الذين بحوزته، بعد أن أصدر اليه الجنرال كليبر أمرا بالرحيل الى دمياط والذين قام بارسالهم الى القاهرة برفقة السرجنت بونيه. ويتضمن قرار القائد العام بونابرت باعدام المملوك رميا بالرصاص.

أما الخطاب الثالث فمؤرخ فى الأول من مسيدور من السنة السابعة (١٩ يونيو ١٧٩٩)، ومرسل من بوسليج (Pousslelgue) مدير الشئون المالية، الى القائد العام بونابرت بشأن اعتداء بعض القوات الفرنسية على ممتلكات الاهالى ونهبهم للاحجار والاخشاب المشيدة بها، وذلك لحاجة الجيش الى هذه المواد، كما يتضمن أمرا من القائد العام بونابرت الى الجنرال سامسون (Samson) باعداد تقرير شامل عن هذا الموضوع، ويفهم أيضا من ملحوظة جاءت فى نهاية الرسالة بأن التقرير المطلوب قد تم اعداده بالفعل.

حافظة رقم(١٩)

وهى تحتوى على ثلاثة خطابات بشأن ثوار مدينة القاهرة، الأول مؤرخ فى القاهرة فى ١٧ بريمير من السنة السابعة (٧ نوفمبر ١٧٩٨). ومرسل من القائد العام بونابرت الى الجنرال ديستان يأمره فيه باطلاق سراح الاغا حسن كمشيش.

والخطاب الثانى مؤرخ فى القاهرة فى ١٨ بريمير من السنة السابعة (٨ نوفمبر ١٧٩٨)، ومرسل من الجنرال ديستان، بشأن مصير تسعة من الأفراد قبض عليهم فى قضية شيخ أحد المساجد الذى سبق له أن نادى من مئذنة مسجده «النصر للثوار»، وأمر القائد العام بونابرت الى الجنرال ديستان بنقلهم مؤقتا الى القلعة لحجزهم هناك.

أما الخطاب الثالث فى ٢٤ بريمير من السنة السابعة (١٤ نوفمبر ١٧٩٨)، وموجه من القائد العام بونابرت الى الجنرال ديستان، يأمره فيه

بالقبض على البحارة أو على شخص من الاسطول يثبت أنه لا ينتمي الى احدى الفرق، كما يطلب فيه الغاء النقطة المعروفة باسم «العشرون دراجون» بالقرب من العزب، وكذلك نقطة السوارى بالفسطاط (مصر القديمة).

حافظة رقم(٢٠)

وتحتوى على رسالتين تحملان توقيع القائد العام بونابرت ، الأولى مؤرخة في القاهرة في ٥ فريمير من السنة السابعة (٢٥ نوفمبر ١٧٩٨)، وموجهة من القائد العام الى قائد الجيش الجنرال برتييه (Berthier) لتشكيل أحد المجالس العسكرية لمحاكمة المواطن دو (Dau) الذى سبق له أن اتخذ أحد الجنود لخدمته وحكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر يوما.

أما الرسالة الثانية فهى مؤرخة فى ١٩ نيفوز من السنة السابعة (٨ يناير ١٧٩٩)، وموجهة أيضا من القائد العام بونابرت الى الجنرال برتييه، يأمره فيها بقطع رقبة المدعو شوربى [الشواربى] بعد أن ثبتت خيانته للجيش الفرنسى بعد أن أقسم يمين الطاعة، كما يأمره فيه بمصادرة أملاكه لحساب الجمهورية الفرنسية.

حافظة رقم(٢٣)

وهى تحتوى على تقرير مؤرخ فى ٢٣ فريمير من السنة السابعة (١٣ ديسمبر ١٧٩٨)، مرسل الى الجنرال ديستان بشأن استجواب المدعو رستم أغا الذى كان يعمل فى خدمة مراد بك الصغير ثم انتقل الى خدمة مصطفى أغا، يفهم منه أن الأول كان موجودا بالقاهرة وقت اندلاع الثورة بها، رغم عدم حصوله على تصريح بالاقامة من القيادة الفرنسية وعلى هذا فقد أصدر القائد العام بونابرت أمرا باعدامه رميا بالرصاص وبمصادرة أملاكه.

حافظة رقم(٢٦)

وتشتمل أيضا على وثيقة واحدة عبارة عن خطاب مؤرخ فى القاهرة فى ١٨ نيفوز من السنة السابعة (٧ يناير ١٧٩٩)، موجه من القائد العام بونابرت الى الجنرال مينو (Menou) يطلب منه العمل على توزيع بعض التحف التى عثر عليها لدى المماليك على مساعديه الذين عاونوه فى الكشف والعثور على هذه التحف بنسبة ١ :٢٠.

حافظة رقم(٢٨)

وتتضمن كذلك رسالة واحدة مؤرخة فى القاهرة فى ٢٤ نيفوز من السنة السابعة (١٣ يناير ١٧٩٩)، وموجهة من القائد العام بونابرت الى الجنرال ديستان، يطلب منه فيها القبض على جميع الالبانيين الذين كانوا برفقة مراد بك والتحفظ عليهم بالقلعة وتجريدهم من أسلحتهم وخيولهم، وإعدام كل من تسول له نفسه عدم الامتثال لهذه الأوامر.

حافظة رقم(٣٠)

وتتضمن وثيقة واحدة عبارة عن خطاب مؤرخ فى القاهرة فى ١٦ بليفوز من السنة السابعة (٢٥

يناير ١٧٩٩)، وموجه من القائد العام بونابرت الى الجنرال ديستان ، يأمره فيه باعدام كل من : حسلان ابراهيم ، ويوسف، وشالى، وقادر، والسيد يكن: ستوت ومحققه، وهم جميعا من اليهود، وذلك بقطع رقبة الخمسة الأوائل، واغراق الآخرين في النيل.

حافظة رقم(٣٢)

وتحتوى أيضا على وثيقة واحدة فريدة فى نوعها وهى عبارة عن التماس كتب باللغة العربية، ومقدم من مشايخ علماء الديوان الى القائد العام بونابرت أمير الجيوش الكبير لاصدار فرمان بصرف مبلغ ١٣٥٠ فضة اليهم شهريا بحكم العادة، ويتضمن الالتماس أسماء ثلاثة وعشرين شيخا، ويحمل ثمانية أختام وعشرة توقيعات. أما ظهر الوثيقة فقد دون عليه ترجمة فرنسية للالتماس، وقرار القائد العام بونابرت بتحويل الالتماس الى بوسيلج مدير الشئون المالية لتنفيذ المطلوب من أموال الأراضى.

حافظة رقم(٤١)

وبها خطابان: الأول مؤرخ فى القاهرة فى ١١ مسيدور من السنة السابعة (٢٩ يونيو ١٧٩٩)، وموجه من القائد العام الى الجنرال فوه (Veaux) يخبره فيه برفضه التصريح له بالحصول على السفينة رقم (٨) للعودة بها الى فرنسا.

أما الثانى فمؤرخ فى ٢١ مسيدور من نفس السنة (٩ يوليو ١٧٩٩)، وموجه أيضا من القائد العام بونابرت الى الجنرال فو، قائد عام السوارى بشأن طلب ارسال المحاضر الخاصة بالهجن التى تم ارسالها الى السوارى ويستعلم أيضا عن عدد الفرسان الذين يمكن الاستعانة بهم صباح الغد للرحيل الى أبى قير.

حافظة رقم(٤٢)

وبها وثيقة واحدة عبارة عن رسالة مؤرخة فى القاهرة فى ١٣ مسيدور من السنة السابعة (١ يوليو ١٧٩٩)، وموجهة من القائد العام بونابرت الى الجنرال مارمون (Marmone) يخبره فيها برحيل الجنرال مورا (Murat) الى اقليم البحيرة بصحبة ثلاثمائة رجل من الاعراب، ويوضح له أنه سيبقى هناك فترة تتراوح ما بين الثمانية والعشرة أيام بهدف القضاء على شغب العربان، ومن أجل معاونه القائد ديستان فى اعادة الأمن الى المنطقة، ويكشف له عن عزمه على تطهير المنطقة تماما من العربان حتى مريوط.

حافظة رقم(٤٨)

وبها وثيقة واحدة عبارة عن خطاب مؤرخ فى بركة الغطاس فى ٥ ترميدور من السنة السابعة (٢٣ يوليو ١٧٩٩)، موجه من القائد العام بونابرت الى دور (Daure) يأمره بجمع كل الابل فى مدينة الاسكندرية واحضارها لحمل الماء للجيش السائر فى صحراء أبى قير.

حافظة رقم(٥٠)

وهى تحتوى على وثيقة واحدة مؤرخة فى القاهرة فى ٣٠ توميدور من السنة السابعة فى

الساعة الحادية عشرة مساء (١٧ أغسطس ١٧٩٩م)، وتتضمن أمرا للقائد العام بونابرت بصرف مرتبات شهر توميدور الى الجنود، ذلك الأمر يمكننا اعتباره الأخير الذى صدر عن القائد العام الى القوات الفرنسية بالأراضى المصرية اذ من المعروف أن بونابرت قد غادر القاهرة فى طريقه الى فرنسا على ظهر الناقلة ميرون فى ٢٢ - ٢٣ أغسطس ١٧٩٩.

المجموعة الثانية

حافظة رقم(٨٠)

وهى تحتوى على ثلاث مجموعات هامة من الوثائق المتعلقة ببعض الأحداث الخاصة بعصر كليبر، تحت الأرقام التالية:

٢ - وهذه المجموعة تنقسم بدورها الى قسمين:

(أ) مجموعة من الخطابات والأوامر التى أصدرها كليبر الى المفوضين الفرنسيين (القوميسيرين) من أمثال : ديزيه وبوسليج، والى الصدر الأعظم، والى السير سدنى سميث (Sydney Smith) ، فى الفترة الواقعة بين ٢٦ فريمير من السنة الثامنة (١٧٩٩) و ٨ بليفوز من السنة الثامنة (٢٨ يناير ١٨٠٠)، وهى تقع فى اثنتين وخمسين صحيفة ، وتشتمل على أربعة وعشرين خطابا.

(ب) مجموعة من المراسلات المتبادلة بين مفوضى الحملة الفرنسية والجنرال كليبر والصدر الأعظم والسير سدنى سميث، وفى الفترة الواقعة ما بين ٢٢ فريمير من السنة الثامنة (١٣ ديسمبر ١٧٩٩) و٥ بليفوز من نفس السنة (٢٥ يناير ١٨٠٠)، تقع فى ثلاثين صفحة ، وتؤلف فى مجموعها خمسة وعشرين خطابا على درجة كبيرة من الأهمية التاريخية.

٣ - مجموعة من الوثائق الخاصة بمعاهدة العريش، تقع فى احدى عشرة صفحة، ومعتمدة من الكوميسير دور (Daure) ، وتشتمل على اثنين وعشرين بندا تنص على انسحاب القوات الفرنسية بجميع معداتها وأسلحتها الى: الاسكندرية، ورشيد وأبى قير، تمهيدا لرحيلها نهائيا الى فرنسا على الناقلات الخاصة بها، أو على تلك التى يقدمها لها الباب العالى بقدر الكفاية وهذه الوثائق مذيلة بتصريح للجنرال كليبر الى الجيش مؤرخ فى ٨ بليفوز من السنة الثامنة (٢٨ يناير ١٨٠٠)، كتب فى معسكر الصالحية، يخبرهم فيه بشروط المعاهدة، وعن قرب عودتهم الى وطنهم الأم فرنسا فى خلال الشهور الأربعة القادمة، وعبر لهم فيه عن مدى الحرج الذى أوقعه فيه القائد العام بونابرت بتعيينه خلفا له.

٤ - خطاب مؤرخ فى ١٤ بليفوز من السنة الثامنة (٣ فبراير ١٨٠٠)، مرسل من الجنرال المساعد كامبس (Cambis) الى الجنرال ديستان ، يخبره فيه أن الجنرال رينيه (Reynier) قد كلفه بالكتابة اليه بضرورة المحافظة على التحصينات والصهاريج، وعدم احداث أى تدمير بها، إذ نصت شروط المعاهدة على ضرورة تسليمها الى

العثمانيين بنفس الحالة التى كانت عليها وقت توقيع شروط المعاهدة.

حافظة رقم(٨١)

وهى تحتوى على ثلاثة خطابات تحمل أرقام ٥، ٦، ٧ على التوالى، الخطاب رقم (٥) مؤرخ فى القاهرة فى ٨ نيفوز من السنة الثامنة (٢٩ ديسمبر ١٧٩٩) وموجه من كليبر الى الصدر الاعظم يخبره فيه باستمرار المناوشات أمام العريش، ويحذره فيه بأنه فى حالة عدم الانسحاب التام للقوات، فإنه لن يكون هناك سلام ولا مفاوضات.

والخطاب رقم (٦) مؤرخ فى القاهرة فى ٢٠ فنتوز من السنة الثامنة (١١ مارس ١٨٠٠)، وهو موجه من كليبر الى الجنرال ديستان (Destaing) يشكره فيه على مسارعته بالكتابة اليه بصدد المشاكل التى يحدثها الانجليز أثناء تطبيق نصوص اتفاقية العريش، ويطمئنه بأن الأمور سوف تأخذ مجراها الطبيعى فى القريب العاجل. [من الملاحظ أن هذا الخطاب كتب قبل نقض معاهدة العريش ببضعة أيام].

أما الخطاب رقم (٧) فمؤرخ فى القاهرة فى ٢٤ فنتوز من السنة الثامنة (١٥ مارس ١٨٠٠) ، وموجه من كليبر الى الجنرال ديستان ، حيث يفهم منه سوء نوايا الانجليز، ويلغى فيه كليبر أمرا له سبق أن أصدره للقبض على الحاكم العثمانى الموجود برشيد، وذلك عندما عهد الى الجنرال دوماس (Damas) بالكتابة الى ديستان لتنفيذ رغبته.

حافظة رقم(٨٣)

وهى تحتوى على ثلاث وثائق هامة تحمل أرقام ١١، ١٢، ١٣ والوثيقة رقم (١١) عبارة عن خطاب موجه من البارون رينه (Rene) الى الجنرال دنزلوه (DonzeLat) ، ومؤرخ فى القاهرة فى ٢٥ بريريال من السنة الثامنة (١٤ يونيو ١٨٠٠)، وكتب فى الساعة ١,٣٠ ظهرا، يخبره فيه بمقتل كليبر على أيدى أحد (الأتراك) المدعو بسليمان الحلبى الذى اخترق حديقة منزله وقت أن كان برفقة المهندس بروتان (Protain) وعاجلهما بعدة طعنات من خنجر كان يحمله ، أدت الى وفاة الأول والى جعل الثانى بين الحياة والموت، ويفيد بالقبض على الجانى الذى اعترف بجريمته، والذى يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً وقد تم اعدامه وترك جثته إلى الطيور الجارحة.

والوثيقة رقم (١٢) عبارة عن خطاب مؤرخ فى القاهرة فى ٦ مسيدور من السنة الثامنة (٢٥ يونيو ١٨٠٠)، وموجه من الجنرال مينو الى الجنرال ديستان، يخبره فيه بتوليه قيادة الجيوش الفرنسية فى مصر بعد مقتل كليبر قائده، ويتعهد فيه بالقيام بواجبه خير قيام.

أما الوثيقة رقم (١٣) فهى عبارة عن تقرير مفصل أعد للحكومة الفرنسية بشأن الاحداث التى وقعت بمصر منذ ابرام معاهدة العريش حتى نهاية شهر بريريال من السنة الثامنة (يونيو ١٨٠٠)، وهو يقع فى أربع وسبعين صفحة، ويشتمل على بعض التصحيحات بخط الجنرال

دوماس، وعلى هذا فهو على درجة كبيرة من الأهمية لما جاء فيه من أحداث تاريخية.

المجموعة الثالثة

حافظة رقم(٧ ١ ١)

وهى تشتمل على مجموعتين من الوثائق:

١ - مجموعة تحتوى على خمس مراسلات هامة بصدد قضية مراد بك، الرسالة الأولى منها مؤرخة فى القاهرة فى ١٢ مسيدور من السنة السابعة (٣٠ يونيو ١٧٩٩)، وموجهة من بونابرت الى مورا (Murat) يخبره فيها بتعيينه قائدا عاما على كل من : الجنرال ديستان والجنرال مارمون (Marmont) وذلك أثناء حملته باقليم البحيرة للقضاء على مراد بك.

والمراسلة الثانية مؤرخة فى ١٤ مسيدور من نفس السنة (٢ يوليو ١٧٩٩)، وموجهة أيضا من القائد العام بونابرت الى الجنرال مورا، يخبره فيها برحيل مراد بك من الواحات فى طريقه الى احدى قلاع مدينة الفيوم فى صحبة مائتى مملوك وثلاثمائة اعرابى، ويطلب منه سرعة القضاء عليه اذا ظهر فى أحد مواقع البحيرة، لا سيما وقد أشيع أنه مريض وجنده فى حالة يرثى لها.

والمراسلة الثالثة مؤرخة فى ١٧ مسيدور من السنة نفسها (٥ يوليو ١٧٩٩)، وموجهة أيضا من القائد العام بونابرت الى مورا، يستحثه فيها على أن يتخذ له بعض الجواسيس فى كل من : الطرانة، ووادى النطرون، وبعض المراكز الأخرى التى يحتمل مرور مراد بك بها، وذلك ليرصدوا له جميع تحركاته حتى يتمكن منه ويقضى عليه.

والمراسلة الرابعة مؤرخة فى ٢٠ مسيدور من السنة السابعة (٨ يوليو ١٧٩٩)، وموجهة أيضا من القائد العام بونابرت الى الجنرال مورا، يطلب منه سرعة الرحيل الى وادى النطرون، أو أن يرسل بدلا منه أحد الضباط الاكفاء، وذلك لمؤازرة الجنرال فريان (Friant) الذى يعسكر هناك من أجل القضاء على مراد بك.

أما المراسلة الخامسة فهى مؤرخة فى القاهرة فى ٢١ مسيدور من نفس السنة (٩ يوليو ١٧٩٩)، وموجهة من برتييه (Berthier) الى مورا، يخبره فيها أنه تسلم فى التو رسالة من الجنرال فريان، يخبره فيها أن مراد بك شوهد وقد اتخذ طريقه الى بحر يوسف بالفيوم.

٢ - مجموعة تضم ثلاثة خطابات : الأول مؤرخ فى ١٦ مسيدور من السنة السابعة (٤ يوليو ١٧٩٩)، وموجه من مورا الى الجنرال ديستان، يخبره فيه بالقبض على ١٨ مملوكا من بينهم سليم الكاشف، وباستيلائه على ١٥ جوادا ويستحثه على سرعة الرحيل للقضاء على الفلول الباقية منهم بالقرب من مريوط.

والخطاب الثانى مؤرخ فى ٢١ مسيدور من نفس السنة (٩ يوليو ١٧٩٩)، وموجه أيضا من مورا الى الجنرال ديستان حاكم اقليمى البحيرة والطرانة، يخبره فيه أن الجنرال بوييه (Boyer) قد كتب اليه يخبره بأن الجنرال فريان قد قام بمهاجمة

مراد بيك يوم ١٩ مسيدور في الريان بالفيوم، مما اضطره الى الانسحاب الى درنه مارا بوادى النطرون وبمريوط، ويخبره بعزمه على الرحيل مساء اليوم في الخامسة مساء ليتولى بنفسه مهمة القضاء على مراد بك يوم ١٩ مسيدور تاريخا لعودته الى الطرانة.

أما الخطاب الأخير فمؤرخ في القاهرة في ٢٤ مسدور من السنة السابعة (١٢ يوليو ١٧٩٩)، وموجه من مورا الى ديستان، يخبره فيه بعودته من وادى النطرون بعد أن فاجأ المماليك والبدو بضربة قاضية اضطرتهم الى الهروب غرب وادى النطرون، سعيا للحاق بمراد بك في الصعيد.

حافظة رقم(٩ ١ ١)

وهي تحتوى على مجموعة كبيرة من المراسلات الهامة التي يبلغ عددها ٦٩ خطابا، مرسلة من مراد بك الى الجنرال دنزلوه مصحوب بترجمة ايطالية، والبعض الآخر بترجمة فرنسية، كما يحمل بعضها ملاحظات خاصة للجنرال دنزلوه سجلها بخط يده، وتشير المجموعة من الخطابات التي تقع في مائة وخمس وثلاثين صفحة - على مدى الثقة المتبادلة بين كل من مراد بك والجنرال دنزلوه ، وذلك لما تفيض به هذه المراسلات من عبارات الود، وأغلبها يحمل تاريخ سنة ١٢١٥ هجرية (١٨٠٠م) وتحمل خاتم مراد بك.

المجموعة الرابعة

حافظة رقم(٨٢ ١)

وهي عبارة عن مجموعة كبيرة من الملاحظات والرسوم المبدئية لبعض المعابد المصرية القديمة التي سجلها الرسام دينون (Denon) أثناء رحلته التي قام بها في صعيد مصر بصحبة الجنرال ديزيه، في الفترة الواقعة بين سنتي ١٧٩٨، ١٧٩٩، ومرفق بها رسالتان من ست صفحات: الأولى مؤرخة في ١٥ فركيتدور من السنة الثامنة (٢ سبتمبر ١٨٠٠)، وموجهة من ديليل (Delile) عالم النباتات الى مارسيل (Marcel) مدير المطبعة الاميرية بالقاهرة يسأله فيه عن بعض المنشورات.

حافظة رقم(٨٣ ١)

وهي تشتمل على أربع مجموعات من الوثائق الهامة:

١ - وهذه المجموعة تحتوى على خطابين من أربع صفحات، الأول موجه من روزير (Roziere) مفتش عام المناجم وعضو المجمع العلمي المصرى الى الجنرال مينو يخبره فيه بأنه بصدد تكوين مجموعة ثانية من العينات، ليحملها معه الى فرنسا وذلك لحاجته الماسة اليها في الأبحاث التي يقوم بها ويؤكد له بأن المجموعة الأولى ستظل بالاسكندرية تحت تصرفه في أى وقت، ورغم أن هذا الخطاب يخلو من مكان تصديره وتاريخ كتابته فمن المرجح أنه أرسل من القاهرة في الفترة الممتدة بين سنتي ١٨٠٠، ١٨٠١.

أما الخطاب الثاني فهو يخلو أيضا من مكان التصدير وتاريخ التدوين، وموجه من روزير الى آنسة مجهولة الاسم يعرض عليها فيه رغبته في الزواج منها، وقد احتوى عبارات رقيقة عذبة، تعطينا صورة واضحة عن أساليب الغزل السائدة في ذلك العصر.

٢ - وهذه المجموعة تؤلف في مجموعها تسعة خطابات موجهة الى روزير من كليبر ومن شابتال (Chaptal) ومن لومون (Laumont)

ومن لوفغر (Lefebvre) ومن الجنرال دوماس ومن الجنرال ديستان ومن الجنرال بليار (Bel-liard) ومن الجنرال زايونشك (Zayoncheck) ومن بيكوا (Bucguoy).

٣ - مجموعة من الخطابات التى أرسلها روزير من القاهرة إلى لامونت، تقع فى ١٣ صفحة.

٤ - بعض الملاحظات الخاصة بروزير عن المجمع العلمى المصرى، ترجع الى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى وتقع فى أربع عشرة صفحة.

حافظة رقم(٨٤ ١)

وهى تضم أربع وثائق هامة تحمل اسم البارون فوريبه (Fourier) عالم الرياضيات الشهير الذى توفى بباريس فى ١٧ مايو ١٨٣٠.

١ - خطاب بدون تاريخ مرسل من فوريبه الى إحدى الدوقات، يخبرها فيه أنه فرغ على التو من قراءة المؤلف الذى بعثت به اليه، كما يشكرها على الأزهار التى وصلته منها، والخطاب فى مجموعه ملىء بعبارات الحب.

٢ - مسودة خطاب كتبت بيد فوريبه على قصاصة من الورق تحمل اسم الجنرال كليبر، موجهة الى ديوان الاقاليم المصرية، ويفهم من التصحيحات الموجودة على هذه القصاصة ان كليبر قد أملى صيغة هذا الخطاب على فوريبه.

وعلى الرغم من أن هذا الخطاب يخلو من تاريخ كتابته فهو على درجة عظيمة من الأهمية، اذ يوضح جانبا من العلاقات بين الفرنسيين والأهالى المصريين.

٣ - جواز سفر فوريبه للعودة الى فرنسا مؤرخ مؤرخ فى ٢٨ بليفوز من السنة الثامنة (١٧ فبراير ١٨٠٠)، ويحمل توقيع الجنرال دوماس.

٤ - مجموعة من الملاحظات والمراسلات بخط فوريبه عن الحملة الفرنسية بمصر، تقع فى خمس وسبعين صفحة، وملحق بها مخطوطان صغيران، يشتمل الأول على ١٢ صفحة، فى حين يتكون الثانى من ١٨ صفحة، وكلها بخط فوريبه. وهى على درجة كبيرة من الأهمية العلمية بالنسبة للدراسات المصرية القديمة.

حافظة رقم(٨٥ ١)

وهى تتضمن أربع مجموعات من الوثائق الهامة التى تحمل اسم جيوفرى سان هيلارى (Geoffroy St. Hilaire) عالم الحيوان المعروف، الذى توفى بباريس فى ١٩ يونيو ١٨٤٤.

١ - مخطوط يتألف من تسع صفحات، يروى فيها جيوفرى رحيل الحملة الفرنسية من فرنسا واستيلائها على مالطة، ثم الهجوم على الأسكندرية.

٢ - خطاب موجه من جيوفرى الى أحد زملائه يخلو من مكان تصديره ومن التاريخ الذى كتب فيه يقع فى أربع صفحات، يشكو فيها جيوفرى الى زميله من ندرة الخطابات التى تصله من فرنسا، ويخبره أنه كان يتمنى أن يحضر له جميع ما يطلبه من نباتات وحيوانات حية، بيد أنه عقب المعركة الخاسرة التى خاضها الجنرال مينو فى كانوب فى ٣٠ فنتوز (٢١ مارس ١٨٠٠) لن يستطيع أن يحقق له هذه الرغبة. [من المرجح أنه كتب فى سنة ١٨٠١ أى فى نهاية الحملة الفرنسية، كما يفهم من نص الخطاب.].

٣ - خطاب مؤرخ فى باريس فى ٢٩ جريمينال من السنة السادسة (٨ أبريل ١٧٩٨)،

موجه من الجنرال كفاريللى (Caffarelli) الى جيوفرى، يعطيه فيه تعليماته بمناسبة رحيله الى مصر.

٤ - مجموعة أوراق متنوعة تحتوى على شهادة جنسية باسم جيوفرى مؤرخة فى ٢٠ أبريل ١٧٩٣، وتصاريح وشهادات باسم جيوفرى صادرة من جنرالات الجيش (المصرى)، جواز سفر باسم جيوفرى صادر من السلطات الفرنسية، بعض الأوراق الخاصة بجيوفرى يبلغ عددها خمس وثائق.

حافظة رقم(٨٦ ١)

وتضم خطابين باسم لوجنتى (Legentil)، الأول يحمل رقم (٨) ومؤرخ فى المنصورة فى ٤ بريمير من السنة التاسعة (٢٥ أكتوبر ١٨٠١)، ومرسل من لوجنتى الى رئيس الهندسة الحربية، يخبره فيه بانتهائه من عمل خريطة المنصورة وضواحيها، التى تفانى فى عملها والتى شكره عليها الجنرال سانسون أثناء مروره بالمنصورة، ومرفق به خطاب اخر مؤرخ فى القاهرة فى ٢٥ نيفوز من السنة الثامنة (١٦ يناير ١٨٠٠)، ومرسل من المهندس لوبير (Lepere) الى الجنرال دوجا (Dugua) بشأن نقل مسلة صغيرة الى المجمع العلمى المصرى تمهيدا لنقلها الى فرنسا، وبشأن اعادة تشييد أحد المساجد التى دمرها بونابرت.

والخطاب الثانى يحمل رقم (٩) ومؤرخ فى القاهرة فى ١٧ توميدور من السنة السابعة (٤ أغسطس ١٧٩٩)، ومرسل من الكيمائى رينو (Regnault) الى المواطن برتيسيه (Pertusier) يخبره بوفاة صديقهما برنكييه (Bringuier) فى يافا مصابا بالطاعون، ويروى له انتصار بونابرت على العثمانيين فى أبى قير فى ٢٥ يوليو ١٧٩٩، ومرفق بهذا الخطاب خمس رسائل من أعضاء المجمع العلمى المصرى مؤرخه فى ٧ فنتوز من السنة الثامنة (٢ مارس ١٨٠٠) باسم عالم الفلك كينو (Quenot)، والثانية مؤرخة فى القاهرة فى ٢٣ فانديمير من نفس السنة (٤ أكتوبر ١٧٩٨) ومرسلة من تستفويد (Testevuid) مدير الهندسة الجغرافية الى كارابيف (Carabeuf)، والثالثة تحتوى على رسالتين مؤرختين فى باريس فى ٢٥ ، ٢٩ يوليو ١٨٣٦، ومرسلتين من فيليه دى تراج (Villiers du Terrage) الى كل من مارتن (Martin) وبرتان دى فو (Bertin de Vaux)، والرابعة مؤرخة فى القاهرة فى ١١ بليفوز من السنة الثامنة (٢٠ يناير ١٨٠٠) ومرسلة من فيلوتو (Villoteau) الى الجنرال دوجا بشأن مجموعة من الآلات الموسيقية.

المجموعة الخامسة

حافظة رقم(٨٧ ١)

وهى تضم ٨٣ وثيقة خاصة بطبع كتاب وصف مصر من بينها ٢٤ خطابا مرسلة من برتوليه (Bertholler) الى مارسيل مدير المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١١ رسالة باسم جولوا (Jollois) سكرتير اللجنة الخاصة بطبع الكتاب، ٢٨ خطابا باسم جومار (Jomard) أحد أعضاء اللجنة، وخطاب باسم مونج (Monge)، ٣ خطابات باسم روزير (Roziere)، هذا عدا أوراق أخرى من بينها جدول يوضح الأجزاء التى تم طبعها، وقائمة اسم أعضاء لجنة الاشراف على الطبع.

حافظة رقم(٨٨ ١)

وهى عبارة عن مجموعة من الرسومات والصور المعدة لكتاب وصف مصر من بينها بعض المناظر الفرعونية، وبعض الرسوم التى تشير الى

بعض العادات المصرية، ومسقط مسجد السلطان حسن. وأغلب هذه الرسومات تحمل عبارات تجيزها للطبع، وتوقيعات كل: من برتوليه وجومار وكوستاز (Costaz).

المجموعة السادسة

حافظة رقم(١٩٠)

وهى تضم ثلاث مجموعات من الوثائق تحمل كل منها رقما خاصا بها. المجموعة رقم (٤) تحتوى على ١٣ أمرا أصدرها القائد العام بونابرت الى كل من :أورل(m.Aurel) وبوريين (Bourrienne) ومرلان (Merlin) والجنرال برتييه (Berthier) وبوسيلج، هذا بالاضافة الى بعض الأوامر الخاصة بطبع بعض الجرائد والنداءات، وأوامر تشغيل بعض العلماء.

والمجموعة رقم (٥) تمثل ١٣٠ خطابا الى مارسيل مدير المطبعة من بعض الشخصيات المعروفة مثل : بليار، وبرتييه، ودوماس، ورينيه، والجنرال برتييه (Berthier) وبوسيلج، وغيرهم، كما تضم ما يقرب من ٩٠ وثيقة صادرة من السلطات العسكرية والمدنية لاعداد بعض المطبوعات.

أما المجموعة الأخيرة فتحمل رقم (٦) وتشتمل على ١٣ خطابا موجهة الى: مارسيل، والى مارك أوريل من بعض قادة الحملة الفرنسية من أمثال: بليار، وبدو (Baudot) واستيف (Esteve) ودماس، وفردريك موريسون (Morrisson) أحد القادة الانجليز، ولانوس (Lanusse) وفوجيير (Fugier) وغيرهم، هذا عدا الدعوات الخاصة ببعض الحفلات المقامة بمدينة القاهرة، وبعض جوازات السفر، وبعض الشهادات الصحية، وبعض التصاريح الخاصة بالعودة الى مصر.

المجموعة السابعة

حافظة رقم(١٩٥)

وتتألف هذه الحافظة من أربعة مخطوطات على درجة كبيرة من الأهمية:

١ـ وهى عبارة عن تقرير مفصل لجميع أحوال مصر الداخلية والخارجية ومصادرها المالية والأمراض المنتشرة فيها وطرق الوقاية منها، ويقع فى ١٥ فصلا من اعداد مير (Mure)، الذى عرض على حكومة فرساى القيام بغزو مصر سنة ١٧٨٦. ويحتوى على خمسين صفحة.

٢ـ مخطوط يقع فى سبع صفحات من اعداد جرانجيه (Granger) يتضمن بعض المشاهدات بأرض مصر.

٣ـ مخطوط من سبع صفحات بخط الجنرال فيال (Vial) يحتوى على بعض الملاحظات الهامة الوجه البحرى بصفة عامة، وبحيرة البرلس بصفة خاصة.

٤ـ مخطوط عن احدى الزيارات للدلتا التى قام بها كل من جولوا (Jollois) وبوزيميه (Boysaime) عضوى لجنة الفنون والآداب المرافقة للحملة الفرنسية، نزولا على رغبة القائد العام للجيش فى السنة الثامنة، وهو يقع فى ستين صفحة، وبه بعض التصحيحات بالحبر وبالرصاص.

حافظة رقم(١٩٦)

وهى تضم خمس مجموعات من الوثائق الخاصة بالاقاليم المصرية، وتحمل الأرقام التالية:

٥ـ وبها مجموعة من الوثائق الخاصة بمنطقة رشيد منذ قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر منها

مجموعة من الجداول الخاصة بالنظم الاقتصادية والسياسية للمنطقة، وأخرى للأعمال اليومية، هذا عدا بعض الوثائق الأخرى المشابهة والتى يحمل بعضها توقيع الجنرال مينو (Menou).

٦ـ وتتألف من أربعة أقسام خاصة باقليم طيبة، الأول منها عبارة عن لمحة تاريخية عن القوافل القادمة من داخل افريقيا إلى مصر، تقع فى ثمانى صفحات، وتحمل توقيع المواطن لابانوس (Lapanouse) مدير جمرك أسيوط، ومؤرخة فى ١٥ بريمير من السنة التاسعة. والقسم الثانى يضم ثلاثة تقارير مرسلة إلى الجنرال دنزلوه، الأول عن التجارة والزراعة ويحمل توقيع لابانوس. والقسم الثالث عبارة عن دراسة لمنطقة طيبة، تقع فى ٢٣ صفحة، وتحمل توقيع لابانوس. أما القسم الرابع فيضم سبع وثائق متنوعة، تحمل توقيعات، لابانوس، والجنرال بليار، واستيف، ولوروى (Le Roy) رئيس البحرية.

٧ـ مجموعة خاصة بمنطقتى المنيا وبنى سويف تقع فى ١٨ صفحة تضم أهم أسماء القرى بها والتوزيعات الخاصة بالضرائب على هذه القرى.

٨ ـ مجموعة خاصة باقليم جرجا تضم الوثائق التالية:

(أ) تقرير عن شرطة اقليم جرجا، يقع فى ٢١ صفحة، ويحمل توقيع الجنرال موران (Morand).

(ب) تقرير عن الادارات الشرعية والقوانين يقع فى ١٣ صحيفة، ويحمل أيضا توقيع الجنرال موران.

(جـ) تقرير عن اقتصاديات اقليم جرجا يتكون من ١٥ صفحة، ويحمل توقيع الجنرال موران.

(د) تقرير عن النواحى العسكرية باقليم جرجا، يتألف من سبع صفحات، وموقع من الجنرال موران.

(هـ) جدول يوضح الضرائب المفروضة على اقليم جرجا، من ٥١ صفحة بدون توقيع.

(و) تقرير عن الحالة المالية لاقليم جرجا، فى ١٦ صفحة يحمل توقيع الجنرال موران.

(ز) وثائق متنوعة تؤلف فى مجموعها ١٥ صفحة، وتحمل توقيع بوسيلج مدير الشئون المالية.

٩ـ مجموعة خاصة باقليم أسيوط تضم الوثائق التالية:

(أ) مخطوط من ١٧ صفحة لأسماء قرى اقليم أسيوط.

(ب) بعض المعلومات عن القرى التى اشتهرت ببيع الخيل تقع فى ١٥ صفحة.

(جـ) ٢٢ وثيقة من اقليم أسيوط، بعضها باللغة العربية، والبعض الآخر يحمل توقيعات أستيف وبتروشى (Petrucci).

حافظة رقم (١٩٧)

وهى تضم أربع مجموعات من الوثائق الصادرة من الجنرال دنزلوه والجنرال ديزيه عن صعيد مصر:

١ـ مخطوط يتألف من ٢٧ صفحة عن بعض المدن مثل: أشمون والقصير وجرجا وسوهاج وطهطا وتميت والكاشف وسنار والسويس.

٢ـ بعض المعلومات عن الاعراب بخط الجنرال دنزلوه تقع فى ٢٦ صفحة.

٣ـ مخطوط يشتمل على ١٧ صفحة بها بعض المعلومات المتنوعة بخط الجنرال دتزلوه، وخريطة للنيل من بنى سويف إلى جرجا، وأخرى للجبال الممتدة حتى البحر الأحمر.

٤ـ ملاحظات متنوعة عن صعيد مصر، بخط الجنرال دنزلوه مزودة ببعض الخرائط والمساقط المعمارية.

حافظة رقم (١٩٨)

وهى تشتمل على أربع مجموعات من الوثائق مسجلة تحت الأرقام التالية:

١١ـ وهى عبارة عن تقارير خاصة بالضرائب الجمركية لمنطقة القصير، تقع فى ٦٥ صفحة وتحمل توقيع الجنرال دنزلوه، ومكتوبة باللغتين الفرنسية والعربية فى آن واحد.

١٢ ـ وتشتمل هذه المجموعة على بعض المعلومات الخاصة بقبائل الصعيد والدلتا، والتى أمر بجمعها وإعدادها الجنرال ديزيه للتعرف على عاداتها وتقاليدها وتاريخها.

١٣ـ وهذه المجموعة عبارة عن مخطوط يقع فى ٤٢ صفحة، ويحتوى على بعض المعلومات الخاصة بالبحر الأحمر، ومزود بخريطة تمثل البحر الأحمر ممتدا من السويس إلى باب المندب.

١٤ـ تقرير عن اليونان مرسل من فيلكس (Felix) قنصل جمهورية سالونيكا، يقع فى ٤١ صفحة.

المجموعة الثامنة

حافظة رقم(١٩٩)

وهى تتألف من قسمين:

١ـ دراسة عن الحملة الفرنسية على مصر مزودة ببعض الملاحظات عن حملة ايطاليا، تقع فى ٣٩ صفحة، وتحمل العديد من التصحيحات بخط الجنرال اندروسى (Andreossy).

٢ـ بعض الملاحظات الخاصة بباراليبه (Baraillier) عن الحملة الفرنسية على مصر تقع فى حوالى ١٢ صفحة.

حافظة رقم (٢٠٠)

وتضم أيضا مجموعتين من الوثائق تحملان رقمى ٣،٤.

٣ـ وهى عبارة عن تقارير خاصة بلجنة الفنون والآداب الملحقة بالحملة الفرنسية على مصر، تقع فى ٩١ صفحة، وتحمل توقيع المهندس المعمارى لوبير بالأحرف الأولى من اسمه، وتحتوى على تسجيل رائع للأحداث التى وقعت للجنة فى ميناء الاسكندرية، لا سيما فى الفترة الأخيرة من حياة الحملة الفرنسية فى مصر.

٤ ـ أما عن المجموعة الثانية فهى عبارة عن ترجمة فرنسية لمارسيل مدير المطبعة الأميرية، لتاريخ الحملة الفرنسية على مصر من تأليف عبد المهيمن، تقع فى ٢٣١ صفحة ومذيلة بعشرين صفحة تشتمل على بعض الملاحظات الهامة من عمل فيليسيان (Felician) صراف الجيش الفرنسى.

حافظة رقم (٢٠١)

وتحتوى على ثلاث مجموعات من الوثائق مسجلة تحت الأرقام التالية:

٥ـ مخطوط عن مصر بعد معركة هليوبوليس، يقع فى ٢٥٤ صفحة، عثر عليه فى أوراق الكونت رينيه، الذى يهاجم فيه بشدة الجنرال مينو ويلقى عليه اللوم.

٦ـ فصلة من مخطوط عن الحملة الفرنسية بمصر، تشتمل على بعض التصحيحات بخط الجنرال سافارى، وتشتمل على مائتى صفحة.

٧ـ مخطوط صغير من ١٣ صفحة، تضم بعض أحداث الفترة الممتدة من مصرع كليبر حتى جلاء القوات الفرنسية عن مصر.

حافظة رقم (٢٠٣)

تضم هذه الحافظة بعض الوثائق الخاصة بالاحتفالات التى أقيمت بالقاهرة:

١ـ توصيات القائد العام بونابرت للاعداد للاحتفال السنوى لأول فنديمير من السنة السابعة للجمهورية الفرنسية (٢٢ سبتمبر ١٧٩٨). تقع فى أربع صفحات، وملحق بها نسخة من الخطبة التى ألقاها بونابرت فى القوات بهذه المناسبة.

٢ـ خطاب مؤرخ فى القاهرة فى ٢١ سبتمبر ١٧٩٨م، ومرسل من الجنرال برتييه إلى الجنرال دوجا يخبره فيه بوصول الجنرال لانوس بفرقته للاشتراك فى احتفالات الأول من فنديمير.

٣ـ بعض الملاحظات الخاصة باحتفالات المولد النبوى الشريف بخط بوريين، ومؤرخة فى ٢٩ ترميدور من السنة السابعة (١٦ أغسطس ١٧٩٩م) وتتضمن بعض الأشعار العربية المزودة بترجمة فرنسية.

٤ـ خطاب مؤرخ فى القاهرة فى ١٦ فنديمير من السنة السابعة (٧ أكتوبر ١٧٩٨)، مرسل من الكونت مونج إلى المواطن مارسيل مدير المطبعة، ويتضمن نسخة من الكلمة التى ستلقى فى افتتاح الديوان العام التى يرغب القائد العام بونابرت فى طبعها، ويطلب ارسال البروفات للقيام بتصحيحها.

حافظة رقم (٢٠٤)

وهى تحتوى على بعض الوثائق الخاصة بفرقة الحرس الوطنى التى كونها بونابرت فى مصر، وضم إليها أغلب الفرنسيين الذين يشغلون بعض الوظائف المدنية وجعل على رأسها «أورل» الذى كان يتولى مهمة الاشراف على مطبوعات الجيش وهى تنقسم إلى قسمين:

١ـ مجموعة من التوصيات التى أصدرها «أورل» إلى أفراد هذه الفرقة، وملحق بها ثلاثة خطابات مرسلة من الجنرال ديستان إلى مارك أورل، تشتمل على بعض الأوامر الخاصة بالشرطة وبعض الاستدعاءات.

٢ـ بعض التعليمات الواجب اتباعها عند حدوث أى شغب أو ثورة من جانب الأهالى، والأساليب المتبعة من تحذير القوات الفرنسية عن طريق طلقات المدافع وغلق أبواب القلعة.. الخ.

حافظة رقم (٢٠٥)

وتحتوى هذه الحافظة على بعض التقارير المالية الخاصة بالمصروفات المتعلقة بمدينة القاهرة، فى شهور فنديمير ونيفوز وبريريال وترميدور من السنة الثامنة (سبتمبر ـ أكتوبر ١٧٩٩، يوليو ـ أغسطس ١٨٠٠)، وتحمل توقيعات: بوسيلج، وجلوتيه (Gloutier)، واستييف، هذا عدا بعض التقارير

الخاصة بإصلاحات المصانع، وباقتناء بعض الأدوات، وشراء بعض المواد الضرورية لبعض المصنوعات. كما تضم أيضا ٢٢٠ ايصالا باللغة العربية عن توريد بعض الأشياء والمستلزمات.

حافظة رقم (٢٠٦)

وهى تضم ٣٣ وثيقة، تتناول بعض القضايا الخاصة بالأهالى، بعضها باللغة العربية، والبعض الآخر قاصر على الترجمة الفرنسية، والبعض الثالث باللغتين العربية والفرنسية فى آن واحد، وفيما يلى سرد لمحتويات هذه الحافظة الهامة:

١ـ التماس من أقباط حى الأزبكية إلى القائد العام بونابرت بعدم التعرض لمساكنهم بالهدم، وهو بدون تاريخ.

٢ـ ترجمة فرنسية لثلاثة التماسات مقدمة من شيوخ القاهرة إلى القائد العام بونابرت بشأن حماية الأهالى وبعض التجار، بدون تاريخ.

٣ـ ترجمة فرنسية لخطابين موجهين من أعيان القاهرة وعلمائها إلى الباب العالى تروى قصة قهر بونابرت للمماليك، وهما أيضا بدون تاريخ.

٤ـ ثلاثة خطابات باللغة العربية ومذيلة بترجمة فرنسية، موجهة من ديوان القاهرة إلى الجنرال دوجا ومؤرخة فى ١٠ بريريال من السنة السابعة وفى ٨ بريمير من السنة الثامنة (٢٩ مايو، ٣٠ أكتوبر ١٧٩٩م)، بشأن بعض تجار مكة الذين حضروا إلى القاهرة بدون تصاريح سفر (جوازات).

٥ـ خطابان باللغة العربية مذيلان بترجمة فرنسية ومرسلان من مصطفى أغا أمير الانكشارية إلى الجنرال دوجا بصدد طلب تصاريح سفر لبعض التجار، وأيضا بشأن أحد الخيل الذى تم الاستيلاء عليه بدون وجه حق، بدون تاريخ.

٦ـ ترجمة فرنسية لخطابين من شريف مكة إلى الجنرال بوسيلج، مؤرخة فى ٤ فلورال من السنة السابعة (٢٣ أبريل ١٧٩٩م) يسأله فى ارسال بعض الجنود إلى السويس لحماية البضائع الموجودة بها.

٧ـ ترجمة فرنسية لخطاب مرسل من سيد حسن، ويحمل توقيع الجنرال بوسيلج بشأن البعثة المسافرة إلى سيناء، مؤرخ فى سنة ١٧٩٩.

٨ ـ بعض اللوائح الخاصة بمدن الصعيد مثل: جرجا، وأسيوط، وطيبة (الأقصر)، وأسماء الموظفين المختصين بالبريد والضرائب، مؤرخة فى قنا فى ١٥ جرمينال من السنة السابعة (٤ أبريل ١٧٩٩)، وهى مدونة باللغتين الفرنسية والعربية، ويلاحظ أن الأصل الفرنسى يحمل توقيع الجنرال ديزيه.

٩ـ تقارير عن حالة أسيوط، تقع فى خمس صفحات.

١٠ـ خطاب باللغة العربية ومذيل بترجمة فرنسية، موجه إلى الجنرال جوليان (Jullien) حاكم منطقة رشيد، يحمل عبارات التهنئة والأسف فى الوقت نفسه على رحيله، وهو بدون تاريخ.

١١ـ مجموعة من الوثائق تتألف من أربعة محاضر خاصة بالادعاء على الجنرال فيال بمبلغ

٥٠,٠٠٠ مصرى، من قبل المدعو طاهر، تحمل توقيعات: فريان، ورينيه، ومؤرخة فى الاسكندرية فى ١٨ فنديمير من السنة العاشرة (١٠ أكتوبر ١٨٠١)، هذا بالاضافة إلى بعض الأوراق المدونة باللغتين العربية والفرنسية الخاصة بهذه القضية.

١٢ـ ترجمة ايطالية لخطاب مرسل من سلطان دارفور إلى الجنرال دنزلوه، وبعض الوثائق الخاصة بدارفور عن حقوق سداد الضرائب إلى الجنرال دنزلوه وعن البضائع المستوردة. تؤلف فى مجموعها سبع صفحات، يمكننا أن نضيف اليها خطابين، أحدهما موجه إلى الجنرال ديستان، وبعض الايصالات التى تكون فى مجموعها ثلاث صفحات.

المجموعة التاسعة

حافظة رقم(٢٠٩)

وهى تضم مجموعة من المطبوعات من منشورات المطبعة الشرقية الفرنسية بالاسكندرية، ومطبعة مارك أورل، والمطبعة الأميرية بالقاهرة. وفيما يلى تفصيل لأهم محتوياتها:

(أ) قوائم خاصة بأسعار النقود مؤرخة فى ١٨ مسيدور من السنة السادسة (٦يوليو ١٧٩٨).

(ب) وثائق خاصة بالترتيبات المتعلقة بالاستعداد لعيد الأول من فنديمير من السنة السابعة.

(جـ) تقارير مرسلة من القائد العام بونابرت إلى الوزير التنفيذى، مؤرخة فى الفترة الممتدة من ٢٦ فنديمير إلى ٢٣ ترميدور من السنة السابعة (١٧ أكتوبر ١٧٩٨ إلى ١٠ أغسطس ١٧٩٩).

(د) الخطب التى ألقاها كليبر فى الاحتفالات الخاصة بأول فنديمير من السنة الثامنة.

(هـ) تقارير خاصة بالترتيبات المتعلقة بالجلاء عن مصر، مؤرخة فى ٩ مسيدور من السنة التاسعة (٢٨ يونيو ١٨٠١)، تؤلف فى مجموعها ٤٨ صفحة، مرفق بها تقرير أعد للحكومة الفرنسية عن وضع البلاد والقوات الفرنسية، منذ ابرام معاهدة العريش حتى نهاية شهر بريريال من السنة الثامنة، يحمل توقيع الجنرال دوماس ويقع فى ٦٥ صفحة، وبعض الأوراق الخاصة بالحملة التى أرسلت إلى سوريا، عبارة عن أربعة تقارير من بونابرت، وتقرير من كليبر، مرسلة إلى الوزير التنفيذى. هذا بالاضافة إلى البيان الذى صدر عن الجمعية الوطنية إلى الشعب الفرنسى فى جلسة ١٨ فنديميير من السنة الثالثة (١٩ أكتوبر ١٧٩٤)، وهو مزود بترجمة عربية صادرة عن المطبعة الأهلية، ويقع فى ٢٣ صفحة، وخطاب من أعضاء ديوان القاهرة إلى القائد العام بونابرت باللغتين العربية والفرنسية، صادر عن باريس فى السنة الحادية عشرة (١٨٠٢ ـ ١٨٠٣)، ويشتمل على ١٩ صفحة.

حافظة رقم (٢١١)

وهى تشتمل على المجموعة التالية من المطبوعات:

١ـ خطب الجنرال دوجا فى أعضاء ديوان القاهرة بشأن الاستيلاء على العريش، ورفع الأعلام، والصلاة بالجامع الأزهر، مؤرخة فى السنة السابعة (١٧٩٨ ـ ١٧٩٩).

٢ـ كلمة كليبر في الجنود عقب مقتل دنويه (Denöyer).

٣ـ خمس خطب للجنرال «مينو» في المصريين، وفي أهالي القاهرة، وفي بعض الشيوخ، بعضها يحرم على الأهالي الخروج من مدينة القاهرة، وهي مدونة باللغتين العربية والفرنسية.

٤ ـ تقارير بشأن الجلاء عن مصر. مؤرخة في ٨ مسيدور من السنة التاسعة (٢٧ يونيه ١٨٠١م) تحمل توقيع الجنرال بليار، مرفق بها نداء من نفس الجنرال إلى أهالي القاهرة من مختلف الأديان والطوائف، بعد توقيع معاهدة الانسحاب، باللغتين العربية والفرنسية.

٥ـ بعض الأوراق الخاصة بحملة بونابرت على مصر، وتقرير مرسل من بونابرت إلى الوزير التنفيذي عن حملته على مصر، وعن استعداده للعودة إلى فرنسا، وبعض الكلمات الفرنسية وما يقابلها بالعربية للألفاظ الشائعة والمستخدمة في الحياة اليومية، وتقرير تورنفيل (Tourenville) إلى بونابرت عن سجون مصر، وبعض المطبوعات الأخرى المتعلقة بمصر وبالجيش الفرنسي بالشرق.

حافظة رقم (٢١٢)

وهي تتألف من مجموعة من الخطب والبلاغات العربية، صادرة عن المطبعة بالقاهرة، أحدها يتوجه نص فرنسي وهو عبارة عن بلاغ إلى ديوان القاهرة بمناسبة رحيل القائد العام بونابرت إلى قاطية (Kattieh). وتؤلف في مجموعها ست وثائق، أربع منها يحمل شعار الجمهورية الفرنسية.

حافظة رقم (٢١٦)

وهي تضم بعض النشرات الدورية الصادرة عن استيف الصراف العام للقوات الفرنسية بمصر، تؤلف في مجموعها ١٥٠ منشورا، ومؤرخة في الفترة الممتدة ما بين السنتين السابعة والثامنة (١٧٩٨ ـ ١٧٩٩، ١٧٩٩ ـ ١٨٠٠)، هذا عدا تقرير شامل عن حالة مصر المالية منذ الغزو العثماني لها على يد السلطان سليم الأول حتى استيلاء بونابرت عليها، أعده الكونت أستيف، وهو مهدى إلى الامبراطور وطبع بعناية مارسيل مدير المطبعة الامبراطورية في سنة ١٨٠٩.

حافظة رقم (٢٢١)

وهي تضم ما يقرب من ١٠٢ رسم وصور لبعض الأشخاص المدنيين والعسكريين، ممن اشتركوا في الحملة الفرنسية على مصر، أغلبها رسم بالحبر «الشيني»، وبعضها ذو نسخ متكررة.*

* اختلف تماماً هذه الوثائق من مكتبة جامعة القاهرة ولم يعرف مصيرها حتى اليوم.

ملحق رقم [٣٩]

الشوام في مصر على ايام الجبرتي

من الثابت أن الشوام المسيحيين كانوا موجودين بمصر في أوائل القرن السابع عشر الميلادي ولكن بأعداد ضئيلة.

وعندما زار الأب يوحنا كوبيه couppier الفرنسي مصر في خلال سنتي ١٦٣٨، ١٦٣٩ شاهد فيها البطرك الماروني جرجس عميرة يزور أبناء طائفته من الموارنة، وقال: «زرت بطرك الموارنة الذي وصل إلى القاهرة اذ كنت فيها، ويوجد في مصر، عدة قرى يقطن فيها الموارنة، فضلا عن القاهرة وجاء البطرك من بلاده لزيارتهم، وبما أن هذا الحبر الجليل هو خاضع لكرسي رومية، فقد ذهبت مع كل الفرنسيين الذين يسكنون القاهرة للسلام عليه».

وفي أوائل القرن الثامن عشر، ازدادت هجرة الشوام إلى مصر، بسبب اضطراب أمور الحكم العثماني، وازدياد طغيان الباشوات الاتراك في الشام، وقد نال الطوائف المسيحية شيء من هذا الاضطهاد. هذا بالاضافة إلى اشتداد الاضطهادات الدينية التي اشتدت في بلاد الشام وخاصة في مدينتي دمشق وحلب التي عاني منها الكاثوليك عامة والموارنة خاصة. ذلك أنه عندما ساعد الامير فخر الدين المعني «الثاني» أمير لبنان الشهير، الارساليات التبشيرية الكاثوليكية على النزول في بلاد الشام، لجأ فريق من الشوام المسيحيين إلى قناصل الدول الاوربية، وتمذهبوا بالمذهب الكاثوليكي، طمعا في حماية دولهم والفوز بشيء من المساعدة المادية. ولذا فقد ثار عليهم رجال الدين الارثوذكس اليونانيون، وأخذوا يحرضون عليهم اخوانهم الشوام الارثوذكس ويلجأون إلى البطريرك القسطنطيني ليستصدروا الاوامر لاضطهاد الكاثوليك، مدعين انهم يتبعون الدول الاوربية ويحاولون تمكينهم من البلاد. وقد انتهز العثمانيون هذه الفرصة لاضهاد المسيحيين من المذهبين، الكاثوليك والارثوذكس. وإن زاد الاضطهاد على الكاثوليك مما جعل الشوام الكاثوليك ينزحون إلى مصر في أوائل القرن الثامن عشر، ثم زادت مهاجرتهم بعد اضطهاد عام ١٧٢٥ الشهير. وكان أغلبهم من دمشق الشام، فلقبوا بالشوام، وعم هذا اللقب كل الشوام المهاجرين إلى مصر.

ويبدو أن المرسلين الافرنج «الاوربيين» وخاصة الفرنسيسكان هم الذين اوعزوا إلى الكاثوليك الشوام بالهجرة إلى مصر، لانهم هم الذين كانوا يتولون أمر الكاثوليك من الناحية الدينية في مصر.

وقد لجأ القسم الأكبر من الشوام المهاجرين إلى القاهرة، واتجه عدد قليل منهم إلى دمياط ورشيد والاسكندرية. وهي المدن المصرية الكبرى ذات الصدارة حينذاك في التجارة والصناعة، واستغلوا

(*) المجلة التاريخية المصرية. المجلدان ٢٨، ٢٩. الشوام في مصر في القرن الثامن عشر. د. عبدالله محمد عزباوي. ص ٢٦٩ إلى ٣٢٩ القاهرة١٩٨١، ١٩٨٢.

فى هذه المدن نشاطهم التجارى والصناعى وقتذاك، ووصلت أخبار هذا النجاح إلى اخوانهم فى بلاد الشام فتوالت الهجرات وتتابعت، ويرجع الأب قسطنطين الباشا هجرة مسيحيى الشام إلى مصر لسببين «قوة الجذب»، «قوة الدفع»، اذ كانت أخبار نجاح من تقدم منهم إلى هذا القطر تجذب سواهم، وكان الاضطهاد الدينى الذى كان يجرى فى مدن الشام يدفعهم إلى هذا القطر.

النشاط الاقتصادى للشوام فى مصر

اشتغل عدد كبير من الشوام بالتجارة فى مصر فى القرن الثامن عشر، مثل تجارة الدخان، ومن التجار الشوام فى الدخان فى مصر فى ذلك الوقت نجد كل من : جرجس الشامى. وديمترى ميخائيل الشهير بقمرز الطرابلسى. وموسى جرجس الشهير بسمنة الطرابلسى.

وتاجر بعضهم فى الأقمشة مثل اسحاق الحلبى، ونيس أرونين الحلبى. والخواجا على بن أحمد المعروف بالعاقل الشامى الذى كان يتاجر فى الآلاجات «القفاطين» والبن. والحاج زين الدين بن كمال الدين الشامى التاجر فى الألاجات. ومنصور بن قاسم الحلبى التاجر فى الأقمشة.

وتاجر البعض منهم فى الخيش مثل ابراهيم ونيس الحلبى (الخيشاتى) أى الذى يتاجر فى الخيش وتاجر البعض منهم فى السكر مثل الخواجا سليمان بن على الحلبى واشتغل البعض الاخر بتجارة الأخشاب، مثل الحاج سعد بن أحمد يوسف الحلبى الخشاب ببولاق.

وتاجر بعض الشوام فى الصابون، مثل فخر الدين بن عثمان النابلسى، التاجر بوكالة الصابون بخط باب النصر. والسيد عمر فخر الدين وأولاده الثلاثة «اسماعيل وابراهيم ويحيى» والحاج محمد حبيشى القوسى التجار بوكالة الصابون بخط باب النصر. والسيد حسين القوسى والحاج فخر الدين النابلسى، ومحمد بن عبد الحق النابلسى من أعيان التجار بوكالة الصابون بخط باب النصر.

واشتغل بعض الشوام بتجارة البن التى كانت فى ذلك الوقت من مصادر الدخل الكبير، ومن الشوام الذين تاجروا فى البن، الخواجا على بن أحمد المعروف بالعاقل الشامى الذى أشرنا اليه سابقا والذى كان يتاجر فى الألاجات «القفاطين» إلى جانب البن، والحاج حسين بن نور الدين الحمصى، والخواجا الحاج عبد الجليل الحمصى التاجر بالبن بخط المشهد الحسينى. والحاج عبدالله ابن عبدالله المشهدى الشهير بالشامى من أعيان التجار فى البن.

واشتغل البعض منهم بتجارة الجوهرات مثل الخواجا محمد بن عثمان الشامى الجوهرى بسوق الصاغة وميخائيل بن عبد الله بن موسى الطرابلسى الصايغ بخط سويقة الغزى.

وكان لبعض الشوام فى مصر فى القرن الثامن عشر، مؤسسات تجارية كبيرة لها فروع فى البلاد

العربية المختلفة وخاصة بلاد الشام، وشبه الجزيرة العربية. فقد كان الخواجا على بن الخواجا أحمد المعروف بالعاقل الشامى التاجر فى البن بخان الحمزاوى يقوم بارسال البن إلى الشام ليقوم شريكه هناك بتصريفه، كما كان يقوم بارسال البن إلى الاقطار الحجازية ليباع هناك. وقد بلغت قيمة ثمن البن المرسل الى شريكه بالشام ١٣٩٩٨٠ نصف فضة، وقيمة ارسالياته من البن الى الاقطار الحجازية ٣٠,٠٠٠ نصف فضة.

ومن التجار الشوام الذين كانوا يقومون بارسال الارساليات إلى الخارج، الحاج زين الدين بن كمال الدين الشامى التاجر. فقد كان له وكيل ببلاد الحجاز يقوم بتصريف ارسالياته هناك، ويقوم فى نفس الوقت بارسال البضائع من بلاد الحجاز، ليقوم الحاج زين الدين بتصريفها فى مصر. وكانت جملة الأموال التى تحت يد وكيله الحاج مبارك ببلاد الحجاز ١٨٨٤٥٠ نصف فضة.

وفى دمياط كان يوجد فى عام ١٨١٠ عدد من التجار الشوام المسيحيين وهم: يوحنا سرور البعلبكى، وجبريال عيروط الحلبى، وجرجس عيروط الحلبى، وموسى نقولا حرو الدمشقى، وجرجس كون الحلبى، وبطرس عتحورى الدمشقى، ونقولا كحيل وأنطون سرور البعلبكى.

وقد عمل بعض هؤلاء التجار الشوام المسيحيين بدمياط، قناصل للدول الأوربية فكان يوحنا سرور قنصلا لاسبانيا، وجبريال عيروط قنصلا للنمسا، وجرجس عيروط قنصلا لانجلترا.

واشتغل البعض من الشوام فى السمسرة بأنواعها المختلفة وهى الوساطة فى البيع والشراء. ومن هؤلاء الشوام السماسرة الحاج عبد الرحمن بن مصطفى السمسار فى البن. والحاج حسين القدسى الدلال بسوق الكتان ببولاق.

واشتغل بعض الشوام بالالتزام، فقد كان السيد الشريف عبد الرحمن بن السيد الشريف سليمان الحمصى من طايفة مستحفظان ملتزما فى عدة نواحى، ففى احدى وثائق سجلات القسمة العسكرية الخاصة بحصر تركته بعد وفاته جاء «.. ويضاف لذلك ثمن ما وجد مخلف عن المتوفى المذكور فى النواحى التى كانت جارية فى التزام المتوفى المذكور حال حياته».

هذا، كما كان الشيخ مصطفى الحلبى الذى أشرنا اليه من قبل نتيجة صلاته بالأمير يوسف كتخدا ملتزما على نواحى عديدة.

كذلك اشتغل بعض الشوام فى مصر فى القرن الثامن عشر ببعض الحرف والصناعات نجد من بينهم الحاج حسن بن على الشهير بعجلان التراس «أى الذى كان يشتغل بصناعة التروس» ببولاق. وسعد الخياط بتجارة السقايين.

واشتغل البعض منهم بحرفة القبانة «أى الوزن» فنجد فى سجلات الباب العالى ضمن وثائق المحكمة الشرعية ذكر «الخواجا محمد النابلسى والسيد محمد تفاحة النابلسى والحاج سعد الدين الرملى القبانى كل منهم بوكالة الصابون».

الشـــوام وإدارة الجمارك فـى مصر

وفى عهد على بك الكبير تولى الشوام المسيحيون ادارة الجمارك فى مصر، فقد كان بمصر فى القرن الثامن عشر أربعة دواوين «جمارك» وهى: جمرك الاسكندرية ويتبعه جمرك رشيد وأبى قير للتجارة القادمة من أوربا، وجمرك دمياط للتجارة الآتية من الشام، وجمرك بولاق للبضائع الآتية من الوجه البحرى، ويتبعه جمرك مصر العتيقة للبضائع الواردة من الصعيد، وجمرك البهار «شرقى القاهرة» فى طريق السويس للتجارة الواردة عن طريق البحر الأحمر.

وكانت رسوم الدواوين «الجمارك» تباع التزاماً عن طريق ديوان الروزنامة إلى الملتزمين، وهؤلاء يعهدون بادارة كل منها إلى مدير باسم «جمركى» أو «أمين الجمرك» أو «معلم الجمرك».

وكان اليهود قبل عهد على بك الكبير هم الذين يتولون ادارة هذه الجمارك وكانت أقدامهم قد ثبتت فى تلك المراكز بما اكتسبوه من خبرة بمضى الزمن، الا أنهم تغالوا فى فرض رسوم غير محتملة على التجار الأجانب انفردوا بها لحسابهم الخاص ولما كان على بك الكبير يهتم بترويج التجارة، فقد قبض على معلم دواوين الاسكندرية «يوسف ليفى» ومعلم دواوين بولاق اسحق اليهودى، وصادر أموالهما وأعدمهما وعزل بقية معلمى الدواوين من اليهود، وعهد بالاشراف على ادارتها إلى رجال من الشوام المسيحيين الكاثوليك، الذين هاجر بعضهم إلى مصر فى أوائل القرن السابع عشر.

وكان أول أولئك الشوام من معلمى الدواوين «الجمارك» المعلم ميخائيل فرحات الذى تولى ادارة جمرك الاسكندرية بدلا من يوسف ليفى اليهودى ثم تولاه بعد ذلك المعلم ميخائيل الجمل، وعندما غضب على بك الكبير على ميخائيل الجمل، أقام مكانه يوسف البيطار الحلبى، فالتجأ ميخائيل الجمل بابراهيم الصباغ طبيب ومستشار الشيخ ظاهر العمر، فتوسط له الشيخ ظاهر لدى على بك، فأعاده على بك إلى منصبه بالاشتراك مع يوسف البيطار المذكور.

وعندما تسلم الشوام المسيحيون ادارة الجمارك لم يكتفوا بجمع الرسوم على البضائع الخارجة بل أخذوا يشترون لحسابهم التجارة من الخارج، ثم يوزعونها على التجار بالجملة بواسطة عملاء من أبناء بلدتهم. وكان معلم الدواوين «الجمارك» يعين وكلاء عنه فى المدن والثغور لجباية الرسوم الجمركية، وكان يختارهم بطبيعة الحال من بنى جنسه. وكانت الحكومة تضع سلطتها تحت تصرفهم. ومن هنا نشأت أهمية هذا المركز من الناحيتين الادارية والاقتصادية. وأدى ذلك بالطبع إلى احراز مسيحيى الشام مركزا مرموقا، وأن يتكاثروا فى المجتمع المصرى، بعد أن كانوا فى أول الأمر قليلين ضعفاء، فقد وصل عددهم فى أواخر على بك الكبير إلى نحو ٣ آلاف شخص فى القاهرة وحدها .

وقد لعب الشوام الكاثوليك فى مصر فى القرن الثامن عشر، دورا كبيرا فى التقارب بين على بك الكبير والشيخ ظاهر العمر، وذلك أنه عندما

غضب على بك على ميخائيل الجمل، خرج الأخير منفيا إلى عكا التى كان قد استقل بها الشيخ ظاهر العمر، وخرج على الدولة العثمانية، وقد نزل ميخائيل الجمل ضيفا على ابراهيم الصباغ طبيب ومستشار الشيخ ظاهر، الذى قابله بالشيخ ظاهر العمر، وقد أخبر ميخائيل الجمل الشيخ ظاهر أن على بك فى مصر قد جاهر بعداوة الدولة وخرج عن طاعتها وقد توسط الشيخ ظاهر كما رأينا لدى على بك لارجاع ميخائيل الجمل إلى مكانه، وقبل على بك هذه الوساطة، ومن هنا بدأت الصلة والتحالف بين الرجلين.

وبعد وفاة يوسف البيطار وميخائيل الجمل فى عام ١٧٧٤، حل مكانهما أنطون فرعون. وأسرة فرعون أحد فروع أسرة يقال لها بيت الأحمر أو بيت الاحمرى، وهى مسيحية كاثوليكية كانت تعيش فى حوران. وكان الجد الأعلى لأسرة فرعون يسمى «نعمة» أما اسم فرعون الذى اشتهرت به الاسرة فقد جاء من أن «نعمة» الجد الأكبر لهذه الاسرة كان له ابن يدعى «ميخائيل» كان يعيش فى القرن الخامس عشر، وكان كاهنا يجله ويحترمه الشيوخ والأكابر، ويخشاه الأشقياء والشبان الجهال، كما كانت له مكانة كبيرة عند البطريك، فكان اذا ضاق البطريرك صبرا باصلاح قوم، هددهم بالقس ميخايل، ولذا فقد غلب اسم فرعون عليه وعلى أسرته.

وبعد أن استولى العثمانيون على الشام، هاجرت أسرة فرعون من حوران إلى دمشق، وبعد أن اشتد الاضطهاد الدينى ضد الكاثوليك فى بلاد الشام فى أوائل القرن الثامن عشر، اضطرت أسرة فرعون إلى الهجرة إلى مصر مع غيرها من العائلات الكاثوليكية الشامية. وقد هاجر مع أسرة فرعون من الشام إلى مصر، القس ابراهيم فرعون ـ والد أنطون فرعون ـ مع زوجته وأبنائه الثلاثة، أنطون ويوسف وفرنسيس.

وكان القس ابراهيم فرعون يقوم بالرعاية الدينية للروم الكاثوليك المهاجرين معه من دمشق من آل فرعون وغيرهم، وصار بوجه عام خورى الشام الكاثوليك فى مصر. وأصبح نتيجة لذلك له وجاهة واحترام بين أفراد طائفته وغيرها. وكان ذلك من أهم العوامل التى أدت إلى تقدم أولاده ونجاحهم فى تجارتهم، فقد ساعدهم كبار التجار وتعاونوا معهم لمنزلة والدهم عندهم.

وقد التزم أنطون فرعون وهو الابن الأكبر للقس ابراهيم فرعون بضمان جمارك مصر فى الفترة ما بين ١٧٧٤ ـ ١٧٨٤، أى لمدة عشر سنوات، وذلك فى عهد كل من: على بك الكبير، ومحمد بك أبى الدهب وابراهيم بك ومراد بك. وقد رفع بدل ضمانة حينما تولى ادارة الجمارك من ثلاثين كيسا إلى مائة كيس، وازداد هذا البدل تدريجيا حتى بلغ ألف كيس.

وقد اتخذ أنطون فرعون من أخوته وأقاربه وأبناء طائفته من الشوام الكاثوليك أعوانا له من كتاب ونظار وعمال، فى كل فروع الجمارك. فكان أخوه يوسف معلم ديوان «جمرك» دمياط، وأخوه فرنسيس معلم جمرك بولاق ومصر القديمة، وابن عمه الياس فرعون معلم جمرك الاسكندرية.

وقد جمع أنطون فرعون من خلال التزامه لجمارك مصر، والتى لم تزد على عشر سنوات ثروة ضخمة بلغت ثلاثة ملايين فرنك، وهو مبلغ كبير لا نظن أن أحدا مع المسيحيين كان يحرزه فى الدولة العثمانية لذلك العهد.

وفى أواخر القرن الثامن عشر، أرادت الامبراطورية النمساوية، السيطرة على تجارة الشرق وتحويلها إلى الطريق البرى عبر الأراضى المصرية تحت اشرافها وانتدبت لذلك كارولو روسيتى التاجر البندقى الشهير فى مصر، فى ذلك الوقت وأنطون فرعون معلم الجمارك فى مصر. ومن أجل ذلك فقد وضع أنطون فرعون تحت حماية الامبراطورية النمساوية «الرومانية المقدسة». وأنعم عليه الامبراطور «جوزيف الثانى» بلقبى «بارون» و«كونت» وعندما رأى أنطون فرعون أن المشروع مصيره الفشل، خشى من غضب مراد وابراهيم، وقرر الهروب من مصر. ولذا فانه فى عام ١٧٨٤ غادر أنطون فرعون الاسكندرية إلى ايطاليا مدعيا أنه ذاهب للحج، وبمغادرته مصر انتهى المشروع النمسوى.

وقد غادر أنطون فرعون مصر إلى ايطاليا مع زوجته تقلا ابنة موسى جبارة، ثم لحقه بعد فترة أخوه يوسف بعائلته، وأقاموا أول الأمر فى ليفرنو، التى كانت الميناء الايطالى والأقرب للشرق، والتى كان يفزع اليها كل من خاف على نفسه وماله من الشرقيين، مثل الأمير فخر الدين المعنى الثانى الذى فزع اليها عام ١٦١٣، وبعد أن قام بها مدة انتقل إلى فلورنسا عاصمة توسكانا فأقام فيها بضع سنوات ثم عاد إلى لبنان.

وبعد أن أقام أنطون فرعون مدة فى ليفورنو انتقل إلى تريستا. واستمر أخوه يوسف وأولاده فى ليفورنو. أما أخوه فرنسيس فقد ظل فى مصر مع والدته وزوجته وأولاده. وفى تريستا افتتح أنطون فرعون محلا تجاريا، وكان يستورد بواسطة أصدقائه فى مصر البضاعة الشرقية، مثل اللؤلؤ والمرجان والعاج والماس والتوابل ويبيعها لكبار التجار فى أوروبا. كما كان يورد إلى أصدقائه فى مصر منتجات المصانع الأوربية من الجوخ والحرير والقصب والأوانى الفضية والذهبية وأنواع الأسلحة على اختلافها.

وعندما خرج المعلم يعقوب القبطى من مصر مع الحملة الفرنسية عام ١٨٠١ لعرض مشروعه لاستقلال مصر، طلب أن تكون مخابرات انجلترا مع الوفد شفهية وعن طريق الكونت أنطون فرعون قسيس المقيم فى تريستا. وقد توفى أنطون فرعون بتريستا عام ١٨٠٥.

وقد تولى يوسف جبرائيل فرعون التزام الجمارك فى مصر بعد مغادرة أنطون فرعون مصر. وقد استمر هذا المركز فى يد الشوام الكاثوليك إلى أيام محمد على.

وعمل بعض الشوام فى وظائف الدولة، فقد كان جرجس بن عبد المسيح الطورى كاتبا لجمرك البهار وتادرس بن سعد الخياط كان كاتبا فى أحد الدواوين.

وكان هناك بعض الشوام فى الفرق العسكرية العثمانية «الأوجاقات» فى مصر، فيذكر أحمد شلبى فى كتابه اوضح الإشارات ضمن حوادث

١١٢٠هـ/ ١٨٠٨م «ان مملوكا من مماليك رجل من اختيارية الجاويشية يقال له «محمد جاويش الحلبى» كما يذكر أحمد شلبى أيضا ضمن حوادث ١١٣٤هـ/١٧٢٢م «وفى ذلك اليوم عمل كتخدا اسماعيل بيك أغاة الجميلة الذى هو عبد الله الشامى...».

ويذكر الجبرتى ضمن أحداث ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠ ، أن على بك الكبير استكتب بمناسبة تجهيز حملته على الحجاز، أضاف العساكر أتراكا ومغاربة وشوام ودروزا... وغير ذلك.

وكان هناك أيضا بعض الشوام الذين كانوا ينضمون الى بعض الفرق العسكرية فى مصر فى القرن الثامن عشر، دون أن يكونوا جنودا بها، فنجد فى احدى وثائق المحكمة الشرعية ذكر «الخواجا سليمان ابن المرحوم الخواجا على الحلبى من طايفة عزبان» كما يرد ذكر«الخواجا على ابن المرحوم الخواجا أحمد المعروف بالعاقل الشامى التاجر بخان الحمزاوى من طايفة مستحفظان كان» بل أننا نجد أن أحد التجار الشوام فى مصر فى ذلك الوقت، كان أخا لأحد لأمراء المماليك فى مصر، فتجد فى سجلات الباب العالى ضمن وثائق المحكمة الشرعية ذكر «الخواجا سليمان ابن المرحوم الخواجا على الحلبى من طايفة عزبان ان له أخا يدعى الأمير حسين أغا مصر».

ثروات الشوام فى مصر فى القرن الثامن عشر

وقد استطاع الشوام فى مصر فى القرن الثامن عشر وخاصة المشتغلين منهم بالتجارة وادارة جمارك مصر أن يجمعوا ثروة كبيرة.

فقد رأينا كيف استطاع انطون فرعون أن يجمع ثروة ضخمة ، قدرت بثلاثة ملايين فرنك، كذلك ترك السيد الشريف عبد الرحمن بن سليمان الحمصى عند وفاته ثروة تقدر بـ٤٩٧و٣٦٤و١ نصف فضة وترك الخواجا على بن الخواجا أحمد المعروف بالعاقل الشامى عند وفاته، ثروة بـ١٣٥و٨٩٧ نصف فضة وترك زين الدين بن المرحوم كمال الدين الشامى، ثروة تقدر بـ٩٣٦و٥١٥ نصف فضة.

وكان أغنياء الشوام يمتلكون عبيد وجوارى وعتقاء، فقد كان الخواجا عمر الحمصى لديه جوارى وعتقاء. وكان لدى الحاج عبدالله المشهدى التاجر الشامى الشهير فى مصر فى ذلك الوقت، مجموعة كبيرة من العتقاء وهم : حسن أوده باش عزبان، وبرهان الدين ابراهيم عزبان، وزين الدين مصطفى، وزين الدين اسماعيل، وعلم الدين سليمان بن عبد الله «الجرجى الجنس» وهو الى جانب عدد آخر من المعتوقات وهم : المصونة فاطمة بنت عبد الله البيضاء الجرجية الجنس والحرمة سمور بنت عبدالله السوداء، والحرمة غزال بنت عبد الله السوداء، والحرمة حلفا بنت عبد الله السوداء، والحرمة مريم بنت عبدالله السوداء.

سكن الشوام بالقاهرة فى القرن الثامن عشر

وكان الشوام الكاثوليك يسكنون فى القاهرة فى أول الأمر فى مصر القديمة «العتيقة»، ثم انتقلوا فى أوائل القرن الثامن عشر الى القاهرة

الحديثة، أى الى أحياء الموسكى والخليج وما جاورهما. وهذه المناطق هى مناطق التجارة فى القاهرة أى أنهم سكنوا بالقرب من هذه الأحياء أو بها، حيث يزاولون تجارتهم، فعلى سبيل المثال كان الخواجا على بن أحمد المعروف بالعاقل الشامى التاجر بخان الحمزاوى يسكن بخان الحمزاوى.

كما كان زين الدين بن كمال الدين الشامى يسكن بالجودرية وهى أماكن كلها متقاربة ومركز الحركة التجارة فى مصر فى القرن الثامن عشر، ولازالت الى الآن تحتفظ بطابعها التجارى.

أوقاف الشوام

وقد أوقفت الشوام الكاثوليك بمصر فى القرن الثامن عشر الأوقاف لبناء الكنائس والاديرة أو لخدمة الكنائس والاديرة سواء فى مصر أو خارجها، فى بلاد الشام أو أوروبا. فعلى سبيل المثال، أوقف موسى جرجس الشهير بسمنة الطرابلسى التاجر فى الدخان فى عام ١١٧٣هـ/ ١٧٥٩م. جميع المكان الكائن بالقاهرة بخط باب النصر، داخل حارة الجوانية، بخوخة القطانين، على نفسه أيام حياته، ثم بعد وفاته يكون ٤/٣ هذا المكان «١٨ قيراطا» وقفا على فقراء النصارى «الواردين والمقيمين» بدير البنات المعروف بقصر الشمع بمصر القديمة. أما الربع الباقى (٦ قراريط) فيكون وقفا على فقراء النصارى «الواردين والمقيمين» بدير سيناء. فاذا تعذر ذلك صرف ربع هذا المكان لفقراء النصارى بمصر.

واشترى أنطون فرعون أثناء توليه ادارة جمارك مصر، أرضا واسعة فى مصر القديمة بجوار كنيسة المعلقة الشهيرة للأقباط، وأنشأ بها دارا فاخرة، وأقام بها أيضا كنيسة، جعلها تابعة لبطريرك الروم الكاثوليكى، لا شأن لبطريرك الروم الاسكندرى بها كما جعلها مستقلة عن كنيسة الفرنسيسكان وغيرهم». وعين لها كاهنا ليقوم بخدمة أفراد أسرته من آل فرعون، وأبناء طائفته من الشوام الروم الكاثوليك. وكانت هذه الكنيسة التى أنشأها أنطون فرعون أول كنيسة للروم الكاثوليك فى مصر، خاضعة للبطريرك الانطاكى.

كذلك أنشأ أنطون فرعون بجوار هذه الكنيسة مقبرة لدفن الموتى الشوام الكاثوليك وقد أوقف أنطون فرعون بعد هربه لايطاليا الدار السابقة وما يحيط بها من الأراضى الواسعة كلها على دير المخلص بلبنان.

ودفع أنطون فرعون الى الآب اثناسيوس الدباس خمسماية ريال رومانى لشراء دار الوكالة الرهبانية المخلصية فى روما. وقد جعل له الآب المذكور، فى نظير ذلك خمسة قداسات تقام كل عام فى كنيسة القديس كيرلس، على الدوام، فى الدار المذكورة.

وأوقف كل من تادرس الكاتب بن سعد الخياط وزوجته بربارة بنت عطا الله الحريرى، جميع الحصة التى قدرها النصف «١٢ قيراطا» من كامل المكان الكائن بالقاهرة، لفقراء النصارى «القاطنين والواردين والمترددين» بدير الياس بجبل الكرم بالقرب من مدينة حيفا، ببلاد الشام.

علاقات الشوام الاجتماعية في مصر في القرن الثامن عشر

وقد ارتبط الشوام الكاثوليك فى مصر، فى القرن الثامن عشر ببعضهم، ارتباطا شديدا، وتوثقت فيما بينهم أواصر الألفة، فاشتركوا مع بعض فى أعمال التجارة والمهن المختلفة، كما ارتبطوا عن طريق المصاهرات حتى صاروا مجتمعا مترابطا فى مصر وكانوا يساعدون بعضهم فى الاجازات وخاصة فى دفع الغرامات التى كان يفرضها عليهم الامراء المماليك. فقد كان أنطون فرعون واخوته بالاضافة الى اشتراكهم مع أبناء طائفتهم فى دفع الغرامات والاعانات المالية، كانوا يبذلون ما فى وسعهم لتخفيف ثقلها عن أبناء طائفتهم ما أمكنهم ذلك.

وقد تزوج الشوام الموارنة فى مصر من طوائف مختلفة فقد تزوجوا من نساء شوام موارنة مثلهم، أى أنهم تصاهروا مع بعضهم، وكان ذلك فى بداية استقرارهم مصر فى بدايات القرن السابع عشر.

وتزوج بعض الشوام الموارنة من مصريات ففى عام ١٧١٧ تزوج سعد بن ابراهيم الكاثوليكى من بيت لحم من شلبية بنت مكرمالله القبطية. كما تزوج بعض الأقباط المصريين من نساء شاميات كاثوليك، فقد تزوج المعلم (الجنرال) يعقوب فى عام ١٧٨٢، بعد وفاة زوجته الأولى، من مريم بنت نعمة الله الحلبى. ويبدو أن رجال الدين الأقباط «الارثوذكس» فى مصر ولا سيما البطريرك لم يرضوا عن هذه الزيجة، فعندما مات المعلم يعقوب فى عام ١٨٠١ لم تكن أرملته تملك وثيقة بزواجها، فحصلت فى عام ١٨١٨ على وثيقة بذلك من مسجلى العقود بمرسيليا.

وتزوج بعض الشوام سواء من المسلمين أو الموارنة من نساء كن فى الأصل جوارى بعد أن أعتقوهن وأدخلوهن فى ديانتهم. والواقع أن السجل المارونى يذكر فى هذه الفترة أكاليل كثيرة بين أرقاء اعتقوهم الشوام وتزوجوا بهن. كما نطلع فى وثائق المحكمة الشرعية، على زيجات لبعض المسلمين الشوام من هذا النوع والواقع فان هذه الظاهرة كانت منتشرة فى المجتمع المصرى فى ذلك الوقت وبالطبع بين أغنياء المصريين الذين كان فى استطاعتهم شراء الجوارى وإعتاقهن بعد ذلك والزواج منهن.

فبالنسبة للشوام الكاثوليك فقد تزوج فى يناير ١٦٦٧ حنا بن موسى المارونى من مريم الحبشية معتوقة السيدة خيلانة زوجة زناتى التاجر. وتزوج أراكيل سلامون الأرمنى الكاثوليكى فى ٢٩ مارس ١٦٨٥ من سيدة كانت فى الأصل جارية عند أحد الأتراك. كما تزوج جبرائيل المارونى الحلبى فى أول يناير سنة ١٧٧٣ من مرغريت بنت سركيس الارمنى الارثوذكسى من بلاد العجم. ويذكر السجل أن «هذه كانت رقيقة بين أيدى الأتراك» فافتداها جبرائيل هذا وأعتقها وأدخلها فى المذهب الكاثوليكى ثم أتخذها زوجة له.

أما بالنسبة للشوام المسلمين، فقد كان الحاج زين الدين بن كمال الدين الشامى التاجر بوكالة «قاسم كتخدا» متزوجا من عايشة خاتون بنت

عبدالله الجرجية الجنس، وشهباز خاتون بنت عبد الله البيضاء الجركسية الجنس. وكان الخواجا على ابن الخواجا أحمد المعروف بالعاقل الشامى، متزوجا من عايشة خاتون بنت عبد الله «البيضا» معتوقة أخيه الخواجا محمد العاقل الذى كان قد توفى. كما كان الحاج أبو بكر بن عمر الشامى التاجر بوكالة «ذو الفقار كتخدا» بخط رؤوس الجمالية، متزوجا من وردة بنت عبد الله السوداء.

كذلك تزوج بعض الشوام المسلمين من الأسر التركية، فقد تزوج الخواجا على بن الخواجا أحمد المعروف بالعاقل الشامى من فاطمة خاتون بنت اسماعيل الروسى.

وقد تزوج الشوام الكاثوليك من بعض الأوربيات فى مصر وخاصة الفرنسيين ففى أواخر القرن السابع عشر بين عامى ١٦٩١ - ١٦٩٥ - تزوج ابراهيم بن موسى من ماريا بنت فرنسيس بيير الفرنسية.

كذلك صاهرت بعض الاسر الشامية الكاثوليكية، بعض الاسر الايطالية، ففى ٥ مايو ١٦٣٤ خطبت حنة بنت عبد الحى الأرمينية الى يوسف رومانو دلا براتا(Della Prata). وفى ٣ نوفمبر ١٦٨٤ تزوج الخواجا ليورنسو جيويا (Gioia) البندقى من بربارة بنت المعلم ميخائيل الشاوى المارونى.

وبالاضافة الى هذه المصاهرات السابقة بين الشوام الكاثوليك والجاليات الأوربية بمصر فى القرن الثامن عشر، فقد كان للشوام الكاثوليك علاقات اجتماعية أخرى مع هذه الجاليات الاجنبية الأوربية، تمثلت فى حضور أفراد هذه الجاليات وقناصلهم حفلات زواج الشوام الموارنة، ففى ٢٨ مايو ١٦٨٤،حضر بطرس ده رنان من مرسيليا والسيدة حنة ده روازريو، والخواجا اوثان الترجمان المرسيلى حفل زواج بطرس بن موسى الهدنانى وحنة هلال، من الموارنة. كما حضر قنصل «الفلاندر» «بلجيكا» فى ٢٣ سبتمبر ١٦٨٨ حفل زواج منصور ابن خليل من بيت لحم من نصرية بنت حنا، وهى من بيت لحم ايضا.

ووقف بعض أفراد الجاليات الأجنبية الأوربية، عرابين لبعض الشوام الكاثوليك عند تعميد أطفالهم. ففى ٦ ديسمبر ١٧٠٦ عند عماد أحد أبناء الشوام الكاثوليك كان من ضمن العرابين المسيو أوربيك التاجر البندقى. وفى ٣ مايو عام ١٧١٥ عند عماد مبارك بن قزمان الياس، كان أحد العرابين المسيو لمير الفرنسى.

كذلك وقف بعض الشوام الكاثوليك عرابين لعماد أطفال بعض الانجليز، ففى ٨ يناير ١٧٥٤، وقف الخواجا يوسف بن بكتى بن الخواجا نعمة الله الملكى الدمشقى، عرابا لأحد أبناء المستر برودرين الانجليزى بالاسكندرية وفى ٩ ابريل يقف الخواجا يوسف فرنجى الدمشقى عرابا لأحد أبناء المستر برودرين الانجليزى أيضا.

وكان لكبار التجار الشوام علاقات اجتماعية مع الامراء المماليك، فقد اتخذ بعضهم وكلاء لهم من الامراء المماليك، فقد كان الامير اسماعيل أفندى أوده باشه طائفة عزبان وكيلا شرعيا عن الحاج عبد الله المشهدى الشهير بالشامى، والذى كان من أعيان التجار فى البن.

وكان لبعض تجار الشوام علاقات مالية مع بعض أمراء المماليك، فكان التجار الشوام يقرضونهم الأموال، فقد كان الحاج زين الدين ابن كمال الدين الشامي بذمة سليمان جوربجي توفكجيان مبلغ ١٥ ألف نصف فضة.

كما كان للسيد الشريف عبد الرحمن الحمصي، ديون على عدد كبير من الأمراء بلغت جملتها ١.٠٨٠.٣٢٦ نصف فضة. وهو مبلغ ضخم لاشك فيه، ويبين حجم الثروات التى جمعها بعض التجار الشوام فى مصر فى القرن الثامن عشر.

الرهبانية الحلبية المخلصية فى مصر

بعد أن كثر عدد الموارنة فى دمياط أخذوا يطلبون منذ عام ١٧٢٥ من الرهبانية الحلبية المخلصية ببلاد الشام أن ترسل اليهم بعض رجال الدين لكى يتولوا رعايتهم الروحية. الا أن الرهبانية لم تستطع إجابة طلبهم فى أول الأمر، لقلة عدد الآباء فيها، ولكثرة الاشغال الملقاة على عاتقهم فى لبنان. ولكنها استجابت لهم فى عام ١٧٤٥، فأرسلت اليهم القس موسى هيلانة الشامي، الذى وصل ثغر دمياط فى شهر يوليو من نفس العام.

ولم يكن للموارنة ولا لسائر الكاثولكية كنيسة فى دمياط، ولذا فقد أخذ الآب موسى هيلانة الشامى أحد بيوت أبناء الطائفة مكانا لاقامة الشعائر الدينية، وكان يدعو اليه أبناء الطوائف الكاثوليكية الأخرى. ثم أخذ يسعى لايجاد كنيسة للشوام الكاثوليك، وقد استأجر من أجل ذلك بناء كبيراً يعرف بالبارحة على شاطىء البحر، من أوقاف الحاج خفاجى، وقد توفى الآب موسى هيلانة فى عام ١٧٤٨.

ولما كانت البارحة وقفا اسلاميا ولم يصدر فيه فرمان، يجيز للموارنة إقامة معبد فيه، فقد أصدر مراد بك فى عام ١٧٩٦ أمرا باغلاق كنيسة البارحة فى دمياط، وحرم على الكاثوليك القيام بشعائرهم الدينية، وأمر بحبس القس يوسف السمعانى المقيم بالبارحة هو وتسعة أنفار من الشوام الكاثوليك معه، ووضعوا فى السجن لمدة عشرة أيام، وطلب منهم أن يدفعوا ثلاثين ألف ريال.

وقد رفع الآب يوسف السمعانى وأعيان الطوائف المسيحية الكاثوليكية بمساعدة القنصل الفرنسى عرائض الاسترحام الى السلطان سليم الثالث الذى أصدر فرمانا بعدم التعرض لهم ولا لبارحتهم بشىء مغاير للشرع الشريف، وسمح للكاثوليك أن يصلوا بالبارحة حسب عوائدهم السابقة، وطلب من الهيئات الحاكمة فى مصر مراعاة ذلك واعطاء الكاثوليك تصريحا بذلك.

أما فى القاهرة فانه لايعرف على وجه التحديد، متى وصل اليها أول كاهن مارونى يتبع الرهبانية الحلبية، وان كان يمكن القول أنه وصل اليها بعد عام ١٧٤٥، وهو تاريخ وصول أول قس حلبى الى دمياط، وقبل عام ١٧٨١، فقد جاء فى أوراق الرهبانية الحلبية المحفوظة بدير اللويزة بلبنان: «فى ٥ شباط سنة ١٧٨١، توفى بمرض الطاعون فى القاهرة القس مخايل كترون أثناء مباشرته أعمال الرسالة» ويستدل من ذلك أن الرهباينة الحلبية كانت ترسل كهنة الى القاهرة قبل عام

١٧٨١ . أما أول قس «حلبي» تذكره سجلات الرهبانية، فهو القس بطرس ذكره، الذى عين فى عام ١٧٨٨ ، والذى مات فى عام ١٧٩٧ ، بمرض الطاعون.

هروب الشوام من مصر في أواخر القرن الثامن عشر

وفى أواخر القرن الثامن عشر ، وخاصة عهد مراد وابراهيم فزع من مصر الى ايطاليا عدد كبير من الشوام الكاثوليك، وذلك لازدياد اضطهاد المماليك لهم، فقد أغرق اسماعيل بك، يوسف كساب الشامى فى النيل . فخرج من مصر عدد كبير من الشوام الكاثوليك، كان من بينهم كما رأينا أنطون فرعون. ولما كانت موانى مصر الشمالية على اتصال تجارى دائم بموانى ايطاليا، وخاصة جنوة والبندقية وليفورنو التى كانت تضم منذ القرن الخامس عشر جاليات شرقية كبيرة، فقد تجددت رحلة الشوام الكاثوليك من مصر فى أواخر القرن الثامن عشر، للتجارة أحيانا وهربا من اضطهاد المماليك أحيانا أخرى.

الشوام فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية

١٧٩٨ - ١٨٠١م

يتبوأ الشوام الكاثوليك فى عصر الحملة الفرنسية، مركزا مرموقا فى المجتمع المصرى، واذ كان بعضهم قد خرج فى عهد مراد وابراهيم، فان هذا البعض قد عاد الى مصر أثناء الحملة الفرنسية.

الشوام تراجمة فى جيش بونابرت فى مصر

ومن أهم الأعمال التى مارسها الشوام فى مصر، أثناء الحملة الفرنسية وظيفة الترجمة، ذلك أن الحملة الفرنسية كانت فى أشد الحاجة الى مترجمين دائمين، ينقلون عنها الأوامر ويترجمون المنشورات ويسجلون محاضر الدواوين ويكونون وسطاء فى نقل الحديث بين الحكام والمحكومين. هذا بالاضافة الى أن الفرنسيين بعد أن استقروا فى القاهرة، أخذوا يتتبعون من بقى من عائلات المماليك.، ويهاجمون بيوتهم ويستولون على أموالهم ، وكانوا فى تنقلاتهم يستصحبون معهم المترجمين ليقوموا بنقل الحديث بينهم وبين زوجات الامراء وأولادهم وخدمهم. فيذكر الجبرتى فى حوادث شهر ربيع الأول سنة ١٢١٣هـ، ان جماعة من جنود الفرنسيين ذهبوا الى بيت رضوان كاشف... وصحبهم ترجمان ومهندس.

وقد وجد الفرنسيون ضالتهم فى الشوام الكاثوليك لاجادتهم اللغتين الفرنسية والايطالية الى جانب معرفتهم باللغة العربية، ولاتفاق الطائفتين – الفرنسية والشامية – فى اعتناق دين واحد ومذهب واحد.

وقد اصطحب بونابرت معه فى حملته على مصر، مترجمين شوام، أغلبهم من رهبان المدرسة المارونية الشهيرة فى روما. ومن هؤلاء، الياس فتح الله ويوسف مسابكى. والراهب أنطون مشحرة الحلبى الذى نزع الاسايم والثوب الرهبانى وتقلد السلاح.

وبالاضافة الى هؤلاء المترجمين الشوام الكاثوليك الذين أتوا مع الحملة، فقد استعانت الحملة بمجموعة كبيرة من الشوام الكاثوليك، المقيمين بمصر. ومن هؤلاء التراجمة الشوام الذين استعانت بهم الحملة فى أعمالها الرسمية، نصر الله النصرانى ترجمان قائم مقام بليار. وعبود وميخائيل الصباغ حفيدا، ابراهيم الصباغ، طبيب ومستشار الشيخ ظاهر العمر، وفى مصر نشأ الاخوان وعندما دخل الفرنسيون مصر اتصلا بهم. وقد خرجا مع الحملة فى عام ١٨٠١ وذهبا الى فرنسا. وفى فرنسا اتصل ميخائيل بالمستشرق الكبير دى ساسى فى باريس. وعين مصححا للمطبوعات العربية فى المطبعة العربية بباريس، ثم ناظرا للمحفوظات الشرقية فى المكتبة الأهلية. وقد توفى ميخائيل الصباغ بباريس عام ١٨١٦.

ومن المترجمين الشوام الذين اتصلوا بالحملة الفرنسية فى مصر، الياس حنانيا فرعون من أسرة فرعون الشهيرة التى غادر معظم أفرادها فى عهد مراد وابراهيم مصر. وكان الياس فرعون وقت دخول الحملة الفرنسية مصر، معلم الجمارك بالبلاد وكان يجيد اللغات الايطالية والفرنسية والتركية واليونانية الى جانب معرفته بالعربية. وقد اتخذه بونابرت ترجمانا خاصا وكاتما لاسراره، عوضا عن المستشرق الفرنسى الشهير Venture أكبر تراجمة الحملة الفرنسية، ومن أعضاء المجمع العلمى الفرنسى الذى أنشأه بونابرت فى مصر، والذى مات بالدوسنتاريا على أبواب عكا ١٧٩٩.

وقد استمر الياس فرعون بعد رحيل بونابرت عن مصر، مترجما خاصا، لكل من كليبر ومينو وعند خروج الفرنسيين من مصر عام ١٨٠١ لم يشأ أن يخرج معهم وفى عام ١٨٠٢ عندما أرسل بونابرت سبسيانى سفيرا للشرق طلب منه أن يسأل عند وصوله الاسكندرية عن الياس فرعون وأن يستعلم منه أحوال مصر بعد خروج الفرنسيين منها، وأن يدعوه الى فرنسا باسم القنصل الأول ليعينه فى احدى الوظائف هناك وبالفعل سافر الياس فرعون الى فرنسا وقابل بونابرت الذى عينه فى إحدى وظائف وزارة الخارجية، ورتب له معاشا سنويا قدره ستة آلاف فرنك لمدى الحياة، ومنحه لقب قنصل فرنسا فى جزائر اليونان، واستقدم الياس زوجته وأخاه يوسف من مصر واستوطن باريس، الا أنه لظرف ما لم يتمكن من تولى الوظيفة التى عينه فيها بونابرت.

ومن التراجمة الشوام الذين استعانت بهم الحملة الفرنسية فى مصر فى أعمال الترجمة الشاعر نقولا الترك، صاحب سيرة نابليون والمديحة المشهورة فيه. وكان والده من القسطنطينية، وارتحل الى دير القمر وهناك ولد له نقولا الذى نبغ فى الأدب شعرا ونثرا واتصل بخدمة الامير بشير الشهابى، وله فيه مدائح كثيرة. وعندما دخل الفرنسيون مصر، سافر الى هناك، وقيل أن سيده الأمير بشير الشهابى هو الذى أرسله الى مصر، ليدرس عن كثب مدى ما ترمى اليه أطماع الفرنسيين وفى مصر اتصل نقولا بالفرنسيين وترجم لهم.

ويعتقد البعض أن نقولا الترك قد غادر مصر مع الحملة الفرنسية، في حين ظل بدمياط حتى عام ١٨٠٥ ، فان الخورى بولس قرالى يذكر أن القس أنطون مارون ذكر فى مذكراته الخاصة أنه كان «يرسل الى رئيسه العزام بدير اللويزة ما يفيض عن نفقته من منسوجات القطر المصرى ووارداته، تارة بواسطة الخواجا نقولا الترك الشاعر الكاتب الشهير، لما سافر من مصر الى دمياط زتوجه الى بر الشام فى أغسطس ١٨٠٤ وديسمبر ١٨٠٥ ، وطورا بواسطة يوسف عيروط» . ويذكر الخورى بولس قرالى أيضا، أنه قد ورد فى سجل العماد السنة ١٨٠٥ بكنيسة دمياط الكاثوليكية اسم الطفل ميخائيل الترك، فلعله ابن رزقه نقولا.

وكان من ضمن المترجمين الشوام للحملة أيضا، القس جبرائيل الطويل وقد غادر مصر مع الحملة، وبقى فى فرنسا سنوات الى أن عين استاذ اللغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية فى باريس، خلفا للاب رفائيل زاخور راهبة.

وهناك مترجم شامى آخر هو يعقوب بن يوسف، الترجمان الحلبى المارونى وقد استمر فى مصر بعد رحيل الحملة، وتوفى بها عام ١٨٠٣ .

ومن أشهر التراجمة الشوام الذين استعانت بهم الحملة الفرنسية، هو الأب انطون رفاييل زاخور راهبة المخلص، وكانت اسرة رفائيل من طائفة الروم الكاثوليك الملكانيين، وقد رحلت من حلب الى مصر فى أوائل القرن الثامن عشر ويعود نسب هذه الاسرة الى امرأة بعد أن ترملت بموت زوجها، ظلت تلبس ثوب الحداد الاسود وكانت بحشمتها وحسن سلوكها كأنها راهبة، ولذلك غلب على أولادها لقب «بنى الراهبة».

وقد ولد أنطون رافاييل زاخور فى القاهرة فى مارس ١٧٥٩ ، وفيها نشأ نشأة دينية، والتحق بدير الآباء الفرنسيسكان، وفى عام ١٧٧٤ ، سافر الى روما ليتم علومه الدينية هناك، وقد استغرقت رحلته الى روما مائة يوم، فوصلها فى أواخر يناير ١٧٧٥ ، والتحق هناك بمدرسة القديس أثناسيوس الاكليريكية المخصصة لذوى الطقس اليونانى، ولذا يقال لها مدرسة اليونان، واستمر فى هذه المدرسة خمس سنوات أى الى عام ١٧٧٩ ، أتم فى خلالها دراسته الدينية، ثم مكث سنتين أخريين فى احدى الجامعات لدراسة اللغات وخاصة اللغة الايطالية.

وقد غادر رفاييل روما فى عام ١٧٨١ ، وذهب إلى صيدا والتحق بدير المخلص وهناك اشتغل بترجمة بعض الوثائق المحفوظة فى هذا الدير، وبعض الكتب الدينية من الايطالية الى العربية من تأليف الآب يوحنا بطرس بينا متى اليسوعى وهى: القلب المتخشع، والمرأة التى لا تغش، والصليب الحقيقى، والحكمة الحقانية. وظل يرتقى فى المناصب الدينية، فعين فى عام ١٧٨٢ شماسا ثم كاهنا فى عام ١٧٨٥ . ثم ارتحل الى روما فى عام ١٧٨٨ ، فى سفارة دينية مع السيد أغناطيوس صروف مطران بيروت كمترجم وكاتم أسرار وساعد له فى الدفاع واثبات صحة انتخاب السيد أثناهير جوهر بطريركا فى تلك السنة. وفى روما قام القس روفائيل بترجمة أعمال مجمع الانتخاب من العربية الى الايطالية. وبتعريب البراءة البابوية بتثبيت البطريرك المذكور، وجميع المراسلات التى

صدرت حينئذ من روما بهذا الشأن الى البطريرك المذكور وغيره من المطارنة.

وبعد انتهاء هذه السفارة غادر رفاييل مع المطران أغناطيوس صروف روما وعرجا فى طريقهما على مصر بقصادة رسولية لاصلاح الخلاف الذى كان جاريا بين الآباء الفرنسيسكان وبين كهنة الروم الكاثوليك الذين كانوا يقدمون لابناء طائفتهم فى كنيسة الآباء الفرنسيسكان، وبعد الانتهاء من هذه المهمة يبدو أن المطران قد عاد بمفرده الى بيروت، وظل الآب روفاييل فى مصر، لأنه لم يكن للقس رفاييل أدنى ذكر فى المجمع الذى انعقد فى دير المخلص فى عام ١٧٩٠، من البطريرك المذكور ومطارنته مع الآباء من تلاميذ مدرسة روما. فى حين أنه قد جاء ذكر اسمه بين الكهنة الذين كانوا فى مصر فى عام ١٧٩٤، ولعله استقر بمصر حتى أن وصلت الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨، فكانت أعمالها ميدانا طيبا لاشباع طموحه وتحقيق اماله العريضة.

وعندما انشأ بونابرت المجمع العلمى فى مصر، اختير الآب أنطون رفاييل زخور راهبه ليكون مترجما فى المجمع، وعضوا فى لجنة الآداب والفنون الجميلة بالمجمع، فكان العضو الشرقى الوحيدبه. وقد قام الآب انطون رفاييل بنصيب كبير من أعمال هذا المجمع، غير أعداد كثير من الأبحاث وترجمة كثير من الوثائق التى كان يجمعها علماء الحملة الفرنسية ليصنفوا منها كتاب «وصف مصر» وليضعوا على ضوئها النظم الجديدة السريعة لادارة البلاد. ويبدو أيضا، أن رجال الحملة الفرنسية قد عهدوا اليه بترجمة كثير من المراسيم والفرمانات والقوانين الصادرة منهم الى الشعب المصرى،

فعندما وصلت القوات الفرنسية الى العريش - أثناء حملتها على بلاد الشام - وصل من «برتييه» الى الجنرال «دوجا» منشور باللغة الفرنسية موجه الى أعضاء ديوان القاهرة وقد قام رفاييل بترجمة هذا المنشور الى اللغة العربية.

وبعد رحيل بونابرت الى فرنسا، وانتقال قيادة الحملة الى كليبر، أصدر كليبر فى ٢٥ نوفمبر ١٧٧٩، وأمر بتكوين لجنة لجمع المعلومات عن مصر، تتكون من ثمانية أعضاء، كان رفاييل من بينهم. وعندما قتل كليبر فى ١٤ يونية ١٨٠٠ انتقلت مقاليد الأمور الى مينو. أعاد مينو تكوين الديوان الذى أنشأه بونابرت فى صورة جديدة، من تسعة من المشايخ المسلمين يشترك معهم «فورييه» بلقب «قومسير» أو مدبر سياسة الاحكام الشرعية كما يسميه الجبرتى، وفى هذا الديوان عين رفاييل «ترجمان كبير» للديوان الجديد. وقد تمكنت الصداقة فى هذه الفترة بين القس رفاييل والقومسير «فورييه» فكانا يسكنان معا فى بيت رشوان بك بعابدين، حيث كانت تعقد جلسات الديوان.

وقد تم العثور فى محفوظات المجمع العلمى المصرى على وثيقتين هامتين من ترجمة «رفاييل» أثناء قيامه بوظيفة المترجم الاول للديوان، أولى هاتين الوثيقتين، ترجمة عربية بخط «رفاييل» للائحة قضائية أصدرها الجنرال مينو لتنظيم المحاكم المصرية، مؤرخة فى أول اكتوبر سنة ١٨٠٠، والوثيقة الثانية ترجمة أمر يومى صادر من الجنرال مينو فى ٢٣ أغسطس ١٨٠١ يتعلق بطريقة اختيار مشايخ البلاد وحقوقهم،ومكتوبة بخط «رفاييل» أيضا.

واستمر «رفاييل» على نشاطه المعهود يقوم بترجمة الرسائل والمراسيم والفرمانات ويقرأها بنفسه على أعضاء الديوان، ففى جلسة ٢٥ شعبان ١٢١٥هـ أرسل صارى عسكر «مينو» كتابا الى مشايخ الديوان قرأه رفاييل «الترجمان» الكبير وفى هذا الكتاب وجه «مينو» الشكر الى المشايخ لتهنئتهم له بالمولود الذى رزقه من زوجته المسلمة «زبيدة».

وقد مارس «رفاييل» قرض الشعر باللغة الفرنسية الى جانب عملة فى الترجمة فعندما وصل الى مصر فى ١٤ سبتمبر ١٨٠٠ خبر موت الجنرال «ديزيه» الذى توفى فى ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠، وكان المعلم يعقوب قد اشترك معه فى احدى المعارك فى الصعيد ضد جماعة من المماليك وأبلى فى هذه المعركة، مما دفع «ديزيه» الى تقليده سيفا تقديرا لشجاعته.

وقد تألم المعلم يعقوب لهذا الخبر ألما شديدا، وأرسل الى الجنرال مينو يعرض عليه رغبته فى دفع ثلث نفقة الاثر المزمع اقامته لتخليد ذكرى «ديزيه» كما طلب من صديقه «رفاييل» أن ينظم له قصيدة شعرية يعزى بها الحكومة الفرنسية، وقد نظمها له «رفاييل» من أربعين بيتا فى ثلاثة أيام.

كذلك لم تشغل «رفاييل» الترجمة الرسمية تماما فى العهد الأخير عن الترجمة العلمية فقام فى شعبان ١٢١٤ «يناير ١٨٠٠» بترجمة رسالة طبية صغيرة ألفها «ديجنيت» كبير أطباء الحملة الفرنسية عن مرض الجدرى، وطرق علاجه وقد طبعت هذه الترجمة مرتين فى مطبعة الحملة. وكان عنوان الطبعة الأولى «هذا تنبيه فيما يخص داء الجدرى المتسلط الآن، وذلك بشرح موجه الى أرباب الديوان بمصر القاهرة، من قبل البلدى دجنط رئيس الأطباء فى الجيش الفرنساوى بجهة الشرق بمصر القاهرة، بدار المطبعة، الجمهور الفرنساوية فى يوم ٢٠ من شهر شعبان سنة ١٢١٤ هجرية» أما الطبعة الثانية لترجمة هذه الرسالة فكانت فى ٩ من شهر شعبان سنة ١٢١٥ «٢٦ديسمبر ١٨٠٠» تحت عنوان «هذا تنبيه فيما يخص داء الجدرى المتسلط الآن، وذلك بشرح موجه إلى أرباب الديوان بمصر القاهرة، من قبل السيتون دجنط رئيس الأطباء فى الجيش الفرنساوى بجهة الشرق فى ٢ من شهر شعبان سنة ١٢١٤ هجرية، مصر القاهرة، طبع ثانيا بدار مطبعة الجمهور الفرنساوى فى ٩من شهر شعبان هجرية، مصر القاهرة طبع سنة ١٢١٥- قد نقلها وترجمها باللغة العربية القس رافايل راهب مصر».

وعند رحيل الحملة الفرنسية عن مصر لم يشأ الأب انطون رفاييل زاخور راهبة أن يرحل معها، بل ظل فى مصر نحو سنتين أخريين، عمل فى أثنائها سكرتيرا لرئيس طائفته الدينية الآب باسيليوس عطا الله. وفى ١٨٠٣ غادر رفاييل مصر الى باريس.

وهناك اتصل ببونابرت الذى عينه استاذا مساعدا بمدرسة للغات الشرقية بباريس، على أن يقوم بالقاء دروس فى اللغة العامية، وترجمة للمحفوظات العربية الموجودة فى المكتبة الخاصة بالأدب والتاريخ المصرى. وقد استفادت من هذه الترجمات اللجنة التى كانت تعمل لاخراج المؤلف الكبير «وصف مصر».

وظل رفاييل بباريس حتى عام ١٨١٢، فعاد الى مصر، واتصل بدولة محمد علي، وعمل مترجما في خدمته، وقد توفى رفاييل فى ١٣ أكتوبر ١٨٣١ بالقاهرة.

الشوام وعضوية الديوان فى عهد الحملة الفرنسية

اشترك الشوام الكاثوليك فى الديوان الذى أنشأه بونابرت، فقد كان من بين أعضائه اثنان من الشوام الكاثوليك هما، يوسف فرحات وميخائيل كحيل.

وعندما أعاد مينو تشكيل الديوان، جعله على نسق غير الأول، فجعله من المتعممين فقط، ولذا فلم يدخله الشوام أو غيرهم وفى ذلك يقول الجبرتى ضمن أحداث شهر جمادى الثانى ١٢١٥هـ «وفيه شرعوا فى ترتيب الديوان على نسق غير الأول من تسعة أنفار متعممين لاغير وليس فيهم قبطى ولا وجاقلى ولاشامى ولا غير ذلك».

وقد عين مينو لهذا الديوان مترجمين شاميين، هما القس رافييل زاخور راهبة الذى أشرنا اليه من قبل ، «ترجمان كبير» والياس فخر الشامى «ترجمان صغير».

وقد وصف الجبرتى كيفية انعقاد جلسات الديوان، وعمل هذان المترجمان فقال «اذا تكامل حضور المشايخ يخرج اليهم الوكيل فوربيه وصحبته المترجمون له، فيجلس معهم، ويقف الترجمان الكبير رفاييل، ويجتمع أرباب الدعاوى فيقفون خلف الحاجز عند آخر الديوان... وعنده الجاويش، ويدخلهم بالترتيب الاسبق فالاسبق، فيحكى صاحب الدعوى قضيته فيترجمها له الترجمان».

وكان عمل «المترجم الأول» رفاييل، فى هذا الديوان يشبه عمل سلفه فى ديوان بونابرت، اذ كان يقوم الى جانب الترجمة بقراءة الأوامر والرسائل والفرمانات فقد ذكر الجبرتى فى حوادث شعبان ١٢١٥ - ديسمبر ١٨٠٠ - يناير ١٨٠١ أن صارى عسكر أرسل الى مشايخ الديوان كتابا وقرأه الترجمان رفاييل».

تعاون مسيحيى الشوام مع الحملة الفرنسية

وقد تعاون الشوام المسيحيون فى مصر مع جيش بونابرت، فبعد تحطيم الاسطول الفرنسى فى موقعة أبى قير البحرية، واليأس من وصول أى مدد من فرنسا أنشأ بونابرت فرقة عسكرية من مسيحيى الشوام والأورام، وقام الجنرال كليبر بتنظيم هذه الفرقة وتدريبها. وجعلها بقيادة يوسف الحموى. وقد اشتركت هذه الفرقة فى الزحف على عكا عندما قام بونابرت بحملته على بلاد الشام.

وعندما حاول بونابرت اكتساب ود وصداقة أحمد باشا الجزار والى عكا، استعان من أجل ذلك ببعض مسيحيي الشوام للقيام بعملية الواسطة بينه وبين «أحمد باشا الجزار»، فأرسل بونابرت اليه بهدية مع أحد الفرنسيين وبصحبته بعض مسيحيى الشوام على هيئة تجار، لكن أحمد باشا الجزار رفض مقابلة الفرنسى، وأمره بالرجوع من حيث أتى، واستبقى عنده مسيحيى الشوام المصاحبين له.

وقد قبض الجزار بعد ذلك على بعثة أخرى وقعت فى يده مؤلفة من تجار شوام ومصريين، يبلغ عددها الاربعين، كان من بينها كاهن مارونى من أسرة قيالة، كان قادما من مدرسة الموارنة بروما.

ويبلغ من تعاون مسيحيى الشوام فى مصر مع الحملة الفرنسية، أنهم كانوا يشون بالمصريين لدى الفرنسيين، فالجبرتى يذكر ضمن أحداث رمضان ١٢١٣هـ فبراير ١٧٩٩ وأنه «فى يوم الثلاثاء سابعه انتدب للنميمة ثلاثة من النصارى الشوام وعرفوهم أن المسلمين قاصدون الوثوب على الفرنسيين فى يوم الخميس تاسعه فأرسل قائممقام خلف المهدى والاغا فأحضروهما وذكر لهما ذلك فقالا له هذا كذب لا أصل له، وانما هذه نميمة من النصارى كراهة منهم فى المسلمين، وفحص عمن اختلق ذلك فوجدوهم ثلاثة من النصارى الشوام فقبضوا عليهم وسجنوهم بالقلعة حتى مضى يوم الخميس، فلم يظهر صحة ما نقلوه فأبقاهم فى الاعتقال.

الوضع الاجتماعى لمسيحيى الشوام فى أثناء الحملة الفرنسية

تمتع مسيحيو الشوام فى مصر فى اثناء الحملة الفرنسية على مصر بوضع اجتماعى ممتاز، وقد أساء هذا التحرر الى الشعور الاسلامى بمصر.

وقد عبر الجبرتى عن ذلك فذكر فى حوادث شعبان ١٢١٣ يناير ١٧٩٩ ومنها ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيول وتقلدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيين ومشيهم الخيلاء وتجاهرهم بفاحش القول واستذلال المسلمين.

وقد أدرك بونابرت ما فى هذا التحرر من اساءة للشعور الاسلامى وبين فى مذكراته تقديره أهمية هذا الأمر فقال: «لا فائدة فى اظهارنا الاحترام العميق للدين الاسلامى اذا كنا نسمح للأقباط والروم المسيحيين الغربيين بقدر من التحرر يغير من منزلتهم الماضية، وقد أردت أن يكونوا أكثر خضوعا وأكثر احتراما لكل ما يتعلق بالاسلام وبالمسلمين مما كانوا فى الماضى». ولذا فقد أمرهم الفرنسيون فى أول الأمر بالتزام عاداتهم القديمة مع المسلمين مثل عدم لبس العمائم البيضاء وأن يلبسوا العمائم السوداء والزرقاء، وعدم التجاهر بالأكل والشرب فى الأسواق وشرب الدخان فى رمضان».

فيذكر الجبرتى فى حوادث رمضان ١٢١٣ فبراير ١٧٩٩م «أن نصارى الشوام رجعوا الى عاداتهم القديمة فى لبس العمائم السود والزرق وتركوا لبس العمائم البيض والشيلان الكشميرى الملونة والمشجرات وذلك بمنع الفرنسيين لهم من ذلك».

المحتويات

ربيع أول ١٢١٣.

ربيع ثان ١٢١٣.

جماد أول ١٢١٣.

جماد ثان ١٢١٣.

رجب ١٢١٣.

شعبان ١٢١٣.

رمضان ١٢١٣.

شوال ١٢١٣.

ذو القعدة ١٢١٣.

ذو الحجة ١٢١٣.

ذكر من مات فى هذه السنة (١٢١٣/١٧٩٨م)

احداث عام ١٢١٤ = ١٧٩٩م

محرم ١٢١٤.

صفر ١٢١٤.

ربيع أول ١٢١٤.

ربيع ثان ١٢١٤.

جماد اول ١٢١٤.

رجب ١٢١٤.

شعبان ١٢١٤.

رمضان ١٢١٤.

شوال / ذو القعدة ١٢١٤.

ذى الحجة ١٢١٤.

ذكر من مات فى هذه السنة ١٢١٤/١٧٩٩م.

ملاحق:

احداث عام ١٢١٥ = ١٨٠٠م

محرم ١٢١٥.

صفر / ربيع أول ١٢١٥.

جماد أول ١٢١٥.

جماد ثان ١٢١٥.

رجب ١٢١٥.

شعبان ١٢١٥.

رمضان ١٢١٥.

شوال ١٢١٥.

ذو القعدة ١٢١٥.

ذو الحجة ١٢١٥.

ذكر من مات فى هذه السنة ١٢١٥/١٨٠٠م.

احداث عام ١٢١٦/١٨٠١م.

محرم ١٢١٦.

صفر ١٢١٦.

ربيع اول ١٢١٦.

ربيع ثان ١٢١٦.

ملاحق:

جماد اول ١٢١٦.

جماد ثان ١٢١٦.

رجب ١٢١٦.

شعبان ١٢١٦.

رمضان + شول ١٢١٦.

ذو القعدة + ذو الحجة ١٢١٦.

[موجز احداث هذا العام ١٢١٦]:

ذكر من مات فى هذه السنة ١٢١٦/١٨٠١م.

ملاحق:

المصادر والمراجع:

١ ـ عبد الرحمن الجبرتي: دراسات وبحوث. الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٦. ١١١٠

٢ ـ التوقيعات الإلهاميه اللواء محمد مختار باشا.

٣ ـ وصف مصر (علماء الحملة الفرنسية.) ترجمة: زهير الشايب.

٤ ـ مخطوط احمد باشا الجزار (مكتبة جامعة القاهرة).

٥ ـ فتح مصر الحديث. تأليف. أحمد حافظ عوض. مطبعة مصر.

٦ ـ المسألة التاريخية في الفكر العربي الحديث. د. وضاح شراره. معهد الانماء العربي.

٧ ـ تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي . أحمد السعيد سليمان. دار المعارف. القاهرة.

٨ ـ الوجود المملوكي العثماني في مصر. د. عراقي يوسف. دار المعارف القاهرة ١٩٨٥.

٩ ـ الحملة الفرنسية في مصر. هنري لورنس. ترجمة بشير السباعي. دار سيناء القاهرة ١٩٩٥.

١٠ ـ القاموس الجغرافي لمصر. أحمد رمزي.

١١ ـ الإدارة في مصر في العصر العثماني ـ د. ليلى عبد اللطيف. مطبعة جامعة عين شمس. القاهرة.

١٢ ـ حسين أفندي الروزنامجي.

١٣ ـ صحف بونابرت جزئين (كورييه دى ليجييت). القاهرة ـ دار البستاني.

١٤ ـ الخطط التوفيقية. على باشا مبارك. المطبعة الاميرية القاهرة ١٨٨٨م

١٥ ـ فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية. اندريه ريمون. ترجمة زهير الشايب. روزاليوسف. القاهرة ١٩٧٤.

١٦ ـ عبد الله جاك مينو. محمد فؤاد شكرى. مكتبة الخانجي. القاهرة ١٩٥٢.

١٧ ـ الجذور الإسلامية للرأسمالية . بيترجران. ترجمة: محروس سليمان . دار فكر. القاهرة.


Bibliotheca Alexandrina
12400077